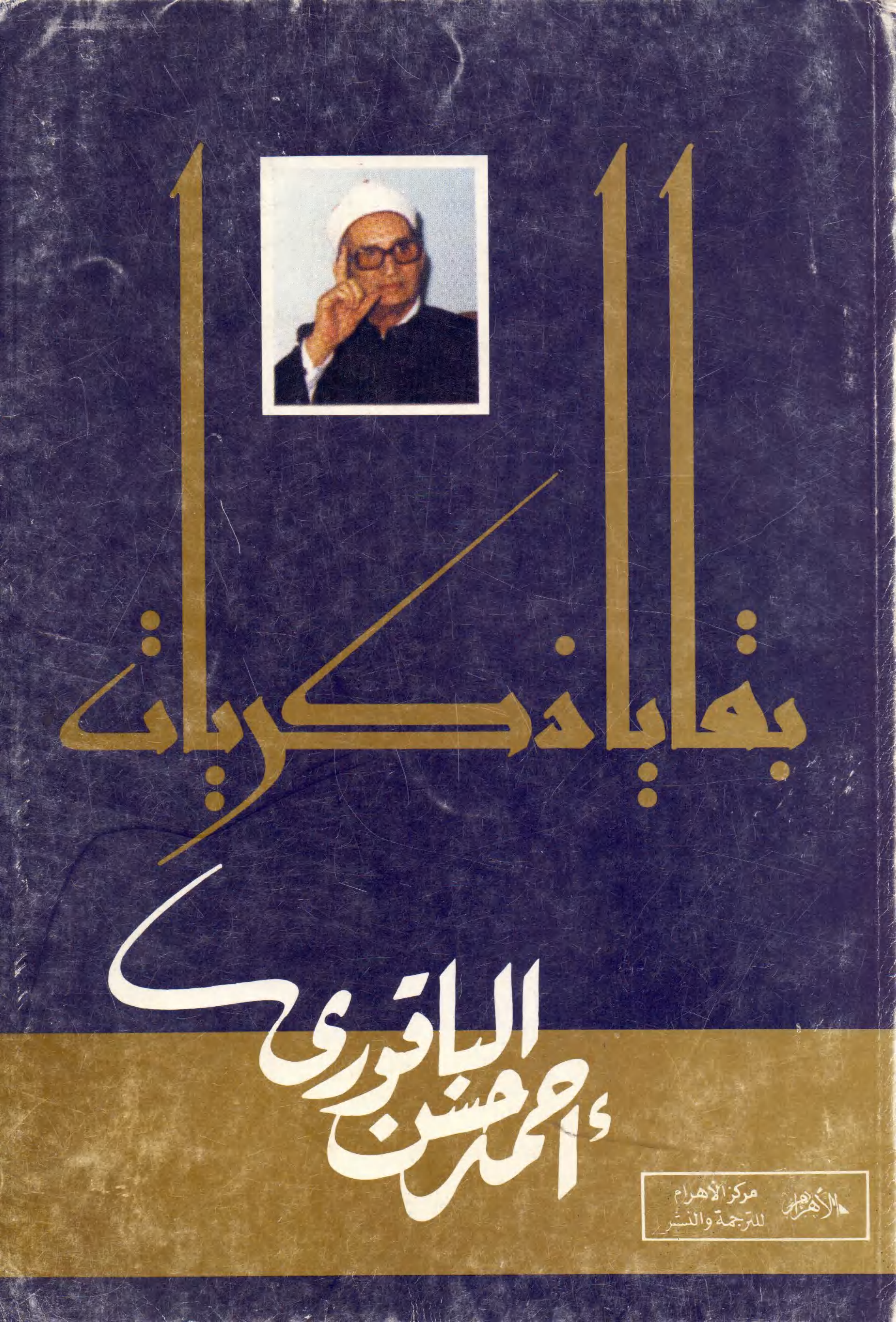


بقايا ذكريات
أحمد حسن الباقوري
الأهرام
مركز الأهرام
للترجمة والنشر

قليلون هم الذين حظوا بالفرصة التى اتيحت للشيخ الباقورى ، للمشاركة فى صنع الأحداث فى بلادهم . ففى مطلع شبابه ، لعب دورا بارزا فى ثورة الأزهر والأزهريين مما جر عليه السجن والفصل والتشريد . ثم انخرط فى حركة الإخوان المسلمين ، واحتل فيها مكانا أثيرا لدى مؤسسها وقائدها المرحوم حسن البنا ، حتى أنه عهد إليه بأمر الجماعة عندما أحس بأنه محاصر . وعندما تفجرت ثورة يوليو وتولى الوزارة فيها ، لعب دورا مؤثرا فى التمكين لها فى الداخل والخارج ، مما جعله من أقرب المقربين لعبد الناصر .

وفى كتابه « بقايا ذكريات » ، يروى الباقورى أسرار وملابسات مشاركته فى هذه الحركات الثلاث ، ويقف فى هذا عند عام ١٩٦٤ . وقد رأينا نشرها كما هى ، دون أى محاولة لاستكمال ما عرض للمؤلف من أحداث حتى وفاته فى أغسطس ١٩٨٥ ، فذلك أقرب للحفاظ على أمانة العمل وأصالته .

الناشر

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء ـ القاهرة

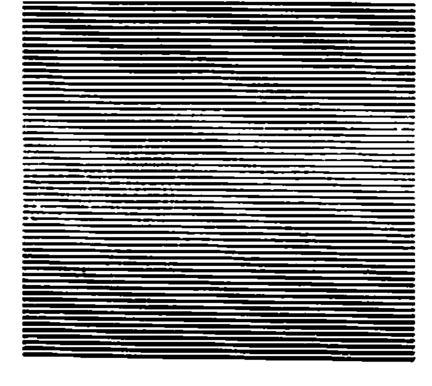
مطابع الأهرام التجارية القاهرة ـ مصر


بقايا ذكريات
أحمد حسن الباقوري

الطبعــة الأولى
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة
تليفون ٧٤٨٢٤٨ - تلكس ٢٠٠٩٢ يوان

غلاف
عبد الغنى أبو العينين



المحتويات

صفحة

تمهيـــد ٥

القسم الأول

الأزهـر .. معـارك ورجال

الفصـل الأول : الأصل والإطـار ١٣

القسم الثـانى

فى صفوف الإخوان المسلمين

الفصل الثـانى : اللقاء مع البنا والأمانة التى حمّلها لى قبل استشهاده ٣٩

الفصـل الثالث : ليس نظاما خاصا واحدا بل نظامين ٦٩

الفصـل الرابع : الإخوان بعد الإمام ٩١

القسم الثـالث

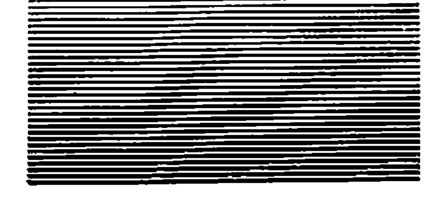
مـع ثـــوار يوليـو

الفصل الخامس : من معهد المنيا للوزارة ١١٥

الفصل السادس : سفير الثورة إلى العالم .. من الفلبين للمغرب ١٤١

الفصـل السابع : عبد الناصر .. أسلوبه وبطانته ٢٠١

الفصـــل الثامن : تدهور العلاقات مع عبد الناصر .. البداية كانت فى سوريا ٢٢٩



تمهيـــــد

شهد الله أننى كنت شديد العزوف عن تدوين هذه الذكريات ، مقالات فى مجلة أو صفحات فى كتاب . وذلك أننى أعلم أن الذين عايشوا أحداثا فى دنيا الناس ، لابد أنهم يتعرضون فى أحاديثهم عن تلكم الأحداث لأفراد أو جماعات واكبوا الأحداث مواكبة حرص على الحق وإخلاص لله ، أو مواكبة حرص على الظفر بمنقعة شخصية استرضاء لعاطفة حزبية .

ولا شك فى أن التعرض لأولئك المخطئين بما يعيبهم أو يعيب ذوى قرباهم ، إن هو إلا عقوق لأدب الإسلام ، وأخذ فى سبيل غير سبيل المؤمنين ، التى نهى رسول الله عن سلوكها بقوله ﷺ « لا تسبوا الأموات فإنهم أفضوا إلى ما قدموا » .

وذكر معايب الموتى هو لَوْن من الوان سبهم الذى نهانا عنه رسول الله . فلقد أذكر ويذكر الذين يؤرخون للحركات الاجتماعية ، أننى شهدت ثلاث حركات ، كانت تتغيا الإصلاح لدنيا العروبة والعرب ، ودنيا الإسلام والمسلمين ، وهذه الحركات الثلاث هى : حركة الإخوان المسلمين التى وضع قواعدها وحدد معالمها الإمام الشهيد حسن البنا فى مدينة الاسماعيلية عام ١٩٢٧ ميلادية .

ثم حركة طلاب الأزهر الشريف ، التى قام بها طلاب أزهريون بتحريض من أساتذة وشيوخ ذوى غيرة بالغة على شئون الأزهر وشئون الإسلام . وقد بدأت هذه الحركة سنة ١٩٣٤ ميلادية .

ثم جاءت بعد ذلك ثورة يوليو عام ١٩٥٢ ميلادية التى وضع قواعدها ، وقام بتنفيذها مجموعة الضباط الأحرار .

وليس يفوتنى ـ لله ثم للتاريخ ـ أننى أسهمت بنصيب مقدور فى الحركات الثلاث ، إذ كنت مع الإمام الشهيد مريدا من مريديه ، أو حواريا من حوارييه منذ بدأ حركته المقدورة ، فلا اذكر أننى تخلفت عنه فى رحلة رحلها من الاسكندرية إلى أسوان ، ومن بور سعيد إلى الدار البيضاء أتلقى منه وآخذ عنه .

ولما قامت ثورة الأزهر ، كنت عنوان الثورة فيها ، وكان اسمى فى رأس القائمة التى قرر المجلس الأعلى للأزهر فصل اساتذتها وطلابها وحرمانهم من شرف الانتساب إلى الأزهر الشريف .

وقد ظلّت الثورات يأخذ بعضها بعجز بعض ، حتى إذا كانت ثورة الضباط الاحرار اختارنى رجالها لسانا لها ، يدعو الى تأييدها والانتصار لها بكل سبيل كما تشهد بذلك وثائق التاريخ .

وليس يخفى على ذى نظر بعيد أن للتاريخ قداسة ، وأن الذين يتعرضون لكتابته لا مناص لهم من أن يظلموه استرضاء للناس . أو يظلموا الناس إنصافا للتاريخ ، فالمؤرخ أو مدون الذكريات بين امرين أحدهما مر وأخيرهما شر ، وهذا هو الذى جعلنى شديد العزوف عن تدوين هذه البقايا من الذكريات أو هذه الصحائف من المذكرات .

غير أن أمرا واحدا هو الذى نفى عن نفسى الحرج ، وحملنى حملا على كتابة هذه الصحائف ، وذلك الأمر له طرفان كلاهما له فى نفسى مكان عزيز وحق مقدور ، فأما أحد الطرفين فهو أولئك الإخوة الأعزاء الذين يستحثوننى ـ كلما التقيت بهم ـ على كتابة مذكراتى وفاء منهم لمعنى كريم يتصل بشخصى ، أو يتصل بشعبنا الذى نعتز به ، وأمتنا العربية الإسلامية التى نعتزى إليها ، ضنا بالحقائق أن تلعب بها الأهواء والشهوات ، أو تستغلها الأحقاد والعداوات التى تتربص بأمتنا العربية ، وأمتنا الإسلامية فى شتى شئونها الاجتماعية والسياسية . هذا ما يتصل بأحد الطرفين الذى أتمثل فى إطاره أخوة أعزاء .

وأما ما يتصل بالطرف الآخر ، فهو أن الذين كتبوا مذكراتهم ونشروها فى الناس ، قد دونوا فى سطورها اسمى ، وكأنهم يستشهدوننى على ما كتبوا ، أو هم يدعوننى إلى أن اكتب كما كتبوا للتاريخ ما تعيه الذاكرة من أحداث ، لا ريب فى أن التاريخ يحرص عليها ، والأمة تحتاج إليها .

وعن هذا الإحساس الواعى ، لم أجد مندوحة عن كتابة هذه الصحائف على أن استبدل بكلمة « **مذكرات** » كلمة ذكريات أو « **بقايا ذكريات** » فإن هذا التعبير أكثر وضوحا ، وابين دلالة ، واخلق بمسايرة الأحداث التى عايشتنا ، وعايشناها أمدا ليس بالقصير ، تنطمس فيه معالم الطريق إلا على أولئك الذين حاولوا أن يتشبهوا بكبار الساسة فراحوا يقيدون فى كراسات ما يمر بهم من أحداث ، وما يجرى فى رؤوسهم من خواطر ، على نحو ما كان يفعل ذلك الأستاذ حسن البنا ، فإنه كان كلما رحل فى جوانب مصر كتب فى كراسة كل أحداث يومه قبل أن ينام فمثله ـ رحمه الله ـ يستطيع أن يقول « مذكرات » . أما نحن وأمثالنا فإن الأشبه بأحوالنا أن نؤثر كلمة « **بقايا ذكريات** » إذ كنا لم نقيد الأحداث يوما أثر يوم فضاع منها الكثير فى غمرة ذهن مكدود ، وعيش مجهود ، والله المستعان .

على أن من الذكريات ما يراه أهل الخير تحدثا بأنعم الله ، ومعوانا على

ما ينفعهم فى خاصة أنفسهم . أو ينفع الناس بهم ، كما يرى ذلك الذين فقهوا سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأرضاه ـ فإنهم سوف يرونه خطيبا على منبر رسول الله ﷺ ، وقد اجتمع فى المسجد النبوى الشريف المهاجرون والأنصار ، فقام عمر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على محمد عبد الله ورسوله ، ثم قال « أيها الناس لقد رايتنى أرعى غنما لخالاتى ، وقد ارتديت قميصا دون ركبتى حتى إذا غربت الشمس رحت عليهن بالغنم ، فقبضن لى قبضات من التمر اتبلغ بهن إلى اليوم التالى ، وهأنذا ـ اليوم ـ أمير المؤمنين ليس فوقى سلطان إلا لله رب العالمين » .

ثم نزل عن المنبر والعجب منه ملء الصدور ، والإنكار عليه يكاد يهتف به فى السنة عامة المجتمعين « لقد اخطات يا عمر » . فلما نزل ـ رضى الله عنه ، قام إليه اقرب الناس إلى قلبه ، وأوثقهم عنده وأشدهم إخلاصا له ، وهو عبد الرحمن بن عوف ، فقال له : « ما هذا الذى صنعت يا أمير المؤمنين إنك لم تزد على أنك حقرت لنا نفسك ! » فأجاب عمر إجابة الذى يعرف نفسه ويخشى ربه ، ويصون أمانة الله عنده ، فقال له « لا تخدعنى عن نفسى يا ابن عوف ، فإنى قلت ما سمعتم لا أريد بذلك إلا خيرا لى ولكم ، فقد رايت نفسى قد أخذ الغرور بزمامها حتى كادت تسلك بى شر المسالك ، وتحملنى على ما لا خير فيه لى ولكم ، فإذا انا شر راع ، وأنتم أشقى رعية ، ثم لم أجد أمنا من فتنتها إلا من أذكرها بما فيها حتى تأخذ من الماضى عبرة للحاضر والمستقبل . وعسى أن أكون قد ظفرت بحسن النية وصواب السلوك وخير الإسلام والمسلمين » .

هذا ومن أعجب أحاديث الذكريات وأنفعها للذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، حديث يتجلى فيه وجه العبرة تجليا يضع الناس فى حرج شديد بين هَم مقعد مقيم . وقد روى هذا الحديث الأديب العربى الأستاذ عبد الله عفيفى إمام جلالة الملك فؤاد الأول فذلك حيث قال فى مجلس من مجالس أدبه لطلابة ، والآخذين عنه ما نؤثر أن نرويه بأسلوبه هو حيث قال : « فى أصيل يوم من صيف سنة ١٩١٤ كنت واقفا مع الواقفين فى محطة السكة الحديد بطنطا ، اترقب القطار القادم من الاسكندرية إلى القاهرة ، ولقد كان كل من فى المحطة مشغولا بتلك الدقائق المعدودات يقضيها فى توديع وإشفاق وترقب وانتظار وحمل متاع ، وكنت فى شغل بصديق يجاذبنى حديثا شيقا ممتعا ، وبين ذلك الجمع المحتشد ، راع الناس صياح وإعوال ومشادة ومدافعة ، ثم ابصروا فإذا فتاة فى السابعة عشرة من عمرها يقودها إلى موقف القطار شرطى عات شديد ، ومعه ساع من سعاة معتمدى الدول الغربية قوى عتيد ، ومن خلفها شيخ أوروبى جاوز الستين مكتئب مهزول ، والفتاة تدافع الرجلين من حولها بيدين لا حول لهما ولا قوة . ثم أقبل القطار فكاد كل ينسى ـ بذلك الموقف ـ موقفه وما قصد له ، ثم أصعدت الفتاة ، وصعد معها من حولها ، وعجلت انا

وصاحبى فأخذنا مقاعدنا حيث أخذوا مقاعدهم ؛ كل ذلك والفتاة على حال من الحزن والكرب لا يجمل معها الصبر ، ولا يحمد دونها الصمت . ولذلك لم أجد بدا من أن أسأل الشيخ ما خطبه ، وما أمر الفتاة التى معه ؟ فقال ، وقد أشرقه وقطع صوته الأسى ، إننى رجل أسبانى وهذه الفتاة ابنتى ، وقد عرض لها منذ حين ما لم أعلمه ، فصحوت ذات يوم على صوتها تصلى صلاة المرأة المسلمة ، ومنذ ذلك اليوم احتجزت ثيابها لكى تتولى أمر غسلها بنفسها وأرسلت خمارها الأبيض على صفحتى وجهها ومكشوف صدرها ، ثم أخذت تقضى وقتها فى صلاة وصيام وسجود وهجود ، وكانت تدعى « روز » فأبت إلا أن تسمى فاطمة ، ثم ما لبثت أن تبعتها أختها الصغرى ، فصارت أشبه بها من القطرة بالقطرة ، ومن الزهرة بالزهرة . ولقد فزعت أنا لهول ذلك الأمر فقصدت أحد أساقفتنا فأخذ يعانى رياضة الفتاة ، فلم يجد إلا شماسا وامتناعا ، فعزَّت على الرجل خيبته فكتب إلى معتمد الدولة الأسبانية فى القاهرة بأمر الأسرة الخارجة على دينها ؛ وهنالك أمر المعتمد حكومة مصر فساقت إليه الفتاة كما ترى برغمها ورغم ذويها ، لكى يقذف بها بين جوانب دير تسترد فيه دينها الذى تخلصت منه واسمها الذى تخلت عنه إلى اسم فاطمة » قلت له : أو أرضاك أن تساق ابنتك سوق الآثمات المجرمات على غير إثم أو جريمة ؟ فزفر الرجل زفرة كاد ينصدع لها قلبه ، ثم قال : لقد خدعت وغلب أمر الحكومتين أمرى فما عساى أن أفعل ؟

على أثر ذلك انثنيت إلى الفتاة ، وهى تعالج من أهوال الحزن ما تخشع الراسيات من دون احتماله ، فقلت لها ما بالك يا فاطمة هكذا حزينة مكتئبة ؟ فأجابتنى فى صوت يتعثر من الضنى ، وقد أنست منى ما لم تأنسه ممن حولها فقالت لنا جيرة مسلمون ، أغدو إليهم فأستمع أمر دينهم ، حتى إذا أخذنى النوم ذات ليلة ، رأيت النبى محمدا ، ﷺ ، فى هالة من النور يخطف سناها الأبصار ، وهو يقول ملوحا لى بيده : « اقتربى يا فاطمة » وما أن بلغت الفتاة هذه الجملة حتى ارتعدت ثم أخذتها رجفة ، فهوت على مقعدها كأنها بناء منقض ، فلما أفاقت من غشيتها قلت لها : وما تخافين يا فاطمة ؟ قالت سيؤمر بى إلى دير حيث ينهلون السياط من دمى ولست من ذلك أخاف ، إلا أن أخوف ما أخاف أن يحال بينى وبين صلاتى ونسكى . ومازلت بالفتاة الاطفها ، واتحدث إليها حتى انصرفت مع أبيها ومعتمد الدولة الأسبانية فى القاهرة ، ولست أدرى بعد ذلك ما كان من أمرها . والأمر إلى الله تعالى ، يقضى فيه بما يشاء كيف يشاء .

فهذه أحاديث ثلاثة على السنة صادقين مقدورين ، وكل حديث منها يصلح لأن يكون ذكريات أو مذكرات ، وربما كان فى إيرادها على هذا النحو ، تذكرة بأن تدوين المذكرات أو الذكريات ، ليس وليد العصر الذى نعيش فيه الآن ، ولكنه أمر قديم ، ومن شأن ذلك أن يدعو مثلى إلى تدوين ذكرياته فى غير حرج ولا تأثم ، إذ كان موضع القدوة فيه واضح المعالم خافق الأعلام ، ولذلك رأيتنى منشرح الصدر لكتابة

ما يسميه الناس « مذكرات » وأسميه أنا « **بقايا ذكريات** » .

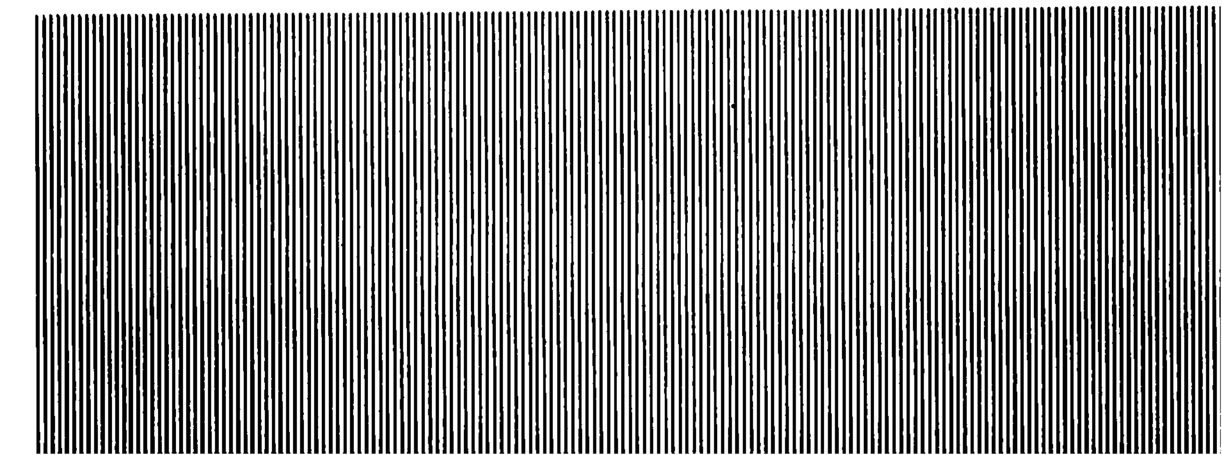
وإنى لضارع إلى الله ـ جل ثناؤه ـ أن يعصمنى من العجب بما أحسن ، والتكلف لما لا أحسن ، فإنه ـ سبحانه ـ المأمول لكل خير وهو يتولى الصالحين .

فى ظلال وارفة من هذه الأحاسيس ، وفى أنس بما ذكر الأسلاف الصالحون ، وكتب الأخلاف الموثوقون من ذكريات ، يرجون الخير لأنفسهم أو لأمتهم بهم ، رأيتنى منشرح الصدر لاستجماع إرادتى ، وكد ذهنى فى محاولة الظفر بذكريات أكتبها ، رجاء أن ينفع الله بها الذين يطلبون الحق ويحرصون على الانتفاع به ، ولكنهم لا يجدون السبيل إليه إلا بشاهد مقدور موثوق ، وإنى لضارع إلى الله ـ جل جلاله ـ أن يجعل منى ذلك الشاهد ، الذى يوثق به ويؤخذ عنه والله ولى الصالحين .



القسم الأول

الأزهر.. معارك ورجال



الفصل الأول

الأصل والإطار

إن القدوة بالأسلاف الصالحين تنطوى على حكم بالغة وفيها ـ بلا ريب ـ خير كثير . وقد ألفوا أن يعرفوا الناس بأنفسهم على صورة تجعل الآخذ عنهم مُلِما بأحوالهم فى الثقة بهم ، والاطمئنان إلى أنهم يقولون ما يعلمون . ومن هذا المنطلق لا أرى بأسا فى أن أقدم نفسى لقراء هذه الكلمات فأذكر لهم أننا ـ أهلى وأسرتى ـ وافدون من المغرب الأقصى ، بعد أن طرد العرب من الأندلس واستولى الاستعمار على تلك البلاد .

وقد كان والدى الشيخ حسن عبد القادر بدويا حريصا على أن نحفظ سلسلة نسبنا التى تبتدىء بالشيخ عبد القادر عبد القادر بدوى ، وأن هذا الرجل « عبد القادر » حين بلغ مصر نزل ـ أول ما نزلَ ـ بقرية « دوينة » من أعمال مركز أبو تيج بمديرية أسيوط ، ثم تحول الرجل إلى قرية باقور القريبة منها وقد لقب بالبدوى .

وكان الرجل شديد الاعتزاز بنسبه ، وقد ماتت زوجته أثناء الرحلة إلى البلاد المصرية ، فأخذ يبحث عن زوجة تقاسمه هموم الحياة ، وتعينه على شدائد الدهر ، فكان يحرص على أن يجد زوجة مهاجرة مثله من المغرب إلى مصر ، فدله إخوانه على أن يطلب زوجته فى قرية من قرى صعيد مصر تعرف « بنزلة الأشراف » . وقد يسر الله له الطريق إلى الزواج بسيدة تدعى « أم على » فولدت له جدى الشيخ احمد عبد القادر بدوى . ولقد أذكر أن جماعة من نزلة الأشراف جاءوا إلىّ يزوروننى ، وأنا يومئذ وزير الأوقاف ، ولقد أخبرونى بهذا النسب وذكروا أن للسيدة « أم على » ميراثا فى تلك القرية . فكان ذلك تأكيدا لما كان يذكره لى والدى عن هذا النسب .

حالة مصر فى آخر القرن التاسع عشر

وغير خفى على الذين يتدبرون تاريخ مصر فى آخر القرن التاسع عشر الميلادى ، أن البلاد كانت مرتبكة ارتباكا شديدا فى الجانب السياسى ، والجانب الاقتصادى .

ومرجع الارتباك فى النظام السياسى تعدد السلطات الحاكمة إذ كانت السلطة الأولى هى سلطة الوالى العثمانى الذى كان نائبا عن السلطان فى حكم البلاد . وكانت السلطة الثانية هى سلطة رؤساء الجند الذين هم قواد الفرق . وكانت السلطة الثالثة هى مجلس شورى الباشا التركى ، وكان من شأن ذلك ألا يتم أمر تدار على أساسه سياسة البلاد .

فإذا تركنا النظام السياسى إلى النظام الاقتصادى ، رأينا نظاما اقتصاديا هو إلى الخيال الجامح أدنى منه إلى الحقيقة الواقعة . ذلك أن السلطان كان قد اعتبر نفسه مالكا لأراضى مصر كلها من حيث الانتفاع بغلاتها وثمراتها ، ولم يكن الفلاحون المصريون يملكون من الأرض إلا النزر اليسير ينتفعون به ويتوارثونه ، وكانت ملكيتهم معلقة على دفع الضرائب وكانت الضرائب فادحة ، وأفدح ما كان فيها نظام الالتزام ، وهو أن تعرض الحكومة الأرض المراد جباية ضريبتها للمزايدة ، فيتقدم أعيان البلاد ليتعهدوا بدفع الضرائب المرادة ، وإلزام أنفسهم بها ، ثم يطلبون إلى الفلاحين أن يؤدوا الضرائب التى عليهم للحكومة . ولكنهم فى كثير من الأحيان كانوا يضيفون إلى مقدار الضريبة مثلها أو أكثر ، ثم يحصلون هذا المقدار عن طريق الضرب والإهانة والحبس ، وكل ما يؤدى إلى الحصول على المال .

وقد أذكر أن العالم الجليل الشيخ الدردير كتب فى باب الإجارة فى الفقه يقول : « إن نظام الالتزام حرام ، وإن الذين يأكلونه من الولاة والأمراء والأعيان إنما يأكلون فى بطونهم النار » .

وما دام الأمر أمر ذكريات فإننى أذكر أننى سألت الإمام المراغى ذات يوم : لماذا تصر على زيارة مسجد الشيخ الدردير فى كل رمضان مع شدة الزحام فى الطريق إليه ، إذ كان الشارع الذى يقع فيه المسجد عبارة عن درب طويل لا يتسع لمرور السيارة ، وقد كان هذا الدرب متفرعا من شارع الغورية فى منطقة الأزهر الشريف ، فقال لى الشيخ المراغى فى مجلسه فى إدارة الأزهر : « إن هذا الرجل هو الصورة المثلى لشيخ الإسلام علما وزهدا وشجاعة ، ولست أعرف له نظيرا فيمن عرفت من الذين عاصرناهم أو سمعنا عنهم » .

لقد اجتمع على مصر لونان من ألوان الظلم واضطراب الأحوال : الاستبداد السياسى ، والاختلال الاقتصادى وقد أنتج هذان اللونان فى حياة الشعب المصرى اللجوء إلى « الكرباج » الذى كان وسيلة تُجبى بها الضرائب ، وتُنفذ به مشيئة الحاكم كبيرا كان أم صغيرا .

وإلى جانب هذا البلاء جاء نظام السخرة الذى جرّ آلاما لا تحصى على عشرات الآلاف من الفلاحين الذين كانوا يخرجون كل سنة من بيوتهم لتطهير الترع ، ومقاومة

الجراد وتقوية الجسور ، فكان هؤلاء التعساء يلزمون العمل على أعين نظار مسلحين بالكرباج ليلا ونهارا ، اسابيع وشهورا بغير وقاء ولا أجور ثم يحصدهم الموت زمرا .

وقد أنتجت هذه الحياة الاجتماعية استسلام الشعب لكل ذى سلطان . ولكن المصريين ـ كما يعلم الذين درسوا التاريخ ـ لا يتركون مقاومة خصومهم فإذا عجزوا عن لقائهم بالقوة يدفعون بها عن أنفسهم ظلم الظالمين ، فإنهم يعمدون إلى النكتة المعروفة عنهم ، وهى سلاح له قيمة فى تسلية المظلومين وموعظة الظالمين ، ولم تكن النكتة مقصورة على الطبقات الشعبية فى المدائن والقرى ، ولكنها عرفت طريقها إلى قصور الملوك والحكام والأمراء . ومثال ذلك الشيخ على الليثى والشيخ على ابو النصر وكانا شاعرين من شعراء قصر الخديوى ، وكان الشيخ الليثى سميرا مليح النكتة حاضرها ، ومن ذلك أن احمد خيرى باشا « المهردار » ـ حامل خاتم اسماعيل ـ أراد أن يداعب الشاعرين فأمر أن تلصق ورقة على باب غرفة الشيخين الشاعرين فى قصر عابدين ، وفى الورقة الآية الكريمة : « إنما نطعمكم لوجه الله » . فلما رآها الشيخ الليثى فطن للدعابة ، وعرف أن الذى أمر بها هو « المهردار » فنظم بيتين من الزجل كتبهما فى ورقة والصقها على باب « المهردار » ، ويقول فيهما :

كانت لى طاحونة جوه الدار   تدور وتطحن ليل ونهار
دورت فيها الثور عصى   دورت فيها المهردار

وقد كان ذلك ردا ظريفا استملحه الخديوى وظل يردده مع ندمائه .

أمران حرص عليهما الناس

وفى هذا الجو غير المستقر انصرف الناس عن كل شىء إلا عن امرين : إتقاء غضب الحاكم ، وتحصيل لقمة العيش . وكان فى جملة الذى انصرف الناس عنه التعليم لأن المواد التى كانت تدرس فى المدارس الأميرية كانت ثقيلة ، ولأن تعليم الأولاد كان يكلف الأسرة بعض المال ، والأولاد انفسهم يعتبرون رأس مال تنتفع بهم أسرهم فى تحصيل الرزق .

وفى قرية باقور التى عشنا فيها ، كانت أحوال أهلها الاجتماعية والاقتصادية صورة شبيهة بسائر القرى ، فلا يختلف بعضها عن بعض غير أن « باقور » كانت تمتاز بكثرة السكان الاقباط فيها ، وبشدة تآلفهم . وكان التعليم فى المدارس الأميرية معنيا أبلغ عناية بتعليم اللغات الأجنبية خاصة الانجليزية والتركية ، حتى انصرف الناس عن تعلم العربية والعناية بشأنها . ولهذا لم يجد أهل الغيرة على الإسلام بُدا من الدعوة إلى تحفيظ القرآن الكريم فى كتاتيب مختلفة ، فألحقنى والدى بكُتّاب من تلك الكتاتيب لاحفظ القرآن ، كما كان يحفظه هو وجدى واكثر افراد أسرتى .

ولا أزال أذكر اسم شيخ الكُتّاب ، وهو الشيخ عبد الحافظ فراج . ومن خصائص هذا الشيخ التى يمتاز بها عن سائر شيوخ الكتاتيب أنه كان فقيها بتذكرة داود ، وهى كتاب يشتمل على الطب القديم ، ويكاد يستوعب خصائص النباتات البرية وما تتضمنه من فوائد صحية ، وكان الشيخ رحمه الله صلب العصا لا يرحم من يقصر فى الحفظ ، أو تسميع راتبه اليومى ، وكنا تحت اشرافه نشترك فى تنظيف الكتاب والحصر المفروشة فيه ، وكثيرا ما كنا نؤدى صلاة الظهر إذا وجبت داخل الكُتّاب ، وكان يؤمنا فى الصلاة . وكان الأجر الذى ندفعه لشيخ الكُتّاب أجرا ضئيلا جدا ، لا يكاد يفى بالحاجات الضرورية ، ولم يكن يشترط لنفسه شيئا يتفق عليه ، فمن شاء أهدى إليه ، ومن شاء أمسك ، وهو فى الحالتين شديد القناعة راض بما يعطيه الله من ثواب فى قيامه بتعليم صبيان القرية الكتابة والقراءة ، وحفظ القرآن الكريم .

والكُتّاب على هذه الصورة كان يقوم بمحو الأمية قبل أن يعرف أهل القرن الحاضر قيمة محو الأمية فى الشعوب ، ولقد كان الكتاب بذلك هو اللبنة الأولى فى بناء الثقافة العربية والاسلامية . فلولا وجود الكتاتيب فى القرى لبقى الناس فى إطار أمية لا يحيا عليها شعب ، ولا تتلاقى فى ظلالها أمة ، وربما حملها عجزها عن اللغة العربية أن تلجأ إلى اللغة العامية ، التى يتغلق معها فقه الثقافة الإسلامية ، ويستعصى بسببها الانتفاع بأدب القرآن العظيم .

ولست أنسى قسوة شيخ الكتّاب حين كان ينهال على أقدامنا بالعصى ، فإذا ذهبنا إلى أهلينا والدموع تملأ مآقينا ، فإنهم لا يستمعون لشكوانا ولا يتألمون لما نقاسيه بل يقولون لنا : « إن عصا سيدنا من الجنة . فعلى قدر ما نصبر عليها تكون منزلتنا فى الجنة يوم القيامة » .

وبهذه الصرامة فى المعاملة بين البيت والكتاب كنا نقبل على حفظ القرآن وكتابته فى الألواح فى أمد غير طويل .

أردت أن أكون ضابط شرطة !

ولقد أذكر أننى حفظت نصف القرآن وسنى آنئذ إحدى عشرة سنة ، وبذلك امتهدت لى السبيل إلى الالتحاق بمعهد أسيوط الدينى لأن الالتحاق به كان موقوفا على حفظى نصف القرآن على الأقل . وعلى قدر ما كان والدى يحب إلحاقى بالمعهد الدينى فى أسيوط ، كنت أحب أن التحق بمدرسة البوليس ، وكانت رغبتى فى الالتحاق بمدرسة البوليس تملك على نفسى وتبدو فى عينى أعز أمنياتى ، ذلك أننى كنت أنظر إلى قريب من أقرباء والدتى كان ضابط بوليس ، وجاء ذات يوم إلى القرية لزيارة أهله فى

ثوب رسمى أنيق ، فلم يبق احد من أهل القرية إلا خرج ينظر إليه فى زيه الجميل ، مرحبا به ، ومؤملا عنده خيرا يظفر به فى قريب من الزمن أو بعيد .

ولكن أمالى فى أن اكون رجل بوليس ذهبت أدراج الرياح ، فقد أصر والدى على ان التحق بالمعهد الدينى الإسلامى فى مدينة أسيوط التى تبعد عن قرية باقور بحوالى عشرة أميال ، فكنت اذهب إلى المعهد فى كل يوم سبت ثم أعود منه إلى قريتنا يوم الأربعاء من كل اسبوع ، وكان الحمار وسيلتى فى الذهاب والإياب ، فإذا ذهبت إلى أسيوط يوم السبت وضعت الحمار فى وكالة هناك لقاء أجر مناسب على أن تقوم الوكالة برعاية الحمار وإطعامه ، وربما تصرف صاحب الوكالة فى الحمار فأذن لبعض الناس فى أن يستخدمه لقاء أجر يدفعه إليه ، وبذلك يكون صاحب الوكالة قد انتفع منى ، وممن يكترى الحمار ليقضى به أمرا من أموره ، وهذا ما لم أعلمه إلا بعد فترة من الزمن .

وهنالك فى مدينة أسيوط بصعيد مصر كانت الحياة الثقافية ارفع افقا من الحياة فى القرى ، وكانت هنالك جماعات نتعلم فيها الخطابة والكتابة ، ونستمع فيها إلى محاضرات من أدباء وعلماء .

كانت مدة الدراسة فى معهد أسيوط الدينى تسع سنوات ، منها اربع للقسم الابتدائى ، وخمس للقسم الثانوى ، وينال بعدها الطالب شهادة الثانوية التى كانت تسمى أنذاك الشهادة الأهلية ، وقد اختصرت مدة الدراسة فى القسم الثانوى لأننى تقدمت لنيل الشهادة الثانوية بعد حصولى على الشهادة الابتدائية بسنتين اثنتين ، وفى السنة الثانية من سنى القسم الثانوى أراد شيوخ المعهد أن ينتهزوا فرصة يدعون فيها لحزبهم ، وكان الحزب الوطنى ، على سبيل التنافس بينهم وبين حزب الوفد ، وقد كانت أحسن فرصة لهم إقامة حفل تأبين للمرحوم امين الرافعى .

مادام الحديث عن أمين الرافعى وتأبينه فإن من الحق أن نعطى الناس صورة عنه ـ رحمه الله ـ فهو ابن المرحوم الشيخ عبد اللطيف الرافعى الذى تقلد مناصب القضاء والإفتاء فى مديريات الشرقية والغربية والبحيرة والقاهرة والاسكندرية ، وكان أخر منصب تقلده منصب الإفتاء فى الاسكندرية . فقد نشأ أمين الرافعى فى بيت علم وقضاء ودين ، أبوه قاض ، وجده قاض وأعمامه قضاة ، وأولاد عمومته قضاة وعمه الشيخ عبد القادر الرافعى تولى إفتاء الديار المصرية ، ولقد انطوى أمين الرافعى وهو طالب تحت لواء المرحوم مصطفى كامل باشا ، وتلقى تعاليمه من خطبه وأحاديثه الوطنية .

كان أمين الرافعى من كتّاب جريدة اللواء ، فقد كتب فى اللواء سنة ١٩٠٧م سلسلة مقالات عن حياة « غريبالدى » بطل الاستقلال الإيطالى . وكتب هذه المقالات

بتوقيع « حقوقي اسكندرى » . ولما كان محبا للحرية عاشقا لها منذ صباه كتب وهو طالب مقالين فى اللواء يطعن فيهما قانون النفى الإدارى ، وقد كان من العاملين على تأسيس نادى المدارس العليا سنة ١٩٠٦م حتى أسس النادى برئاسة المرحوم عمر لطفى ، وافتتح فى أبريل فصار بمثابة معهد علمى وطنى أخلاقى تكوّن فيه جيل من خيرة أبناء مصر . ثم كان أمين ركنا من أركان النادى ، وفيه تأسست جمعية رعاية الأطفال ، وفى قاعاته كانت تجتمع لجنة الجامعات المصرية ، وفيه نشأت مدارس الشعب ، فقامت عدة مدارس لتعليم العامة . وقام أعضاء النادى مع أمين الرافعى بالتدريس فى تلك المدارس ، ثم فى هذا النادى نشأ مشروع النقابات الزراعية ، وكان النادى مثلا للسلوك الإسلامى الكريم ، يروض الطلبة فيه أنفسم على أخلاق الإسلام وفضائله إذ كان قد انفرد بتجنب الميسر والمسكرات وهما الأمران اللذان تعيش عليهما معظم الأندية . وكان أمين الرافعى الوطنى الحر عضوا بارزا فى الحزب الوطنى ، أو زعيما من زعمائه ، ولكنه كان ينسى حزبيته أمام الصالح الوطنى العام ، فموت مثله من أعاظم الرجال الوطنيين يثير اللوعة والأسى فى نفس كل مصرى ومصرية ، بل فى نفس كل إنسان يعرف قيمة الحرية ، ويفتقد الأحرار المصلحين .

وكذلك كان أمين الرافعى مثلا لشرف الوطنية وصدق الزعامة . وأحق الناس بمعرفته والإعجاب به ، والسير على طريقه هم الطلاب فى المعاهد الدينية والمدارس الحكومية سواء فى ذلك المسلمون أو الأقباط ، الحزبيون وغير الحزبيين . ومن هنا اجتمع بعض المدارسين الذين كانوا ينتمون إلى الحزب الوطنى فى معهد أسيوط الدينى ، وعلى رأسهم الأستاذ الشيخ محمد عبد اللطيف دراز ، وأخذوا يفكرون فى إقامة حفل لتأبين المرحوم أمين الرافعى ، فى الوقت الذى كان فيه الوفديون قد أقاموا حفلا للزعيم سعد زغلول باشا .

واذكر ـ فى هذه المناسبة ـ أننا كنا نلتقى ببعض شيوخنا فيقصون علينا من نبأ أمين الرافعى ما يزيده تكريما وإعزازا ، ويزيدنا تشبثا بمبادئه ودراسة لتاريخه فى إطار الحركة الوطنية .

وذات يوم قررنا إقامة حفل فى دار من دور السينما فى أسيوط ، ورحنا نطوف على بيوت مشايخنا ندعوهم إلى مشاركتنا بالإسهام ببعض المال فى إقامة هذا الحفل ، الذى يجب أن يكون لائقا بكرامة أكبر معهد دينى علمى إسلامى فى الديار المصرية ، وقد كان من شيوخنا من يرضى ذلك الاتجاه ، ومنهم من ينكره وينصحنا بالبعد عن السياسة .

ولعل من الحق علىّ ـ لله ثم للتاريخ ـ أن أذكر فى هذا المجال شيخا من شيوخنا كان معروفا بالتقوى والورع ، وهو الشيخ عبد الرحمن محروس ، فقد ذهبنا إليه فى داره نسأله المعونة ، فلم يبخل علينا بالمال ، ولكنه عرض علينا اقتراحا يقول فيه :

« الأحسن يا أبنائى أن تنفقوا هذا المال الذى جمعتموه من المشايخ فى شراء عجل كبير تذبحونه وتوزعون منه على الفقراء ، ثم تجتمعون جميعا فى المسجد الكبير وتقراون ختمة ، وتهبون ثوابها للمرحوم ، فإن ذلك انفع له ، واكثر ثوابا من الكلام الذى ستقولونه فى حفل التأبين ، وربما كان هذا الكلام فيه كذب لأن العلم الحقيقى المحيط بأحوال الناس لا ينبغى أن يكون إلا لله رب العالمين » .

الاقتراح كان وجيها ولكن لم يقابله طلاب المعهد بالارتياح ، فأصروا على إقامة الحفل كما كان مقررا من قبل ، وقد دعى إلى هذا الحفل صفوة أهل الوجاهة والعلماء والأدباء ورؤساء الهيئات ، وفى مقدمتهم الأمير عمر طوسون أحد أمراء البيت المالك ، وكان يمتاز بين سائر الأمراء والنبلاء بالغيرة على العلم والعلماء ، وكانت صلته بالجمعيات الإسلامية صلة وثيقة ، وفى ذروتها جمعيات الشبان المسلمين العالمية . وكان من الذين حضروا الحفل ايضا المجاهد الكبير عبد الحميد سعيد مؤسس جمعيات الشبان المسلمين العالمية ، والأستاذ حسين ابو زيد المحامى فى أسيوط وعضو الحزب الوطنى الذى شغل منصب وزير المواصلات فى ثورة يوليو سنة ١٩٥٢م .

وقد اشتركت فى حفل التأبين نائبا عن طلاب المعهد الدينى فى أسيوط بقصيدة وهذا نصها :

عزيز على من كان بالأمس مادحا ... امينا - مُعاق - أن يرى اليوم راثيا
يغالب آلاما يرى عند ذكرها ... بكاء الدما إثر الدموع تباكيا
رويدك يا دهر انئذ لست مُنصفا ... إذا أنت حاولت المصائب ثانيا
نعيت امينا وهوال امة ... فاسكت صوتا كان فى الحق عاليا
وليس زعيما من يحارب دينه ... ولكنه من كان للدين داعيا
امين - ولم أعهدك من قبل صامتا ... تنادى فتأبى أن نجيب المناديا
لقد كنت للشعب الأسيف امانيا ... فجندلت الأيام تلك الأمانيا
وكانت بك الأيام غُرا نواصعا ... فلما تناءيت استحالت لياليا
امين - وقد جاورت فى القبر مصطفى ... وجئت فريدا من تبنى العواليا
وصادفت سعدا قُل لهم إن أمة ... تركتنا حماها جازها العد قاليا

ثم لما فرغت من إنشاد هذه الأبيات جاء إلى شيخ من شيوخى معروف بالزهد والتقوى والعلم ، وهو الشيخ عبد الرحمن محروس ، الذى كان يؤثر توزيع الصدقات على إقامة الحفل ، وقال لى : إنك تستحق العالمية من الدرجة الأولى ، لأنك تؤمن أن أصلح الناس لزعامة الشعوب هم رجال الأزهر الشريف الذين يدعون للدين ، فلو اننى عشت لسعيت عند لجنة الامتحان حتى تنال الدرجة الأولى على شرط

أنك تعدني بأنك لا تقرأ الجرائد ، فإن الإجماع على أن قراءة الجرائد حرام ، لما فيها من الغيبة والنميمة التى حرمها الله على عباده المؤمنين .

وحصلت على الشهادة الثانوية بعد سنتين بدلا من أربع سنوات ، وتركت معهد أسيوط لألتحق بالقسم العالى بالأزهر الشريف .

فى رواق الصعايدة

وقد كان مما جرى به العرف أن كل من جاء إلى الأزهر لتلقى العلم على شيوخه الأجلاء ، كان عليه أن يقيد اسمه ـ قبل كل شىء ـ فى الرواق المخصص له ، إذ كان هناك رواق للصعايدة ، وآخر للمغاربة ، وثالث للشوام ، ورابع للجبرت ، وخامس هو رواق معمر . فكان طبيعيا أن أقيد اسمى فى رواق الصعايدة حتى يكون لى الحق فى الحصول على أربعة أرغفة صبيحة كل يوم . وكانت هذه الأرغفة الأربعة فطورنا وغداءنا وعشاءنا ، وكان الفول المدمس أشهى ما يأكله الإنسان فى مطعمين من المطاعم حول الأزهر ، أحدهما مطعم الفوال طه حسين ، والآخر مطعم الفوال مهيا ، وكان مطعم مهيا أعرف بأصول أكلة الفول الشهية ، إذ كان هو الوحيد الذى يصنعه بالطماطم والسمن البلدى وهى وجبة لا يذكرها الإنسان اليوم إلا ليتمثل خبزا يصفه الواصفون لنعومته ورقته بأذن القطط ، فإذا نظرنا إلى الفول المدمس رأوه أشبه بقطعة من الزبد ضاعت فيها معالم الفول ، فأصبح الآكل وكأنه يأكل زبدا خالصا ، ويا ويح الذين عاشوا فى تلك الأيام على ما كان فيها من رخاء وهناءة ، ثم أدركتهم الحياة فى هذه الأيام على ما فيها من غلاء وبلاء .

ولقد كنا بعد تناول الفطور فى صحن الأزهر ينصرف كل واحد منا إلى حلقة الدرس ، ليستمتع بأشهى ما فى الحياة فى حلقة شيخ وقور يشرق نور الإيمان فى وجهه إشراقة يستروح فيها المرء الأمن والطمأنينة والسكينة والسلام .

ولست أنسى الشيخ الذى قيدت فى حلقته أخذ عنه الفقه على مذهب الإمام مالك فى « الشرح الكبير » والحديث النبوى الشريف فى « فتح المبدى » بشرح شيخ الإسلام شيخ الأزهر عبد الله الشرقاوى .

وشيخ الحلقة التى كنت أتلقى فيها هذين الدرسين كان إمام أهل السنة السلفى الصالح الشيخ محمود خطاب السبكى رضى الله عنه ، وعن سائر شيوخى أجمعين ، وإذا انصرفنا من الدرس انصرف كل ذى رواق إلى رواقه . ولست أنسى اليوم الأول الذى دخلت فيه إلى رواق الصعايدة لأتعرف على سائر إخوانى وأهل

اقليمى ، وقد رأيتهم يتحدثون عن ثورة ١٩١٩ ويختصون بالحديث اربعة رجال : الشيخ على سرور الزنكلونى ، وزميله فى منبر الأزهر القمص سرجيوس ، ثم الشيخ محمد عبد اللطيف دراز مع زميله فى المنبر الشيخ محمود أبو العيون .

ومما وعته ذاكرتى فى هذا الحديث أن الشيخ الزنكلونى كان إذا حضر أثناء الثورة ، ومعه القمص سرجيوس يتلقاهما طلاب الأزهر بنشيد يقولون فيه ـ تأييدا للوحدة الوطنية التى هى حياة مصر : « الشيخ والقسيس قسيسان ، وإن تشأ فقل هما شيخان » ، فإذا فرغ القوم من حديث الشيخين أو القسيسين ، حسب تعبير طلاب الأزهر ، راحوا يتحدثون عن الشيخ أبو العيون ، فيذكرون أنه كان المقدم فى المنبر ، فإذا اعتقله الإنجليز ، أو فصله الأزهر قام برسالته الشيخ عبد اللطيف دراز ، ثم يذكرون كلمة الشيخ دراز ويغرقون فى الضحك ، إذ كان الشيخ أبو العيون قد اعتقل ، وأعلن أن الشيخ دراز سوف يعلن إلى الجمع أنه خليفة المعتقل العظيم ، فقام فى المنبر يشق الهتاف به أجواز الفضاء ، ثم بدأ يتحدث فحمد الله قائلا : « أحمد الله إليكم الذى جعلنى خلفا ينتظر الاعتقال لسلف وقع فى شراك الاعتقال ، فجعلنى ـ سبحانه ـ اجن خلف لاجن سلف وأمرى وأمركم إلى الله » . وبهذا انعقد لواء زعامة جديدة للشيخ دراز ، على إثر زعامة انطوت باعتقال الشيخ أبو العيون .

وقد كان مرجع سعادتى بحديث الوحدة الوطنية على هذه الصورة الرائعة يعود إلى بقايا مشاعر أليمة حول تصرف رجل أزهرى قديم فى قريتى « باقور » . إذ كان الرجل شديد التعصب ضد الأقباط هناك ، فكان مما يؤثر عنه أنه يأمر إذا رأوا جنازة قبطى ، فإن عليهم أن يسارعوا فى الابتعاد عنها حتى لا تصيبهم اللعنات النازلة من السماء . وذلك بلا شك يناقض أشد المناقضة مع ما كان قد أجمع عليه ـ الأزهريون ـ شيوخا وطلابا ـ من الترحيب الكريم بلقاء الشيخ الزنكلونى والقمص سرجيوس .

وثمة صورة أخرى كان يلقيها علينا ـ نحن طلاب رواق الصعايدة ـ شيخ فى مقتبل العمر تبدو عليه سمات التأدب بأدب الإسلام الحق ، على أنه كان شديد الإعتزاز بمذهبه المالكى وأقليمه الصعيدى . ذلك أنه جلس ذات يوم يتحدث إلينا عن ثورة ١٩١٩ حديث الطالب الأزهرى الذى اختطف المدفع الرشاش من يد الجندى البريطانى يوم أحاطت جنود الاستعمار بطلاب الأزهر يضربونهم ويقتلونهم بغير حساب ولا عقاب . واستبدت الحمية بالطالب الأزهرى فهجم على الجندى البريطانى ، وأخذ منه المدفع ، ثم حاول أن يستعمله دفاعا عن إخوانه فلم يعرف ، فأصابته رصاصات من مدفع بريطانى آخر فقتلته ... ثم قال الشيخ بعد أن روى هذه القصة ، ولكن الناس لا يعرفون اسم هذا الطالب الشهيد ، ولا أين بلده ولا شيئا عن أهله .

وهنا قام شيخ آخر يقول له : إن قصتك هذه تذكرنا بقصة شريفة فى صدر الإسلام ، وخلاصة تلك القصة : أن النعمان بن مقرن صاحب رسول الله ﷺ ، قال

له ذات يوم أمير المؤمنين عمر : إنى أحب أن أبعثك يا أبا عائذ . فقال النعمان : إن كنت تريد ذلك فإنى احب أن تبعثنى غازيا لا جابيا يا أمير المؤمنين . فقال له عمر : لك ما شئت ، ثم بعث به أميرا على سرية من جنده فقتل من قتل من المجاهدين ، فأرسل بأسمائهم جريدة إلى عمر ، قائلا قتل فلان وفلان وفلان وقتل آخرون لم نعرفهم ، فلم يملك أمير المؤمنين سوابق دمعه ، فقال يحدث نفسه ومن حوله : لم تعرفوهم ولكن الله عرفهم . وهكذا قال الرجل معلقا على قصة الأزهرى الذى اختطف المدفع ومات دون أن يعرفه الناس ، إن مثله كمثل واحد من جنود النعمان الذين قتلوا فى المعركة ، لم يعرفه الناس ، ولكن الله عرفه ، وأدخله جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

وقد كانت تلك الكلمات ـ فى ذلك المجلس ـ أول كلام سمعته وتأثرت به ، وظللت أرويه للناس فى كل مجلس أكون فيه صاحب حديث .

افتراءات المبشرين

وعلى قدر ما كان اغتباطى شديدا بشيوع المودة بين المسلمين والمسيحيين على يد الشيخ والقسيس ـ الزنكلونى وسرجيوس ـ كان ألمى بالغا بالحديث الذى كان يردده علماء الأزهر وطلابه عن المُبشر « زويمر » ومفترياته على الإسلام ورسوله العظيم ، حتى لقد حاول هذا المبشر الغبى أن يهاجم الإسلام فى معقل الإسلام ، أعنى الأزهر الشريف . ولولا أن العقلاء من شيوخ الأزهر وطلابه كانوا وسائل تلطيف للعواطف الثائرة والفتن المتربصة لكان الشر مستطيرا والعاقبة وخيمة ، ولكن الله سلّم إنه عليم بذات الصدور . وقد كان هذا الذى صنعه « زويمر » أقوى الدواعى إلى فتنة عمياء ، ينفخ فى نارها حرص بعض الناس على إشاعة الفتن يستغلها الساسة لمصالحهم الشخصية او مصالحهم الحزبية ، ولكن الطلبة كان يجرى على لسانهم ـ فى ذلك الوقت ـ حديث يدعو إلى التعقل والابتعاد عن كل ما يثير نفوس المواطنين . ذلك أنه لما أعلن الإنجليز الاحكام العرفية سنة ١٩١٥م حدث أن مرت بجوار بناء المعهد الاحمدى بطنطا جنازة مسيحى يونانى رماها بعض طلبة المعهد ببقايا الخس والملانة وأطراف الجزر ، فهاج القسس اليونانيون وشكوا إلى السلطات العسكرية الإنجليزية فى مصر والاسكندرية ، وقد اضطرب لهذا الحادث رشدى باشا رئيس الوزراء اضطرابا شديدا ، وكان من شأن ذلك أن يعين على تهدئة العاصفة التى اثارها المبشر الغبى « زويمر » إثارة لا يعرف مدى آثارها السيئة إلا أولو النظر البعيد .

فى هذه الاثناء كان الرأى العام وخاصة فى الأزهر مشغولا بالحركة الحمقاء التى أقدم عليها مصطفى كمال حاكم تركيا العسكرى . ذلك أنه خلع السلطان

عبد الحميد سلطان تركيا يومذاك فخلع بذلك الخلافة الإسلامية عن السلطان ، وهى الخلافة التى كان يعتز بها ، ويستظل برايتها جميع الامم الإسلامية . وقد كان مما يضاعف ألم أهل الإسلام أن يسمع الأزهريون وسائر الجمعيات الإسلامية أن مصطفى كمال يريد أن يفصل بين سلطنة السلطان ، وبين الخلافة ؛ وهى التى بقيت فى تركيا أكثر من عشرة قرون ، وكان لها فى سياسة تركيا وعلاقتها بالأمم الإسلامية شئون حيوية فى تاريخ الأمة الإسلامية جمعاء .

ولما كان مصطفى كمال رجلا عسكريا يتلقى معارفه العامة عن غيره من ذوى الأهواء الذين كانوا يجتمعون على عداوة المسلمين ، ويرون أن الخلافة فى تركيا هى المحور الذى تدور عليه عواطف الأمة الإسلامية ومصالحها : لما كان مصطفى كمال بهذه الصفة رأى ما رآه له بطانات السوء من أن الخلافة هى سبب نكبة تركيا فى العهد الحديث ، وأن الأمم الأوروبية القوية إنما تضطهد تركيا من أجل تلكم الزعامة الإسلامية فيها ، ولذلك اندفع فى رأيه هذا ـ كما يقول الشيخ الظواهرى شيخ الأزهر يومذاك ـ اندفاعا شاردا مرذولا ، فأقدم على التنصل من الإسلام ، واعتبر الدولة علمانية ليس لها بالإسلام صلة من قريب أو بعيد .

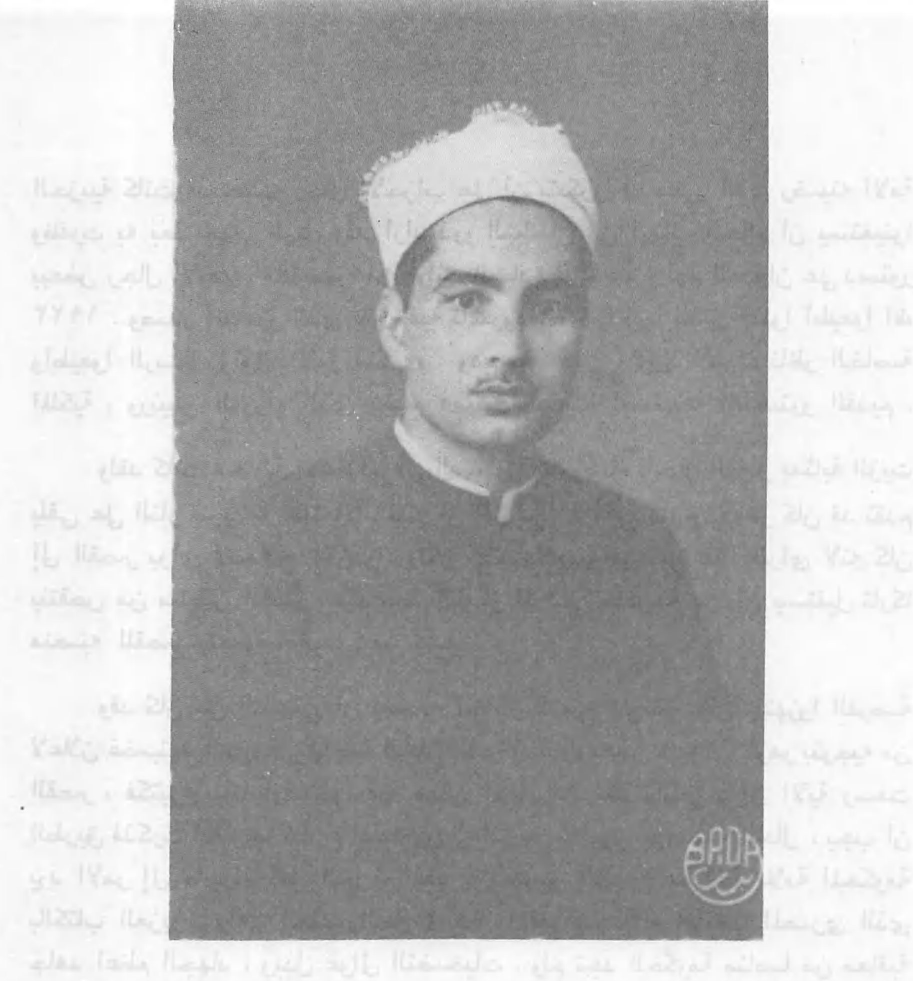
هذا ، ولم يكن المصريون وقادة الرأى فيهم أقل من الأمم الإسلامية اهتماما بشأن هذا الحادث الجلل ، إذ كانت مصر أولى دول الإسلام جميعا بالإسلام ترعى شرائعه وتذود عنه أعداءه ، من حيث كان الأزهر الشريف منارة الإسلام الهادية وحجته البالغة ، وآية ذلك شيخ الأزهر وكبار علمائه وجميع طلابه ، وهم يتوافدون على الجامع ويجتمعون فى أبهائه وصحونه ، ثم يُجمعون على قرار يقسمون على المضى به إلى غايته ، وهو أن تشترك فى مؤتمر إسلامى، جميع ممالك الإسلام محتلة أو مستقلة ، ثم يؤلفون من بينهم لجانا لهذا المؤتمر يطلقون عليها « لجان الخلافة » وغايتها تنوير الأمة وإمدادها بالحقائق ، ودعوتها إلى النشاط فى خدمة الإسلام لإحياء الخلافة التى أماتها مصطفى كمال . وقد عهد المؤتمر إلى شيخ الأزهر الظواهرى بتشكيل لجان الخلافة فى صعيد مصر ، فاستعان ـ رحمه الله ـ بكبار الوفديين والدستوريين وقام بعدة رحلات إلى قنا وأسوان ونجع حمادى ثم إلى المنيا وبنى سويف فكان مع الناس ، أو أمام الناس يلتقى بأهل البلاد داعيا متأثرا ومؤثرا . غير أن التمهيد لإنعقاد مؤتمر الخلافة بالقاهرة على صورته المقترحة كان أمرا شاقا عسيرا ، ولذلك امتد أمد الدعوة إليه من سنة ١٩٢٠م إلى عام ١٩٢٦م وربما يرجع سبب هذا التأخير إلى أن بعض كبار المسلمين وأمرائهم فى الأمم الإسلامية قد حملهم سوء الظن على أن يروا علماء الأزهر يدعون دعوة لها ظاهر وباطن . ذلك أنهم ظنوا ـ معذورين ـ أن السلطان فؤاد الأول قد أصبح بعد تصريح فبراير ملكا . وقد كان ـ رحمه الله ـ رجلا غير عادى وعلى جانب عظيم من التنور ، وقد علمته السنون التى أمضاها فى بلاط مصر أيام عباس ، ثم فى بلاط إيطاليا بعد ذلك ، خبرة فائقة فى شئون السياسة وشئون الحكم ،

وزادته بعدا بأساليب الشرق والغرب . ومادام الملك فؤاد بهذه الصفات العظيمة ، فهو خليق بمركز الخلافة إذ هو ملك مسلم ، وله فى العالم كله مكانة وعزة ويستطيع أن يتكلم عن المسلمين ويدافع عنهم فى الحدود التى يستطيعها أى ملك مسلم . فالأمم الإسلامية ـ إذن ـ صائبة الحكم فى ظنها أن مصر تريد الخلافة وإمارة المؤمنين ، ولكن هذه الأمم الإسلامية ملوكا وأمراء لها من العزة والمكانة ما لمصر ، فالحجاز والعراق وإيران واليمن ، لكل منها ملك ، والهنود لهم أيضا مهراجات يعتبرون أنفسهم فى مقاطعاتهم ملوكا . وأولئك وهؤلاء قد شغفوا بالخلافة أو شغلوا بها . فأخذ كل منهم يرشح نفسه لها ، ويحرض قومه وأمته على الظفر بها . وهكذا أعاد التاريخ نفسه حينما كانت الخلافة فى بغداد والشام ومصر ، مثارا لقتال وشقاق ، وعندما تنازع عليها العباسيون والفاطميون ، وذلك كان هو السبب فى تأخر الاستجابة لإنعقاد المؤتمر الذى دعا إليه الأزهر الشريف .

ومما يجب التنبيه إليه أن الخلاف الذى كان بين ملوك وأمراء العالم الإسلامى كان هو نفسه بين الدعاة إلى المؤتمر . فرأى الشيخ حسين والى يناهض الشيخ الظواهرى وكان الشيخ والى يجاهر بالدعوة إلى الملك فؤاد خليفة للمسلمين .

وعلى الرغم من الإرتباك الشديد حول المؤتمر والدعوة إليه . انعقد المؤتمر بالقاهرة فى الميعاد الذى حدد له ، ولكنه كان انعقادا مشوّها لأنه لم يكن بالمؤتمر الإسلامى العام ، ولم يكن مظهره بالمظهر الذى تخيله له المهتمون به والداعون إليه . وهؤلاء هم علماء مصر قد جلسوا بين من حضر من المغرب ومن سورية ومن فلسطين ، وقد راحوا جميعا يتشاورون ويتحدثون ، ولكن التبرم برجال مصر بدا يستعلن فى خطب القوم ومناقشتهم مشيرا إلى سوء ظنهم بعلماء الأزهر ، وأغراض مصر والمصريين .

وفى أثناء هذا الجو العاصف بالأحداث الاسلامية والعربية داخل مصر وخارجها كنا ـ نحن طلاب القسم الأدبى بالأزهر ـ نتابع الأخبار التى لم نشهدها وننفعل بالأحاديث التى كان يرويها لنا أساتذتنا بروح مشوب بالغيرة البالغة على شئون مصر والمصريين ، والعروبة والعرب ، والإسلام والمسلمين ، ومع أن ذلك كان يستنفد كثيرا من أوقاتنا ، فإننا كنا نقبل على الدراسة فى القسم العالى حتى ظفرت مع زملائى فى الفصل بالشهادة العالمية ، وكان الذى يظفر بالشهادة العالمية يلتحق بقسم التخصص فى إحدى شعبه وهى : شعبة الفقه والأصول ، وشعبة المنطق والتوحيد . وشعبة التاريخ والأدب العربى ، إذ كان الذى يحذق علوم البلاغة والادب يستطيع أن ينتفع بعلوم الشريعة والتاريخ والتربية وعلم النفس . وكان طالب التخصص أكبر قدرا ، وأسمى منزلة من طالب القسم العالى . وكان مظهر سمو المنزلة يتراءى فى اختفاء الأرغفة الأربعة التى قام مقامها ثلاثة جنيهات يأخذها طالب التخصص على



□ يوم التخرج من القسم العالى تخصص البلاغة (يعادل الدكتوراه) .

رأس كل شهر ، والجنيهات الثلاثة لم تكن بالمال القليل فى تلك الأيام ، فكانت تقوم بحاجات الطالب الضرورية إلى جانب ما كان يبعث به إلينا أهلونا من مال فى حدود الإمكان .

وعلى ذلك استقامت لنا حياة مريحة تمتاز بالرقى الاجتماعى ، والرقى الثقافى ، والآمال العريضة فى مستقبل كريم .

الأزهر والأحزاب

وهناك أمر لابد من الوقوف عنده لكل من يريد أن يكتب عن الأزهر والأزهريين تاريخا منصفا ، لا ينحرف مع الهوى ذات اليمين ولا ذات الشمال . ذلك أن السياسة

الحزبية كانت قد حملت رجال الاحزاب على أن يتنكروا للدستور الذى رضيته الأمة وظفرت به بعد جهاد طويل وقد أراد ذوو السلطان من أرباب الحكم أن يستعينوا ببعض رجال الأزهر ، فالتمسوا من أولئك السادة من يسوغ لهم العدوان على دستور ١٩٢٣ . وصدر المنشور الذى يقول فيه ناشروه : « « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » . وهم يقصدون بأولى الأمر ـ ناظر الخاصة الملكية ، ورئيس الوزراء الذى وضع دستورا جديدا ليستبدله بالدستور القديم .

ولقد كانت محاولة الاعتداء على الدستور استرضاء لرجال القصر بمثابة الزيت يلقى على النار فيزيدها اشتعالا . ذلك أن الشيخ المراغى شيخ الأزهر كان قد تقدم إلى القصر برأى لإصلاح الأزهر ، ولكن القصر لم يوافق على هذا الرأى لأنه كان ينتقص من سلطان القصر . فلم يجد الشيخ المراغى مندوحة عن أن يستقيل تاركا منصبه للقصر يتصرف فيه كيف يشاء .

وقد كان من الطبيعى أن يغضب أنصار الشيخ المراغى وأن ينتهزوا الفرصة لاعلان غضبتهم العارمة بمهاجمة البيان الذى أصدره بعض شيوخ الأزهر بتوجيه من القصر ، فكتبوا بيانا أوضحوا فيه معنى الآية الشريفة قائلين : إن الآية رسمت الطريق فذكرت أنه ربما تنازع المسلمون فى أمر من الأمور ، وفى هذه الحال ، يجب أن يرد الأمر إلى ما يراه أهل الحل والعقد عن طريق القياس مصلحة للأمة المحكومة بالكتاب العزيز . وأهل العقد والحل فى هذا المقام هم أبناء الشعب المصرى الذى جاهد أعظم الجهاد ، وبذل غوالى التضحيات . ولم تجد الحكومة مناصا من معاقبة الذين عارضوا البيان المذكور فقررت فصلهم من الأزهر بغير معاش . وقد كان المفصولون سبعين عالما من خيار العلماء ، وأصحاب الماضى المجيد فى خدمة الوطن العزيز وخدمة الأزهر الشريف . ولا يزال الناس يذكرون رؤوس هؤلاء المفصولين وزعمائهم ، وقد كانوا ستة نفر لهم سابقة جهاد لا يجهلها إلا الجاهلون ، ولا يجحدها إلا الجاحدون . وهؤلاء الستة هم : الشيخ على سرور الزنكلونى ، والشيخ محمد عبد اللطيف دراز ، والشيخ عبد الجليل عيسى ، والشيخ محمود شلتوت ، والشيخ محمد العدوى ، ثم الشيخ حامد محيسن . وما دام الحديث فى هذه الصفحات حديث ذكريات ، فإن من حقها الذى لا نمل اقتضاؤه أن يعرف الناس عن كل واحد من هؤلاء ما كان يمتاز به بين الأزهريين .

فأما الشيخ الزنكلونى : فقد كان رجلا مرجو الخير ، مقدورا من كل الذين سمعوا به أو قرأوا عنه ، وخاصة موقفه الوطنى الرائع مع القمص سرجيوس فى ثورة ١٩١٩ . ومما يؤثر عنه من الكلمات التى ذهبت مذهب الأمثال السائرة قوله فى حفل عام : « إن الأديان كالألوان من الطعام وضعت على مائدة ودعى الناس إليها ، فكما أن لكل إنسان أن يختار اللون الذى يحبه ويألفه دون أن يعترض عليه أحد ، فكذلك الأمر

فى الديانات فلكل إنسان أن يختار دينه الذى ألفه وشب عليه ، دون أن يكون لأحد حق الاعتراض عليه .

وقد كان الشيخ الزنكلونى رحمه الله أبا لسائر المفصولين ، فلا يبرمون أمرا دون أن يكون له فيه رأى ، وكان موضع أسرار كثير من الناس وربما اختلف الواحد منهم مع زوجته ، فلا تجد أقرب من الشيخ الزنكلونى تشكو إليه ، فإذا هو ماض إلى الزوج المخطىء ومعه عصاه الغليظة التى كانت لا تفارقه حتى إذا ذهب إلى البيت الذى فيه الخصومة نادى الرجل باسمه دون لقب ، كما يفعل الوالد مع ولده المخطىء . ولم يكن ذلك التصرف ناشئا عن رغبة فى دعابة أو حب ظهور ، ولكنه كان ناشئا عن عاطفة صادقة تستمد وجودها من سن عالية ، وتجربة عريضة ، ورغبة فى إسعاد البيوت التى له بها صلة كصلته بأبنائه المفصولين . وقد أذكر أنه قيل له ذات يوم أن يتقدم باعتباره راسا للمفصولين إلى دار المندوب السامى البريطانى الجديد المستر بيترسون ، وكان هذا المندوب قد وجه دعوة عامة طلب فيها أن يتقدم إليه أصحاب الظلامات بشكاواهم لانصافهم ، فقيل للشيخ الزنكلونى هلا تقدمت أنت بشكوى المفصولين ، وأنت شيخهم وكبيرهم ؟ فَهَمَّ الشيخ بأن يضرب الشيخ محيسن صاحب الاقتراح ضربة تقضى على حياته ، لولا أنه بادر إلى الاعتذار قائلا : إنها مجرد ممازحة لا صلة لها بالحقيقة . ثم دعا بإخوانه الباقين وقدم لهم عشاء سخيا . فلما فرغوا من عشائهم توجه إليهم قائلا لهم : « إنى لا أستعين بجورج الخامس على أحمد فؤاد ، وإنه لأيسر سبيلا وأخف احتمالا أن أذهب إلى ملك مصر فاشتمه وأدخل السجن ، ولكننى لا أستعين عليه بملك الانجليز مهما حل بنا من متاعب . ولأن تموتوا من الجوع خير لكم فى دينكم ودنياكم من أن تنصروا رمز الاحتلال على رمز الحرية والاستقلال . فمن شاء أن يكون معى على هذا الأسلوب فهو أخى ، وأنا أخوه . . ومن أبى فهو عدوى وأنا عدوه حتى نلقى الله » . وبهذه الكلمات الحاسمة بلغ الشيخ الزنكلونى منزلة يسجلها له التاريخ ، ولا ريب فى أن هذه الكلمات التى قالها بصفته زعيما للمفصولين قد رفعت منزلته ومنزلتهم معه . ثم منزلة الشيخ المراغى نفسه باعتباره رجلا ثار لكرامته معتزا بمنصبه ، فازداد طلبة الأزهر فى القاهرة والأقاليم تعلقا بالشيخ المراغى . . وليس يسوغ لأحد أن يرتاب فى كلمات الشيخ الزنكلونى بأية أن الرجل رفض جميع الوظائف الادارية بعد أن عرضت عليه ذات بريق يخطف الأبصار ويسيل اللعاب . فظل مدرسا فى الأزهر يعلم الطلاب ، فإذا رحل إلى بلادهم بدعوة منهم ومن ذويهم يرجون بركاته قام فى الناس مقام الواعظ الذى يخاطب الناس بقلبه ، فإذا هو صورة أخرى للواعظ الزاهد الإمام حسن البصرى رضى الله عنه وأرضاه .

وأما الشيخ محمد عبد اللطيف دراز ، فقد كان كما قال هو على منبر الأزهر خليفة للشيخ « ابو العيون » فى ثورة ١٩١٩ وكان قد اعتقل وأودعه جيش

الاستعمار فى معسكر قصر النيل مرة ، وفى معسكر سيدى بشر بالاسكندرية مرة أخرى ، وكان ذلك عقب خطبته الشهيرة التى قدم نفسه فيها بعد اعتقال الشيخ أبو العيون التى قال فيها : « الحمد لله الذى جعلنى اجن خلف لاجن سلف » . وكانت قدوة الشيخ دراز الزعيم محمد فريد والزعيم مصطفى كامل . وقد تدرج فى المناصب الإدارية الأزهرية حتى كان وكيلا للأزهر ، وشارك فى الحياة النيابية قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ وبعدها ، وكان عضوا فى مجلس النواب ، ومجلس الشعب .

وأما الشيخ العدوى فقد كان رجلا من رجال السلف الصالح ، وكان ظاهره كباطنه ، وكان يمتاز بصوت رنان وعلم غزير ، وأسلوب عربى لا يشاركه فيه كثير من الأزهريين ، وكان مما يؤثر عنه من خوالد الكلمات قوله : « والله لو سقط عمود من أعمدة الأزهر ، وكان فى وسعى أن أقوم مقام هذا العمود فى صيانة البناء لبذلت حياتى فداء لبقاء الأزهر حيطانا وعُمدا وثقافة » .

وأما الشيخ شلتوت ، فقد كان رجلا شديد الحرص على التحصيل والقراءة فشغله ذلك عن السياسة . وقد كان السر فى فصله إخلاصه للشيخ المراغى وصراحته فى اعتبار أولى الأمر هم الشعب ، والذين يمثلون الشعب . فأما القصر والدائرون فى فلكه ، فإنهم ليسوا من أولى الأمر فى كثير ولا قليل . وقد عرف الأزهر له فضله ، فأخذ السلم الوظيفى من أوله حتى انتهى إلى منصب شيخ الأزهر ، ومن أحسن ما كتبه كتابه « الإسلام عقيدة وشريعة » .

وأما الشيخ عبد الجليل عيسى ، فقد كان عربيا شديد الأنفة من الذل ، وكان من المؤمنين بالسلفية ، وكان شديد الفخر بقريبه حمد الباسل باشا عضو الوفد المصرى . وكان اعظم فخره به انه كان من دعاة الصلح بين جلالة الملك عبد العزيز آل سعود والامام يحيى حميد الدين ملك اليمن أثناء الخصومة بينهما . وكان مع ذلك قارئا عالما بتفسير القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة . وقد أثرى المكتبة العربية والاسلامية بكتبه « المصحف الميسر » و « تيسير التفسير » و « اجتهاد الرسول » و « صفوة صحيح البخارى » وكان عميدا لكلية أصول الدين . وقد اعتقله زكريا محيى الدين وزير الداخلية فى أوائل ثورة يوليو ١٩٥٢ بحجة انه يوزع المنشورات ضد الثورة ، وقد ضمنته بصفتى وزيرا للأوقاف . . فأنقذته بذلك الضمان من مذلة النوم فى اقسام البوليس . ولا شك أن فصل هؤلاء المجاهدين من علماء الأزهر على هذه الصورة الظالمة كان له أسوأ الأثر فى نفوس الناس جميعا . سواء منهم الأزهريون وغير الأزهريين . وقد تجلى هذا الأثر فى إجماع الطلاب الأزهريين فى القاهرة والأقاليم على الامتناع عن الدروس ، وعقد الاجتماعات المتوالية فى الأزهر يعلن فيها الطلاب سخطهم على مشيخة الأزهر ، وعلى من وراءهم من رجال الحكم .

وربما تعاقب على المنبر خطباء كثيرون منهم من كان طالبا بالأزهر ، ومنهم من كان طالبا بالجامعة المصرية ـ جامعة القاهرة ـ الآن ـ والمدارس العليا ، وما زال ظلم الظالمين يحرك فى نفوس الناس مشاعر الاشفاق على المظلومين بقدر ما يحرك فى أنفس الناس الخوف من أن يحيق بهم الظلم من حيث كان الظالم لا يقف ظلمه عند حد . فكان مثله كمثل شارب الماء الملح لا يزداد له شربا إلا إزداد به ظمأ .

وقد وقع ما كان يتوقعه أهل البصر بالأحداث ، فلم يمض زمن طويل حتى قررت الحكومة فصل جماعة من الطلاب الذين كانوا يعطفون على شيوخهم ويرثون لهم ويعرفون حقهم عليهم وفضلهم على الأزهر . وقد كانوا أعوانا صادقين للشيخ المراغى فى محاولته إصلاح شئون الأزهر وتطويره تطويرا يمكنه من أداء رسالته التى ينتظرها منه المسلمون ، وينتفع بها الإسلام نفسه على امتداد الزمان واختلاف المكان .

والذين يعرفون الشيخ المراغى يعرفون أنه إمام واسع الأفق كبير العقل قادر على فقه الاسلام باعتباره حضارة تنظر إلى الدين فى آفاق الدنيا بقدر ما تنظر إلى الدنيا فى آفاق الدين . وتلك منزلة من العلم لم تتهيأ وسائلها إلا للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده شيخ الإمام المراغى . ومن قبله حجة الإسلام وفيلسوفه الأول السيد جمال الدين الأفغانى .

لقد كان الشيخ المراغى يمتاز بعقل واع ، وبصيرة نافذة أعدته بها تجربة طويلة ، وتقلب فى شتى شئون المنازل الاجتماعية . ذلك أنه كان يتلقى مع أستاذه الشيخ محمد عبده ما لم يشاركه فيه أكثر زملائه . وقد بدأ الأستاذ المراغى حياته العملية قاضيا فى مدينة « دنقلة » بالسودان . وقد ظل فى منصبه هذا حتى عين قاضيا لمديرية الخرطوم ، ثم عين مفتشا فى وزارة الأوقاف بمصر ، ولم يلبث حتى عين قاضيا لقضاة السودان .

وقد كان أبرز ما يمتاز به اعتزازه الشديد بكرامة منصبه . وقد طال المقام بالرجل فى السودان حتى رأى أنه غير قادر على تحمل تبعات منصبه . فغلبه الحنين إلى أهله ووطنه فجاء إلى مصر رئيسا للتفتيش الشرعى ، ثم عين رئيسا لمحكمة مصر الشرعية ، ثم عين عضوا بالمحكمة العليا الشرعية ، ثم رئيسا لهذه المحكمة . ولم يشأ الرجل أن يتقيد بمذهب فقهى واحد بل كان يأخذ من فقه الشريعة بما يرى أن المصلحة تقتضيه وروح الإسلام لا تتهجمه . ولتوافر الثقة به والاطمئنان إلى خلقه ودينه وسعة أفقه ، عين شيخا للأزهر فى شهر مايو ١٩٢٨م . ولا يجهل أهل العلم أنه بدأ عمله فى الأزهر باحثا عن الأدواء والعلل التى يشكو منها الأزهريون فيسر الله له الأسباب إلى معرفة الداء وإصابة الدواء ، فوضع قانونا كفيلا بحاجة أهل الأزهر ، وبما يضمن به مضى الأزهر فى تأدية رسالته على وجه لائق بكرامة العلم وكرامة الإسلام . ولكن الدسائس كثرت من حوله حتى أفسدت ما بينه وبين الملك فؤاد ،

فدعاه الحرص على كرامته إلى أن يدع العمل ويترك المنصب فى أكتوبر سنة ١٩٢٩ .
ولعل من الحق علينا ـ لله ثم للتاريخ ـ أن نثبت هنا رأى الشيخ المراغى فى إصلاح الأزهر حيث كتب إلى الملك فؤاد مذكرة فى إصلاح الأزهر قال فيها : لقد أوجب الإسلام على أهله بأن تختص طائفة منهم بحمله وإبلاغه إلى الناس على ما تشير إلى ذلك الآية الكريمة : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » .

ولقد تولى سلف هذه الأمة القيام بهذه المهمة على أحسن وجه وأكمله فتركوه لأخلافهم ثروة عظيمة فى جميع فروع العلم بعد أن درسوا الديانات ، والفلسفات ، وكتبوا ـ مع ذلك ـ المقالات ردا على جميع الفرق . وأكدوا للعقل حرمته بمقدار ما له حريته فى البحث والاستقراء . وقد كان الاجتهاد غاية شريفة يسعى للظفر بها كل مشتغل بالعلم متفرغ له . ولكن العلماء فى القرن الأخير استسلموا للراحة ظانين أنه لا مطمع لهم فى الاجتهاد إذ كانت أبوابه قد غلقت دونهم ، فآثروا التقليد ورضوا به . ثم عكفوا على كتب ماتت فيها روح العلم ، ثم ابتعدوا عن الناس فجهلوا الحياة بمقدار ما جهلتهم الحياة وجهلهم الناس . ولقد هوجم الإسلام أكثر مما هوجم غيره من سائر الديانات . هوجم من ناحية العلم ، وهوجم من أهل القانون .

ومن أجل ذلك كانت مهمة أهل العلم شاقة جدا فى طلبها معرفة المذاهب قديمها وحديثها ، ومعرفة ما يجد فى الحياة من معارف وآراء . ولهذا وجب أن يدرس القرآن العظيم والسنة المطهرة دراسة مستبصرة مستنيرة فى حدود ما تقتضيه قواعد اللغة وترضاه مقاصد الشريعة . وقد ذيل الأستاذ كلماته هذه بمقترحات : أن تكون شئون القرآن الكريم فى مكاتب تحفيظ القرآن خاضعة لمشيخة الأزهر ، وأن يكون قراء القرآن والباحثون فى تفسيره خاضعين أيضا لتوجيهات مشيخة الأزهر يقضون فيها بما يرونه متفقا مع القداسة التى لا تنفك عن مصاحبة القرآن الكريم . ذلك أن الناس قد نظروا إلى القرآن الكريم على أنه تمائم وتعاويذ تحفظ من الجن ، وتصون من الحسد فاستبدلوا بالتأدب بأدب القرآن والوقوف مع أحكامه وشرائعه صورا هى إلى التقاليد الوثنية أقرب منها إلى شرائع الاسلام .

لقاء عاصف

ولما رفعت مشيخة الأزهر الشريف مذكرة الشيخ المراغى هذه إلى القصر الملكى ، أحب جلالة الملك فؤاد أن يلقى الشيخ المراغى ليناقشه فى مذكرته . فلما التقى الرجلان قال الملك : اسمع يا شيخ مراغى إنكم تقولون للتلاميذ وللمسلمين جميعا ان الله واحد احد لا شريك له ، ولو كان مع الله إله آخر لفسد الكون

واختل نظامه . وانت بهذه الاقتراحات تريد ان تكون انت ملكا آخر مع ملك مصر ، وأنا لا أرضى ذلك وانت لا ترضى إلا به فاحدنا هو الملك .

يقول أهل الثقة من الذين يعرفون حقائق الأمور ، وما أن سمع الشيخ هذه الكلمات من الملك فؤاد حتى ارتسمت على وجهه إمارات الدهشة المشوبة بالامتعاض. ثم قال : يخيل إلى يا صاحب الجلالة ان من رجال القصر من أوحى إليك بهذه الكلمات . وإلا فإن المسئول امام الله وامام الناس لا يسعه ان يقول هذا الكلام ، لأن من ورائه جماعة لا يعنيهم الإصلاح ، ولا يريدون خيرا للملك ولا للأزهر . فكن ملكا كما تشاء وتخير من البطانات من يقبل منك هذا الكلام ، ولست انا ذلك الرجل ، لم اكنه فيما مضى ، ولن اكونه فيما ياتى من الزمان . وأرجو الله ان يوفقك إلى ما فيه خير البلاد والعباد . ثم انصرف الشيخ راضيا عن نفسه وقدم استقالته مؤمنا أوثق إيمان بأن الله تعالى لا يتخلى عن الصادقين المخلصين .

وفى إطار من ذكرى هذه الكلمات كنت أتقدم الصفوف : صفوف الثائرين من الطلاب دفاعا عن الشيخ المراغى ، ومن خلال هذه الذكريات كنت أقف على منبر الأزهر الشريف داعيا إلى احتقار الظالمين ، ومن خلال هذه الذكريات التى تحملها هذه الكلمات طرقت مع زملائى أعضاء اتحاد الجامعة الأزهرية باب السيد مكرم عبيد الذى كان سكرتيرا للوفد والساعد الأيمن للنحاس باشا نستفتيه ، فأحالنا إلى الأستاذ زهير صبرى المحامى ، والعضو البارز فى حزب الوفد المصرى ، فسألناه ما الرأى القانونى فى مظاهرة من طلاب الأزهر تجوب شوارع القاهرة هاتفة بحياة الملك وسقوط الحاشية ؟ وأفتانا السيد زهير صبرى بأنكم تسعون إلى القبور من طريق قتلكم بالرصاص من رجال البوليس .

نصيحة النحاس

وقد كان النحاس باشا حريصا على مجاملة حكومة نسيم باشا حتى كان يسميها الحكومة الصديقة . ومن خلال هذه المشاعر الطيبة دعينا إلى مقابلة الزعيم الجليل مصطفى النحاس باشا فى بيت الأمة . ولما مثلنا وقوفا بين يديه قال : أنتم اتحاد الجامعة الأزهرية فأجبناه أن نعم ، فدعا بأمين بيت الأمة الأستاذ الريدى قائلا له : هات قلما وورقا فإننى أريد أن أنصح لهؤلاء الطلاب وعليك يا مأمون يا ريدى أن تخبر جرائد الوفد على لسانى بأن تنشر الخطبة التى سألقيها على أبنائى فى صدر الصحف ، وأن تجعل لها عناوين بارزة تتضمن أننى نصحتهم بالعودة إلى الدروس ، وأنهم قبلوا نصيحة الزعيم ، حتى لا يحرجوا الحكومة الصديقة التى

يرجى على يدها خير كثير باعادة دستور الامة بدلا من الدستور الخائن الذى وضعته حكومة صدقى باشا .

واذكر أننى رجوت الزعيم فى أن ينصحنا بما يشاء ، فنحن مخلصون للوطن ولزعيم الوطن ، ولكن نرجو عدم نشر النصيحة فى الجرائد حتى نتمكن من إقناع زملائنا فى الأقاليم بالعودة إلى الدروس والانتهاء من الإضراب . فإننا نخشى أن تنشر النصيحة ولكن الطلاب يرفضون ، ونحن فى أشد الحرص على أن تكون نصيحة الزعيم على العين والراس بغير خارج عليها ولا تنكر لها حتى إذا استوثقنا من قبول الطلاب العودة إلى الدراسة جاءت نصيحة الزعيم على أثر ذلك فى محلها اللائق بها .

ولكنه لم يسترح لهذا العرض الذى كنا فيه مخلصين للنحاس باشا وللأزهر ولنجاح حركة الاضطراب ولعودة دستور ١٩٢٣ . وفى هذه الأثناء دخل الدكتور طه حسين الذى كان يومئذ ملء سمع الأمة ، فرحب بمقدمه النحاس باشا ، ودعاه إلى الجلوس بجانبه ، ثم توجه بالخطاب الينا قائلا : هل تقبلون الدكتور طه حسين حكما بينى وبينكم ؟ فرحبنا بهذا التحكيم أشد ترحيب ، واخذ النحاس باشا يعرض على طه حسين القضية طالبا رايه فيها ، فبدأ الدكتور يتحدث قائلا : لقد ادهشتمونا يا ابناء الأزهر الجديد بإجماعكم على راى . على حين أن الأزهريين فى أكثر أحوالهم يتفقون على أن لا يتفقوا ، ثم تابع حديثه قائلا : ولقد سمعت كما سمعتم عرض الزعيم الجليل فى حرصه الشديد على عدم إحراج الحكومة الصديقة التى يتولى رياستها رجل طيب سليم القلب . وإذا اردتم رأيى يا أبناء الأزهر ، رأيا يتحرى مصلحة الوطن ، فإنى انصح لكم بالخضوع لنصيحة الزعيم وعودتكم إلى الدراسة . لأننى لا أتصور أن يقال لنصيحة الزعيم كونى فى الأدراج فتكون . إذ كان حق الزعيم علينا جميعا أن نسمع ونطيع . وبهذا انتهى الحديث وانتهت المقابلة ، فخرجنا بخفى حنين أو بما هو أسوأ من خفى حنين ، فإن الراجع بخفى حنين راجع بشىء ينتفع به بعض الانتفاع ، وأما رجوعنا نحن من بيت الأمة ، فقد كان رجوعا باليأس يملأ قلوبنا وبالخوف يتربص بمستقبلنا .

وقد وقع ما خفنا أن يقع ، فاجتمع مجلس الأزهر الأعلى وقرر فصل المشتركين فى حركة الإضراب بغير فرق بين المدرسين فى الأزهر ومعاهده وبين الطلاب فى شتى الأقاليم . والذين يطالعون الجرائد فى مارس ١٩٣٤ يرون قائمة طويلة تحمل أسماء المفصولين ، وفى رأس القائمة من الطلاب : احمد حسن الباقورى رئيس الاتحاد ، وعبد الحميد الكريمى سكرتير الاتحاد ، ومحمد خليفة ، ومحمد نايل . اللذان كانا طالبين فى كلية اللغة العربية ، وسيد على السلاك الذى كان مدرسا فى معهد القاهرة ، وعبد المنعم النمر وزير الأوقاف الأسبق ، وعبد الله المشد الرئيس الحالى للجنة الفتوى بالأزهر ، وعبد الرحمن بيصار شيخ الأزهر الأسبق ، وعبد المعز

عبد الستار الموجود الآن فى دولة قطر الشقيقة ، واحمد البهى المدرس بجامعة الكويت ، واحمد عبد العال ابو طالب ، وثابت ابو المعالى ، والشيخ حموده غرابه الذى كان مبعوث الأزهر فى لندن ، والشيخ فكرى يس المدرس بالأزهر ، وكثير غير هؤلاء لا يدركهم الحصر .

وقد كان موقف القصر من الأزهر مع موقف الشيخ المراغى من الملك فؤاد حديث الأندية والمجالس ، ومازال شعبنا المصرى شديد العطف على أبنائه بمقدار ما هو شديد القسوة على حاكميه ، فليس غريبا أن يكون هذا الموقف احد الدوافع إلى الاستمرار فى الإضراب عن تلقى الدروس . على أن هناك سببا اقوى من كل الأسباب فى إثارة النفوس وحفزها إلى ما هو ابعد اثرا وأشد إثارة لحفائظ الوزارة من الإضراب عن تلقى الدروس . ذلك أن الشيخ الظواهرى ـ رحمه الله ـ كان قد حدد الأعداد التى يسوغ لها ان تلتحق بالكليات بعد أن تنال الشهادة الثانوية . ولما كان المضطر يركب الصعب لجأ الطلبة إلى الجامعة الأمريكية يطلبون عندها ما يعوضهم عن الالتحاق بالكليات الأزهرية . وقد أجابهم مدير الجامعة ـ أنئذ ـ إلى طلبهم ووعدهم بأن يفتح لهم فصلا جديدا يحصلون منه على شهادة عليا لعلها أحسن نتيجة ، وأطيب ثمرا من شهادة الأزهر .

ولو أن هذا الأمر كان قد حدث فى مصر ، وهى فى حالة مستقرة هادئة لكان من الميسور احتماله ، ولكن مصر كانت ـ انئذ ـ تموج بالفتن العمياء التى كانت تنفخ فى نارها حادثة التبشير التى قام بها المبشرون فى مصر سنة ١٩٣٢ ، وكان مصدرها مدينة بور سعيد ، ثم امتدت إلى بعض مدن القطر الأخرى ، وقد وضع المبشرون كتبا للطعن فى الإسلام ، فهاج المسلمون وماجوا وراحوا يجمعون التبرعات لمناهضة أولئك المبشرين الأغبياء .

وفيما كان الناس فى مصر ثائرين هذه الثورة ، كانت تجىء الأنباء باضطهاد المسلمين فى طرابلس الغرب على يد ايطاليا التى انتزعت أراضيهم ، وأخذت منهم أولادهم لتلحقهم بمدارس تبشيرية فى روما . وعلى مثل ذلك كان البربر يقومون بما تقشعر منه الجلود فظاعة وفظاظة لا ترضاها انسانية ولا يقبلها دين .

فهذه الامور مجتمعة هى التى اثارت الأزهريين ودعتهم إلى الإضراب عن تلقى الدروس ، وإلى ما هو أشد أثرا فى نفوس الظالمين من الإضراب عن تلقى الدروس . ولهذا لم يجد مجلس الأزهر الأعلى علاجا لهذه الثورات ، إلا أن يفصل القائمين بها والمحرضين عليها . ثم لم يكتف الظالمون بفصلنا حتى بعثوا بقوانين كانت قد ماتت لكى يحاكمونا بها . وقد حوكمنا وحكم على بالحبس سنة ولكن القاضى كان رجلا حر الضمير صاحب دين ، فأمر بوقف التنفيذ .

ثمرات ثورة الأزهر

وليس مما ينبغى الإغضاء عنه فى تدوين هذه السطور ، أن نغفل ما أثمرته ثورة طلاب الأزهر من ثمرات فيها خير كثير ، أولها : التخفف من أثقال العصبية الدينية ، وثانيها : صلة طلاب الأزهر بطلاب الجامعة المصرية ، إذا كان طلاب الجامعة قد ثاروا واضربوا مطالبين بعودة الأستاذ احمد لطفى السيد باشا ، والدكتور طه حسين . وكان الأزهر يطالب بتنحية شيخ الأزهر الشيخ الأحمدى الظواهرى وتعيين الشيخ المراغى مكانه ، وثالث هذه الأمور وهو أهمها ـ فيما أرى ـ تلك المقالات التى كان يتعصب فيها كل فريق لرايه فى منطق صحيح صائب واسلوب أدبى فصيح على ما كان فى تلك المنشورات من كلمات نابية ، وغمز ولمز لا يليق بأهل الإسلام فضلا عن أن يكونوا من الدعاة إلى التأدب بأدبه العظيم .

ومن صور هذه المنشورات صورة منشور كتبه عالم معروف بأسلوب أدبى فصيح ، وهو الشيخ محمود الغمراوى الذى كان يخاصم الشيخ المراغى وأصدقاءه والمتعصبين له خصومة سافرة لا تتحرج عن قوارص الكلم وقسوة الأسلوب . وقد نشر الرجل مع الذين يشاركونه رأيه منشوره هذا فى كتاب حبسه عن التداول ما تضمنه من اتهامات باطلة وكلمات لا يرضاها العلم ، ولا يليق بكرامة العلماء . وقد سمى هذا الكتاب « الأزهر وجماعة إخوان الصفاء » . وفى ذلك الكتاب يقول ـ رحمه الله :

« الأزهر ـ شفاه الله ـ كان وثيق الأركان شديد القوى حديد الهمة صارم العزم ـ صارعته غِيَرُ الدهر فصارع غير الدهر فصرعَها ، ونازلته نوازل الأحداث فنازلها مدى قرون يجر بعضها بعضا ، ونفض يده من مصارعة الغير ومنازلة النوازل ظافرا قاهرا . أيها القارىء قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ، ثم قل أعوذ برب الناس من شر الوسواس الخناس . أما أنتم يا مراكيب الاصلاح المدَّعَى ودراسات التجديد المزعوم فأحز دعوانا أن أصلح الله نفوسكم وجدد عقولكم وله الحمد على السراء والضراء » .

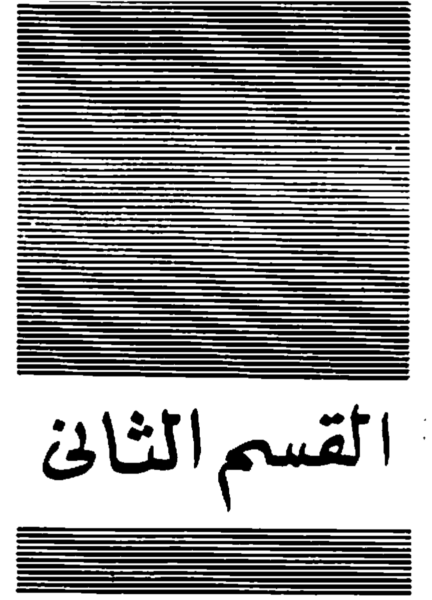
وقد كان هذا المنشور ردا على منشور كتبه اتحاد طلاب الجامعة الأزهرية الذى كنت اتشرف برياسته ، والذى كان يعقد جلساته فى عربات الترام من روض الفرج إلى العتبة ، ثم من العتبة إلى روض الفرج حتى نكتب المنشور ونتخذ القرارات بعيدا عن أعين البوليس ، وفى هذا المنشور هذه الكلمات : « يا أبناء الأزهر فى القاهرة وفى الأقاليم لا تتهاونوا فى تحقيق مطالبكم ، ولا تضعفوا بقول القائلين : إنكم تعرضون عاما من عمركم للضياع ، وقولوا للناس ولأنفسكم مع الناس ، فليضع هذا العام ولتضع بعده أعوام ، وليبق الأزهر مأوى للبوم ومنعبا للغربان ، فذلك أنبل فى منطق

الدنيا ، وأجمل فى منطق الدين من أن نقبل العدوان على الدستور بدستور يبيح للظالم فصل العلماء ، وحبس الطلاب دون ذنب اقترفوه أو جرم ارتكبوه والله معكم يترِكم أعمالكم » .

ولقد ظلت الثورة ماضية إلى غايتها حتى عين الشيخ المراغى مرة أخرى شيخا للأزهر فى أبريل - كما طالبنا - فتلقاه الأزهريون أمنية من اكرم أمانيهم حققها الله تعالى لهم بعد معاناة شاقة وبلاء شديد .

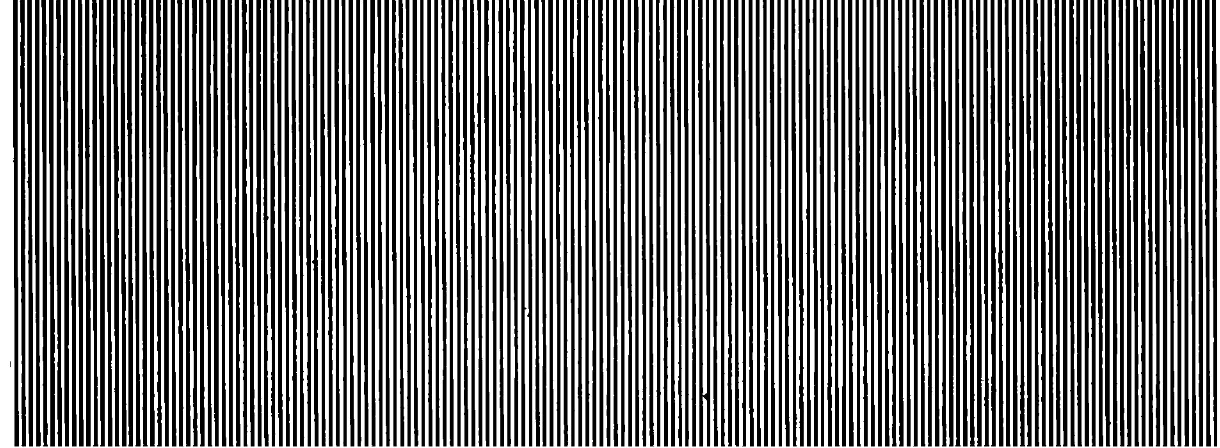
وقد رأى الشيخ أن يسهم الأزهريون بنصيب فى البعوث التى ترسل إلى الجامعات الغربية ، فبعث البعوث إلى ألمانيا وفرنسا وبريطانيا ، ثم رأى - رحمه الله - أن يتصل بأبنائه الطلبة عن طريق الدرس والتأليف ، فبدأ يدرس كتاب - فى أصول الفقه - ومازال فى منصبه تزيده الأيام وقاراً حتى لبى نداء ربه فى الرابع عشر من رمضان سنة ١٣٦٤ هـ ٢٢ اغسطس سنة ١٩٤٥م .

ولما عاد الإمام المراغى إلى مشيخة الأزهر بدأ أول ما بدأ باعادة المفصولين جميعا أساتذة وطلابا ، وفى مقدمتهم الستة الكبار الذين احتملوا بالفصل مشقات بالغة وضيقا شديدا مدة خمس سنين عجاف . وقد كان المتخرج من الأزهر فى أقسام التخصص يعمل مدرسا فى الأزهر بالمجان فى انتظار درجة تخلو ، فيعين عليها بثلاثة جنيهات شهريا ، ولكن الشيخ المراغى رفع هذه المكافأة الضئيلة إلى ثمانية جنيهات . . وكنت أحد الذين عينوا بثمانية جنيهات مدرسا فى معهد القاهرة ! .



القسم الثانى

فى صفوف الإخوان المسلمين



الفصل الثانى

اللقاء مع البنا
والأمانة التى حمّلها لى قبل استشهاده

من الإنصاف للتاريخ القول بأن الأستاذ حسن البنا كان يرى الأزهر كما يراه الشيخ المراغى نفسه . فكان كثيرا ما يقول : « إن كل شاب مسلم هو شاب ازهرى » . وبهذا المنطق القائم على الصدق العقدى ، والصدق التاريخى ، كان الأستاذ البنا ـ رحمه الله ـ من الذين أيدوا أعظم تأييد حركة الطلاب الأزهريين فى ثورتهم وكان مرجع ذلك ـ فى مبلغ علمى ـ إلى توقعه الانتفاع بطلاب الأزهر .

وآية ذلك أننى لأول ما لقيته وأنا طالب فى قسم التخصص سنة ١٩٣٣ م رأيت منه إقبالا على الحديث معى والحفاوة بى . وقد مضى يحدثنى فى صوت خفيض بآماله الكبار فى إصلاح المجتمع الإسلامى فى ظل من دعوة الإخوان المسلمين . وقد لاحظت فى حديثه معانى تحتاج إلى مزيد من إيضاح ، فجعلت استعجله فى الحديث إلى بما يوضح المبهم ويجلى الغامض . إذ كان ذلك هو الأهم فى سعينا إلى حفل الإسراء والمعراج الذى كان منعقدا فى فناء عمارة الشماشرجى بشارع محمد على على يسار الذاهب إلى القلعة . ولقد اذكر أنه بدأ يتحدث عن قصة الإسراء حديثا علميا بعيدا عما ألفه الناس فى مثل هذه الأحفال ، ولما كان يعلم أننى أعالج الشعر سألنى : « هل قلت شيئا فى قصة الإسراء ؟ فإن مثلك لا يترك هذه المناسبات دون أن تتحرك بين جنبيه عواطفه الإسلامية التى لا ترضى إلا إذا أعلنت إلى الناس ما يرضى العاطفة الإسلامية فى انفس المسلمين » .

فأجبته فى تواضع شديد : لقد قلت أبياتا فى هذه القصة الشريفة وأنه ليسعدنى أن يؤذن لى بإلقائها فى هذا الحفل المهيب ، فلم تكن كلمته التى سمعتها منه إذنا بل كانت أمرا لا سبيل إلى مخالفته أو التهاون فى إمضائه ثم رقيت المنبر فقلت :

صوت طربنا له قد بات يشجينا … ما نرى شخص ذى صوت يغنينا
أرهف خليلى سمعا طالما نعبت … فيه الهموم وخل الصوت يشجينا
إن الأغانى ما هزت لمكرمة … لا أعلم العقل يأباها ولا الدينا
هذا الحديد يغنى صادحا غردا … لا يخطىء اللحن ما حاكى المغنينا

كـأنـه بيـن آهـات يـرددهـا | صب يثبك ما يشجيه تلحينا
وسلهموا أنكروا أن النبى سرى | وأم بـالمسجد الأقصى النبيينا
أينطقـون حـديـدا لا حيـاة بـه | فيمـلأ الأرض إفصـاحـا وتبيينـا
ويستقلـون فـوق الـريـح طـائـرة | تسـابق الريح طيرا فى مغـانينا
فيصبحـون ومصر عش طـائـرهم | ويظـهـرون بـرومـا أو بـأثينـا
ويعجـز الله أن يسـرى محمـده | فى لمحة الطرف ما أغبى الممارينا

وقد كان أخى الشيخ محمد خليل الخطيب النيدى ـ وهو العارف بالله الذى يتبرك الناس به فى مدينة طنطا ـ كان فى الحفل وكان أشد الحاضرين سعادة بهذه الأبيات وخاصة حين أنشدت البيت : أرهف خليلى سمعا فقد وقع فى نفسه ـ رضى الله عنه ـ أننى أعنيه بكلمة « خليلى » وذلك ما قصدته فعلا . ثم لما فرغت من إنشاد القصيدة أخذ الأستاذ المرشد بيدى قائلا : إما أن أكون فى كلمتى قد نثرت نظمك ، وإما أن تكون أنت قد نظمت نثرى . ثم استطرد يقول : شعرك مع نثرى من قبيل اتفاق الخواطر ، ولست تنكر اتفاق الخواطر . وأنت متخصص فى البلاغة والأدب العربى ، وقد وقع فى نفسك ـ بلا ريب ـ أمر اتفاق الخواطر بين أمرىء القيس ، وطرفة بن العبد البكرى ، فإن أحدهما لم يأخذ من الآخر ولكن كلا منهما قال ما قاله الآخر بغير تبديل إلا فى قافية الشعر ، فذلك حيث قال امرىء القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل | بسقط اللوى بين الدخول فحومل
وقـوفا بهـا صحبى عـلى مطيهم | يقـولـون لا تهلـك أسى وتجمـل

وأما طرفة بن العبد فقد قال :

لخـولـه أطـلال ببـرقـه ثمهـد | تلوح كباقى الوشم فى ظاهـر اليد
وقـوفا بهـا صحبى عـلى مطيهم | يقـولـون لا تـهلـك أسى وتجلـد

ولست تنكر ـ حفظك الله ـ أن يكون هذا اللون من المنطق صورة من ثقافة الأستاذ المرشد ـ رحمه الله ـ ذلك أنه كان يحفظ ديوان المتنبى ويستشهد به كلما احتاج إلى ذلك فى مجلس حديث أو موقف خطابة مضموما ذلك إلى ما متعه الله به من حفظ القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، فكان كما يقول أسلافنا « إهابا حشى علما » .

ومنذ تلك الليلة السعيدة وجدت فى أعماق نفسى أننى محتاج إليه فى أمور الدنيا وأمور الدين ، فكنت حريصا على الالتقاء به كل أسبوع مرة على الأقل . ولا أذكر أننى تخلفت عنه فى رحلة رحلها من الاسكندرية إلى أسوان ، ثم من بور سعيد إلى الدار البيضاء . فلما اشتدت ثورة طلاب الأزهر كان الإخوان بتوجيه

المرشد خير نصير لها ، إيمانا منه بأن نجاح هذه الثورة على يد أحد الأعضاء البارزين فى الإخوان المسلمين إنما هو نجاح لدعوة الإخوان المسلمين .

وليس يغيب عن المعنيين بشئون الأزهر أننى كنت زعيم تلك الثورة التى كانت تطالب بعودة الشيخ المراغى إلى منصب شيخ الأزهر ، ثم بإخراج بطانة السوء من القصر الملكى ، ثم بإنصاف الأساتذة الذين فصلوا من وظائفهم من أجل حرصهم على كرامة الأزهر وشرف الوطن . وما كانت عناية الله ـ تعالى ـ لتتخلى عن الصادقين المخلصين الذين أجمعوا أمرهم على مدافعة الظلم وقهر الظالمين « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » . ولهذا نجحت ثورة طلاب الأزهر التى تشرفت بزعامتها ، فخرجت بطانة السوء من القصر وعاد الشيخ المراغى إلى منصبه .

وكان أول عمل قام به أن يرد الحقوق إلى أهل الحقوق ، فأعاد الذين فصلوا من وظائفهم ورفع مكافأة المتخرجين فى أقسام التخصص من ثلاثة جنيهات إلى ثمانية ثم نظر إلى الأزهر فى الإطار العام فبعث بعثات إلى ألمانيا وفرنسا وإنجلترا يرجو بذلك للأزهر خيرا يستطيع به أن يقوم بجهد مقدور فى خدمة الإسلام . وقد كان هذا ـ بلا ريب ـ تفكيرا طيبا لو أنه مضى إلى غايته الشريفة ، ولكن تحكم الهوى فى اختيار المبعوثين حوَّل الخير شرا والحسن قبحا . وبدلا من أن يرحب الناس بهذه البعثات ضاقوا بها صدرا ، وكانت قذى فى الأعين ، وانحرافا فى الاختيار . إذ كان بعض المبعوثين لا يصلح أن يكون عنوانا للأزهر الشريف . وقد أدرك هذا الشيخ المراغى بعد عام أو عامين فأسف حين لا يغنى الأسف شيئا .

غير أن الرجل ـ رحمه الله ـ كان قد أضاف إلى الخير المجلوب بالبعوث ، خيرا آخر أراد أن يظفر به عن طريق نفى العصبية الحمقاء عن الدين فى رسالة بعث بها إلى مؤتمر الأديان العالمى الذى أنعقد فى لندن سنة ١٩٣٦م . وكان المؤتمرون قد دعوه إلى حضور المؤتمر وإلقاء كلمة فيه فاستجاب الرجل ، وأناب عنه أخاه الشيخ عبد العزيز المراغى الذى كان فى لندن مبعوثا إلى جامعتها . وفى هذه الرسالة يقول رحمه الله : « **الناس فى مواجهة الدين رجلان : أحدهما** : رجل مؤمن قوى الإيمان يصلح إيمانه لمقاومة شر الحياة ، لكنه منحرف عن الجادة تثور فيه عناصر الحقد على المخالف له ، فهو له مبغض وبه متربص . وهذا ـ بلا ريب ـ أبين حاجة إلى توجيه إيمانه توجيها نافعا ، وإلى تنقيته من الشوائب حتى يكون تدينه سليما معافى من العلل والآفات . **وثانى الرجلين** : رجل ضَعُف إيمانه وأقفر قلبه منه ، وهذا النوع موجود بين الطبقات التى تسمى « الطبقات المستنيرة » . وإذ قد كان الأمر على هذه الصورة ، فمن الواجب أن يتعاون أهل الأديان على تقوية المشاعر الدينية التى تعمُر القلوب ، وتملأ النفوس هيبة الله منه ، ورفقا بعباد الله . وسأعرض هنا لبعض الوسائل التى تساعد لتحقيق الغرض ، مكتفيا بالإجمال تاركا التفاصيل للسادة

أعضاء المؤتمر ، وما ينكشف عنها تعاونهم الصادق بين الأعضاء وبين الذين يحبون الإنسانية ويكرمونها تكريما مستمدا من أوامر الله تعالى . ومن هذه المسائل ـ فيما أرى ـ إيجاد هيئة تعمل على تنقية الشعور الدينى من الضغائن والأحقاد ، ثم توجيه الوعظ الدينى هذا الإتجاه الإنسانى بالأساليب التى يقررها أهل كل دين لواعظيه وخطبائه وكُتابه . وأهم من ذلك كله جعل الدعاية للأديان والتبشير بها قائما على أساس عقلى ، إيثارا للحق ورغبة صادقة فى الوصول إليه مع البعد عن الاحتيال فى ذلك والاعتماد على وسائل غير بريئة فى توجيه الاعتقاد . وهذه الهيئة تقوم بحسم كل إشكال أو نزاع حسما نزيها صادِق الرغبة فى المسالمة ، والحرص على العيش فى أمن وسلام » .

الموقف الإسلامى الصحيح من الإخوة المسيحيين

فى هذه الأثناء كان الأمير شكيب ارسلان أمير البيان العربى قد ظهر له كتاب اسمه « الحلل » وكان كتابه هذا يتضمن أحداثا رآها الرجل ، وتأثر بها ومات دون رأيه دفاعا عن الحق وابتغاء للثواب من الله رب العالمين . وقد كان الناس يتناولون رسالة الشيخ المراغى إلى مؤتمر الأديان على ما فيها من تسامح ، ثم يوازنون بينها وبين الواقع الدينى لبعض المتدينين فى أوروبا ، فيرون الفرق شاسعا واسعا بين سماحة المسلمين وبين تعصب الغربيين .

وقد كان الأستاذ البنا حريصا على أن يقتنى كل كتاب يظهر فكان أهل المكتبات فى جهة الأزهر يقصدونه ، وفى أيديهم كل ما يرونه صالحا فى العرض على الأستاذ ليختار منه ما يشاء ، ورحم الله الحاج مدنى الذى كان قاموسا للكتب لا يعدله قاموس مكتوب . وقد كان الأستاذ البنا يقرأ علينا فى دار الجمعية ـ بعطفة الدالى حسين فى جهة المغربلين ـ ما كان قد دونه الأمير شكيب فى كتبه ولست أملك إلا أن أرويه بنصه ، حيث قال رحمه الله : « إن الخليفة العباسى « المتوكل » كان يؤاخذ المسيحيين على إهمالهم التمسك بدينهم ، كما فعل مع طبيبه « حنين » وكان قد بلغه عنه أنه بصق على صورة السيدة العذراء مريم ، فجلده ثمانين جلدة ثم سجنه حتى اعلن توبته مما كان قد قارفه مما تضيق به صدور المتدينين مسيحيين ومسلمين ، ولما فتح المسلمون العراق هربت قبيلة إياد ـ وكانوا مسيحيين ـ إلى بلاد الروم ، فكتب أمير المؤمنين عمر إلى هرقل يطلب إليه أن يردها إلى أماكنها فأخرجها هرقل من دياره ، وكان على الجزيرة ـ يومئذ ـ الوليد بن عقبة ، فأبى أن يقبل منهم إلا الإسلام ، فكتب إليه أمير المؤمنين يأمره أن يتركهم على دينهم الذى اختاروه .

وفى مدة السلطان العثمانى إبراهيم ، استولى الأتراك على عاصمة جزيرة كريت سنة ١٦٤٥م . وقد كان المسيحيون فى تلك الجزيرة يساعدون أهل البندقية ضد الأتراك ، فأراد السلطان إبراهيم أن يقتل المسيحيين فى مقابلة ذلك ، ولكنه لم يستطع أن يمضى إلى غايته ، لأن المفتى أسعد زاده عارضه فى هذا الأمر معارضة شديدة ، قائلا له : إنك تخالف الشريعة الإسلامية ، ونحن لا نقرك على ذلك مهما حاولت أن توقعه بنا نحن رجال الإسلام من محنة وبلاء . ولم يجد السلطان إبراهيم بُدا من أن ينهزم ، ويتراجع عما كان قد أراد . وبذلك لم يقع سلطان العثمانيين فى الشناعة التى وقع فيها ملوك الأسبان . ذلك أنه لما غلب فرديناند وإيزابيلا على آخر مملكة للعرب فى أسبانيا وقعت فى سلطانهما دولة بنى الأحمر . فعقدا مع المسلمين معاهدة تضمن لهم حقوقا كثيرة من جملتها حريتهم الدينية ، غير أنهما كانا ينويان باطنا نقض تلك المعاهدة ، وقد اسسا مع ذلك ديوان التفتيش الذى كان يحمل المسلمين واليهود على اعتناق المسيحية بالإكراه ، إلا أن يجلوا عن البلاد ، فجلا أكثر المسلمين إلى تونس والجزائر والمغرب الأقصى ، ووصل منهم اناس إلى مصر . غير أن اكثر اليهود ذهبوا إلى تركيا وأثروا الإقامة بالقسطنطينية وسلانيك وازمير .

وقد كانت هذه القراءات مع الأستاذ حسن البنا تثير فى نفوسنا نحن شباب الإخوان اقسى ما يأكل القلوب حرقة وألما ، وكان ذلك يأخذ بأيدينا أخذا شديدا إلى الموازنة بين هذه الأعمال البربرية . وبين الصورة الكريمة التى شهدها العالم كله فى ثورة سنة ١٩١٩ وقد كان يلتقى فى الانتصار لمصر المسلم والمسيحى فى صحن الأزهر وتحت منبره الذى كان يتداوله الشيخ الزنكلونى والقمص سرجيوس فى تسامح كريم وأدب عظيم .

منطقة القناة دارا للإخوان

وفى تلك الأيام التى كنا نتجول فيها من أجل دعوة الإخوان المسلمين ، رغب إلى الأستاذ المرشد أن أصحبه إلى مدينة الاسماعيلية ، وأنا يومئذ فى أواخر سنوات الدراسة بقسم التخصص بالأزهر ، وهناك رايت ثمار غرسه فى تلك المدينة شيئا لم يكن يخطر بالبال . فلقد كانت مدينة الاسماعيلية وسائر مدن القناة دارا للإخوان المسلمين ، يفد إليها كل منتسب إليهم مقتنعا بدعوتهم حريصا على الانتظام فى سلكهم . وأذكر أننى ألقيت خطبة عيد الفطر فى صحراء الاسماعيلية بين مئات من أهل المذاهب ورجال الطرق وعلماء الإسلام ، ثم انعقد مؤتمر بعد ذلك فى مدينة بورسعيد ، وكان مؤتمرا فى شكله وموضوعه ، فقد أخذ المؤتمرون يرددون الأناشيد الدينية الصوفية إيمانا منهم بأنهم مراقبون من جهة الحكومة المصرية ، ثم من جهة الحكومات الأوروبية عن طريق مخابراتهم العالمية ، وكان الغرب يخشى اشد خشية

ان تقوم فى دنيا الإسلام جمعية تحترف السياسة باسم الدين ، فتكون أشد خطرا على الاستعمار والمستعمرين من دولة الخلافة الإسلامية فى تركيا . التى كان يتزعمها سلاطين آل عثمان ، والتى قوض بنيانها مصطفى كمال اتاتورك . ومن أجل ذلك حرص الأستاذ المرشد حسن البنا على أن يظهر الإخوان المسلمون بمظهر الدراويش الذين يجتمعون على تلاوة المأثورات التى هى دعوات دينية كان أسلافنا يتخذون منها وسيلة إلى القرب من الله . وكان أمل الأستاذ البنا من ذلك أن يصرف اهتمام العالم الغربى عن الإخوان المسلمين باعتبارهم هيئة سياسية يخشونها على نفوذهم فى الاستذلال والاستغلال .

النشيد الرسمى للإخوان

وحين انتهى المؤتمرون فى بورسعيد انصرفنا نحن أبناء القاهرة عن طريق بحيرة المنزلة فى مركب بخارى أنيق . وفى هذا المركب الذى كان يشيع البهجة فى النفوس جرى حديث الأناشيد التى هى شعار الجماعات ، فرغب إلى الأستاذ البنا أن أنظم أبياتا من الشعر تصلح أن تكون النشيد الرسمى لجمعية الإخوان المسلمين ، ولم أملك إلا أن استجيب ، وأن استجمع ذهنى ، وجميع عواطفى الدينية والوطنية لكى أظفر ببضعة أبيات من الشعر ، فجاءنى منه ما لم أكن أتوقع مجيئه فى يسر وسهولة . فإذا هذه الأبيات التى عرضتها على الأستاذ البنا فرضيها وأنشدها بعد ذلك فى كل حفل حللنا فيه ، ثم أعلن إلى الإخوان أن هذا هو النشيد الرسمى لهم ، وهذه الأبيات التى لم تكن من وحى شيطان الشعر ، كما يقول أدباء اللغة العربية ، بل كانت من وحى ملك كريم من ملائكة الشعر المؤمن ، كما يقول الأستاذ البنا :

يا رسول الله هل يرضيك إنّا   اخوة فى الله للإسلام قمنا
ننفض اليوم غبار النوم عنا   لا نهاب الموت لا بل نتمنى

أن يرانا الله فى ساح الفداء

أن للدنيا بنا أن تطهرا   نحن أسد الله لا أسد الشرى
قد قطعنا العهد إلا نقبرا   أو نرى القرآن دستور الورى

كل شىء ما سوى الدين هباء

غيرنا يرتاح للعيش الذليل   وسوانا يرهب الموت النبيل
إن حيينا فعلى مجدٍ أثيل   أو منينا فإلى ظل ظليل

حسبنا أنّا سنفنى شهداء

وعلى هذا النحو الذى تنشرح له الصدور ، مضى الإخوان فى القرى والمدائن ، واتخذوا شعارا لهم هذه الكلمات : « الله غايتنا ، والقرآن دستورنا ، والرسول زعيمنا ، والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا » .

وما من شك فى أن المعسكر الاستعمارى فى الغرب والشرق أصابه الفزع الشديد ، إحساسا منهم بالخطر الذى يتهددهم من قبل هذه الجمعية التى أقبل الناس عليها إقبالا شديدا وعلقوا عليها آمالهم فى الإصلاح المنشود : إصلاحا سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ، والمستعمرون دائما يعرفون الطريق الذى يفضى بهم إلى الكيد الشديد لأعدائهم ، ولهذا بدأ الغرب يوسوس للرؤوس فى الأمة العربية ، والأمة الإسلامية ، زاعما لهم أن هذه الجمعية خطر عليهم ، وعلى سلطانهم فى دنيا العروبة والعرب ، وفى دنيا الإسلام والمسلمين .

شهداء الإخوان

ولست أستبعد - فى مبلغ إدراكى - أن تكون إثارة قضية فلسطين فى الثلاثينيات وسيلة إلى عمل يبعث القلق والاضطراب فى رؤوس الحاكمين بمقدار ما يبعث سوء الظن فى أنفس الشعوب المحكومة ظاهرا بحكام وطنيين ، وهم فى الحقيقة حكام يستندون إلى المستعمرين . وليس يجهل الذين يعلمون أن الشباب أطوع لمقتضيات عقيدته وأسرع استجابة لنداء هذه العقيدة . وآية ذلك فى شباب الإخوان المسلمين تتجلى فى أمرين :

أحدهما : مسارعة بعض الشباب إلى مشاركة المجاهدين فى فلسطين مع أخ لهم لا يعرف كثير من الناس أنه من طلائع دعوة الإخوان المسلمين وهو الشيخ الشهيد عز الدين القسام ، وكان من الإخوان الذين لا يشق لهم غبار - رضى الله عنه - فقد قتل تحت لوائه فى فلسطين شاب مصرى من خيرة شباب الإخوان هو الأخ أحمد رفعت الذى كان طالبا فى كلية التجارة ، والذى كان لا يركب الترام ، إيمانا منه بأن الشركة التى تملك الترام هى شركة استعمارية ، فكل من يعينها ولو بمال ضئيل ، إنما يعين قوة استعمارية على قتل الأبطال المجاهدين فى معارك فلسطين .

وثانى الأمرين : طالب مهندس اسمه عز الدين ، وقد حاول أن يصنع متفجرات ، فاستأجر لذلك مسكنا فى شارع البرامونى بحى عابدين بالقاهرة ، وأخذ يحاول فى مسكنه تجربة اختراعه ، ولكنه لم ينجح فقد قتلته تجربته ، وهو فى ريعان الشباب على عتبات أمل عظيم يسعد به أهله ومواطنيه .

ومن قبل هذين الشهيدين أحمد رفعت وعز الدين كان قد استشهد برصاص

الكونستبلات الإنجليز فى حكومة نسيم باشا سنة ١٩٣٥ عبد الحكم الجراحى ، ومحمد عبد المجيد مرسى وكانا من طلاب جامعة القاهرة المرجوين . وقد كانت أسرة الشهيد الجراحى فى أشد الحاجة إليه والاعتزاز به والفجيعة فيه . ولقد اذكر - بهذه المناسبة - أن هذا الشهيد مضى دون أن يفكر فيه أو يرثى لأسرته أحد إلا رجلا واحدا هو الذى ذكرنى به وبأسرته وأنا يومئذ وزير الأوقاف وذلك الرجل هو أخى الصحفى الحر مصطفى امين أجزل الله له العطاء فى هذه الحياة الدنيا و « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » .

ولقد اذكر أن الحكومة القائمة انئذ خشيت من أن يشيع طلاب المدارس والجامعات جثمان الشهيد الجراحى فاخفت الحكومة الجثمان فى مشرحة مستشفى قصر العينى اتقاء لغضبة الشعب بكل طوائفه من طلاب وعمال إذا قامت هذه المظاهرة فى الجنازة ، ولكن الطلبة الأحرار سرقوا الجثمان ، وتم لهم ما أرادوا من تشييع الجنازة على مرأى ومسمع من ابناء مصر أجمعين . وقد كان فى طليعة هؤلاء اللصوص الشرفاء الدكتور نور الدين طراف الذى عين وزيرا للصحة بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ والدكتور عبد الفتاح إسماعيل الذى كان مديرا لجامعة الكويت ثم وزيرا للتعليم العالى ، وقد كنت معهم باعتبارى رئيس اتحاد الجامعة الأزهرية .

ولا ينسى الذين يذكرون الأحداث التاريخية ذات القيمة الوطنية ذلكم اليوم الذى خرجت فيه مصر تشيع جثمان الفقيد الجراحى إلى مثواه الأخير ، فقد كان يوم عصيبا تتجلى فيه روعة الوحدة الثقافية بين طلاب الجامعة وطلاب الأزهر الشريف وسائر المدارس العليا ، وأبناء الشعب المصرى العظيم .

ثلاث قواعد لعمل الإخوان

لقد كانت دعوة الإخوان المسلمين تزداد مع مرور الأيام قوة إلى قوتها ، وينضم إليها جنود مع جنودها ، وخاصة بعد أن وضع الشهيد الإمام حسن البنا القواعد التى تستند إليها فى زحفها إلى غايتها الشريفة ، ولم تكن غايتها إلا إصلاح المجتمع إصلاحا يقوم على شريعة الإسلام ويستصحب فى عمله الدائب روح الإسلام . ولقد كانت القواعد التى وضعها الإمام الشهيد تدور على أقطاب ثلاثة تحتاج إلى توضيح :

أولها : تغيير العرف الذى كانت الشعوب المغلوبة تحتكم إليه . ومثال ذلك أن المسلم يخجل من أن يرد سلوكه إلى أصل فى الإسلام . فإذا قدمت إليه كأس خمر مثلا ، فإنه كان يعتذر عن قبولها بأنه « ممعود » وأن الأطباء نصحوه بعدم الاقتراب من الخمر حرصا على صحته ، وقد كان الأجدر به أن يعتذر بأن الإسلام حرم عليه

الخمر ، فهذا هو المعنى المراد بكلمة « تغيير العرف » . وعلى هذا يقيس المسلم ـ أعنى الأخ المسلم ـ كل الرذائل الاجتماعية التى يدعى إليها ، فلا يخجل من المجاهرة بأن الدين يمنعه كما كان يحدث كثيرا عند بعض الطبقات فى المجتمع الإسلامى .

وثانى الأقطاب الثلاثة : الطريق الدستورى بمعنى أن يجتمع الإخوان فى أية دائرة انتخابية ، ثم يرشحوا من بينهم واحدا له عصبية تمكنه من الظفر بمقعد فى البرلمان . فإذا لم يجدوا ذلك فى صفوفهم ، فعليهم أن يؤيدوا واحدا يكون أهلا لتأييدهم حتى يظفر بهذا المقعد الخطير ، فإذا اجتمعت لدعوة الإخوان فئة تعتز بالإسلام ، وتستند إلى عصبيات قوية ، فإنهم بعد ذلك قادرون على أن يتقدموا بمشروعات قانونية يكون من شأنها رفع حمية الشعب المصرى وبسط نفوذ الإسلام الذى لا يضيق به أحد من المواطنين مسلما كان أو غير مسلم ، لأن الخير بذلك ـ آنئذ ـ يشترك فيه المسلمون وغير المسلمين .

فأما ثالث الأقطاب الثلاثة ، فليس فى حاجة إلى نشره فى رسالة أو تدوينه فى كتاب . ذلك أن هذا القطب لا يعنى إلا الاستيلاء على الحكم بالقوة القاهرة والثورة الظافرة التى يخطط لها فلاسفة مؤمنون ، وينفذها شجعان مخلصون ويستثمرها لخير الأمة أمناء صادقون .

وثلاث شعب . .
فى الجيش والشرطة والدعاة

وبناء على ذلك كانت هناك ثلاث شعب تتغيا غاية واحدة وكل يعمل فى مجاله غير حريص على الظهور .

شعبة فى الجيش قوامها الضباط والجنود ولهم رئيس مسئول عنهم .

وشعبة فى الشرطة لهم رئيس مسئول عنهم أيضا .

وشعبة الدعاة القادرين على الدرس والبحث . ورؤساء الشعب الثلاثة مسئولون أمام المرشد العام للاخوان المسلمين .

وغير ذى حاجة إلى بيان ، أن رجال الأحزاب ورجال السياسة كانوا يحرصون ـ أشد الحرص ـ على الاتصال بالاخوان المسلمين ، رجاء الانتفاع بهم فى معترك الانتخابات ، وسائر المجالات الوطنية العامة ، ولقد كان فى مقدمة أولئك الحراص على ذلك الأستاذ عبد المجيد ابراهيم صالح باشا عضو الأحرار الدستوريين ، وأحد

وزرائهم المستنيرين ، فقد اتصل بى ذات يوم ورغب إلى فى أن أرشح له رجلا له بفكر الاخوان المسلمين صلة ، وله بينهم مقام مرموق ، وقد كان الرجل رحمه الله من القلائل الذين يجلس المرء إليهم ، فيرى فيهم من دلائل الخير والاخلاص فى النصيحة ما يحرضه على الضن بهم فى الانتفاع من مخالطتهم وعقد أواصر الصداقة بينه وبينهم . وقد كان أمرا طبيعيا أن استأذنه فى تأجيل الاستجابة لمطلبه إلى حين ريثما افكر فى الأخ الصالح لهذه المهمة ، ولكن الرجل قال : إننى معجب بكاتب يتحدث عن الإسلام حديث العاقل الحريص على مزج مطالب الدنيا بمطالب الدين ، فسألته بدورى من تقصد ؟ فقال رجل يسمى خالد ، فاكون شاكرا لو أنه جاء يزورنى فى حلوان فى اليوم الذى يراه ، وكان يقصد أخى الأستاذ خالد محمد خالد بعد أن تعرف على أفكاره من كتابه « من هنا نبدأ » ، الذى كان قد ظهر فى تلك الأيام ، ولم أجد بدا من امضاء رغبته إلى غايتها ، فأخبرت أخى خالد ، ولم يكن عضوا بجماعة الاخوان المسلمين ، وسألته أن يجتمع بالوزير الفاضل عبد المجيد باشا ابراهيم .

ولم يكن عبد المجيد باشا هو الوحيد من أعيان المصريين الذى يؤثر أن يتقرب إلى الاخوان المسلمين ، وأن ينهل من منابع ثقافاتهم ، وقد كان هو وأمثاله كثيرا ما يؤيدون الاقتراح الذى يرمى إلى أن يؤيد الاخوان المسلمون فى دوائرهم الانتخابية رجالا لهم ثقافة رفيعة وخلق رضى ودين قويم ، وكان الجميع يكرهون أن ينقلب الاخوان حزبا سياسيا لأن للسياسة ميادين قد تناقض الدعوة الدينية ، وقد تكون ضد المصلحة الوطنية . وذلك أن الأستاذ المرشد رأى من مصلحة الدعوة ، أن يرشح نفسه لمجلس النواب فى دائرة الاسماعيلية ، فاقبل الاخوان على قيد أسمائهم فى تلك الدائرة ، وكانوا آلافا من المواطنين الذى حفظوا كلمة يرددونها يؤيدون بها ترشيح من يرشح نفسه للانتخابات : « إن الله ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن » . وليس يخفى على أهل البصر بشئون السياسة أن وجود هذا اللون من التفكير فى البرلمان قد يثير متاعب للحكومة وربما فتح بابا من الشر لدسائس المستعمرين ، فرفضت حكومة احمد ماهر - رحمه الله - أن تقبل أوراق الترشيح التى تقدم بها الأستاذ المرشد ، وبعد محاورات طويلة ومشاورات كثيرة قبلت الحكومة على مضض أن يرشح الأستاذ البنا نفسه عن الدائرة المذكورة . ومبلغ العلم أنها لم تقبل هذا الترشيح إلا بعد أن فكرت فى وسيلة غير مشروعة تحول بين المرشد وبين النجاح فى الانتخابات . وبطانة السوء قادرة دائما على أن توسوس للحاكم بما يرضيه مهما يكن ذلك خارجا على المألوف ، أو موقعا فى حرج شديد .

ولذلك أسقطت الحكومة الأستاذ البنا على الرغم من الألوف التى انتخبته عن صدق وإخلاص . وكما ذكرت قيد الاخوان المسلمون فى القطر المصرى كله أسماءهم فى دائرة الاسماعيلية ، وقد كانوا الوفا مؤلفة . وكان طبيعيا أن تسقط الحكومة الأستاذ المرشد عن طريق التلاعب الذى يثير الحفائظ ، ويدعو إلى لقاء الجريمة

بجريمة مثلها أو أشد أثرا فى الانتقام من العابثين بالحريات المتغاضين عن أقدار الناس ، وإنكارهم حقهم الذى يقرره لهم الدستور ، ويحرضهم على اقتضائه مهما تكن النتائج شديدة الوقع على الناس . ولقد يذكر الذين عاصروا هذه الأحداث أن الآلاف الذين قيدوا أسماءهم فى قوائم الانتخابات كانوا قادرين على أن يحدثوا ثورة فى الاسماعيلية وما حولها لولا أن الأستاذ المرشد تدارك الأمر بحكمته ، وتهدد الثائرين من الاخوان بما جعلهم يستبدلون بالثورة فى وجه الحكومة طريقا أخر لم يكن للأستاذ المرشد يد ولا له به علم ، ولو أنه عرض عليه لأنكره على الاخوان الغاضبين الثائرين أشد إنكار ، ولكن الشباب دائما لا يستطيع أن يرى فى الآفاق البعيدة ، ما يستطيع أن يراه رؤوس الدعوات الذين ذاقوا الحياة خيرها وشرها ، وحلوها ومرها ، وهم الذين تقول فيهم الحكمة الصادقة : « رأى الشيخ خير من مشهد الشاب » .

الاخوان المسلمون يلجأون للعنف بعد إسقاط البنا فى الإنتخابات

كان الاخوان المسلمون على كثرتهم فريقين : فريق تطلق عليه كلمة « المحيط العام » وفريق آخر تطلق عليه كلمة « النظام الخاص » . وكان النظام الخاص يحكمه الاعجاب بالنفس والاحتكام إلى التضحية والفداء . وكان المحيط العام محكوما بما يقرره مكتب الارشاد بمنأى عن التطرف والاحراج ، فكان إخوان المحيط العام معروفين بأعيانهم وأسمائهم واتجاهاتهم . لأنهم كانوا يخطبون ويكتبون ويتجولون فى أرض الإسلام لا يخفى أمرهم على أحد ممن ينتسب إلى دعوة الاخوان المسلمين . وأما النظام الخاص فلم يكن المنتسبون إليه معروفين إلا فى دائرة ضيقة ولآحاد معروفين ، وقد كان لهؤلاء اجتماعاتهم الخاصة بهم ، وربما كانوا يعملون فى جهات مختلفة يجهل بعضها بعضا جهلا شديدا . ومن سوء حظ الدعوة أن هذا النظام الخاص رأى أن ينتقم لاسقاط المرشد فى الانتخابات بدائرة الاسماعيلية . وكان من أشد المتحمسين لفكرة الانتقام هذه محام شاب يتمرن على المحاماة فى مكتب الأستاذ عبد المقصود متولى ، الذى كان علما من أعلام الحزب الوطنى وهو المحامى الشاب محمود العيسوى . فما أعلنت حكومة الدكتور أحمد ماهر باشا الحرب على دول المحور لكى تتمكن مصر ـ بهذا الاعلان ـ من أن تمثل فى مؤتمر الصلح إذا انتصرت الديمقراطية على النازية والفاشية . رأى النظام الخاص أن هذه فرصة سنحت للانتقام من رئيس الحكومة ، ووجه محمود العيسوى إلى الاعتداء على المرحوم أحمد ماهر باشا ، فاعتدى عليه فى البرلمان بطلقات سلبته حياته التى وهبها لمصر منذ عرف الوطنية رحمه الله رحمة واسعة .

كان الشعب فى هذه الفترة ضائقا بالحزبية والأحزاب ، وكانت هناك جماعات من الشباب جمعت بينهم كراهية الاستعمار ، فأرادوا أن يؤلفوا من بينهم جماعة تعتنق مذهبا سياسيا معتدلا بعيدا عن التطرف . وقد زارنى أحد هؤلاء الوطنيين الصادقين وهو الأستاذ محمد المعلم ـ صاحب دار الشروق للنشر الآن ـ واستعرضنا معا أسماء ذات تاريخ معروف وقيدت هذه الأسماء فى كشف ، وكان من بينهم المحامى محمود العيسوى ، والدكتور حسن نور الدين الوطنى القديم الذى زامل الزعيم سعد باشا زغلول فى معتقله فى جزيرة مالطة ـ وقد كان الرجل من أعضاء الحزب الوطنى الأقدمين ، فظل متمسكا بربطة العنق السوداء حزنا على مصطفى كامل حتى لقى ربه .

ويبدو أن البوليس السياسى ـ بعد مقتل أحمد ماهر باشا ـ قد عثر على هذا الكشف فى مكتب الأستاذ عبد المقصود متولى ـ وفيه هذه الأسماء فاعتقلوا أصحابها جميعا وهم أحمد حسن الباقورى ـ الدكتور ايوب عامر ـ الدكتور حسن نور الدين ـ وجمال الشرقاوى ـ والدكتور نعمان ، والدكتور البقرى ، وآخرون طال بنا العهد فنسينا أسماءهم .

ولقد كان فى وجود اسمى فى قائمة أسماء من بينها محمود العيسوى دليلا على أننى شريك أو شبه شريك فى الاعتداء على أحمد ماهر باشا .

وفى سجن الاستئناف الذى اختاروه مثوى لنا على كآبته وقسوة الحياة فيه . عشنا أسوأ أيام حياتنا ، إذ كان الطابق الذى نزلنا فيه يجاورنا فيه محكوم عليهم بالاعدام ، وقد ارتدوا الرداء الأحمر الذى يرتديه هذا النفر من المجرمين . ولقد كان كل ذلك محتملا ميسورا لولا اللوحة النحاسية الصغيرة التى كانت تحمل رقم السجين ومن حولها دائرة سوداء كتب عليها قضية اغتيال أحمد ماهر باشا ، وقد ظللنا فى هذا السجن مدة أسبوعين ننظف الحجرات بأنفسنا ، ولا نكاد نرى ضوء الشمس إلا حين ننزل فى ساحة السجن نمشى فى نظام عسكرى حوالى الساعة ، وموظفو محكمة الاستئناف التى تجاور السجن ينظرون إلينا من الشبابيك ، أو من أعلى المبنى بين ساخر منا ، ومشفق علينا . ولم تكن هذه المرة الأولى التى أزور فيها سجن الاستئناف فقد زرته من قبل سنة ١٩٣٤ وأنا يومئذ طالب فى آخر سنوات قسم التخصص فى حركة الأزهر . ومن أجل هذه المهانات بين سخرية الساخرين ، وشماتة الشامتين كان العنف باسم الدعوة أقبح شىء نتمثله أو نتخيله . وليس يسع الذين قرأوا تاريخ أمتنا إلا أن يمقتوا العنف فضلا عن القتل مهما تكن الدواعى إليه والمسوغات له فى نظر الخادعين أو المخدوعين .

إن كل بلاء نزل بساحة الإسلام والمسلمين إنما نشأ بمقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، وتغذت شجرته من دم ذلك الشهيد العظيم ، وفى تاريخنا الحديث رأينا

العنف يأخذ الطريق على خطط الاصلاح التى أراد لها زعماء الأمة أن تقود وأن تسود . وذلك يتجلى على غاية الوضوح فى تاريخ الحزب الوطنى الذى كان يتزعمه مصطفى كامل ومحمد فريد . ذلك أن الزعيم أحمد عرابى كان قد آثر القوة وسيلة للاصلاح ، ولكنه أخفق ، وأخفقت معه الثورة العرابية ، فاحتلت انجلترا مصر سنة ١٨٨٢م فخيم على البلاد جو من الخضوع والاستسلام وبقى سائدا فى حياتها مضروبا عليها فترة من الزمان . وقد كان الناس يتساءلون آنئذ كيف تقوم حركة وطنية لاستنقاذ الحرية واستخلاص الاستقلال من يدى أقوى دولة نفوذا ، وذلك بلا ريب شأن الغلو واللجوء إلى القوة منذ عرف الناس تاريخ الاصلاح ، ولذلك كان الأستاذ البنا حكيما فى أنه بدأ بتربية الشعب عن طريق تغيير العرف ، ثم الطريق الدستورى ، فإذا قامت ثورة بعد هذين الركنين فإنها بلا ريب مدركة حظها من النجاح ، ولكن الذين استغلوا مشاعر الغضب فى إسقاط الأستاذ المرشد فى الانتخابات فلجأوا إلى التخطيط لاغتيال ماهر باشا ، كانوا إلى حماسة الشباب أدنى منهم إلى رزانة الشيوخ المجربين .

وإلا فإن الاستعانة بالعنف الدامى على تأييد خطوات الأصلاح والتمكين للمصلحين لم يثمر إلا اسوأ النتائج ، كما يتجلى ذلك للذين ينظرون فى أحداث التاريخ نظرا قائما على التأمل والتدبر والاستبصار . وآية الصدق فى هذه القضية تتجلى فى الحركة الكمالية التى لجأ إليها مصطفى كمال أتاتورك ، فإنه باغتياله خصومه قضى على تاريخ الدولة التركية ، وجعلها تابعا فى مجالات السياسة العالمية بعد أن كانت سيدة فى دنيا العالمين . وعلى هذا النحو مضى الأمر فى ألمانيا النازية فإن هتلر بسلوكه طريقه العنف مع خصومه رد ألمانيا إلى وراء ، بعد أن خسرت نفوذها العالمى وسمعتها التى كانت موضع التقدير والاحترام . وعلى هذا النحو نفسه درجت إيطاليا الفاشية فكلفها الاستبداد الدموى من زعيمها وزبانيته ما جعلها بغيضة إلى الناس ، ثم أبدلها بحياتها المستقرة حياة أخرى يسودها القلق والفوضى عن طريق الألوية الحمراء .

وعلى هذا النحو يرى المتأمل ثورة اليمن ، والأمر فيها ليس يحتاج إلا لمجرد استعراض التاريخ ، فإن تلك البلاد التى كانت ترجى لخير كثير أصابتها الفتن الحمقاء ، فأبدلتها بما كانت ترجوه من خير عظيم شرا مستطيرا لا يصبر على لأوائه إلا الصابرون .

وأنت إذا تركت التطواف فى الآفاق البعيدة إلى النظر فى ثورة مصر سنة ١٩١٩ فإنك سترى الزعيم سعد زغلول ، وقد التف من حوله الشعب يتلقى عنه أعظم ما يتلقاه شعب من زعيم مخلص أمين ، ولكنه لم يستطع أن يبلغ ما كان يتمنى لأن لجوء ـ اليد السوداء ـ إلى العنف وضع العقبات الكأداء فى طريق خطوات الاصلاح المنشود ، وقد كانت الثورة توشك أن تؤتى ثمارها طيبة شهية لو استقامت لها الطريق

إلى ما كان يرجوه لها رجل متعه الله بنظر بعيد ، ورأى سديد وزاده الأزهر الشريف قدرة على التعمق فى البحث على ما كان يقول هو نفسه ـ رحمه الله ـ من أنه كان يوازن بين المذاهب ، فيرتضى منها أقربها إلى الأخذ بما تقبله العقول .

البنا ما لم يكن ليرضى الفتن

وقد كانت هذه المعانى لا تخفى على ثقافة الأستاذ البنا الذى متعه الله ببصيرة نافذة ، وعقل واع ، وصبر لا نظير له فى قراءة كتب التاريخ . فمثله ـ رحمه الله ـ لم يكن ليرضى هذه الألوان من الفتن التى ترمى بالشعوب إلى حضيض المذلة والهوان . على أن الأمر لو كان وقفا عند استباحة الدماء المعصومة فى شريعة الله ، لكان ذلك أمرا ميسورا احتماله ، مقدورا على التماس وجه له يسوغ المصير إليه ، ولكنه تعدى ذلك إلى ما يجافى الحق ، ويقود إلى أسوأ سيئات التأويل . ذلك أن يقول قائل : إن رسول الله أمر بالاغتيال ، ثم يستشهد لقوله هذا بمقتل كعب بن الأشرف ، فإذا هو ـ على ذلك ـ يتغاضى عن حقائق لا ندحة للمسلم عن النظر إليها ، والايمان بها فى هذا المقام . وأولى هذه الحقائق أن ثمة فرقا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم المعصوم من الهوى ، وبين غيره من الذين تصرفهم الأهواء ، ولا تحوطهم عناية الله ، كما تحوط رسوله العظيم صلى الله عليه وسلم ، فقد كان كعب هذا رجلا شاعرا سيدا فى قومه يُقتدى به ، وما أكثر ما هجا رسول الله ، وتناول أعراض المسلمين ، واستخف أشد الاستخفاف بنظامهم الذى أقاموا عليه حياتهم ، وليس فى وسعك ـ حفظك الله ـ أن تقع على شعر من شعر كعب ، وتستطيع أن تستدل به على مدى جرائمه فى مجتمع المدينة المنورة . وذلك أن المسلمين كانوا يمقتون أشد المقت أن يحفظوا شعرا هجاء لرسول الله ، أو ينال من أعراض المسلمين مع نهى رسول الله إياهم عن رواية هذا الشعر أو حفظه ، بما جاء فى الحديث الصحيح : « لأن يمتلىء جوف أحدكم دما أو صديدا ، خير له من أن يمتلىء شعرا هجيت به » . وإليك ما رواه البخارى فى صحيحه مما يتعلق بكعب حيث ذهب إليه من وجوه العرب من دعتهم الحاجة إلى أن يطلبوا منه قرضا على الطريقة التى كانت سائدة آنئذ فى المدينة قبل الهجرة ، فلما طلبوا منه سلفة قال لهم أرهنونى نساءكم ، فقالوا له كيف نرهنك نساءنا على ما فى ذلك مما ينال أعراضنا بسوء ، ويشوه سمعتنا بين الناس ، فقال لهم ، فإن لم تفعلوا فأرهنونى أبناءكم ، فأجابوه إن فى ذلك مذلة لأبنائنا ، ولكننا نرهنك دروعنا . وهذا الحوار يعطيك الصورة التى كان يسخر فيها كعب بوجوه القوم ، وكبارهم من العرب .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى ملأ من أصحابه ، لقد آذى كعب الله ورسوله والمسلمين ، وحرض قريشا على الأنصار ، وقد فهم المسلمون من كلمات رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يفهمه كل من يتدبر القرآن الكريم فى مثل

قوله تعالى : « إنما جزاء الذين يحربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » .

فهل يستطيع المسلم الحق أن يزعم لنفسه من عناية الله به ما حاط الله به رسوله صلى الله عليه وسلم من عناية وصيانة وتأييد ؟ ثم هل يستطيع المسلم الحق أن يرى من تصرفات حكام الأمة فى هذا العصر ما يضع الحاكم فى سلطان الآية الشريفة ، فيبيح قتلهم أو صلبهم ، أو تقطيع أيديهم وارجلهم من خلاف بحجة أنهم يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا .

مبلغ علمى أن ذلك أمر مستحيل لا يفكر فيه ، ولا يرتضى الاتجاه إليه ، والأخذ به أولئك الذين رزقهم الله من الايمان به ، والخوف منه ما يحول بينهم وبين التأويل البعيد .

لقد كنا وكان الناس معنا يسمعون عن نسف محلات شيكوريل بكل ما فيه من بضائع ، ومن فيه من رجال ونساء وأطفال ، فكنا نكذب اشد تكذيب هذه الكلمات التى تجرى على ألسنة الناس ، وكان سند تكذيبنا ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى نهيا صريحا عن قتل النساء والأطفال ، كما تشير إلى ذلك خطبته الشريفة التى ترويها كتب السيرة ، وفيها هذه الكلمات الصريخة التى لا تحتمل التأويل بوجه من الوجوه : « لا تغلوا ولا تقطعوا شجرا مثمرا ولا تنحروا بهيمة إلا لمأكله ، وستمرون بقوم ترهبوا فى الصوامع والديار ، فاتركوهم وما تفرغوا له » .

فكيف يطيق المسلم أن يسمع عن نسف أكبر المحلات التجارية فى قلب مدينة القاهرة ، وقد أبرزت الصحف يومئذ أن من الذين نسفوا أطفالا كانوا يسيرون فى شارع فؤاد الأول ، وأن من الذين نسفوا أيضا عرائس كن مع أهليهن يتجهزون لتحقيق آمالهن الغوالى فى مستقبل سعيد . نقول كيف يطيق المسلم أن يسمع بهذه الأحداث الأليمة منسوبة إلى الإسلام ، وهو يعلم أن ذلك افتراء لا صلة له بإنسانية حية يقظى فى جسد إنسان ، ولكن الناس إذا استقر فى أذهانهم معنى من المعانى منسوبا إلى فرد أو جماعة من الناس ، فإنهم يجعلون كل المعانى المتشابهة منسوبة إلى ذلك الشخص أو تلك الجماعة ، ومضيا مع هذه القاعدة نسب الناس فى الداخل والخارج كل أحداث العنف الدموية إلى الاخوان فإذا هم ـ فى ألسنة الناس ـ إلى الخوارج أدنى منهم إلى أهل الحق والعدل من المسلمين .

وهكذا صار الاخوان يضربون مثلا للشر الذى لا يرضاه الله لعباده المؤمنين : ومن ثم حمل المستعمرون عليهم فى الشرق والغرب ، فأصبحوا مضغة فى أفوه الذين لا يعلمون الحق ، ولا يبالون أن يعلموه ، أو يجهلوه ما داموا يجدون فى هذا الاتهام

شفاء لصدورهم ، وتيسيرا للطريق بين أيديهم إلى الاستذلال والاستغلال .

وإنه ليحزنني ـ كما كان يحزن كل مسلم ـ أن تلصق هذه التهم الشنعاء بالاخوان . ولعل هذه البلبلة وسوء الاحدوثة بين الناس حملت على الزهد فى الانتساب إلى الاخوان ، فانقسموا بعضهم على بعض ، وكان أول من خرج من صفوفهم شيخ العشيرة المحمدية الشيخ محمد زكى ابراهيم ، ثم جاء انقسام أخر كان أغرب وأعجب ، ووجه الغرابة والعجب فيه أن أولئك المنقسمين ، كانوا فى كثير من الأحيان يتناولون الطعام ببيت واحد منهم ، فكانوا يجلسون حول المائدة ، وقد تركوا الكرسى الذى على رأس المائدة يطلب صاحبه لأن أحدا لا يجلس عليه ، فإن سأل سائل لماذا تركوا هذا المقعد خاليا أجابه مجيب بأنه متروك خاليا لأنه ينتظر قادما عظيما يجلس عليه ، ولم يكن هذا القادم فيما يذكرون إلا محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا فرغ القوم من طعامهم انتقلوا إلى مكان آخر فى ندوة علمية أو سياسية ، ثم يتحدث أحدهم عن آيات القرآن العظيم ، ويستعرضون كل الاخوة الذين آثروا اجتناب الاخوان فى هذه المرحلة من مراحل الدعوة ، ثم يأخذ هذا الفقيه المتحدث فى تحديد الأشخاص الذين تليق بهم الآيات التى يريد ، فيزعم لأهل الندوة أن هذه الآية نزلت فى فلان ، وقد كان ذلك أخطر الانقسامات التى أصابت صفوف الاخوان . لقد كان الاخوان المسلمون ثروة خليقة بالضن بها ، والحرص عليها ، وافتدائها بكل مرتخص وغال ، لكى تظل ماضية إلى غايتها الشريفة فى احقاق الحق ، وإبطال الباطل ، ورفع خسيسة الانسان عن طريق الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، والتربية على مكارم الأخلاق التى كانت هى السبيل الفارد بالقدرة على انهاض الشعوب وإحياء الأمم . ولكن سوء التأويل الذى لجأ إليه بعض المنتسبين إلى الدعوة هو الذى صرف أهل الدين من فقهاء المسلمين عن الانسلاك فى سلكها والحماس لها ، والانضواء تحت لوائها . وما زال سوء التأويل لآيات الله وكلمات الرسول مفتاحا للشر ، وسبيلا إلى ارضاء الهوى ، والانحراف عن صراط الله المستقيم ، فإذا شئت مثالا لسوء التأويل فإنك واقع عليه فى كلمات قالها صاحب ندوة « الحلمية » حول الآية الكريمة : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » ـ فقد فسر الشاب الذى كان يزعم الفقه بالقرآن كلمة « الحكمة » فى الآية الشريفة بأنها السيف ! ! لكى تقابل فى نظم الآية « الموعظة الحسنة » . والناس فى كل الأحوال مطبوعين على الاعجاب بالغرائب ، وأخذها عمن يرويها لهم محقا كان أم مبطلا ، وبصيرا أم غير بصير .

ولقد كان من سوء حظ الدعوة والدعاة أن يتبع أثر شباب مصر المسلم ، شباب كثير فى دنيا العروبة والاسلام . فى ليبيا وتونس والجزائر ومراكش ، وفى سورية وفلسطين واليمن والعراق والأردن وما وراء ذلك من بلاد العجم إيران والهند وباكستان وافغانستان ، فأخذوا عن شباب مصر المسلم ما كان قد اعتنقه من أفكار

يضيق بها الحاكم والمحكوم فى كل الشعوب ، ومن أجل ذلك نبتت فى كثير من الشعوب الاسلامية نوابت من سوء الأحدوثة عن الاخوان .

اتهامات باطلة للبنا

وبدأ الكيد للدعوة والدعاة فى داخل مصر وخارجها ، وكانت الحجة التى يتوسل بها المغرضون إلى الكيد للدعوة والدعاة ، إن الأستاذ المرشد يريد استحياء نظام الخلافة لنفسه حتى لقد زعم بعضهم أنه من دعاة الباطنية الذين يظهرون الإسلام ويستغلونه فى إرضاء نوازعهم إلى السلطان باسم الدين . وبهذا المنطق العجيب ، المجافى للحقيقة بدأت الحكومات التى لها بالغرب صلة ثقافية أو سياسية ، تعمل على تعويق خطى الإصلاح ، وبث العقبات فى طريق المصلحين المخلصين ، حتى جاءت إلى الحكم وزارة حسين سرى باشا فى أوائل الأربعينات ، ووضعت تشريعا يحرم على الجمعيات الخيرية العمل السياسى ، وكان المقصود الأول من هذا التشريع هو جمعية الاخوان المسلمين . واذكر اننى زرت فى هذه الأيام الأستاذ المرشد فقال : « إنهم يحرمون على الاخوان النهوض بالدعوة التى أسسوها فى ظل الاسلام ، وعملوا لها هذا المدى الطويل ، وليس من المعقول أن تكون هناك جمعية دون أن تكون لها هيئة رأى ، وقد رايت وأرجو أن يوافق الاخوان على ما رايت أن تكون للجمعية هيئة رأى تتحدث فى السياسة مستندة إلى نشاط الجمعية ، على أن تكون هيئة الراى هذه مؤلفة من الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام أول سفير لمصر فى باكستان ، والأستاذ محمد حسن عشماوى ، والأستاذ الأديب وهيب دوس ، وهذه الهيئة لا يملك احد أن يعترض عليها لانها تجمع خلاصة المفكرين فى مصر ، ثم لأنها انتظمت مجموعة من الرجال تتوافر بهم لهذا البلد الكريم اسباب الوحدة الوطنية . وكان اختيار وهيب دوس عضوا فى هذه الهيئة يعنى الاشارة إلى أن نظام الحكم الاسلامى يتسع لأن يكون ولاة الأمر فيه من غير المسلمين . وطبيعى أن هذه الخطوة من المرشد العام لم تقابلها الحكومة بما يستحق من العناية والتقدير فنقلته إلى الصعيد ، أخذا للطريق عليه ، ودفعا لقوة تاثيره على الناس ، ولكن الرجل كان له فى نفوس الذين يختلط بهم ، أو يتحدث إليهم سلطان عظيم ، ولذلك التف الناس به فى صعيد مصر بغير فرق بين المسلمين والمسيحيين ، أما المسلمون فقد كان التفافهم به عن طريق أخوة العقيدة ، وأما المسيحيون فقد كان التفافهم به عن طريق سعة تفكيره ، وحسن عرضه للشريعة الإسلامية ، عرضا يضمن للمسيحيين ما لهم من حقوق ، ويدفع عنهم خطر التعصب المقيت .

وبعد حين من الدهر جىء بالأستاذ البنا إلى القاهرة ، ثم إلى معتقل الزيتون إتقاء لخطره ، وخاصة دروسه فى يوم الثلاثاء من كل أسبوع . فقد كانت دروسه فى

الحلمية الجديدة يومئذ مهفى أرواح الوطنيين ، وربما كان يحضر هذه الدروس كبار فى العالم الاسلامى أذكر منهم على سبيل المثال : الداعية الاسلامى العظيم محمد عبد العليم الصديقى « الباكستانى » وكان رجلا بصيرا بشئون الاسلام والمسلمين ، وقد نذر حياته للتبليغ بالاسلام فى أرض الله ، وكذلك أذكر من هؤلاء السادة : الأستاذ محمد على الطاهر « الفلسطينى » صاحب جريدة الشورى ذات المقر الأنيق فى شارع الملكة الذى هو الآن شارع رمسيس . وقد كان فى دار الاخوان بالحلمية على يمين الداخل جناح صغير أذكر أنه قد نزل فيه لفترة طويلة من الزمن الأستاذ المجاهد الحبيب بورقيبة رئيس الجمهورية التونسية الشقيقة . ومن أبرز هؤلاء الذين لا أنساهم اليمنى الغيور الشاعر محمد صالح المسمرى ، ولا ينسى الذين ينصفون التاريخ الأستاذ العلامة البشير الابراهيمى رئيس جمعية العلماء فى الجزائر ، والأستاذ الفضيل الورتلاتى ، وكثيرا من أهل الفضل والغيرة الذين لا نذكر أسماءهم ، ولكن الله يذكرهم فى ملأ عنده صالحين مخلصين صادقين .
وما دام الحديث قد قادنا إلى هذه الأسماء ، فإن من الحق علينا أن نعرف الناس بها .
فاما السيد الصديقى الباكستانى ، فإنه كان رجلا أمدته حياته المجاهدة بقوة الفكر والقدرة على استخراج أصدق النتائج من أصح المقدمات ، غير أنه كان ـ مع ذلك ـ حريصا أشد الحرص على التقيد بلزوم المثل الأعلى دون انحراف عنه ، لا يبالى فى ذلك رضا الراضيين ، ولا سخط الساخطين . وأما السيد محمد على الطاهر ، فكان عربيا متزن الفكر مهذب القول يمضى حيث يلتقى مع العقلاء المخلصين ، ويكره الغلو والمتغالين ، فكان رجلا سمحا هادىء الطبع محتشم القول إلا فيما يمس الديمقراطية التى كان يؤمن بها ، والأصدقاء الذين كان يعتز بهم ، فعند ذلك لا تقف ثورته عند حد ، ولذلك اعتقلته الحكومات المصرية ، وضيقت عليه الخناق .

وأما السيد محمد صالح المسمرى ، فإنه كان رجلا ثائرا شاعرا ، وقد كان من الثائرين على الامام يحيى حميد الدين إمام اليمن ، وقد قتل بعد أن فشلت المؤامرة على الامام فحكم عليه بالاعدام . وقد كان لهذه المؤامرة أسوأ الأثر فى كل حديث عن الاخوان المسلمين حتى كان الرأى العام فى بلاد العروبة والاسلام ينظر إلى جمعية الاخوان على أنها جمعية باطنية يتزعمها رجل لا هم له إلا أن يثير الفتن ، ويسفك الدماء ، وقد شارك فى تنمية هذا المعنى الكاذب أعداء الدعوة الاسلامية ، والذين يتربصون بشعوب العروبة والاسلام سوء المصير . وما زال أرباب المطامع فى الشرق والغرب يمقتون كل دعوة إصلاح ، ويعملون على إحاطتها بكل ما ينفر الناس منها ، ويشيع فى الدنيا سوء الأحدوثة عنها حتى يطمع فيها العدو ، وينصرف عنها الصديق . وعلى هذا النحو مضت هذه السنة ، فنالت من الأستاذ المرشد نيلا شديدا وحرضت عليه نوازع الشر العالمى تحريضا شاملا فأصبح ـ رحمه الله ـ موضعا لنقد الناقدين وهوى المفسدين ، وهدفا لتآمر المتآمرين سواء فى ذلك القريب منه والبعيد

عنه ، لأن الفتن عمياء لا تبصر ولا تتحرى ولا تفكر فى العواقب ، ولكنها تسعى دائما إلى شفاء الغيظ بأى ثمن ، ومن أية طريق .

وأما البشير الابراهيمي فقد كان ـ رحمه الله ـ واسع الأفق رحيب الفكر شديد الغيرة ، وحسبه شرفا أنه سيد من سادات جمعية العلماء ، وزميل من زملاء الرجل الكبير بن باديس الذى صان للجزائر المجاهدة كيانها الحق فى اللسان العربى المبين ، والدين الإسلامى الحنيف . ولكى يعرف الناس جمعية العلماء فى الجزائر ، ينبغى لهم أن يعرفوا على وجه اليقين انها هيئة من الهيئات العاملة لخير الجزائر ، لا تستطيع اى هيئة أن تنافسها فى هذا المجال الشريف ، ولا أن تدعى أن لها مثلها يدا فى توجيه الأمة الاسلامية الجزائرية للصالحات ، وتربيتها التربية العقلية الروحية المثمرة . وهذا النوع من التحرير لا يقوم به ولا يقوى عليه الا العلماء الربانيون ، إذ كان هو الاثر الطبيعى للإصلاح الدينى الذى حملته جمعية العلماء . وبذلك التحرير العقلى الذى أساسه توحيد الله والإعتزاز بشريعة الله الإسلامية ، تمكنت جمعية العلماء فى الجزائر من توحيد الميول المختلفة والنزعات المتضاربة ، وأسقطت فى الأمة أصناما كانت تتعبدها باسم الدين ، أو باسم السياسة . لقد جاءت جمعية العلماء فى تلك الأمة المجاهدة على عبوس من الدهر ، واستبداد من القوة ، فنفخت من روح العروبة فى تلك الأنساب ، فإذا هى صريحة ، وسكبت من سر البيان العربى فى تلك الألسنة ، فإذا هى فصيحة ، وأجالت الأقلام فى كشف تلك الكنوز ، فإذا هى ناصعة بيضاء لم يزدها تقادم الزمان إلا جدة . فجمعية العلماء هى التى حققت للجزائرى نسبه العربى الصريح ، بريئا من شوائب الاقراف والهجنة ، وأحيت فى نفسه شعور الاعتزاز بكرامته . وجمعية العلماء هى التى أثبتت للاستعمار الفرنسى أن الدماء البربرية التى مازجت الدم العربى أصبحت عربية بحكم الإسلام ، وبحكم العمومة والخئولة الممتدين فى سلسلة من الزمن ذرعها أربعة عشر قرنا من الزمان .

إن الشيخ محمد البشير الابراهيمي الجزائرى مع إخوته فى جمعية العلماء الجزائرية هم الذين أبقوا للجزائر عروبتها ، وقد أشاع الاستعمار فى جوانبها جاهلية بلا مكارم ودنيا بلا روح . ومهما يكن الأخلاف فى الجزائر المجاهدة قد بذلوا من أرواح عزيزة غالية وقدموا من تضحيات ، فإن الأساس الذى بنوا عليه جهودهم وجهادهم إنما هو نتاج جمعية العلماء ، وكل عمل تم على يد الأخلاف ، فإنما أساسه وأصله جهد كريم بذله الأسلاف ، فرضى الله عن الشيخ البشير الابراهيمي ، وعن سلفه العظيم بن باديس ، وعن كل المجاهدين فى سبيل الظفر بحريتهم والاعتزاز بكرامتهم التى ليس لأحد فيها فضل ، وإنما الفضل كله لله رب العالمين .

وأما الاخ الفضيل الورتلانى ، فقد كان رجلا حرا فى تفكيره ، قادرا على أن يكون عمله صورة لقوله متسقا مع مخبره . ولقد أذكر انه كان يحدثنى دائما عن

الشرق والغرب حديث الرجل الذى رأى وقرأ وتأثر بذلك تأثرا شديدا ، أفاض عليه عشق النظام الديمقراطى ، وأطلق لسانه بالدعوة إلى كراهية الاستبداد والمستبدين ، وبعض أهل العلم يذكرون أنه كان من الذين نهضوا نهوضا واحدا فى فتنة اليمن التى انتهت بقتل المرحوم الامام يحيى وهو فى الطريق يرحمه الله .

إلى الأمام يا روميل

كانت أوروبا شديدة الحنق على نازية هتلر فى ألمانيا وفاشية موسيلينى فى ايطاليا ، وفى أحوالها السيئة هذه فاجأ بريطانيا ما لم تكن تتوقع من المصريين الذين كانت تربطهم بها معاهدات ، فإذا شباب هذا البلد يعالنون الانجليز بالعداء ، فيخرجون إلى الشوارع فى القاهرة والاسكندرية هاتفين ذلك الهتاف المريب : « إلى الأمام يا روميل » . يحسبون أن تقدم القائد الألمانى سوف يخلصهم من استعمار بريطانيا لبلادهم . وقد بلغ بهم الغباء أن رفعوا الصليب المعقوف (شعار ألمانيا) يبتغون بذلك لفت الأنظار إلى استبدال استعمار انجليزى باستعمار ألمانى . وقد غفلوا عن حقيقة لا مجال للشك فيها ، وهى أن الاستعمار كله واحد لا فرق بين بريطانيا وألمانيا . وغير ذى حاجة إلى بيان أن هتاف شباب مصر بالقائد الألمانى قد أثار حنق الانجليز ، فكان أن أحاطت الدبابات بقصر عابدين ، ووجه المندوب البريطانى « سير مايلز لامبسون » إنذارا إلى الملك فاروق فى الرابع من فبراير سنة ١٩٤٢ وفيه يقول :

« إذا لم أعلم قبل الساعة السادسة مساء أن النحاس باشا قد دعى لتشكيل الوزارة ، فإن الملك فاروقا يتحمل تبعة ما يحدث » .

ولم يستطع الملك أن ينفرد بالتفكير فى هذا الحدث الأليم ، فدعا زعماء الأحزاب ، فأجمعوا رأيهم على أن هذا الانذار مهانة ، وأن هذه المهانة لا تتجه لشخص الملك ، ولكنها تتجه إلى الأمة كلها بغير فرق بين رعية وراع ، ولا بين محكوم وحاكم . وتطورت الأحداث بسرعة دعت الملك إلى اسناد الوزارة إلى المرحوم مصطفى النحاس باشا ، وهنا قال الدكتور أحمد ماهر متجها بالخطاب إلى النحاس باشا :

« إنى أكره للنحاس باشا خليفة الزعيم سعد زغلول أن يكون اليوم فى هذا الموقف ، وأرجوك يا رفعة الزعيم أن لا تقبل الوزارة على هذه الصورة التى لا تليق بخليفة سعد زغلول » .

والذين يعرفون تاريخ مصر الحديث ، لا ينبغى أن يجهلوا أحمد ماهر باشا . فقد كان الرجل من رجال السياسة وعلماء الاقتصاد إذ كان قد تخرج فى مدرسة الحقوق سنة ١٩٠٨ ثم سافر إلى فرنسا فنال الدكتوراة من جامعاتها ، فلما عاد إلى

مصر عين أستاذا بمدرسة التجارة العليا ، ثم اشتغل بالحركة الوطنية ، وانتخب سنة ١٩٢٤ عضوا بمجلس النواب ، ثم عين وزيرا للمعارف ، وأنشأ حزب الهيئة السعدية سنة ١٩٣٧ ، ثم انتخب رئيسا لمجلس النواب سنة ١٩٣٩ ، ثم عين رئيسا لمجلس الوزراء فى أكتوبر سنة ١٩٤٤ ، ولكنه قتل فى شهر فبراير سنة ١٩٤٥ إذ أطلق عليه المحامى الشاب محمود العيسوى رصاصات بدار البرلمان لأسباب سياسية أشرنا إليها فى الصفحات السابقة . وأنتهز هذه السانحة لأقرر ـ لله ثم للتاريخ ـ أننا شعرنا نحن رجال الأزهر الشريف بأن للوطن العزيز حقا علينا يتعلق بالانذار البريطانى ، فيسر الله لى بصفتى رئيسا لاتحاد الجامعة الأزهرية أن أجتمع بالأستاذ الدكتور عبد الرزاق السنهورى ، والأستاذ محمد زكى حسين ، والسيد توفيق عمر ، وبدأنا نستعرض الأحداث ونبحث عن الطريق الذى يفضى بنا إلى قضاء حق الوطن علينا ، فلم نجد إلا أن نكتب منشورا عنوانه « كنا نرتقب » . وقد عاتبنا فيه النحاس باشا عتابا وقورا لا يثير الحفائظ ، ولا يرمى بالخيانة أحدا من المواطنين ، ثم بحثنا عن مطبعة تطبع لنا هذا المنشور فأعيانا العثور عليها ، فالجأتنا الضرورة إلى الاستعانة برجل من رجال الحزب الوطنى القدامى هو احمد السراوى الذى كان يعمل ترزيا . وكان من التلاميذ المخلصين لمدرسة مصطفى كامل ، وقد تولى طبع هذا المنشور على الآلة الكاتبة حتى يسر الله لنا الأسباب إلى الظفر بمطبعة فى أقصى الصعيد ، وقامت بطبع المنشور الذى كنت قد أضفت إليه أبياتا من الشعر كان كثيرا ما يرددها سعيدا بها الصديق الجليل المرحوم دسوقى باشا اباظة الذى كان يحتضن الأدباء والشعراء يوم كان وزيرا للأوقاف ، وفى هذه الأبيات قلت متحدثا عن النحاس باشا ـ رحمه الله ـ :

أنام على الضيم السيوف المواضيا
ونام بحضن « اللورد » جذلان راضيا
وأمسك عن أعداء مصر جهاده
وأرسل فى شعبه الحر داميا

ومن حق الذين شاركوا فى اخراج هذا المنشور للناس أن نقدمهم للقراء عرفانا لحقهم على الوطن والمواطنين . فأما الأستاذ عبد الرزاق السنهورى ، فإن العالم العربى يعتبره شيخ القوانين الدستورية ، وهو الذى وضع دستور السودان ، وأسس نادى مصر ينافس به كلوب محمد على ، وقد عين وزيرا للمعارف فى العهد الملكى ، وكان رئيسا لمجلس الدولة ايام قيام ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ ، وقد كان مرجعا مهما فى كل القوانين التى سارت فى ضوئها الثورة ، ومن أظهر اعماله انه هو الذى كتب وثيقة تنازل الملك فاروق عن العرش لولى عهده الأمير احمد فؤاد . وقد صحبته إلى السودان لافتتاح برلمان السودان عام ١٩٥٤ فكان موضع التجلة

والتكريم من الشعب السودانى الشقيق . ومما يدعو إلى الأسف الشديد ، أن هذا الرجل العظيم قد اعتدى عليه بالضرب بتحريض من الذين خالفوه فى الرأى ، فكان لهذا الاعتداء أسوأ الأثر فى أنفس الذين يعرفون أقدار الرجال داخل مصر وخارجها . وأما الأستاذ محمد زكى حسين فقد كان رجلا حقوقيا ، وكان عضوا بارزا فى الهيئة التأسيسية للأخوان المسلمين ، وقد عين وكيلا لوزارة الأوقاف فى عهد الثورة .

وأما السيد توفيق عمر ، فهو رجل له نشاط سياسى واتصالات واسعة ، وله غيرة وطنية جعلته موضع الحب والتقدير عند الكثير من رجالات مصر المخلصين .

دعـوة إلى المعتقـل

وقد انتهى إلى علم البوليس السياسى أننى أنا الذى فكر فى هذا المنشور وطبعه على ورق صقيل ، وفى نظام بديع أنيق وبحروف واضحة جيدة ، فلم تجد الحكومة بدا من اعتقالى ، فجاء ضابط من ضباط البوليس السياسى يستدعينى لمقابلة مهمة ، وكان من المصادفات العجيبة الأليمة وجود والدى فى تلك الليلة معنا . وكان مثل هذا المنظر الذى جاءنى به ضابط البوليس مما لم يعهده الناس إلا حيث تكون هناك جريمة واجرام . فلما أخبرت والدى بأننى مدعو إلى معتقل فى مصر لبضعة أيام ثم أعود ، لم يملك دموعه وهو الرجل الذى احتمل من شدائد الحياة وقسوة الأيام ما تنوء به شمم الجبال . ثم لم يخضع لها حتى يبكى بل صبر وصابر لا يبالى شدة تنزل به ، ولكنه فى هذا الموقف يبكى على مرأى ومسمع من ابنه وزوجة ابنه التى كان يعتبرها بنتا له ، أو أعز بناته عليه .

وقد كان مما يؤلمنا جميعا أشد ألم وأبلغه وجود كبرى بناتى ليلى بيننا ، وكانت طفلة لم يجاوز عمرها ثلاث سنين ، ولقد كانت الخطة مرسومة على أن يذهب الضابط بى إلى قسم بوليس السيدة زينب ريثما يعدون لى مكانا أقيم فيه فى سجن من السجون ، أو معتقل من المعتقلات ، ولكن مدير الأمن العام الذى كانت تربطه صلة نسب بأصدقائى من آل خشبة فى أسيوط ، رأى أن المكان اللائق بمثلى هو سجن الأجانب . ولعل الذى حمله على ذلك تقديره لمركزى كزعيم لطلاب الأزهر وحركته منذ سنة ١٩٣٤م . وآل خشبة ، هم عائلة تعتز بنسبها العربى ، وهم من أعيان أسيوط ، ولى بهم صلات طيبة منذ أن كنت طالبا فى معهد أسيوط ، فكنا كثيرا ما نحضر حفلات سياسية تقام فى مناسبات شتى .

وقد كان منظر الضابط مع بكاء أبى شديد القسوة على طفلة فى مثل عمر ابنتى ليلى ، فظلت تخشى كل من يرتدى بدلة ضابط . وذات يوم جاء لزيارة الأسرة ابن عم

زوجتى الدكتور عمر دراز الذى كان يومئذ ضابطا طبيبا فى الجيش ، فلما رأته ابنتى ليلى صرخت فى وجهه قائلة بلهجة الأطفال : « أنت جاى تاخذ ماما كمان مش كفاية أخذتو بابا » . ولم يسع الضابط الفاضل إلا أن يحمل الصغيرة ، ويبكى وهو يقول لها : « أنا جاى علشان أشوفك ، ونروح نشترى شيكولاتة » .

وأذكر إننى مع حارسى بلغنا سجن الأجانب فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، وهناك قابلت لأول مرة وجها بريطانيا شديد العبوس تمثلت فيه « مالكا » خازن جهنم وبوابها . فأمر الرجل لبعض معاونيه بأن يأخذونى إلى الزنزانة التى أعدوها لى فى الطابق الثانى من السجن ، وكانت رقم ٢٧ . وقد كان فى الطابق الأول المربية الكبيرة السيدة نبوية موسى صاحبة مدارس بنات الأشراف ، وكانت معنية بالشئون الوطنية المصرية عناية جعلتها تجاهر بخصومة النحاس باشا منكرة عليه أشد الانكار قبوله رياسة الوزارة تحت تهديد الدبابات ، وفى ظل الانذار الانجليزى . وكان معها فى الطابق نفسه فتاتان متهمتان بالتجسس ، إحداهما مالطية ، والأخرى فلسطينية . وكان يجاورنى فى زنزانتى الضابط الطيار حسن عزت . وإلى جانب هاتين الزنزانتين كانت هناك ثالثة يقيم فيها فريد ابو شادى ، الذى كان له نشاط سياسى بعيد عن الحزبية والأحزاب ، وكانت له علائق طيبة بالقصر الملكى لعلها هى التى انزلته سجن الأجانب .

علقة ساخنة للبولندى

وكذلك كان يقيم فى الطابق نفسه رجل يوغوسلافى كان قد اعتنق الاسلام فى السودان وسماه شيخه عبد القادر المكاشفى ، وقد كان متهما أيضا بالتجسس . وكان فى الطابق نفسه شاب بولندى طويل اللسان قليل الأدب أرغمنا سوء أدبه ذات يوم على أن نضربه « علقة » ساخنة لقاء وقاحته ، وذلك أنه قال لأحد حراس السجن : « أن الملك بتاعكم حرامى غشاش » . وقد أثارتنى مع زميلى الضابط الطيار هذه الكلمة إثارة شديدة حملتنا على أن ندخل ذات يوم عليه فى زنزانته ندفعه بالأيدى ونركله بالأقدام حتى فقد الوعى أو كاد . وقد اعتبر مأمور السجن صنيعنا هذا عملا يقتضى ابلاغ النيابة العامة به ، فجاءنا وكيل نيابة يحقق معنا ، وكانت أجوبتنا كلها تتلخص فى أننا ضربنا هذا البولندى لأننا نرى الملك كالعلم ، فالذى يجترىء على إهانة الملك ، أو رأس الدولة يكون قد أهان علم الدولة ، فلا يملك وطنى صحيح الوطنية إلا أن يخضع لثورة عارمة بين جنبيه تسوقه إلى عقوبة المعتدى على وطنه .

وقد كانت هذه القضية سببا فى إجراء حركة تنقلات فى السجن فنقلنا نحن ـ أنا وحسن عزت ـ من سجن الأجانب إلى معتقل ماقوسة فى صعيد مصر . ولما كان سجن

الأجانب لا يقدم طعاما للمسجونين فيه ، كانت أسرتى تبعث إلى يوميا بوجبة غداء ، وذات يوم بعثوا إلى بالوجبة المعتادة مع شقيق زوجتى السيد محمد فريد دراز ، ولكنه لم يجدنى فى السجن ، ولعله كان من حسن حظه اننى لم أكن موجودا لأنه استولى على فرختين اختص نفسه بواحدة ، والأخرى لابن خالته العقيد مصطفى عبد العاطى الذى استشهد فى حروبنا العسكرية . وفى بلدة ماقوسة إحدى بلاد مديرية المنيا أنزلونا فى قصر أنيق ذى حديقة غناء ، وكانت الحكومة تعطينا بدل معيشة ، وكان المعتقلون يمثلون مختلف الطوائف والأحزاب ، وكانت كثرتهم الغالبة من المأخوذين بجريمة الكتاب الأسود الذى كان مكرم عبيد باشا يهاجم فيه أعنف هجوم النحاس باشا ، وذلك بعد أن اختلف الصديقان النحاس ومكرم .

أنور السادات زميل اعتقال

وأذكر من أولئك المعتقلين فى ماقوسة أنور السادات ، وزميلى فى سجن الأجانب الطيار حسن عزت ، والأستاذ عبد الوهاب حسنى المحامى الذى كان حلو الفكاهة قادرا على تقليد أصحاب السلطان فى طريقة أحاديثهم ، وموسى صبرى الذى رأس تحرير جريدة الأخبار ، وعدد من انصار مكرم عبيد باشا أذكر منهم خليل صليب ، ونجيب ناشد ، وجورج الراهب ، وآخرون من الذين اعتقلوا بتهمة الترويج للكتاب الأسود ، والأستاذ عبد المغنى سعيد وكيل وزارة القوى العاملة الأسبق ، وكان من أصحاب الثقافات الواسعة ، وكان أميل إلى المنهاج الإسلامى فى إصلاح شئون المجتمع ، وقد كنا نجتمع معه ويحاضرنا فى أمور شتى بعضها يتصل بالاصلاح الاجتماعى على المنهج الاسلامى ، وله فى هذا عدة مؤلفات منها كتاب « النظام الاقتصادى الاسلامى » وكتاب « الاسلام بين الدعوة والعودة » وربما كان الداعى إلى اعتقاله انتسابه للاعتزاز بالاسلام ونظمه الاجتماعية والاقتصادية ، وقد كانت الشبهة هى الحكم العدل فى رأى البوليس السياسى دون تثبت أو تحقيق إلا فى القليل النادر . وكان معنا ايضا الدكتور حسن نور الدين ، والأستاذ انور كامل الذى ميزه الله بقدرة فائقة على الغناء بالانجليزية ، كما يتغنى بها أهلها ، وغير هؤلاء كثير من المواطنين الذين كانوا يمقتون الاستعمار ، ويعتبون على النحاس باشا موقفه فى الخضوع لتهديد المندوب السامى البريطانى .

وكان المعتقل قليل الغرف ، فآثر المعتقلون - فرارا من حر الصيف - أن يناموا فى حديقته ولهذا فكر ثلاثة منهم فى الهرب وهم : انور السادات ، وحسن عزت ، ومحمود يوسف الذى كان يرى الحياة سلسلة من الفكاهة متصلة الحلقات ، فكان يضحك للشدة التى تنزل به ، كما يضحك للرخاء الذى تمتهد سبله بين يديه ، فقد

كان وكيلا للنائب العام ثم قاضيا ولم يمنعه منصبه من المغامرة وشتم خصومه السياسيين وهو فى منصب القضاء .

وقد دعاه ذات يوم أحد أصدقائه لتناول الغداء عنده مع السيد احمد انور الذى كان مديرا للسجن الحربى ، وفيما هم يتناولون الطعام جرى ذكر الرئيس جمال عبد الناصر ، فلم يملك محمود يوسف لسانه فأخذ يسب ويشتم الرئيس ، فلما انتهى الغداء قال له احمد انور : إذا لم تكن معك سيارة فتعال معى ، ومنزلك فى طريقى أوصلك إليه ، ومضى معه محمود بحسن نية ، وانطلقت بهم السيارة ، ولكنه بدلا من أن يوصله إلى داره أخذه إلى السجن الحربى ، ووكل به من الجنود من يقوم بتأديبه ، ثم أخذ المسكين وانهالت عليه الكرابيج ، وهو يستغيث ولا مغيث ، وبعد يوم أو يومين رؤى أن ما ناله من العقاب يكفى فى تأديبه ، فذهب إليه أحمد انور قائلا له : اسمعنى صوتك ، وأنت تشتم نفسك ، كما شتمت الرئيس عبد الناصر ، وإلا فإنك ستبقى ها هنا طوال عمرك أو تموت ، ولم يسع المسكين إلا أن يشتم نفسه ، بأقذر الألفاظ .

وبينما نحن فى حديقة المعتقل ، جاءنى الزميل حسن عزت ذات ليلة ، وأحاطنى علما بأنهم سيهربون فى هذه الليلة ، ثم قال : إن القفز من السور هو أول خطوة فى الهروب ، فإذا نجحت الخطة فسنلتقى فى القاهرة ، وإذا وجدنا عوائق تحول بيننا ، وبين النجاة من أيدى الحراس ، فسنعود إلى النوم فى الحديقة ونشاركك فراشك ومكانك الذى تنام فيه ، فإذا جاءك الحراس وسألوك فقل لهم : إننا كنا ننام بجوارك .

وغير ذى حاجة إلى بيان أن السجناء ، لا يكادون يتركون بغير حراسة يقظى ورقابة شديدة ، ومن أجل ذلك أخفق الثلاثة فى الهروب من المعتقل ، فعادوا إلى ما كانوا فيه . وقد كان هذا التصرف سببا فى إثارة قائد المعتقل فضيق علينا الخناق وحاول أن يحرمنا من بدل الطعام ، ومنع نزولنا إلى المستشفيات التى كنا نرى فى النزول اليها فرصة تخفف عنا وطأة الاعتقال . وعلى ذلك النحو نفسه حالوا بيننا وبين ما كنا تعودناه من السير ليلا قبل النوم ، فضاق المعتقلون بهذا التصرف الأحمق ، ورأوا أن يعلنوا ثورة على حراس المعتقل ، فبدأوا بالقاء بعض الأثاث فى الطريق ليمنعوا حركة السير ، ويثيروا الرأى العام ، وهنا لم تجد نقطة الحراسة وسيلة اشفى للصدور من اطلاق الرصاص على المعتقلين ، وكان الأمر جدا لا هزل فيه ، فظلت المعركة قائمة بين الطرفين حتى تدخل أعيان محافظة المنيا فى حسم الخلاف ، وأرضاء الطرفين .

وهنا عاود الزملاء الثلاثة محاولتهم الهرب مرة ثانية فنجحوا ، وكان القدر الأكبر من نجاح الخطة مردودا إلى معونة طيبة من بعض الذين كانوا فى نقطة خفر

السواحل ، أو مركز الهجانة بالقرب من مدينة المنيا ، والمصرى مفطور على مساعدة المظلومين .

أجازة من الاعتقال لتشييع جنازة الوالد

وبعد عشرة أيام من هذا الحادث ، دعانى قائد المعتقل إلى مكتبه لخبر مهم فيما أخبرنى رسوله إلى ، فلما أجبته أجلسنى على مكتبه ، ودعا لى بفنجان من القهوة على غير ما تعودنا من غلظته وخشونته وسوء أدبه ، وقد لمحت على مكتبه عدة أوراق بعضها برقيات مرسلة إلى المعتقلين من أهليهم ، وقد لمحت فى احدى البرقيات اسمى ، فاستأذنت الرجل فى إن اقرأ البرقية ، فأذن بعد أن طلب لى كوبا من الماء ، وأخذت اقرأ البرقية ، فإذا هى مرسلة من خالى الشيخ حسن احمد هيكل ، الأستاذ بالأزهر ، وكان يقضى الأجازة السنوية بباقور ، وفى البرقية أن والدى قد توفى ، فكان طبيعيا أن استأذن مدير المنيا فى أن يسمح لى بالسفر إلى قريتى باقور لأشارك فى تشييع جنازة والدى فأجاب بأنه لا مانع ، وقد أغرانى هذا الجواب الطيب بأن استعد للسفر ، وفى نفسى عاطفتان متناقضتان اشد التناقض : عاطفة فرح لأننى سأرى اولادى وأمى ، وعاطفة حزن اليم لموت والدى الذى كان آخر العهد به ليلة اعتقالى والدموع ملء عينيه ، وفيما أنا متهيء للسفر اخبرتنى المديرية بأن وزارة الداخلية ترفض سفرى ، وتلزمنى حياة المعتقل . فلم أجد وسيلة اقرب من أن ابعث ببرقية إلى النحاس باشا الذى كان يعرفنى معرفة شخصية منذ ثورة الأزهر ١٩٣٤ م وقد كتبت اليه ـ رحمه الله : « إن أشق شيء على نفسى أن أحرم من تشييع جنازة والدى ، كما حرمت من رؤيته وهو يفارق الحياة . وانتم اعرف بعاطفة الأبناء نحو الآباء ، فأرجو أن لا أحرم من تشييع جثمان أبى إلى مثواه الأخير » .

ولم ألبث إلا قليلا حتى قال لى قائد المعتقل استعد لتستقل آخر قطار يصل إلى اسيوط ظهر اليوم التالى ، وذهبت يصحبنى الحارس إلى باقور ، ولكن بعد فوات الأوان ! ! ثم مضت بنا الأيام على ما كنا فيه من ألم وضيق قرابة عامين ، ثم فرج الله كربنا ، فخرجنا إلى حيث يعيش الأحرار فى دنيا الناس .

وقد كان اعتقالنا على هذه الصورة مسبوقا باعتقال آخر فى القصر نفسه ببلدة ماقوسة ، وكان يزاملنا فى المرة الأولى الشيوخ الأجلاء : محمد عبد اللطيف دراز الذى نقل من القاهرة إلى مشيخة معهد الزقازيق ، وسليمان نوار شيخ معهد القاهرة ، ومحمود السيد مدير مكتب شيخ الأزهر ، وأنا وكنت آنئذ معاقبا بنقلى من معهد القاهرة إلى معهد شبين الكوم فى مديرية المنوفية .

وليس ينبغى التغاضى عن موقف كريم فى هذا المقام كان يقوم فيه العالم الجليل

الأستاذ الشيخ عبد المجيد سليم مفتى الديار المصرية آنئذ ، وشيخ الأزهر فيما بعد . ففى مقابلته للملك صارحه بأنه يكره لصاحب الجلالة أن يقترن تاريخه باهانة علماء الأزهر ، وشيوخ معاهده ، وقد حملت هذه الكلمات الملك على أن يصدر امرا عاجلا للنحاس باشا بالافراج عن العلماء المعتقلين فورا ، فأفرج عنا بعد اعتقالنا بثمان واربعين ساعة فكان هذا اقصر اعتقال لى فى حياتى .

الترشيح فى دائرة الخليفة

وفى الدنيا التى خرجنا إلى نورها من ظلمات السجون والمعتقلات ، أعلنت الحكومة عن الانتخابات لمجلس النواب سنة ١٩٤٥ ، وقد رأيت أن أرشح نفسى لعضوية مجلس النواب ، فتقدمت لذلك فى دائرة الخليفة بالقاهرة ، وكنا أحد عشر مرشحا ، وكانت معركة فريدة بين المعارك الانتخابية ذلك أن أحدا لم يكن يعرفنى فى هذه الدائرة من أبناء الشعب ، وبعد فترة جد قصيرة وقف إلى جانبى أئمة المساجد والأزهريون ، وأكثر الاخوان المسلمين ، وأخذت الدعاية للانتخابات لونا جديدا يثير الانتباه . وقد كان بعض المرشحين يستعين بالمال على شراء أصوات الناخبين ، فقام طلاب الأزهر الذين كنت مدرسا لهم ، وعلما بين شيوخهم ، وقائدا لحركتهم بمواجهة هؤلاء المرشحين بأسلوب جديد ، فكانوا يركبون الدراجات ويضعون على ظهورهم لافتات كتب عليها بالخط الجميل : « الراشى والمرتشى فى النار » . وهذا اللون من السلوك البعيد عن الحزبية القائم على التزام روح الاسلام ، كان من نتائجه أن يسقط المرشحون دون أن يحصلوا على التأمين ، وأن تكون الاعادة بين مرشحين اثنين : احمد حسن الباقورى وحمادة الطرابلسى .

ومن الإنصاف للتاريخ ومعرفة الفضل لأهله ، أن ابناء الدائرة كانوا يتكفلون بنفقات السرادقات ، كما يعرف ذلك كثير من أهل تلك الدائرة التى كانت تتألف من منطقة السيدة نفيسة والأبجية ، ومنطقة عرب يسار ومنطقة الحلمية الجديدة ، غير أن كل ذلك لم يستطع أن يتغلب على السيارات الحمراء التى كان يشرف عليها ويوجهها رجال الخاصة الملكية . ولم تكن هذه السيارات قد ظهرت للناس الا ليلة الانتخاب ، فقمت فى السرادق الشعبى الذى أقامه أهل الدائرة لى وقلت :

إننى اعتقد أن النجاح الحق ليس مقصورا على الظفر بالأصوات ، ولكن فى الظفر بالعواطف الطيبة التى تحيا فى صدور أبناء مصر العزيزة ، وتهديهم إلى سواء السبيل ، إنى أعاهدكم على أمور ثلاثة - إذا قدر لى أن دخلت مجلس النواب - احدها : العمل على تقريب الفوارق الطبقية بين المواطنين ، فليس من الإسلام ولا من الوطنية ولا من الانسانية أن يكون الشعب طائفتين : طائفة تموت من التخمة ، وطائفة

اخرى تموت من الجوع . ثانيها : العمل على تقوية أواصر الوحدة الوطنية . وثالثها : تحرير البلاد من نفوذ الاستعمار .

وقد وقع ما كنت توقعته ، فنجح منافسى حمادة الطرابلسى بسبب تدخل رجال الخاصة الملكية بسياراتهم الحمراء ، ولست أملك بعد هذه الكلمات التى ذكرتها الا أن أثنى ابلغ ثناء وأطيبه على شيوخى الذين كانوا من الناخبين فى الدائرة ، وفى طليعتهم الشيخان الجليلان ابراهيم حمروش ، ومامون الشناوى . ويبدو أن نتيجة الانتخاب بينى وبين منافسى على هذه الصورة قد أثارت سخط الأحرار فى الدائرة ، وخاصة شباب الأزهر وطلابه الذين أرهقوا أشد إرهاق فى المعركة الانتخابية ثم لم يظفروا بالنتيجة العادلة التى كان ينتظرها أهل الدائرة جميعا من مختلف النزعات والمذاهب .

بعثة من عدة رؤساء وعضو واحد

ويبدو أن الحكومة تحاول ازالة هذا الأثر السيء للمعركة الانتخابية ، فاختارونى عضوا فى بعثة الشرف الملكية المسافرة لأداء فريضة الحج .

ففى ذات يوم استدعانى السيد ابراهيم عبد الهادى باشا رئيس الوزراء الأسبق ، وكان يومئذ وزيرا للصحة ، فلما ذهبت اليه حسب الميعاد أخبرنى فى أسلوب اديب أنه اختير اميرا للحج ، ثم قال لى : «لقد اخترتك عضوا فى بعثة الشرف الملكية ، ولعل فى هذا الاختيار ما يشرح صدرك ، لأننا إن كنا قد ظلمناك فى الانتخابات ، فاننا نحب أن نتصافح فى أطهر مكان فى الأرض ، فأسرع فى اتخاذ الاجراءات اللازمة فى مثل هذه الأحوال لأن موعد السفر قريب .

ولم يشأ الرجل ـ رحمه الله ـ أن يترك هذه الفرصة دون أن يذكر لى أسماء الأعضاء الذين تتكون منهم بعثة الشرف وهم السادة : كمال الطرابلسى الذى عين أميرا مساعدا لبعثة الحج ، ومحمد عبد الرحمن الجديلى مدير المساجد ، وحامل حصة الحرمين الشريفين من غلة الأوقاف ـ وهو ما كان يعرف بالصُرة ـ ثم عبد القادر زعتر مدير الحج بوزارة الداخلية ، ثم الشيخ طموم الذى عين اماما للبعثة ، ثم الدكتور مختار عبد اللطيف طبيب الأسنان الذى كان يعرف نفسه بأنه ضابط الاتصال بين البعثة والأسرة السعودية الكريمة . وقد كانت مهمة البعثة ـ قبل ذلك كله ـ أن تعيد المياه إلى مجاريها بين الأسرتين الملكيتين : الأسرة السعودية فى المملكة العربية السعودية ، وأسرة محمد على فى مصر ، وكان قد حدث بين الأسرتين سوء تفاهم نشأ عنه تعطيل المحمل الذى هو عبارة عن كسوة الكعبة

الشريفة في مكة . وكسوة الضريح الشريف في المدينة المنورة . وكذلك وقف « الصُرة » التي كانت ترسل في كل عام إلى الأراضي المقدسة لكي توزع أموال أوقاف الحرمين الشريفين على المستحقين في تلك الأوقاف . وكان هذا الخلاف بين الأسرتين موروثا عن السلطان حسين . وسافرت البعثة وكان من المصادفات الطيبة أننا قابلنا في جدة الملك عبد العزيز ، ونحن في ملابس الإحرام .

ومن الطرائف التي يحسن ذكرها في هذا المقام ان كل واحد من اعضاء البعثة كان له لقب يمتاز به ، فقد انتظمت أمير الحج ومساعد أمير الحج وحامل الصرة وامام البعثة وضابط الاتصال ومدير الحج بوزارة الداخلية . فلم يكن هناك عضو سواى ، ولذلك لم أجد بد من تصرف ذهب في الناس مذهب الملحة ، إلى جانب أن فيه لونا من العتاب . فعندما استقر بنا المقام في فندق مصرى في مكة ، سألت احد الذين أنست اليهم : إنى أحب أن أطبع بطاقة تحمل اسمى وعملى ، وتدل الناس على شخصى . فطلب إلى الرجل الصيغة التي احب أن اكتبها في البطاقة ، فكتبت له هذه الصيغة التي أحب أن اكتبها في البطاقة : « احمد حسن الباقورى المدرس بالأزهر الشريف وأعضاء بعثة الشرف الملكية » . ولم يصدق الرجل عينه ، فسأل : هل هذه البطاقة لك ولأعضاء البعثة ؟ فأجبته انا أعضاء البعثة ، لأن من غير المعقول أن يكون في البعثة خمسة رؤساء يراسون عضوا واحدا ، فينبغى أن يكون هؤلاء الرؤساء رؤساء على أعضاء ، وهؤلاء الأعضاء هم الفقير إلى الله تعالى الذى هو أنا » .

وقد كانت هذه الملحة تجرى على ألسنة كثير من الحجاج في ذلك العام من مصريين وغير مصريين . ولقد يسر الله الطريق إلى ما تقربه العيون ، وتنشرح له الصدور من عودة المودة إلى ما كانت عليه من قبل بين البلدين الشقيقين ، وتفضل العاهل السعودى الكبير بقبول دعوة الملك فاروق التي حملها إلى جلالته أمير الحج للتفضل بزيارة مصر . والذين شاهدوا مقدم جلالة الملك عبد العزيز إلى مصر لم يكونوا يتوقعون أن تخرج مصر كلها في شوارع القاهرة التي كان يمر بها موكب جلالته ، حيث كان أملا من آمال المسلمين لحمايته الحرمين الشريفين ، وخدمته مع أسرته الكريمة حجاج بيت الله الحرام وزوار مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام . وكان من حسن حظى أننى رأيت الملك عبد العزيز في هذا الموسم ثلاث مرات : إحداها في جدة ونحن بملابس الاحرام ، والثانية حين تشرفنا بمقابلة جلالته ورفعنا اليه كتاب الملك فاروق ، والثالثة حين دعى إلى قصر عابدين لتناول طعام العشاء . والحق أن الرجل كان يزداد في كل مرة هيبة إلى هيبته ، فإذا تحدث لم يتجاوز حديثه إلى الناس الإطار الذى تتجلى فيه الدعوة السلفية على ما فيها من جمال وجلال .

وقد نشأ عن لقاء الملكين في القاهرة ما كان ينتظره دعاة الأخوة الإسلامية من المشاعر الطيبة بين الشعبين الشقيقين . الشعب المصرى العريق ، والشعب

السعودى العظيم ، فاختفت الشائعات التى كانت تجرى على السن الناس ، زاعمة أن المملكة العربية السعودية كانت ضائقة الصدر بالحجاج المصريين .

وكان انكشاف هذه الغمة وتبديد تلك المزاعم سببا فى سعادة الكبار من الاخوان المسلمين ذلك أن الأستاذ البنا كان سلفى النزعة وان يكن صوفى السلوك ، وليس هناك تناقض بين السلفية المعتدلة والصوفية المخلصة ، فان الجانب العاطفى فى الإسلام مشهود مقدور ، وقد كان الامام الجليل ابن تيمية نفسه ـ فيما ذكر بن القيم ـ لا ينكر التصوف ، بآية أنه قال فى هذا الباب شعرا يؤيد ذلك ، وينهض دليلا عليه ، فذلك حيث يروى الثقات قوله رضى الله عنه وأرضاه .

أنـا الفقيـر إلى رب البـريـات ... أنا المستكين فى مجموع حالاتى
أنـا الظلـوم لنفسى وهى ظـالمتى ... فمن مجيرى من المستمكن العاتى
وتلـك حـال عبـاد الله أجمعهم ... فعنـده وحـده القيت حـاجـاتى

الفصل الثالث

ليس نظاما خاصا واحدا بل نظامين

اذكر أن الأستاذ المرشد حين عاد من آخر حجة حجها كان سهل القياد حريصا على أن يسمع لكل متحدث اليه ، ذلك أننى كنت بين مستقبليه ، فقال لى لأول ما صافحته « لقد استقبلنا القبر الشريف بنشيد الاخوان الذى نظمته ، ولقد وقع فى نفسى أن فى ذلك بشرى طيبة لك . فحمدت الله وحمدت له هذه المكرمة ثم قلت له : إن لى اليك رجاء اعتقد أن فيه خيرا كثيرا للاسلام وللمسلمين ، ثم لمصلحة الدعوة ، وهو أن تذهب مع من تشاء لتقييد اسمك فى سجل التشريفات الملكية بقصر عابدين . فابتسم الرجل ابتسامة الذي يعرف ما تعنى هذه الكلمة فى هذه الحال ، وقد استجاب فعلا ، وذهب إلى القصر ، وقيد اسمه استجابة لرجائى الذى لم اقصد به الا مطاردة الاشاعات المغرضة التى كانت تتغيا وضع الاخوان المسلمين موضعا يسر العدو ويسوء الصديق . ذلك أن الذين كانوا يتتبعون الأحداث فى الأربعينات ، لم يكن يخفى عليهم أن يروا سلسلة من الفجائع يلصقها أعداء الحق بجماعة الاخوان المسلمين ، وهم يبتغون بذلك ان يضعوها فى الموضع الذى يعرضها للمحن التى لا تسعد بها دنيا ، ولا يرضى عنها دين .

وأول تلك الأحداث الفاجعة ، نسف محلات شيكوريل ، ثم نسف شركة الاعلانات الشرقية ، ثم فجيعة سينما مترو ، وهذه الأحداث الفاجعة تقع فى مصر ملاذ الإسلام ، ومعاذ العروبة . وغير خفى على البصراء بشئون الاجتماع البشرى أن سواء الناس وعامتهم ، لا يعنون بتحرى الحقائق ، ولكنهم يقنعون أبدا بالشائعات التى ترضى خيالهم مهما تكن بعيدة عن الحق أو قريبة منه ، فكذلك قال أمير الشعراء أحمد شوقى :

أنظـر الشـعب ديـون	كـيـف يـوحـون الـيـه
مـلأ الأرض هـتـافـا	بحيـاتـى قـاتـلـيـه
يـا لـه من ببـغـاء	عقـلـه فى أذنـيـه

وحقيقة أخرى لا تخفى على أهل البصر أن شعبنا فى مصر كان يعتبر الاخوان المسلمين ـ هم المسئولين عن هذه الفواجع مهما يكن موقف الجماعة منها رضاء بها

او سخطا عليها . ولعله لا يخفى على أهل النظر أنه إذا أشتهر انسان بمعنى من المعانى ، فان الناس ينسبون إلى هذا الانسان كل معنى يليق به ، ولو كان بريئا منه براءة الذئب من دم يوسف عليه السلام . وكان الرأى العام فى تلك الفترة من الزمان ينسب الأحداث المثيرة للرعب إلى جماعة الاخوان المسلمين ، فهم الذين نسفوا محلات شيكوريل ، وهم الذين حاولوا نسف حارة اليهود ، وان كان الواقع غير ذلك ، فذلك هو شأن الناس فى كل زمان ومكان . ومما يأكل القلب حرقة وأسى أنه فى أثناء هذه الفترة من اختلال الامن ، قتل الخازندار القاضى فى المحاكم الأهلية على باب داره فى حلوان فزعم الناس - مسايرة للحقيقة الاجتماعية - انه إنما قتل بيد الجهاز السرى لجماعة الاخوان ، ثم زعموا ما هو شر من ذلك ، وهو أن هذا القتل كان بتحريض من الأستاذ البنا ، مع أن الأستاذ رحمه الله كان يقول فى صراحة لا تحتمل التأويل : إنه لم يأمر بذلك ، ولا أشار به ولا رضيه فى تصريح أو تلميح ، ولكن الناس كانوا يصمون آذانهم عن هذا القول الصريح لأنهم عرفوا أن القاتلين حسن عبد الحافظ ومحمود زينهم ، من شباب الاخوان المسلمين . ثم كيف يستقيم فى ذهن طالب للحق أن يستحل حسن البنا دم مسلم ، وهو يروى عن أم سلمة - رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : يكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتنكرون ، فمن أنكر فقد برىء ، ومن كره فقد سلم » . ولكن يصعب على طالب الحق أن يرضى بما يزعمه بعض قصار النظر من أن الأستاذ المرشد كان قد حرض على قتل القاضى الخازندار .

ومادام الحديث حديث النظام الخاص ، فاننى ابدأ من ذلك بأن أقرر - لله ثم للتاريخ - أن نشاطى فى جماعة الاخوان المسلمين ، لم يجاوز المحيط العام خطيبا فى محفل أو مسجد ، فلم يكن لى علم بالأنظمة السرية بوجه من الوجوه ، ومبلغ علمى أن النظام الخاص الذى يسميه بعض الناس بالجهاز السرى إنما أنشىء لتدريب الراغبين فى الجهاد عن طريق العمل الفدائى فى فلسطين أولا ، ثم فى مصر ضد الاحتلال البريطانى لمنطقة قناة السويس .

ولقد تكلم الأستاذ المرشد كثيرا عن شعوره إزاء الاحتلال الأجنبى فى منطقة القناة ، ولا ريب فى أن مقاومة الاحتلال هنا وهناك كانت تستلزم فتح باب العمل الفدائى ضد قوات الاحتلال ، وكذلك فعل الاخوان ، فقاموا بأعمال رائعة فى ميدان الجهاد فى فلسطين ، وفى معارك القناة ، وقد شهد بروعة هذه الأعمال وارتقائها إلى مستوى البطولة جميع الذين عاصروا هذه المعارك من رجال الجيش ، ومن ابناء فلسطين ، وليس ينسى الناس تلك الكلمة التى كان يتحدث بها الحاج امين الحسينى مفتى فلسطين وزعيمها فيقول فى صدق المجاهد : « إن اليهود ليسوا فقط فى فلسطين ، ولكنهم كذلك فى مصر ، وفى كثير من البلاد التى لهم فيها نفوذ » .

وقد كان جبل المقطم ساحة للتدريبات على استخدام الأسلحة فكان شباب النظام يتدرب على صورة تكاد تكون علنية ، وكان يقوم على تدريب بعض هذه التشكيلات الفدائية بعض الضباط فى القوات المسلحة من أعضاء النظام الخاص ، ومن بينهم جمال عبد الناصر ، وهذه الحقيقة يعرفها كثير من الاخوان ويستطيع الحاج حسنى عبد الباقى ـ وهو علم من اعلامهم ـ أن يوضح أمرا يعرفه أصدق المعرفة ، فقد كان يستضيف مجموعات من أولئك الفدائيين فى قريته بين أسماع الناس وأبصارهم ، ولذلك أصبحت أنظمة الحركة تعيش فى أثناء هذه التدريبات وعين الحكومة تتابع هذه الأحداث ، وتترقب الظروف التى تهىء لها الامساك بهؤلاء الفدائيين .

وليس يجهل أهل الرأى من الاخوان أن من أهم هذه المجموعات التى كانت تقوم بالتدريب فى جبل المقطم هى المجموعة التى كان يدربها المهندس سيد فايز الذى قتله النظام الخاص بعد أن انشق بعضهم على بعض ـ وقد كانت طريقة قتله تجافى المروءة والدين وتبعث الأسى فى أنفس الذين يحترمون مولد رسول الله ، ذلك أن الذى قتله تحرى ذكرى المولد النبوى الشريف فبعث اليه فى بيته صندوقا من حلوى المولد ، فلما حاول فتح الصندوق إنفجر فى وجهه فقتله ، وقتل أخاه الأصغر الذى كان يقف بجانبه ، وقتل بنتا صغيرة كانت تسير فى الشارع الذى يقع فيه مسكنه مع أسرته .

وقد كان هذا القتيل يدرب مجموعة من الفدائيين فى جبل المقطم ، وكانت قد وقعت هذه الجماعة فى قبضة رجال الأمن ، ومعهم الأسلحة وسائر ما يحتاج اليه التدريب . فاتصل المرشد العام بالحاج أمين الحسنى طالبا اليه أن يتدخل بحجة أن هذه التدريبات إنما كانت من أجل فلسطين ، وذلك حق ، وقد قرر المقبوض عليهم هذه الحقيقة فى التحقيق ، فأفرج عنهم ، وسلموا الأسلحة وسائر الأجهزة للهيئة العربية العليا لفلسطين ، ثم سلمت هذه الهيئة الأسلحة إلى الفدائيين ، فعادت بذلك إلى النظام الخاص . وكان طبيعيا أن تدون أسماء الذين افرج عنهم فى سجلات التحقيق ، كما كان طبيعيا أيضا أن يستولى رجال الأمن على جميع ما كان معهم من أوراق كانت مفتاحا إلى معرفة اعضاء النظام الخاص باسمائهم الحقيقية واسمائهم الحركية .

حقيقة صلة عبد الناصر بالإخوان

وجملة ما علمته من بعض أهل الثقة ، ومن مذكرات بعض الاخوان أن جمال عبد الناصر كان قد بدأ صلته بالحركة قبل ثورة ٢٣ يوليه ١٩٥٢ بسنوات طويلة ، وتحديد هذه المرحلة يعرفه الأخ عبد المنعم عبد الرؤوف زميل عبد الناصر فى الجيش ،

وفى حركة الاخوان . وقد ارتبط بالنظام الخاص الأول يعمل فى صفوفه فيدربهم ويخرج معهم فى رحلاتهم ، وكان يستضيفهم الأخ الحاج حسن عبد الباقى فى قريته « الرقه » من بلاد مركز الصف بالجيزة ، ولم يكن عبد الناصر لينسى الحاج حسنى فى ضيافته له فى قريته ، فكان جزاؤه على هذه الضيافة أن أوصى به خيرا . وهو فى السجن الحربى ، كما أوصى بالبحث عن الأسلحة التى كانوا يتدربون عليها فى كل مكان مهما كلفهم ذلك .

وقد عاش الأخ عبد الناصر فى النظام الخاص الأول فخبرهم عن قرب ، وعرف أفكار قيادتهم ، ووقف على مدى قدرتهم وثقافتهم ، وخاصة المسئول عنهم ـ الأخ عبد الرحمن السندى ـ وكان الأخ جمال عبد الناصر يعرف حقيقة الأخ عبد الرحمن السندى ويعرف أسلوبه الذى كان يعمل به فى النظام الخاص ، وأن هذا الأسلوب كان يقوم على السيطرة المطلقة مع انه ليس على مستوى ثقافى وفكرى يؤهله لهذه المسئولية . ولذلك رفض عبد الناصر أن يعمل تحت رياسة عبد الرحمن السندى ـ وان ظل على صلة به بعد ذلك ـ ولكن على أساس من التعاون بينهم ، على أن يكون الاستقلال لعبد الناصر وجماعته ، وأن يكون التعاون فى بعض القضايا والمواقف التى يرى عبد الناصر التعاون فيها . وما كان هذا ليرضى عبد الرحمن السندى ، ولهذا كان عبد الناصر يزور السندى فى مستشفى قصر العينى وقت أن كان يمضى فيه عقوبة السجن فى قضية سيارة الجيب . وكان ذلك فى شهر يونيه من عام ١٩٥١ وقد مكث عنده فى هذه الزيارة وقتا طويلا يقول فيه بعض أعضاء النظام : إن هذه الزيارة كانت فاصلة فى التفاهم بينهما .

وقد كان أول لقاء تم بينهما بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ عند قبر الشهيد حسن البنا حين أدى جمال عبد الناصر صلاة الجمعة فى مسجد الامام الشافعى ، ثم ذهب لزيارة قبر الامام البنا ، وقال كلمته المشهورة يخاطب الاخوان الذين كانوا فى السرادق لا تظنوا أيها الاخوان المسلمون أننى أجنبى عنكم ، فإنى واحد منكم .

وهنا يقول بعض الاخوان ، إن الأخ عبد الناصر كان يعمل فى النظامين ، النظام الذى يرأسه الأخ السندى ، والنظام الذى يرأسه الأخ صلاح شادى . ولم يكن تفكير عبد الناصر بعيدا عن تفكير الامام البنا رحمه الله ، فلو كان قد امتد به العمر ، لكان قد قرب اليه الأخ صلاح شادى ، ووكل اليه أمر النظام الخاص .

وسبب ذلك مواقف كثيرة نذكر منها : أن عبد الرحمن السندى اتخذ منفردا برأيه قرارا بمقتل القاضى الخازندار ، وكذلك رفض التعاون مع الأخ صلاح شادى عندما حاول الامام الشهيد توحيد قيادة النظامين بعد مقتل القاضى الخازندار . وسبب ثالث أهم من هذين السببين ، وهو قيام الأخ السندى بضرب شركة الاعلانات الشرقية دون الرجوع إلى الأخوين صالح عشماوى ، والدكتور حسين

كمال الدين ، كما جاء ذلك على لسان الأخ الدكتور حسين كمال الدين فى حضور الأخ الدكتور كمال خليفة . وربما كانت هناك أسباب أخرى عند الامام الشهيد يعلمها هو بحسه وفطنته ، ولم يفصح عنها لأحد ممن حوله . غير أن الذين كتبوا عن الامام الشهيد ، وعن نظام الجماعة العام والخاص ، هم بلا ريب من الثقات العدول ، ولذلك أخذ عنهم مطمئنا إلى كل كلمة يقولونها وفى طليعتهم السادة الاخوان : صلاح شادى ، ومحمود عبد الحليم ، وعبد الحفيظ الصيفى ، وحسن عشماوى وغيرهم .

ولو كنت قد علمت هذا عن طريق الاتصال بهذه الأحداث ، لما وجدت أدنى حرج فى أن أذكر ما ذكرت ، وأنا اسنده إلى نفسى ومعلوماتى الخاصة لأن التاريخ أمانة يسأل الله عنها عباده المؤمنين يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم .

على أن من الحق الذى لا ينبغى كتمانه أن مجاهدة المعتدين لم تكن مقصورة على جماعة الاخوان المسلمين بل لقد شاركتهم فى ذلك الجمعية الشرعية بزعامة الشيخ محمود خطاب السبكى - رضى الله عنه - كما أخبرنى بذلك الأستاذ المرشد حسن البنا ، ذلك أن مجاهدة الغاصبين والمستعمرين عمل تزكيه الفطرة ، وتحرص عليه الشريعة ، والتدريب على استخدام أجهزة الجهاد ، هو أول الطريق إلى مجاهدة الأعداء . وسند ذلك ما أخرجه فى التيسير عن عقبه بن عامر من أن رسول الله ﷺ قال : إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة . صانعه الذى يحتسب فى صنعته الخيرة ، والرامى به ، ومنبله - الذى يناوله لمن يرمى به - فارموا واركبوا ، وأن ترموا أحب إلى من أن تركبوا ، كل لهو باطل ، ليس من اللهو محمود الا ثلاث : تأديب الرجل فرسه ، وملاعبته أهله ، ورميه بقوسه ونبله ، فانهن من الحق ، ومن ترك الرمى بعدما علمه ، فانها نعمة كفرها .

فإذ قد كانت مجاهدة الغاصبين والمستعمرين أمرا موصولا بالدفاع عن الحرمات ، وصيانة المقدسات ، فقد كان طبيعيا أن يكون كل ذى دين حريصا على التدريب يستوى فى ذلك الغرض جماعة الاخوان المسلمين ، والجمعية الشرعية السبكية .

مقاتلة المواطنين .. أمر كرهه الرسول

بيد أن ها هنا وقفة لا نرى ندحة عن الاشارة اليها ، وهى أن الانحراف عن هذه الغاية المشروعة فى قتال الغاصب المحتل إلى غاية أخرى تتحرى مقاتلة المواطنين أمر كرهه للمسلم رسول الله ﷺ بقوله الشريف الذى نهى فيه عن قتال المصليين ،

فاذا أقدم مسلم على قتل أخيه الذى انقاد لشرائع الإسلام ، فان ذلك بلا ريب خطأ فى الاجتهاد ضرره أكبر من نفعه ، وشره أكثر من خيره ، فاذا جاهد الرجل مغتصبا لبلده ، أو معتديا على مقدساته ، فان ذلك أمر تزكيه الفطرة ويرضاه الدين . فأما إذا خيل له أن مجاهدة مواطنيه ، أو ولى الأمر فى بلده ، فشهر سلاحه فى وجهه ، فان ذلك صدع فى المروءة ووهن فى الدين . ويتمثل هذا الفرق بين هاتين الصورتين من صور الجهاد . قتال الغاصب المحتل ، وقتال المواطن الأعزل ، يظهر الفرق غاية الوضوح بين مجاهدة العدو ومقاتلة الغاصب وبين الاعتداء على الآمنين العزل من كل سلاح يدافعون به عن أنفسهم ، فقتل رجل يؤدى عملا لبلده مثل القاضى الخازندار هو بلا ريب عمل يأباه المصلحون الذين يحرصون على التقيد بالتزام حدود الله ، ولذلك تقع الكلمة التى قالها المرشد حسن البنا أحسن موقع فى نفس كل ذى دين ، حيث قال بعد أن بلغه مقتل القاضى الخازندار على مرأى ومسمع من كثير من المواطنين :

« إن هذه الرصاصات التى أطلقت على الخازندار إنما أطلقت فى صدرى » .

ولم تكن هذه الكلمة الصادقة التى قالها الأستاذ المرشد أمرا ناشئا من فراغ ، فانه كان قد قال من قبل فى معرض الوصايا لرجال الدعوة كلمات كنت قد دونتها يومئذ لقوة أسلوبها وحلاوة نظمها إذ قال رحمه الله :

« أيها الاخوان المتحمسون ، اسمعوها منى كلمة عالية مدوية من فوق هذا المنبر فى مؤتمركم هذا ، إن طريقكم مرسومة خطواتها موضوعة حدودها ، ولست مخالفا هذه الحدود التى اقتنعت بها كل الاقتناع مؤمنا بأنها أسلم طريق للوصول إلى غايتنا . نعم قد تكون طريقا طويلة لكن ليس هناك غيرها ، فمن أراد منكم أن يستعجل ثمرة قبل نضجها ، أو يقتطف زهرة قبل أوانها ، فليعلم أننى لست معه فى ذلك بحال .

أيها الاخوان : الجموا عواطفكم بمنطق عقولكم ، والزموا الخيال صدق الحقيقة ، والواقع ، ثم اكتشفوا الحقائق فى ومضات الخيال . ولا تميلوا كل الميل هنا أو هناك ، ولا تصادموا نواميس الكون فانها غلابة ، ولكن غالبوها واستخدموها وحولوا تيارها إلى ما ينفع ويفيد . ثم استعينوا ببعضها على بعض ، واحذروا أن تغامروا بجهودكم فتصبحوا حيارى فقدوا الطريق . وهيهات أن تتهيأ لكم السبل إلى ما تنتفعون به فى دنيا أو دين » .

فهذه كلمات بينة الدلالة واضحة الغاية ليس اليها سبيل لتبديل أو تأويل ، فاذا لم يسمعها الناس على ما ينبغى لها فخالفوها ـ متعنتين أو متأولين ـ فليس الذنب فى هذه الحال ذنبه ، ويظلم الحق أفحسن ظلم من يحمل المرشد تبعة قتل أو نسف أو تخريب . وليس فى الوسع أن نتغاضى عن أثر هذه الأحداث فى نفس الحراص على أمن الشعب وكرامة الدولة ، فان الحكومة القائمة آنئذ وجدت نفسها فى موقف حرج

أمام معارضيها من الاحزاب ، وأمام مؤيديها من الشعب ، فلم تجد بدا من أن تتصرف تصرفا يستبقى لها بعض الكرامة فى أنفس الناس ، وكان مما يسر لها السبيل إلى استبقاء بعض هيبتها سقوط سيارة الجيب فى قبضة رجال الأمن ، فقد يسرت هذه السيارة السبيل أمام الحكومة إلى معرفة أسرار النظام الخاص باوراقه ، واسماء اعضائه ، وبعض معداته ، وقد قالت لهم الأوراق والمستندات التى وقعوا عليها هذا هو النظام الخاص للحركة ، وهذا هو رئيسه والمسئول عنه عبد الرحمن السندى ، فالقى القبض على كثير من أعضاء النظام وفى مقدمتهم المسئول عنه ، وادخلوا السجون ثم قدموا للمحاكمة بترتيبهم السرى ، وبذلك تنفست الحكومة الصعداء ، واخذت تعد قرارها بحل جماعة الاخوان المسلمين . ولم يعد النظام الخاص بكل وسائله قادرا على حماية الحركة ونظامها العام ، كما كان يقرر ذلك لنفسه عن نفسه . وفى هذه المرحلة التى وقعت فيها كل هذه الأحداث الأليمة تحركت السلطة الحاكمة يظاهرها الرأى العام فى الداخل والخارج ، فأصدر رئيس الحكومة محمود فهمى النقراشى باشا قراره بحل جماعة الاخوان المسلمين .

بعض أعضاء مكتب الإرشاد لا يعلمون !

وبسقوط سيارة الجيب فى قبضة رجال الامن انكشف امر النظام الخاص بالاخوان المسلمين ، انكشاف الحقائق التى لا سبيل إلى انكارها ، فاستولت الدهشة على النفوس ، وفى مقدمة الذين استولت الدهشة عليهم بعض الأعضاء فى مكتب الارشاد والهيئة التأسيسية فراحوا يناقشون أمر النظام ويتساءلون عن قيامه فى حركة الجماعة فيقولون : هل تحتاج الحركة فى تحقيق أهدافها إلى قنبلة ومسدس ؟ أو تحتاج إلى علم وثقافة ؟ ثم هل هى فى حاجة إلى من يحميها من خصومها واعدائها ؟ أو أنها فى حاجة إلى منهج واضح لفكر سياسى واقتصادى يضعها موضعا تتمكن فيه من الاستيلاء على عقول الناس وعواطفهم حتى يقبلوا عليها إقبال الراغب فى اصلاح المجتمع اصلاحا يقوم على تمكين قوة الديمقراطية ، ودعم قواعد العدل ورفع الوية السلام ؟

ولكن الذين كانوا يتحاورون لم يستطيعوا أن يصنعوا شيئا يغير الأوضاع ، إذ أصرت قيادة النظام الخاص ـ بزعامة السيد السندى ـ على بقاء النظام على الرغم من إنحداره إلى تصرفات ضارة ، وحوادث فاجعة ارتكبها النظام دون الرجوع إلى الأستاذ البنا الذى كان هو وحده المسئول أمام الرأى العام ، وأمام جميع الإخوان عن كل ما يأتيه النظام ، ولذلك ـ رأى رضى الله عنه ـ أن ينحى الأخ السندى عن رياسة النظام لولا تتابع الأحداث المؤسفة تتابعا شغله عما يريد .

ومما ضاعف متاعب الإمام الشهيد انه كان بين الأخوين شادى والسندى سوء تفاهم حاول الأستاذ المرشد أن يزيله ، فلم تمتهد له إلى تلك الغاية الشريفة سبيل .

نظام خاص آخر

وكان الأستاذ صلاح شادى شديد الولاء للأستاذ المرشد ، وكان موضع ثقته حتى ولاه رياسة قسم الوحدات الذى كان يقوم بنشر الدعوة بين جنود الجيش وضباط الصف تحت إشراف وتوجيه المرشد العام ، وقد ضم الأستاذ صلاح إلى هذا القسم معه بعض ضباط البوليس ، فأصبح هذا القسم هو النظام الخاص الثانى فى الجماعة الذى يتعاطف مع الإخوة : منير دله ، وحسن عشماوى ، وعبد القادر حلمى عديل الاخ حسن عشماوى ، والاخ صالح ابو رقيق ، والاخ فريد عبد الخالق ، وهم جميعا من أقرب المقربين إلى الأستاذ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين ، كما ظلوا اقرب المقربين ايضا إلى الأستاذ حسن الهضيبى المرشد العام الثانى للإخوان المسلمين .

وبتدبر هذه المعانى يبدو على غاية الوضوح أن جماعة الإخوان المسلمين كانت تتألف من التنظيم العام للجماعة ، وإلى جانبه النظام الخاص الذى كان ينتظم شعبتين :

شعبة يراسها عبد الرحمن السندى ، وشعبة اخرى يراسها الاخ صلاح شادى . ولا ريب فى أن هذا الإزدواج كان أمرا تضيق به صدور المصلحين الذين يقوم عملهم الأصيل على توحيد الكلمة بين العاملين . ولذلك حاول الأستاذ المرشد العام حسن البنا أن يوحد قيادة النظام الخاص حتى لا ينفرد السندى بإتخاذ القرارات دون رجوع إلى المرشد ، فدعا إليه الأخ صلاح شادى ، ثم طلب إليه أن يصحبه إلى منزل السندى الذى كان يجتمع فيه مندوبو النظام فى القاهرة والاقاليم ، غير أن السندى رفض أن يحضر الأخ صلاح شادى هذا الاجتماع .

وهذا ـ بلا ريب ـ موقف غريب لا مناص من اعتباره تمردا على قرار اتخذه رأس الدعوة ومرشد الإخوان حسن البنا ، وإذا كان المجتمعون قد أيدوا السندى فى موقفه هذا ، فإن ذلك لا يعنى إلا أن إنشقاقا قد حدث فى صفوف الجماعة ، ولم يكن فى وسع الأستاذ البنا أن يعلن إلى الإخوان هذا الموقف حتى لا يوجد فرقة أو خلافا ، وخاصة وأن السندى ومن معه كان لهم رأى فى الأخ صلاح شادى ونظامه ، فكانوا ينكرون وجوده أصلا .

وإن من أعجب العجب أن السندى فى موقفه هذا لم يكن يلاحظ الظروف

الصعبة التى واجهت المرشد العام بسبب تحرش الحكومة بالجماعة واضطهادها إياها . وذلك تصرف غريب ربما حمل على سوء الظن به ، وخاصة إذا اقترن ذلك بما كان يشاع عنه من أنه يتخذ القرارات الخطيرة من نسف ، وقتل دون الرجوع إلى المرشد العام . إذ كان هو الذى حكم على القاضى الخازندار بالإعدام ، وكان هو الذى أمر بنسف شركة الاعلانات الشرقية ، فهذان الأمران لم يكن ليرضى عنهما من يؤثر مصلحة الدعوة ، ويلتمس لها السبيل إلى أن تبلغ غايتها فى إصلاح المجتمع على أسس صالحة يرضاها الله تعالى لعباده المؤمنين .

وقد كان من نتيجة هذه التصرفات والخلافات أن الأستاذ المرشد بدأ يعيش فى جو من القلق الأليم ، ويحتمل عبئا ثقيلا من هم مقعد مُقيم ، فقد اصطلح عليه أمران تنوء بهما الرواسى ، وهما خشيته على الدعوة التى أنفق فيها عمره ، وابتغى فيها ثواب الله العظيم فى الدنيا والآخرة ، ثم خشيته على وطنه أن تشتعل فيه نار الفتنة التى تعرضه لإستبداد الحاكمين واستغلال المحتلين . وقد كان نصب عينيه ـ رضى الله عنه ـ أن الأمم الاستعمارية ذات منهاج واحد ، وأن بعضها يأخذ عن بعض ، وقد صنعت فرنسا فى الجزائر بجمعية العلماء ، ورئيسها بن باديس ما يتأبى تصوره على الخيال ، ثم جاءت على أثرها إيطاليا فصنعت بالوطنيين الصادقين ـ فى ليبيا ـ وفى طليعتهم عمر المختار ما لا قبل لآدمى به ، ولا قدرة لإنسان على احتماله .

ولم يكن ذلك الذى صنعته فرنسا ، ولا هذا الذى صنعته إيطاليا إلا نكاية بالإسلام وأهله . ولن يخالجك الشك فى أن الأستاذ المرشد كان يعرف من اخبار الجزائر وليبيا والسودان ومصر ما نعرفه نحن اليوم ، لأنه كان كثير القراءة شغوفا بالكتب التى تثمرها المطابع . وقد كان الحاج مدنى الكتبى بمنطقة الأزهر لا يكاد يرى فى دور الإخوان المسلمين إلا وفى يده كتاب يقدمه للمرشد . وتجار الكتب لا يكاد يخفى عليهم كتاب ، فهم أعرف بالكتب من كثير من العلماء والمتعلمين .

وقد توقع الأستاذ البنا شرا ينزل به ، أو بجماعة الإخوان المسلمين معه ، فأخذ يحتاط فى كلماته ، وفى تصرفاته ، وفى رحلاته داخل البلاد وخارجها ، مع علمه بأن الحذر لا يدفع القدر ، والله تعالى يقول : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » .

إن أحدا لا يشك فى أن جماعة الإخوان المسلمين أقوى جبهة كانت تعمل للإسلام ، ولإصلاح شئون المجتمع المصرى فى ظل الإسلام ، وقد كانت فى أطوارها المختلفة تجاهد المستعمرين والمغتصبين ، وتدعو إلى مجاهدتهم كلما تهيأ لها إلى هذه الدعوة سبيل ، ومن هنا كان يتوقع كل ذى نظر بعيد أن أمرا خطيرا لابد أن يقع بالإخوان استنادا إلى أن الاستعمار طريقته واحدة يقتدى بعضه ببعض ، وكما صنعت فرنسا بجمعية العلماء فى الجزائر ، وكما صنعت إيطاليا بالمجاهدين فى

ليبيا ، فلابد أن تصنع بريطانيا بجماعة الإخوان المسلمين فى مصر . إذ كانت جماعة الإخوان ذات صلات وثيقة بجماعات المجاهدين فى سائر أنحاء العالم الإسلامى ، وكانت مجاهيدها فى مناهضة الغاصبين والمستعمرين ، لا تقل فى موازين الاستعمار عن مجاهيد الأحرار المجاهدين فى الجزائر وليبيا وسائر بلاد المغرب العربى الاسلامى .

وقد وقع ما كان يتوقعه أهل النظر الصحيح فنشطت بطانات السوء منتهزة سوانح الفرص فى مختلف صورها للايقاع بجماعة الإخوان ، وإيغار صدور الحاكمين عليها عن طريق تذكيرهم بالأحداث التى تحرج الحكم وأهله ، وتوقع الشعب المصرى فى فتن عمياء ينفخ فى نارها المتربصون بالوطن العربى فى مصر ، وفى كل بلد عربى تربطه به صلة من وحدة الفكر ، واتحاد المصير .

حـل جمـاعة الإخـوان

ولا شك أن النقراشى باشا ـ رحمه الله ـ كان يعرف منزلة الإخوان معرفة كاملة ويعرف مع ذلك أن الغاصبين المحتلين لبلاد الإسلام كان من أعز أمانيهم أن يروا جماعة الإخوان موضع اضطهاد الحكومة بحيث لا يبقى لها نشاط يثير أنفس الشعوب على الاستعمار والمستعمرين ، وعلى كل من يستجيب دعوتهم ، أو يجرى فى طريقهم .

وغير خفى على المؤرخين لحركات التحرير أن النقراشى باشا قد بدأ مع زميله احمد ماهر باشا حياتهما السياسية فدائيين ينتميان إلى « حركة اليد السوداء » التى كانت تغتال رؤوس الاستعمار الإنجليزى فى مصر والسودان ، ولا شك ايضا فى أن الرجل كان يعلم علم اليقين أن الانتصار للمبدأ لا يبالى الشدائد التى تنزل بأصحاب المبادىء مهما اقتضاهم ذلك بذل الغوالى من الدم والمال ، ولذلك كان من العجيب ان يذهل النقراشى باشا « الفدائى » عن إدراك هذه الحقيقة ، وهو يتهيأ لحل جماعة الإخوان المسلمين الذين كانوا يرون الانتصار للإسلام بدعوتهم أعز وأقدس من انتصاره هو وزملاؤه للحركة الوطنية ، فإذا كان مبدؤه قد هوّن عليه بذل نفسه فى سبيل القضية الوطنية ، فإن مبادىء الإخوان المسلمين لابد أن تُهوّن عليهم بذل أنفسهم فى سبيل حمايتهم للعقيدة التى هى فى الواقع أعز وأقدس من كل عزيز مقدس فى دنيا الناس . ومن هنا يعجب الإنسان أشد العجب من اعتقال الإخوان المسلمين فى أثناء عودتهم من حرب فلسطين ، وهم الذين ارتقوا إلى مرتبة البطولة فى تلك المعارك الشرسة ، كما يقرر ذلك رجال قواتنا المسلحة ، وأهل الغيرة على الوطن فى سائر اقطار العروبة والإسلام .

وأيا ما كان الأمر ، فإن الكارثة قد وقعت ، وأصدر النقراشي قراره المشئوم بحل جماعة الإخوان المسلمين ، ثم اتبع ذلك تصرفا آخر أدخل في باب الشفاعة من قراره حل الجماعة ، وهو قراره بتصفية موجودات الإخوان وممتلكاتهم على أسلوب يثير الحفائظ ، ويوقظ الضغائن في صدور المتحمسين من شباب الإخوان المسلمين . وقد كان من شأن هذا التصرف أن يحمل المتحمسين من شباب الإخوان على أن يلقوا السيئة بسيئة مثلها أو أكثر سوءا منها ، ولو أن إضطهاد الجماعة كان قد إقتصر على حلها دون المعالنة بتصفية ممتلكاتها لكان الخطب أقل سوءا وأيسر احتمالا ، ولكن إيقاع الأمرين : الحل والتصفية حمل المتحمسين من الشباب على أن يتصوروا النقراشي معتديا على الإسلام ، ومعلنا الحرب على المسلمين ، فقرر نظامهم الخاص أن يثأروا لأنفسهم أو لجماعتهم . فكان ما أراد الله أن يكون من مصرع النقراشي في وزارة الداخلية ، فقتله عبد المجيد حسن الذى كان طالبا بمدرسة الطب البيطرى في النصف الثاني من نوفمبر ١٩٤٨ . والذى يعرفه الثقات من الإخوان أن القاتل لم يكن وحده في وزارة الداخلية ، بل كانت معه جماعة في جملتهم الضابط أحمد فؤاد الذى كان من أعضاء النظام الخاص ، ولعل هذا الضابط هو الذى يسر لدخول القاتل عبد المجيد أحمد حسن وزملائه إلى مبنى وزارة الداخلية .

وبقتل النقراشي باشا خلا كرسى رياسة الوزارة فخلفه إبراهيم عبد الهادى الذى كان رئيسا للديوان الملكى . ولاشك أن إبراهيم عبد الهادى قد جاء إلى هذا المنصب الخطير وصدره يشتعل حقدا وغيظا يستحيل معه أن يقف الحاكم في حدود العدل ، وقد كان الحنق والغيظ في صدره يمازجه خوف شديد على نفسه من الإخوان المسلمين ، وتلك صورة تدعو إلى البطش بالخصوم على أى وجه وبأى أسلوب .

وكان الأستاذ المرشد علما من أعلام المدرسة الصوفية التى أنشأها أهل التصوف الحق في ظلال وارفة من التأدب بأدب القرآن الكريم ، وعلى رأس هذه المدرسة الجليلة الإمام الشاذلي - رضى الله عنه - وقد كان شيخ الأستاذ المرشد في هذه المدرسة ، الشيخ عبد الوهاب الحصافي الذى كان شيخا لجميع الإخوان المسلمين عن طريق مشيخته للأستاذ الإمام الشهيد حسن البنا .

ولسنا نتجهم الحقيقة إذا اعتبرنا الأستاذ البنا مع ذلك - زميلا للإمام عبد الحميد بن باديس في الجزائر ، والإمام الثعالبي في تونس ، والإمام الجليل محمد بن على السنوسى في ليبيا . وهؤلاء السادة كانت لهم - بلا ريب - مميزات من علم غزير ، وحس دقيق ، ووجدان شريف ، وغيرة على شعوبهم ومريديهم . وقد قاوم هؤلاء السادة الاستعمار في شعوبهم بكل ما تناله أيديهم من وسائل المقاومة ، فرأى الناس شعب الجزائر يلجأ إلى السلاح لإكراه المستعمر على الجلاء عن بلاده التى لا ينبغى أن تكون إلا للشعب الذى عاش على أرضها واستظل بسمائها . والذين قرأوا

تاريخ الجزائر يرون مقدار ما تجشمه هذا الشعب من مشقات لا يصبر على لأوائها إلا أولئك الذين تولى تربيتهم الصادقون المخلصون من شيوخ الإسلام فى تلك البلاد المجاهدة ، وفى طليعة أولئك الشيوخ الإمام الثائر عبد الحميد بن باديس ، والشيخ البشير الإبراهيمى ، والإمام الشاذلى الذى لا ينبغى أن يخفى على الناس فضله فى تربيته أجيالا من الناس كادوا يلتحقون بالتابعين الذين اغترفوا من نبع النبوة على يد أصحاب رسول الله ﷺ .

والذين يريدون أن يتعرضوا للحديث عن الأستاذ البنا ، لا مندوحة لهم عن الإلمام بالأحوال السياسية التى كانت تسود مصر والعالم العربى فى أثناء حياته ومزاولته الإصلاح الاجتماعى عن طريق دعوته . ذلك أن البيان الذى نشره فى الناس ـ بناء على طلب إبراهيم عبد الهادى باشا ـ عقب اغتيال النقراشى باشا كان قد فتح بابا إلى حسن التفاهم بينه وبين رئيس الحكومة ، ولولا المحاولات التى كان يستبد بها بعض الإخوان ، لكانت الحال غير الحال ، ولكن محاولة نسف مبنى محكمة مصر قد أغلقت هذا الباب ، وفتحت بابا آخر للشر لا يقف البلاء فيه عند حدود الاحتمال ، فقد اصطلى بنار الفتنة الغالب والمغلوب ، والحاكم والمحكوم وجمع معتقل الطور والهايكستب خير المسلمين ـ فى مبلغ ما أعلم ـ جمعا ملأ الصدور غيظا ، وأيقظ الكراهية للحاكم فى كل بيت فى مصر ، وفى الأقطار العربية ، والإسلامية الشقيقة .

وكان الأستاذ المرشد فى هذه الأحداث يحمل أعباء لا يطيقها إلا المجاهدون الصابرون حتى لقد حرم على نفسه ـ فى مبلغ علمى ـ الطعام الطيب ، فإذا سئل عن سبب ذلك أجاب بأنه يشارك إخوانه فيما يتحملونه فى السجون والمعتقلات ، ولو كان فى وسعه أن يفعل فوق ذلك لفعل .

وقد كنت يومئذ وكيلا لمعهد القاهرة الدينى الأزهرى ، وكان يزورنى فى المعهد كثيرا من الإخوان ، وكنا كثيرا ما نتناول طعام الغداء فى حجرة من حجرات المعهد ، وكان من الذين يزورونني فى المعهد الشيخ سيد سابق ، فكنا إذا جلسنا نتشاكى ، وعلى لسان كل منا قول الشاعر الحكيم :

ولابد من شكوى إلى ذى مروءة يـواسيك أو يسليـك أو يتـوجـع

وكنت آنس أشد الأنس بزيارة الشيخ سيد سابق ، وكثرة تردده علىّ فى معهد القاهرة ، وفجأة انقطع ففقدت بانقطاعه جليسا فاضلا .

ذات يوم جاءنى بعض الإخوة ، وفى حرص شديد أبلغنى رسالة تتلخص فى أن الأستاذ المرشد يطلبنى لأمر مهم لا ينبغى التخلف عنه مهما كانت الأعذار ، وقد حدد

لى مكانين : أحدهما فى شارع نوال بالدقى ، وثانيهما فى دار الشبان المسلمين فى مكتب الدكتور يحيى الدرديرى رحمه الله .

وفى اليوم التالى ذهبت إلى شارع نوال فلم أعرف الطريق إلى منزل الأستاذ منير دله ، فظللت أدور فى الشوارع التى حول شارع نوال حتى تعبت ، وملت قدماى السير على غير هدى إلى غير غاية ، فآثرت الإنصراف إلى دارى فى ضاحية حلوان .

وفى اليوم التالى جاءنى الشخص نفسه وحدد لى دار الشبان المسلمين قبيل صلاة المغرب ، وكان رئيس الشبان المسلمين اللواء صالح حرب باشا قد ترك القاهرة ، وذهب إلى أسوان بعد أن رأى الأستاذ المرشد حسن البنا يتردد كثيرا على دار الشبان المسلمين ، وبعد أن رأى الاعتقال لا يقتصر على الإخوان المسلمين بل يتجاوزهم إلى الشبان المسلمين . ذلك انه قصّ علىّ ذات يوم قصة خلاصتها : أن أحد الشبان كان قد تخلف عن مكتبه فى الجمعية فسأله صالح باشا عن سبب التخلف . فقال له : لقد كنت معتقلا الليلة قبل الماضية وامضيتها فى قسم الشرطة . ثم روى له حديثا دار بينه وبين الشرطى الذى اعتقله : حين دخلنا إلى قسم الشرطة قلت للشرطى الجالس على المكتب فى مدخل القسم : إنهم اعتقلونى وانا مش إخوان مسلمين ، ولكنى شبان مسلمين ، فرد على قائلا : كلكم مسلمين ... خذه يا عسكرى دخله السجن !! وعن هذه الفوضى التى لا تفرق بين إنسان وإنسان ، وبين هيئة واخرى اضطر صالح باشا أن يسافر إلى أسوان .

ثم ذهبت حسب الموعد الذى حدده لى الأستاذ المرشد ، فلقيته فى غرفة من غرف المركز العام للشبان المسلمين ، وكان معه زوج اخته الأستاذ عبد الكريم منصور المحامى ، فلما استقر بنا المجلس طلب الأستاذ المرشد إلى صهره أن يكون بوابا ، فلا يأذن لأحد فى الدخول ، لأنه سوف يتحدث حديثا خاصا لا ينبغى إعلانه لأحد من الناس . وصدع صهره بالأمر ، ووقف على باب الحجرة ، ثم جعل الأستاذ المرشد يتهيأ للكلام ، وقد ارتسمت على صفحة وجهه معان كثيرة لم أعهدها فيه من قبل ، ثم أقبل علىّ فى صوت خفيض : فقال : لقد دعوتك اليوم لأفضى إليك بحديث أرجو أن تكون عليه حفيظا ولحقه راعيا .

فأجبته كما كنت اجيبه دائما : إننى طوع أمرك ، والله المستعان .

فجعل يقول ـ رضى الله عنه ـ : « إننى ساختفى » .

وحين طرقت هذه الكلمة اذنى احسست أن الحجرة التى نجلس فيها قد تبدلت معالمها ، ولم اعرف ماذا يقصد بكلمة « سأختفى » ، فسألته ماذا تقصد ؟ فإنى لا افهم . فأجابنى : (قد اغيب غيبة طويلة ومن يدرى فلعلنا لا نجتمع بعد ذلك) .

ولم أملك دموعى ، فإن حبى للرجل كان فوق كل حب ، ولكنه استدرك قائلا : (لقد رأيت بالأمس رؤيا تكررت مرتين قبل الفجر ، وفى كل مرة كنت أقوم من النوم ، واستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، ولكننى رأيتها مرة ثالثة فى الليلة نفسها فلم أشك فى أنها رؤيا حق ، فقد رأيت أننى أمسك بزمام ناقة يركبها أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ ثم إذا يد تمتد إلى زمام الناقة فتأخذه من يدى فعلمت أن مهمتى قد انتهت ، وأننى لابد أن أغيب ، فإذا غبت ـ على أية صورة كان غيابى ـ فأنت مكانى ، حتى لا تنحل الدعوة ، وقد أوصيت بذلك الإخوان المسلمين ، ولكننى أوصيك أن تظل ترعى شئون الإخوان فى حدود ما تطيق حتى تنكشف عنهم الغمة ، ويخرجوا من معتقل الطور ، فعند ذلك عليهم أن يجتمعوا ليختاروا من يشاءون ، ونصيحتى لك أن لا تستأثر بالأمر دونهم وأن لا تختلف معهم ، فإن أمتنا الإسلامية لم تنزل بها البلايا ، وتعترضها الصعاب إلا بسبب الخلاف والله ـ تعالى ـ معكم ولن يتركم أعمالكم ، والله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

ويشهد الله أننى بعد أن سمعت هذه الكلمات من الأستاذ المرشد ، خُيل إلىّ أنه قد حملنى عبئا ثقيلا لا طاقة لى به ، فظللت بعد ذلك شارد الذهن شديد القلق ، ثم لم أجد بدا من أن أعرض هذا الأمر كله على أهل الثقة من الغيارى على شئون الإخوان المسلمين ، وقد كنا نجتمع فى مكتبة وزارة المالية التى كان أمينا لها الأخ محمد فتح الله درويش عضو الهيئة التأسيسية للإخوان .

وبعد عدة اجتماعات فى عدة أماكن أجمعنا على أن يهاجر الأستاذ المرشد العام إلى بلد عربى فيه إخوة ومريدون ، ولم يكن هذا البلد إلا سوريا الشقيقة ، وفيها الأخ العلامة المجاهد الشيخ مصطفى السباعى .

حيلة يرفضها المرشد

ولم يكن خروج الأستاذ المرشد من مصر إلى سوريا أمرا سهلا ميسورا ، فلم يكن بد من اللجوء إلى حيلة ، وهذه الحيلة تتلخص فى محاولة الحصول على جواز سفر يحمل صورة للأستاذ المرشد تخفى على البوليس السياسى .

وهنا اقترح أحد الإخوة أن تؤخذ للأستاذ صورة تعبر عنه أصدق تعبير ، فإذا حدد موعد الطائرة فى اليوم الذى يريد السفر فيه حلق لحيته ، ثم وضع على جانبى وجهه مرهما ثقيلا ، يشير بذلك إلى أنه قد أصيب بالتهابات جلدية دعته إلى وضع هذا المرهم الكثيف ، فإذا تم ذلك وضع منديلا يحيط بوجهه من أسفله إلى أعلاه ، وعلى ذلك يحمل الجواز الصورة الحقيقية ، ولكن معالم وجهه تختفى بوجود المرهم والقطن

الذى يعلوه على الصورة التى استحدثها وجود الالتهاب الجلدى ، وبهذا يستطيع الإخوان الذين يعملون فى المطار أن يعاونوه على الصعود إلى الطائرة فى يسر وسهولة .

واذكر أننى حين طلبت منه صورة لجواز السفر أعطانيها وهى لا تزال عندى إلى اليوم ، ثم إلى ما شاء الله . غير أننى حين شرحت له الطريقة التى يسافر بها ـ على ما فيها من حيلة ـ رفض فى إباء وإصرار ، وهو يقول : إن رجال الشرطة يعرفوننى معرفة تامة ويراقبوننى فى جميع حالاتى ، فإذا فرضنا أنهم كشفوا الحيلة ، فإن الصحف والمجلات فى الداخل والخارج سوف تعتبرنى خداعا غشاشا ، وقد يصعب على الإخوان بعد ذلك أن يظلوا معتزين بالانتساب إلى الإخوان المسلمين لأن مرشدهم وقائد حركتهم الإصلاحية غير أمين ، ولهذا فإننى أرفض أن أغادر بلدى على هذه الصورة ، وليكن ما أراد الله أن يكون .

ولم أجد أمام إصراره حيلة تثنيه عن عزمه واستسلامه لما شرح الله صدره من البقاء فى مصر . وليس يخفى على من يتدبر هذا الموقف على هذه الصورة ما كان يقاسيه الرجل ، وما كان يقاسيه أولياؤه ومريدوه ، فقد كنت حين التقى به أراه قد استحال إنسانا آخر ، دقة حس ، وقوة عاطفة ، وإشراقة وجه لا يملك المرء معها أن يصرف عينيه عن إدامة النظر إلى وجهه النبيل .

وقبل أن ننصرف من هذا المجلس أوصانى أن انقل إلى الإخوان ما كان قد أفضى به إلىّ ، راجيا أن يشرح الله ـ تعالى ـ صدورهم لإدراك الأخطار التى تهدد كيان الإخوان المسلمين لو أنه قبل الخطة فحاول السفر ، ثم انكشف أمره ، فتمكن أعداؤه بذلك من أن يلفقوا له ما ينال من كرامته بين الناس ، ويصرف عن الولاء له الإخوان المسلمين .

والذين يعرفون الإمام الشهيد فى كرم خلقه وعزة نفسه ، يعرفون أنه كان يقاسى ألما نفسيا لا يصبر عليه إلا الصابرون .

فقد كان ـ رضى الله عنه ـ يضيق باستقباله أعرف الناس بفضله وأحسنهم تقديرا لدعوته التى هى دعوة كل مسلم غيور على الإسلام والمسلمين . ونضرب لذلك مثلا يتضح به مقدار ما كان يعانيه الأستاذ المرشد من متاعب وآلام ، وهذا المثل يتجلى فى صورتين : أحداهما ، أنه أراد ذات يوم أن يزور إدارة الأزهر ، فلم ينفتح له باب مسئول بل كان بعضهم إذا علم بوجوده فى إدارة الأزهر غادر مكتبه حتى لا يستقبله خشية غضب الحكومة عليه ، ولم يكن هناك من استقبله ودعاه إلى الغداء معه سوى الشيخ محمد عبد اللطيف دراز ، وكان يومئذ يشغل منصب السكرتير العام للأزهر الشريف . وقد أذكر أن بعض كبار الموظفين فى الإدارة العامة جعل من نفسه ناصحا مخلصا للشيخ دراز . ولكن الشيخ أبى قائلا له : لقد كنا نستقبله قبل

محنته وندعوه لزيارتنا فى كثير من الأحيان ، فإن نحن أغلقنا مكاتبنا دون لقائه اليوم ، فعلينا أن نخلع العمامة التى ننتسب بها إلى الأزهر الشريف . وثانية الصورتين ، أنه كان يتجنب زيارة أقربائه ، وأصدقائه حتى لا يزعجهم بالبوليس السياسى الذى كان يسير معه كظله أينما حل وحينما سار ، وفى ذلك إحراج للناس شديد .

ولقد تحدث إلىّ ذات يوم فى إحدى جلساتى معه فى دار الشبان المسلمين ، فقال لى ـ فى صوت خفيض أسيف ـ لقد كان أيسر على نفسى أن أُعتقل مع إخوانى فأريح وأستريح ، فإن هؤلاء المساكين الذين يلزموننى كظلى ، يلقون كثيرا من العنت ، ويحتملون كثيرا من المشقات . فأجبته : لعلهم يرون فى اعتقالك بابا من الشر يفتحونه على أنفسهم إذ كانوا يعلمون ـ على وجه اليقين ـ أن حسن البنا ليس فردا عاديا بين المواطنين .

الدولة تغتال حسن البنا

وذات يوم ذهبت إلى دار الشبان المسلمين حسب اتفاقنا من قبل ، للقاء الإمام حسن البنا ، وفيما أنا أهم بدخول الدار جاءنى الأخ الذى كان يرافقه وأخبرنى أن الأستاذ المرشد جاء ، ولم يمكث سوى بضع دقائق ثم انصرف بعدها ، على أن أبلغك أنه فى انتظارك كلما جاء الميعاد الذى اتفقنا عليه من قبل . فوقع فى نفسى أنه ربما يكون قد ذهب إلى منزل الأخ منير دله ، فذهبت إلى هناك فلم أجد أحدا ، فانصرفت إلى دارى فى حلوان على أن ألقاه حسب الاتفاق السابق بيننا . وما أن دخلت البيت وأقبلت على مطالعة بعض الكتب التى كنت أقوم بتدريسها لطلاب المعهد حتى دعتنى زوجتى إلى مكالمة تليفونية مع والدها الشيخ محمد عبد اللطيف دراز الذى كان وكيلا عاما لجمعيات الشبان المسلمين إلى جانب مناصبه الأخرى ، ثم إذا صوته يكاد يختنق من شدة الانفعال ، وأخبرنى بالحادث الأليم الذى اغتالت فيه الدولة ـ من أكبر رأس فيها إلى أصغر موظف من موظفيها ـ المرشد العام للإخوان المسلمين الشيخ حسن البنا .

وليس فى وسع البيان أن يكشف عن مقدار فجيعتى فى أعظم رجل كنت أراه المثل الأعلى لكل مسلم فى الخلق والمروءة والدين . فقد كان الرجل يهتم بأمور المسلمين وشئونهم اهتماما بالغا . ولست أرتاب فى أن اهتمامه هذا هو الذى جعله ملما بأحوال المسلمين فى كل قطر يعيشون فيه بين كيد العدو المستعمر ، واستسلام الولى الحميم ، إيثارا لدوام الجاه ، واستبقاء لنفوذ السلطان . والذين عايشوه فى الفترة بين مقتل النقراشى فى نوفمبر ١٩٤٨ واستشهاده هو فى فبراير ١٩٤٩ يرون ـ بلا ريب ـ أنه

رضى الله عنه كان يحمل من هَمّ الدعوة ، وهَمّ إخوانه فى السجون والمعتقلات ، ما تنوء به شمم الجبال فكأن الشاعر العربى إنما عناه بقوله :

فلــو كان همــا واحــدا لاحتملته ولكنــه هـــم وثـــان وثـالــث

ولعل القارىء المتدبر لا يزال يتمثل كلمته التى قالها : « إن هذه الرصاصات التى أطلقت على القاضى الخازندار ، إنما أطلقت فى صدرى » . فهذه الكلمة التى لا مكان فيها لخداع السياسة أو سوء التأويل ، لا جرم إنها تدل على ما كان يستبد بصدره من هم مقعد مقيم . وإذ قد كان الصادقون من أصحاب الدعوات الإصلاحية لا يعنيهم أمر حياتهم الدنيا بقدر ما يعنيهم مصيرهم إلى الله بررة أتقياء ، فإنه يعنيهم أبلغ عناية أن تكون دعواتهم بمأمن من تآمر المتآمرين عليها وانتهازهم كل فرصة لهدم بنيانها ، وقد أنفقوا فى سبيلها حياتهم ، ابتغاء حسن الأحدوثة وشرف الذكر ، ومن وراء ذلك رضوان الله تعالى عنهم فى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

اختفاء البنا خسارة للعرب والمسلمين

وليس يشك ذو عقل ودين فى أن اختفاء حسن البنا بتلك الطريقة الدنيئة لم يكن خسارة جمعية ، ولا خسارة شعب ، ولكنه كان خسارة أمة عربية مسلمة ، كانت مستعدة لقبول الاصلاح ، ولا ينقصها إلا القادة الشجعان الذين رزقهم الله الرأى السديد والنظر البعيد ، وذلك هو الإمام الشهيد حسن البنا ، رضى الله عنه وأرضاه مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . ولا يفوت أو لا ينبغى أن يفوت الذى يكتب عن الاخوان المسلمين ، أن يشير إلى مبلغ الخسة والغدر فى حادثة الاغتيال التى يزيدها بشاعة إلى بشاعتها أن تكون الحكومة التى تحمى الرعية وتصون الأمن ، هى التى تغتال إنسانا يحيا فى سلطانها ، ثم تضيف إلى ذلك أن توعز إلى بعض الذين فقدوا شرف المهنة من الأطباء أن يحرصوا على أن يموت المرشد ظمآن لكثرة ما نزف من الدماء ، ولم يشارك فى تشييعه إلى مثواه الأخير إلا والده الجليل الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا ، والمجاهد الكبير مكرم عبيد .

لم يكن للاخوان مقر يجتمعون فيه بعد استشهاد الإمام حسن البنا ، ومصادرة أملاكهم فى القاهرة والأقاليم ، وكان من الحق علىّ أن أنفذ وصيته ـ رضى الله عنه ـ فى العناية بشئون الإخوان وأسرهم فى حدود ما أستطيع ، فاستأجرنا شقة فى الدور الأول بالمنزل رقم ١٠ فى ميدان فاروق ، وكنا نجتمع فيه اجتماعات محدودة . وذات يوم جاءنى أحد الإخوان وقدم لى نفسه وذكر اسمه قائلا : إن هذا هو اسمى الحركى ،

فأجبته على الفور أسأله ماذا تعنى كلمة الاسم الحركى ؟ فأجابنى الأخ فى استغراب شديد : إن أعضاء النظام الخاص يحمل كل منهم اسمين : اسمه الحقيقى ، واسمه الحركى أى فى حركة النظام . وقد انتهزت هذه السانحة فقلت له : إن النظام الخاص كان يشرف عليه موجها له الإمام الشهيد حسن البنا ، وقد لحق بالرفيق الأعلى ، وأنا ـ بحكم وصيته لى ـ لا صلة لى بالنظام الخاص ومهمتى مقصورة على رعاية شئون المعتقلين والعناية بأسرهم حتى يفرج الله عنهم الكرب ، فيخرجوا إلى دنيا الناس احرارا كسائر المواطنين . فرجائى إليك يا أخى أن تعلن إلى إخوانك هذه الحقيقة أمانة فى عنقك يسألك الله عنها يوم لا ينفع مال ولا بنون . وكذلك كان رأيى أنه إذا كان لابد من النظام الخاص فى تنظيم الدعوة ، فليكن هذا النظام مرتبطا بالمرشد الجديد الذى يرضاه الإخوان خلفا للإمام الشهيد .

وفى هذه الأثناء علمت أن الحكومة حريصة على اعتقال ثلاثة من شباب الإخوان هم على ما أذكر : الأخ أحمد البساطى ، والأخ عبد الحليم محمد احمد ، والأخ عبد النافع السباعى ، وقد كان صديقى المهندس جمال الدين الشرقاوى من أقرب الناس إلى نفسى وأوثقهم عندى ، فلما أخبرته هذا الخبر ، وبينت له أننى مهتم بشأن هؤلاء الاخوة اعترف لى بأنه يعرف عبد الفتاح البساطى شقيق أحمد ، وأنهما من خريجى كلية الزراعة ، ثم عرض علىّ أن يستضيفهم فى عزبته بالفيوم حيث لا يعرف أحد عنهم شيئا ، وبهذا نستريح ونريح . فشكرت له هذه الشجاعة التى لا يستمتع بها إلا كل وطنى غيور على شئون الحرية والأحرار ، وأحمد الله تعالى أن هذا الأمر مضى إلى غايته بسلام .

التفكير فى الثأر للإمام الشهيد

وذات يوم جاءنى بعض الاخوة فى حلوان ، وأبلغونى رغبة جماعة منهم يريدون أن يعرفوا الرأى الصواب فى الثأر للامام الشهيد ، ثم ذكروا فى حماسة الشباب أن الذى يكافىء حسن البنا لا ينبغى إلا أن يكون الملك فاروق . ثم طلبوا إلى أن أستعين على تكوين الراى بأشخاص ثلاثة : الأستاذ حسن الهضيبى ، والأستاذ محب الدين الخطيب ، والحاج امين الحسينى مفتى فلسطين . وأذكر أننى وافقتهم على الاستعانة بمعرفة آراء الثلاثة المذكورين فى مشروعية الاغتيال ، ثم ذهبت إلى الأستاذ محب الدين الخطيب ، وسألته رأيه ، فأجابنى قائلا : هذه الأعمال « البلقانية » هى شر ما أصيب به المجتمع الاسلامى ، وهو يشير بكلمة « البلقانية » إلى سلوك السلطان عبد الحميد الذى كان معروفا باغتيال خصومه ، وجميع من يرتاب فى أمرهم ، ولو كانوا من أقرب أقربائه . ثم ذهبت إلى الحاج أمين الحسينى ، فأنكر غاية الانكار اقتران الاغتيال بفكرة الاصلاح فى الاسلام ، وكان فيما ذكره لى أن قال :

« إنني أتحدث إليك وإلى الاخوان المسلمين على غاية الصراحة والوضوح فإياكم وسفك الدماء . وأما الأستاذ حسن الهضيبي فقد كان حريصا أشد الحرص فى إبداء رأيه ، ولكنه قال : أنا لا أحب لدعوة الاخوان المسلمين إلا أن تكون دعوة تربية على احترام العدل بعيدا عن الخوض فى الدماء .

وقد جاءنى الاخوة الذين كلفونى بحث هذا الموضوع فأخبرتهم بما قال الثلاثة الفضلاء الذين اقترحوهم ، وطلبوا رأيهم ، ولكنهم لم يقتنعوا كما اقتنعت ، فأخذوا يدبرون أمرا يفضى إلى اغتيال حامد جودة رئيس مجلس النواب وابراهيم عبد الهادى رئيس مجلس الوزراء ، ولم ينجحوا فيما أرادوا ، وكان ذلك فى شهر مايو سنة ١٩٤٩ . والذين عاصروا هذه الأحداث لا يسعهم إلا أن يقولوا ما قاله أحد الفضلاء من أن غياب الامام حسن البنا عن قيادة الدعوة وتوجيه الاخوان ، كان كغياب الوالد عن أولاده فى أشد ما يكونون حاجة إليه يوجههم إلى ما فيه خيرهم العاجل والآجل . ولا شك فى أن إخفاق الخطة التى كانت ترمى إلى الثأر للامام الشهيد ، كانت سببا فى تضييق الخناق على الاخوان ، والتنكيل بهم فى أنفسهم ، وذوى قرباهم ، فكانوا أضيع من الأيتام على مآدب اللئام ، ولكن ذلك البلاء لم يدم طويلا ، فاستقالت حكومة ابراهيم عبد الهادى وخلفه فى رياسة الوزارة حسين سرى ، وكان ذلك فى أغسطس سنة ١٩٤٩ ، وقد كان الانجليز قد غيروا أسلوبهم السياسى ، وانتهز رئيس الحكومة الفرصة فبدأ بتخفيف الضغط على الاخوان ، وأباح لهم أن يجتمعوا ، وأن يعلنوا عن دعوتهم ، وعن أنفسهم فى حدود القانون ، ثم اتبع ذلك دعوة الشعب إلى ممارسة حقه فى انتخاب حر لأعضاء البرلمان وبدأ بعض الاخوان يرشحون أنفسهم فى هذه الانتخابات .

دائرة الخليفة . . لثانى مرة

وقد تقدمت للترشيح فى دائرة الخليفة ، وهى الدائرة التى خسرتها عام ١٩٤٥ . ولو أن الحرية فى هذه الانتخابات كانت مكفولة ، لما كان هناك شك فى أننى سأظفر بالدائرة ، ولكن الأمر لم يكن كذلك ، والدليل على ذلك أن صديقى العزيز الدكتور محمد هاشم وزير الداخلية وقتئذ « وزوج بنت رئيس الوزراء » ـ كان يتصرف لمصلحة منافسى السيد ابراهيم حمدى سيف النصر ، وقد ساق كل أعوانى إلى قسم شرطة الخليفة ، وتدخلت الحكومة تدخلا سافرا لمصلحة منافسى ، وكان طبيعيا ألا أظفر بعضوية البرلمان على الرغم من العواطف الطيبة التى كان يحوطنى بها أبناء دائرة الخليفة . وكذلك لم ينجح مرشح واحد من الاخوان ، ولا من المتعاطفين معهم إذ كانت الحكومة تعتبرهم خارجين على النظام الدستورى من حيث لم يكن لهم حزب معترف به ، ومع أن هذا التصرف غير سليم إلا أنه لم يترتب عليه

ما يثير النفوس ، أو يحرج الصدور ، إذ كان قد تم خروج رجال الحركة وشبابها من المعتقلات ليستأنفوا جهودهم فى تأييد دعوتهم التى كانوا يحرصون عليها ، وعلى أن تدرك غايتها من النجاح .

وقد كان الأخ صالح عشماوى وكيلا للجماعة قبل الاعتقالات ، وفى حياة مرشدها بعد أن فصل الأخوان الفاضلان : دكتور ابراهيم حسن والأستاذ احمد السكرى اللذان كانا وكيلين للاخوان من قبل ، ولم يكد يمضى زمن طويل على خروج الاخوان من معتقلاتهم حتى بادر الأخ منير دله إلى دعوة بعض أعضاء الهيئة التأسيسية إلى اجتماع فى منزله حضره كثيرون من قادة الدعوة والمسئولين عنها ، وقد حضرت هذا الاجتماع لمعنى يقتضينى الحضور ، كما حضر الأخ صالح عشماوى وآخرون من رجال الحركة المرموقين ، ولم يكن المعنى الذى دعانى للحضور سوى تنفيذ وصية الأستاذ المرشد قبل استشهاده رحمه الله . وليس من شك فى أن الأستاذ صالح عشماوى كان أحق الاخوان بقيادة الدعوة إذ كان وكيلا للجماعة قبل الاعتقالات ، وفى حياة مرشدها مع انه كان له ـ إلى جانب ذلك نشاط ليس إلى جحوده سبيل ـ على حين أن بعض الاخوان كان يكره أشد كره أن يظل هذا النشاط على ما كان عليه من قبل ، وحجته فى ذلك أن الدعوة أحوج ما تكون إلى إيثار المسالمة ، والدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة ، فليس يسوغ للجماعة الآن أن تمضى على الطريق التى كانت تمضى عليها من قبل ، وهى الطريق التى أوقعت جماعة الاخوان فى حرج شديد ، وأحاطتهم بشبهات كثيرة ، ثم أفضت بهم إلى فقد الرجل العظيم الذى لا يتكرر مثله فى مجالات الاصلاح الذى يتغيا مصلحة الأمة ، ويتقيد بشريعة الاسلام . ولهذا بادرت إلى تسليم الأمانة فى قيادة الدعوة للأخ صالح عشماوى حتى أن أحد الاخوان الفضلاء لامنى على هذا التسرع ، معتقدا أننى خالفت بذلك قوانين العدل ، فأجبته بأن الذى حملنى على ذلك ، علمى بأن الأخ صلاح شادى يذكر للناس أن المرشد قبل استشهاده أوصى له بأن يكون قائدا للحركة أو مرشدا لها ، ولم يسعنى بعد هذه الشائعات أن يظل الاخوان حيارى ، وأن يظل أمر القيادة معلقا على هذا النحو المحرج للصدور ، فأحببت أن أضع الأمر فى مساره ، وأن أتنازل عما كان الامام الشهيد قد أوصانى به حتى ينظر الاخوان لأنفسهم ، ولدعوتهم ما يطمئنون إليه ، ويرضون عنه فى غير بلبلة ولا انقسام ، وهو ما كنت قد أعطيت به عهدا للامام الشهيد رحمه الله .

ومما يؤكد هذا المعنى ، ما يذكره الأخ الأستاذ فهمى ابو غدير عضو الهيئة فيقول : إنه كان يتردد على الأخ منير دله ، فى أثناء فترة الاعتقالات ، وقد كانا يتعاونان معى فى شئون الحركة وقضاياها ، ثم يقول الأستاذ أبو غدير : إننى قد التقيت هنا فى هذه الدار بالأخ صلاح شادى ، فطلب منى أن نتوجه معا إلى المصلى التى كانت ملحقة بمنزل الأخ منير دله ، وبعد جلسة صلاة ودعاء واستغفار ذكر لى

الاخ صلاح شادى ، أن المرشد قبل استشهاده أوصى أن يكون الأستاذ البهى الخولى مرشدا عاما ، وصلاح شادى مرشدا خاصا ، بمعنى أنه مسئول عن النظام الخاص ، فرفض الاخ أبو غدير أن يبايع الاخ صلاح شادى على ذلك ، وأخذ الاخ أبو غدير يذيع هذا الكلام على الاخوان ، فلما سمع الاخ منير بهذا الكلام دعا الاخ صلاح ، والاخ فهمى إلى أن يلتقيا عنده فى المنزل مرة أخرى ، وقال لهما : إن هذا الكلام يحدث بلبلة فى صفوف الاخوان ، ثم اتفق الثلاثة : منير ، وصلاح ، وأبو غدير على أن يحتكموا إلى أول داخل عليهم فكان أول داخل عليهم هو الاخ عبد العزيز كامل . وهنا يقول الاخ أبو غدير : إن هذه هى المرة الأولى التى يقطع فيها الاخ عبد العزيز كامل برأى واضح وبلا تردد وذلك حيث قال : إن الدعوة ليس لها مرشد عام ، ومرشد خاص ، ولكن الدعوة لها مرشد واحد نسمع له ونطيع . وغير ذى حاجة إلى مزيد بيان ، أن الاخوان كانوا يحرصون أشد الحرص على أن يعود الشكل القانونى للجماعة على النحو الذى يرضيهم ، ويمكنهم من مواصلة جهودهم لدعم الدعوة ، وتحقيق أهدافها .

ولكن الاخ منير دله قال للمجتمعين فى منزله من قادة الاخوان : إن المحاولات التى كانت تبذل عند الجهات المسئولة لم تصل إلى نتيجة حاسمة فى شأن الموافقة على عودة الشكل القانونى للجماعة ، وبعد أن ناقش الاخوة المجتمعون هذه القضية ، وما يتصل بها أجمعوا على أن الدعوة فى حاجة شديدة إلى مرشد جديد يكون موضعا لثقة الجهات المسئولة ، بحيث تطمئن إلى أن عودة الجماعة تكون بمأمن من الأخطاء التى وقعت من قبل ، وأدت إلى حلها واضطهادها . وقد عرضت فى هذا الاجتماع بعض الأسماء على الوجه التالى : الاخ محمد عبد الرحمن نصير عضو الهيئة ، والاخ الشافعى اللبان صديق الجماعة ، ثم الأستاذ حسن الهضيبى ، ثم الأستاذ محمد حسن العشماوى .

الفصل الرابع

الإخوان بعد الإمام

ولما عرض اسم الأستاذ حسن الهضيبى وافق عليه أغلب المجتمعين لسابقته ، وصلته الوثيقة بالامام الشهيد منذ أوائل الأربعينات ، ولم يكن الأستاذ الهضيبى مجهولا لدى الاخوان إذ كانت مجلة الشهاب التى يرأس تحريرها الامام الشهيد قد قدمته إلى الناس فى عددها الثالث فى يناير ١٩٤٨ وقالت انه معروف فى جميع مراحل حياته بسمو الخلق ، والغيرة على الاسلام ، والدعوة إليه ، ثم هو يحفظ القرآن الكريم وله دراسات واسعة فى القانون المقارن ، والتشريع الاسلامى .

ورجل يزكيه الامام الشهيد هذه التزكية لا يسع الاخوان إلا أن يرحبوا بترشيحه .

ولذلك اقترحت مع الاخوة فهمى أبو غدير ، ومختار عبد العليم ، أن نقابل الأستاذ الهضيبى لنعرض هذا الترشيح عليه ، ومعرفة رأيه فيه ، واتصلنا بالرجل فى مصيفه بالمندرة برمل الاسكندرية ، ثم لما فاتحناه فى الموضوع رفض فألححنا عليه فأصر على الرفض . وفى أثناء ذلك سافرت وفود أخرى ، وحاولت مع الرجل أن يقبل الترشيح ، وأخيرا قبل ، وقال أسلم أمرى إلى الله .

ثلاثة شروط للهضيبى

وكان الرجل بلا ريب صادقا مع نفسه غير انه اشترط لقبول هذا المنصب الجليل ثلاثة شروط : اولها : أن يكون وكيله من رجال القانون . ثانيها : إبعاد اثنين من أعضاء الهيئة التأسيسية : الأخ عبد الحكيم عابدين ، والأخ طاهر الخشاب ، وثالثها : حل النظام الخاص الذى كان يقول فى شأنه ، إنه لا يجوز فى حركة إسلامية قيام جهاز سرى ، وقد أرسل هذه المقولة مثلا سائرا « لا سرية فى الاسلام » .

وقد أجيب الرجل إلى ما طلب ، فاستقر رأى الاخوة على اختيار الأخ عبد القادر عودة وكيلا للمرشد العام ، وقد كان الأستاذ عبد القادر عودة قاضيا عالما بالفقه

الاسلامى ، وكان أكثر من صديق للحركة ومرشدها ، بل كان يعتبر عضوا فيها بمعنى أن صلته بها كانت أقوى من صلة الأستاذ الهضيبى ، ثم أبعد من أعضاء الهيئة التأسيسية الأخوان : عبد الحكيم عابدين ، وطاهر الخشاب ، لأن المعلومات التى كانت عند الأستاذ الهضيبى لم تكن تسمح له بالتعاون معهما فى حركة إسلامية ، وكذلك حلّ النظام الخاص استجابة للرأى القائل : لا سرية فى العمل للاسلام .

وقد أخذ الاخوان خطواتهم السريعة لتحقيق هذا الاختيار دون حاجة إلى الاجتماع للهيئة التأسيسية اكتفاء بالحصول على موافقتها بالتوقيع ، ولم يمتنع عن التوقيع على الكشوف التى كانت تعرض عليهم إلا القليل من الاخوة ، فتم اختيار الأستاذ الهضيبى مرشدا عاما للجماعة وبالأسلوب نفسه ثم اختيار الأستاذ عبد القادر عودة وكيلا له .

وأما إبعاد الأستاذ طاهر الخشاب ، فقد تم على غاية الهدوء ، بيد أن الأستاذ عبد الحكيم عابدين أراد أن يسلك طريقا ملتوية أراد بها مجاهرة الأستاذ الهضيبى بالعداوة . ذلك أنه عندما علم بأن المرشد الجديد لا يقبل التعاون معه ، حاول أن يتقرب إلىّ ، وإلى الأخ أبو غدير ، ثم أخبرنى بأنه يرشحنى لمنصب المرشد العام ، وقد تكفل بأن يقوم بالدعاية لى بين الاخوة فى طول البلاد وعرضها ، واثقا بأنه سيجمع رجال الحركة على تأييد الترشيح واختيارهم إياى لمنصب المرشد العام .

وأذكر أننى قلت له : ان هذا الذى تقوله غير لائق بمثلى ، وقد قابلت الأستاذ الهضيبى فى داره ، وأقنعته بأن يقبل منصب المرشد العام ، فاذا قبلت الآن ترشيحك لى على الصورة التى ذكرتها ، فان هذا يكون من الخداع لا يليق بمن فى منزلتى بين الاخوان المسلمين ، ثم لو أننى افترضت قبول الاخوان ترشيحى واختيارى لكان ذلك فى غير مصلحة الدعوة ، وفى غير مصلحتى أنا شخصيا .

ولما أحس عبد الحكيم عابدين بأننى أرفض ما يعرضه على فى إصرار تحول عن فكره الذى كان يعاند به ترشيح الأستاذ الهضيبى ، وأخذ يدعو لتأييده ، وقد كان من حسن حظ الأخ عبد الحكيم أن جماعة الأخ منير أخذت تدعوه إلى اجتماعاتها ، فاطمأن إلى الأستاذ منير وجماعته ، واطمأن هؤلاء اليه ، فأخذ ينفذ ما يتلقى من أوامر ما دام قد اطمأن على مركزه فى الحركة ، كما يذكر ذلك أيضا غير واحد من الموثوقين فى الجماعة ، وفى مقدمتهم : الأخ أبو غدير ، والأخ أبو رقيق . ولم يكن الأخ عابدين يريد من كل هذه المناورات الا أن يحتفظ له الاخوة بمركز السكرتير العام فى الجماعة ، فلما طمأنه الأخ أبو رقيق على ذلك انصرف عن كل مناوراته ووقف نشاطه عند هذا الحد .

ويبقى بعد ذلك ما يتعلق بالشرط الثالث من شروط الأستاذ الهضيبى وهو حل

النظام الخاص ، والتخلص منه ، ولم يكن الأستاذ عبد الحكيم ليستطيع أن يؤدى دورا فيما يتصل بالنظام الخاص ، لأنه يعلم أن للنظام فيه رأيا خاصا رفعه فى تقرير قدم للامام الشهيد . ومن أجل ذلك كله اختارت القيادة العامة لجماعة الاخوان الأخ عبد القادر عودة للنظر فى حل النظام الخاص والتخلص منه .

وقد كان الأستاذ عبد القادر عودة ـ بلا ريب ـ رجلا طيب القلب غيورا على الدعوة حريصا على نجاح المرشد الجديد فى مهمته ، ولكنه لم يكن يدرى أن للنظام الخاص مشاكله من حيث تشكيلاته ومعداته ، ولكنه سمع وأطاع جريا على نظام الجماعة ، فذهب باسم القيادة إلى أعضاء النظام الخاص بعد أن طلب الاجتماع بقيادتهم ، فتحدث معهم ، ولكنه رجع بصورة غير الصورة التى ذهب بها اليهم ، إذ عرف منهم أنهم لا يعترفون بالقيادة الجديدة الا إذا اعترفت بهم ، وفى الوقت نفسه اتهموه هو بأنه يعمل على حلهم لحساب النظام الخاص الثانى الذى كان يرأسه ، ويسأل عنه الأخ صلاح شادى .

ولا ريب فى أن الرجل ظل يعيش فى هذه المشاكل المعقدة حتى لقى ربه حسن النية سليم الطوية ، مخلصا أشد الاخلاص للمرشد الذى آثره على جميع من سواه ليكون وكيلا له فى العمل على تنقية صفوف الجماعة من الخاطئين الذين ضلوا سواء السبيل . لقد نفذ الاخوان شروط الأستاذ الهضيبى ، ومهدوا بين يديه الطريق إلى العمل الجاد لخير الجماعة ، وقد انتظر رجالها وشبابها أن يطلع عليهم المرشد الجديد خطيبا للجماهير ، وناصحا للشباب ، كما كان يفعل سلفه العظيم ، ولكنه كان رجلا قاضيا قبل كل شيء . فكان شديد الحرص على كل كلمة يقولها ، أو يعلق عليها حين يسمعها من وفد أو فرد ، ولم يكن ذلك السلوك المتحفظ مما يرضى عنه الاخوان ، إذ كانوا يريدون منه أن يتحدث اليهم عن مستقبل الحركة ويرسم خطوات عملها ، ويشرح للمسئولين فى أجهزة العمل ما يجب أن يقوموا به ، وأن يبذلوه من جهد ، ولكن ذلك لم يتم منه شيء إذ كان الرجل غير قادر على ذلك ، وقد فهم من الاخوة الذين اجتمعوا به فى اللقاءات الأولى أن الأمر لن يكلف مشقة فى قول أو عمل ، ولذلك بدأ يصارح من يلقاهم بهذه الحقيقة ، فأعلن غير مرة فى صراحة ووضوح أن الصورة التى قيلت له لم يجدها ، ولكنه وجد صورة أخرى .

ولقد حاول الأخ عبد القادر عودة أن يكفيه هذا العناء ، ويريحه من هذه المشاكل ، فيقوم هو على شئون الجماعة ونشاطها ، ولكنه لم يستطع أن يتغلب على المصاعب التى كانت أمامه . ولقد أذكر أن الرجل ـ رحمه الله ـ أحب أن يبايعه الاخوان فى الاقاليم حتى يتصرف تصرف الرجل الذى لا يتحدث عنه نفسه ، ولكنه يتحدث باسم الجماعة فى القاهرة والأقاليم ، فرغب إلى أن أصحبه فى رحلة إلى أسوان ، وقد تم ذلك فعلا فرحلنا أولا إلى الوجه البحرى نزور الاخوان فيبايعونه ،

واذكر أننا بدأنا بشبراخيت ، ثم إلى الزقازيق ، وطنطا ، واخيرا أخذنا الطريق إلى أسوان ، فكان الاخوان يتلقونه فى المحطات وفدا من كل مجموعة من القرى والمراكز ، وكلما وقف القطار تقدم الرجل لأخذ البيعة ، وتوليت أنا الحديث عنه اليهم بما كان يجب أن يقوله لهم حتى بلغنا مدينة أسوان ، فاستضافنا صالح باشا حرب فى داره هناك . وقد كان الاخوان ـ فيما رأينا ـ سعداء به ثقة منهم بأنه قادر على استرداد الشكل القانونى للجماعة ، ومما يستلفت الأنظار فى هذه الرحلة أن الرجل ـ رحمه الله ـ كان حريصا أشد الحرص على أن يزور المسيحيين كلما تهيأت للزيارة سبيل لأنه كان يعتقد أن هذه الزيارات ذات أثر طيب فى أنفس ولاة الأمر . وربما كان يرى فيها عونا على نجاح مقصده فى عودة الشكل القانونى للجماعة .

المرشد الجديد يقابل الملك

وقد كان الرجل ـ بلا ريب ـ فى هذا النظر صادق الحدس صحيح التخمين بدليل أنه بعد فترة ليست بالطويلة تلقى دعوة إلى مقابلة الملك فاروق على غير ترقب وانتظار .

وكان الاخوان المسلمون حراصا أشد الحرص على أن يعرفوا نتيجة مقابلة المرشد العام الجديد للملك فاروق . . هذه المقابلة التى كانت حديث الشعب فى الأندية والبيوت ، ولم يكن ميسورا أن يلتقى الرجل بالاخوان فى المركز العام بالحلمية ، فالتقى بهم فى نواحى غمرة ، وبعد افتتاح الاجتماع بآيات من القرآن الكريم تهيأ رحمه الله للحديث فحمد الله تعالى وأثنى عليه ، وصلى على رسوله ﷺ ثم صمت وقد تطاولت اليه الأعناق ، وانتظر المجتمعون حديثا يطمئنون به على الجماعة ، أو يبشرهم بمستقبل تحوطه السكينة ، ويسوده السلام .

وفيما كان القوم مأخوذين بجلال هذا اللقاء ، وما ينتظرونه فيه من خير كثير قال الرجل ـ فى تؤدة وتوقر : « عليكم بقراءة القرآن » .

وغير ذى حاجة إلى بيان أن الاخوان قد فجعوا فيما كانوا يأملونه فى خير يؤمنهم على انفسهم خاصة وعلى جماعتهم عامة ، ولذلك انصرفوا باليأس يملأ صدورهم ، وقد تمثلوا الامام الشهيد ، وقارنوا بينه وبين خلفه ، فرأوا الفرق واضحا بين الرجلين ، ثم راحوا يتذاكرون الأحداث التى مرت بهم ، والأشخاص الذين تعاملوا معهم فأداهم ذلك كله إلى الانطواء على أنفسهم ، والعناية بشئونهم الخاصة يربون أولادهم ، وينتظرون ما تأتى به الأيام فى بعيد من الزمان أو قريب .

وقد تحدث إلى واحد من الذين حضروا هذا اللقاء ، فذكر أن الأخوة الذين

استمعوا إلى هذه الكلمات من الأستاذ الهضيبى ـ توقعوا ـ فيما يشبه اليقين ـ أن تنقسم الجماعة شيعا وأحزابا ، كما انقسمت من قبل غير مرة . ولئن كانت تلك الانقسامات الماضية بالغة غاية الخطورة . لقد كان الامام الشهيد قادرا على دفع أخطارها بما له من هيبة فى صدور اخوانه ومريديه ، ثم بما له من قدرة على اقناع أشد الناس عنادا بما يحب أن يقنعهم به . ولو أن شيئا من هذه الانقسامات حدث فى العهد الجديد ، لكان فى ذلك بلاء لا طاقة للجماعة به ، ولا قدرة للاخوان على احتماله .

الفرق بين البنـا والهضيبى

وذلك حق لا يرتاب فيه الذين يعرفون الامام الشهيد حق المعرفة ، فقد كان ـ رحمه الله ـ إذا تحدث إلى الإخوان ، تحدث اليهم بالكتاب العزيز والسنة المطهرة والسيرة العطرة ، فاذا هم ـ بذلك ـ قلوب خاشعة وأعين دامعة ، ذلك أنه لم يكن معهم رئيسا يتعامل مع مرءوس ، ولكنه كان مربيا يتعاهد رياضة مريد ، وبين الصورتين فرق واضح وبون بعيد ، وهذا الفرق نفسه هو الذى كان بين الأستاذ الهضيبى ، والإمام الشهيد .

وإذا كان لكل قضية حجة تستند اليها ومثال يدل عليها ، فلا نرى بدأ من أن نضرب بعض الأمثلة لهذا الذى نذكره عن طور الدعوة على يد الأستاذ البنا ـ رحمه الله ـ ومثال ذلك ، انقسام الاخوان عليه عدة مرات كانت كفيلة بأن تدمر جماعة الإخوان تدميرا كاملا ، ولكنه عالجها علاج الحكيم الذى يعرف الطريق إلى ما يرضى الحقيقة ، ويرضى الذين يؤثرونها على كل أثير .

وأبادر إلى القول بأن الاختلاف مع الإمام الشهيد ، لم يكن الباعث عليه فى رأى المختلفين عرضا من أعراض الحياة الدنيا ، وانما كان ناشئا عن أجتهاد ، وربما كان مصيبا ، وقد يكون خاطئا . والإسلام يتسع للخلاف فى الرأى اتساعا لا يعرف الناس له نظيرا فى غير الإسلام . ذلك أن الذى يتصرف عن اجتهاد مخطىء هو مأجور ، وكذلك الذى يتصرف عن اجتهاد مصيب هو مأجور أيضا ، بيد أن المخطىء له أجر ، والمصيب له أجران .

والذين يستعرضون تاريخ الذين اختلفوا مع الإمام الشهيد ، لا جرم أنهم يرونهم بين مخطىء له واحد ، وبين مصيب له أجران ، ماداموا لم يرتكبوا بسبب هذا الاختلاف كبيرة من الكبائر التى اقترنت فى الكتاب العزيز بعقوبة شديدة تعجل لمرتكبيها فى الدنيا على يد ولى الأمر ، أو تؤجل إلى يوم يقوم الناس فيه لرب العالمين .

وقد كان أول هذه الانقسامات : الانقسام الذى أطلق عليه « **شباب محمد** » .

وكان يتزعم هذا الشباب الأخ محمد على المغلاوى الذى أصبح فيما بعد نقيبا للتجاريين ، وقد أذكر أننى رأيته يقوم الليل قارئا ساجدا ، ونحن يومئذ نقيم فى شقة تجاور شقة أخرى لجماعة مصر الفتاة ، وذلك فى مبنى لوكاندة البرلمان فى ميدان العتبة بالقاهرة ، وليس يخفى على خاصة الاخوان أن اختلاف هذا الشباب كان يرجع إلى أنهم عابوا على الإمام الشهيد أسلوبه فى السير بالجماعة إلى تحقيق اغراضها ، ثم اجتمع إلى ذلك المعنى أمران : **أولهما : السلوك السياسى للأستاذ أحمد السكرى** فى موقفه من سياسة على ماهر ، والمظاهرة التى قادها من شباب الاخوان لاستقباله ، والهتاف باسمه . **وثانيهما : السلوك الشخصى للأخ عبد الحكيم عابدين** فيما أغضب به بعض أخوانه حتى اضطرهم إلى أن يرفعوا أمره إلى الإمام الشهيد ، فأنزل به الإمام عقوبة هى إلى الأدب الصوفى أقرب منها إلى التأديب الجسمانى أو النفسى . ولعل من الحق على أن انتهز هذه السانحة لأذكر عن الأستاذ السكرى ما أعتقد أنه حق . ذلك أن استقباله لعلى ماهر كان من أجل قضية فلسطين ، وهذه القضية ذات منزلة رفيعة فى نفس الغيارى على العروبة وعلى الإسلام ، وقد كان ـ على ماهر ـ على ماأعلم ـ قادما من مهمة تتصل بهذه القضية ، ثم لعله كان ضائق الصدر بما ضاق به صدر الإمام الشهيد من الأحداث الفاجعة التى كانت سببا فى الأحداث الأليمة التى نزلت فى ساحة الاخوان . ومن حق الأستاذ السكرى وغيره أن يلتمس مخرجا من المأزق الحرج الذى يرى أنه لا خير فيه لنفسه ، ولا لجماعته ولا لوطنه . على أن مبلغ علمى بالأخ السكرى أنه رجل يخشى الله ويخاف سوء المصير ، ويتسم بروح مرح وأدب جم وإيثار للتمتع بأنعم الله فى غير تعصب مقيت أو تزمت مميت . وآية ذلك الذى أقول ، قصة رواها لى أخ ثقة مفضال هو الأخ الأستاذ كمال عبد النبى الذى كان سفير مصر فى فرنسا ، والذى كان من قبل عضوا فى مكتب الارشاد ، فقد قال لى ـ حفظه الله ـ لقد كنا فى موسم الحج ، ولأول ما ذهبنا إلى المدينة دخلنا إلى المسجد الشريف ، فاذا الأخ أحمد السكرى يتغير وجهه ، ويرتعش صوته ، وتفيض دموعه وهو يقول متجها إلى القبر الشريف : « الأنس كان إنت . . والزهر كان إنت والابتسام إنت . . » وهى من كلمات لأغنية تغنيها السيدة أم كلثوم ، فلما خرجنا من المسجد قلت للأخ السكرى معاتبا أيليق بك هذا العبث فى حضرة رسول الله ؟ فلم يزد على أن قال : « والله الذى لا اله إلا هو إننى لم اجد فى رأسى أبلغ من هذه الكلمات للتعبير عما فى نفسى من حبى لرسول الله ﷺ . وعلى كل حال ، فان العبرة بالنيات ، كما قال رسول الله ـ صلوات الله عليه ـ « إنما الأعمال بالنيات » .

وإذا كان لى تعليق على هذه الواقعة ، فان الانسان إذا فرح فرحا شديدا جرى على لسانه ما يخالف العرف المألوف . فذلك حديث رسول الله ﷺ الذى يذكر فيه أن الله أشد فرحا بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل فى صحراء لا نبات فيها ولا ماء . وقد كانت معه راحلته عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه فنام ثم استيقظ ، وقد ذهبت

راحلته . فطلبها حتى إذا أشتد عليه الجوع والعطش ، قال : أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه ، فأنام حتى أموت فوضع راسه على ساعده ليموت فاستيقظ فاذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه ، فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده ، فقد أخطأ من شدة فرحه بدابته عليها طعامه وشرابه فقال : « اللهم أنت عبدى وأنا ربك » فهذا رجل غلبته فرحته بالماء والطعام فحولت لسانه من حيث لا يعتقد فبدلا من أن يقول : « اللهم أنت ربى وأنا عبدك » ، عكس القضية فقال اللهم « أنت عبدى وأنا ربك » . ولا يبعد عن القياس أن يقول القائل : إن الأخ السكرى قد أدركته الفرحة برسول الله لمعنى وقع فى نفسه لعله لم يقع فى نفس الذى لامه . فبدلا من أن يقول كلمات فيها لرسول الله تعظيم ، قال هذه الكلمات التى رآها أقدر على التعبير عما فى نفسه ، فقال ما لامه عليه زميل كريم .

لقد كان الأستاذ البنا يحمل هموم العالم الإسلامى فى داخل مصر وخارجها ، فهو المسئول فى رأى الناس عن الأحداث الأليمة التى تثير الراى العام فى مصر ، ثم هو المسئول - أيضا - عن الأحداث التى تقع فى العالم الإسلامى . فأما مسئوليته عن الأحداث التى تقع فى مصر فانه - رحمه الله - كان معنيا بالتوجيه والإرشاد والتقويم لعدة أقسام فى تنظيم جماعة الاخوان ، وهى قسم نشر الدعوة ، ثم قسم المناطق والاقاليم ، ثم قسم الطلاب ، ثم قسم العمال ، وكل قسم من هذه الأقسام يحتاج إلى رجال يقومون بحقه عليهم فيما يتصل به معرفة بالاتجاهات السياسة والانفعالات النفسية ، فاذا تصورنا الامام الشهيد قائما وحده على توجيه هذه الأقسام ، فإننا ندرك فداحة العبء الملقى على عاتقه ، فإذا خالف مخالف تعليماته ، فان ذلك - بلا ريب - يضاعف من أعباء الدعوة على نفسه ويعرضه من حيث لا يريد للملامة أو لما هو أشد من الملامة وأعنف .

جوانب الدعوة فى الخارج

وأما مسئوليته عن الدعوة فى خارج مصر ، فإنها أفدح عبئا ، وأخطر نتيجة ذلك أن قسم الاتصال بالعالم الإسلامى كان يشتمل على عدة جوانب كل جانب منها يحتاج إلى مرشد عام ، وهذه الجوانب تشتمل على نشر دعوة الاخوان فى كل البلاد الإسلامية ، وكذلك دراسة مشاكل الوطن العربى ، وقضايا بلاده المختلفة ، ثم اقامة المؤتمرات الدورية التى يلتقى فيها تحت راية الاخوان رجال الحركات الإسلامية ، ولم تكن المؤتمرات التى تنعقد يومئذ مؤتمرات يسيرة التبعات ، ولكنها كانت تتغيا مناقشة قضايا هذا الوطن ، وخاصة ما يتعلق فيها بسيطرة الاستعمار الأجنبى . وكذلك من مهمات قسم الاتصال ، المطالبة بحق الأوطان المغتصبة فى الحرية والاستقلال والتخلص من الاستعمار بكل الوسائل ، وعلى جميع الوجوه سواء فى ذلك الاستعمار

العسكرى ، والاستعماز الثقافى ، والاستعمار الاقتصادى ، والاستعمار الاجتماعى الذى هو عقدة العقد ، وأفة الآفات . وقد كانت وسائل العمل فى ذلك القسم تتلخص فيما يلى :

اولا : اعداد ملفات تشتمل دراسة قضية كل بلد عربى وإسلامى بحيث يتضمن كل ملف البيانات الخاصة بكل قضية على حدة .

ثانيا : إنشاء أمانة دائمة للقسم مهمتها إعداد كل ما يتطلبه العمل من دراسات ومطبوعات ونشرات لا تستغنى عنها قضايا الوطن العربى والإسلامى .

ثالثا : إيفاد البعثات إلى تلك البلاد ، واستقبال الوفود التى تزور مصر .

رابعا : تقديم المعونة الأدبية والمالية لجميع الوافدين من تلك الأقطار الشقيقة مهما كانوا طلاب علم ، أو رجال كفاح فى سبيل قضايا بلادهم .

وقد أذكر أن من بين هذه اللجان فى قسم الاتصال **لجنة الهلال الخصيب** ، وتشمل سوريا ولبنان وفلسطين والأردن والعراق ، **ولجنة الجزيرة العربية** ، وتشمل المملكة السعودية واليمن والامارات الواقعة على الخليج العربى : الكويت وقطر والبحرين ، **ثم لجنة شمال افريقيا** ، وتشمل الحبشة والصومال ونيجيريا والشنغال ، **ثم لجنة السودان** ، **ثم لجنة الدول الآسيوية** ، وتشمل أندونيسيا والهند وسيلان وباكستان وايران وافغانستان والأقليات الإسلامية فى اتحاد أسيا كالصين والملايو والفلبين ، **ولجنة مسلمى اوروبا** ، وتشمل تركيا والمسلمين فى روسيا وغيرها ، **ثم لجنة المذاهب الإسلامية** ومهمتها دراسة المذاهب والتقريب بينها فى حدود الأخوة الإسلامية التى لا يفسدها اختلاف الرأى ما دام كل مذهب يقيم حياته على عقيدة الإسلام .

وقد أذكر ـ للتاريخ ـ أن من بين الأخوة الذين كانوا يترددون على المحاضرات فى دار الاخوان **السيد محمد عبد العليم الصديقى** الباكستانى الذى وقف حياته على الدعوة إلى الاسلام فى مواجهة المبشرين الذين كانوا طلائع بين يدى الاستعمار الغربى ومن هؤلاء السادة الذين لقيتهم : **الاخ محمد على ناصر** الذى كان رئيسا لحزب ماشومى فى أندونيسيا ، وقد ولى رياسة الوزارة أكثر من مرة ، ولم يكن يفوته درس فى الإخوان المسلمين ، وقد كان الرجل حريصا على قبول النصيحة ، وتلقى العلم عن كل من يثق بهم من رجال الإسلام ، وقد لقيت الرجل فى أندونيسيا ، وأنا يومئذ عضو فى الوفد المصرى إلى **مؤتمر باندونج** ، وهو المؤتمر الذى يعرفه الناس باسم **المؤتمر الآسيوى الأفريقى** ، وقد كان الرجل فى عام ١٩٥٥ م يتزعم حركة ضد الاستعمار الهولندى بوصفه رئيسا لحزب « ماشومى » ، ولم أكن أعرف لهذه الكلمة

معنى حتى لقيت الرجل ، فسألته عن معنى هذه الكلمة ، فأجابانى بأنها مأخوذة من حروف عدة كلمات هى « مجلس شورى مسلمى اندونيسيا » . وكان يصاحبنى فى مقابلة الزعيم الأندونيسى سفير مصر يومئذ الأستاذ فهمى العمروسى ، واذكر أننا تناولنا حركة المجاهدين الذين كانوا يعتصمون بروؤس الجبال فى مجاهدة الوافد من الغرب الرأسمالى ، والزاحف من الشرق الشيوعى .

فهكذا كان يعمل الاخوان فى قسم الاتصال بالعالم الاسلامى ، وهو بلا ريب عمل يحتاج إلى جهد عظيم ، وطاقة روحية كبيرة وصحة جسمية كاملة ، وإذا كان ذلك متوافرا للامام الشهيد ، فإن الأستاذ الهضيبى - على ضعف صحته - لا يستطيع احتمال هذا العبء ، ولذلك رفض فى اصرار قبول منصب المرشد العام خلفا للامام الشهيد حتى ألح عليه الاخوان الحاحا شديدا واقنعوه بأنه لن يتكلف جهدا يرهقه أو يضر بصحته ، وأن كل مهمته لن تجاوز الانتفاع بأخلاقه الفاضلة ، وثقافته القانونية ، وجاهه المقدور عند ذوى السلطان .

فتنة اليمن

ولا يسع المنصف الا أن يلتمس العذر للأستاذ الهضيبى فى رفضه منصب المرشد إذ كان منصبا ثقيل التبعات أمام الله وأمام الناس ، وقد كان الامام الشهيد نفسه يتعرض لمتاعب شديدة فى بعض الأحداث التى كان يقترفها مقترفوها باسم دعوة الاخوان ، ثم يحمل حسن البنا وزرها ، ولا يد له فيها ولا طاقة له بها ، ولا حجة له فى التنصل منها ، أو الدفاع عنها ، وآية ذلك فتنة اليمن التى أشترك فيها اخوان مصريون ، واخوان يمنيون ، واخوان من المغرب الأقصى مجاهدون ، فقد اشترك هؤلاء جميعا فى ثورة ابن الوزير سنة ١٩٤٨ .

وبيان ذلك أنه فى الثالث والعشرين من سبتمبر سنة ١٩٤٨ دبر عبد الله بن احمد الوزير عضو ديوان الامام ثورة ضد الامام يحيى ، وقد كان ابن الوزير يضمر الكراهية لشخص الامام والعداء لحكمه ، وكان الرجل مرموقا بقدر ما كان مغرورا يرى أنه أولى بالامامة ، وأجدر بها من الامام ، ومن ابنه الذى كان معروفا بالعنف ، مع ما أضيف إلى ذلك من رواسب أحقاد قديمة ، إذ كان الامام يحيى قد ولّى واحدا من آل الوزير إمارة لواء « تعز » فلبث بها ما يقرب من خمسة عشر عاما ، ثم عاد الامام فنحاه عنها ، وأسند الامارة إلى ولده ولى العهد . وقد كان يقف إلى جانب عبد الله الوزير ، السيد حسين الكبسى الذى كان موضع ثقة الامام ، وكان مبعوثه السياسى الخاص إلى الدول المختلفة ، وكان أيضا مبعوثه إلى الجامعة العربية بالقاهرة ، وكان مما شاع بين الناس ، أن السيد الكبسى مأمور من الامام بحضور

جلسات الجامعة مستمعا لا متكلما ، حتى لقد أرسل المصريون الكبسى مثلا لكل انسان يجلس فى مجلس يلوذ فيه بالصمت ، فيقولون عنه « إن فلانا كبسى » . ومن العجيب أن يكون الفضيل الورتلانى ضد الامام يحيى ومع عبد الله بن أحمد الوزير ، وقد كان الفضيل يعتنق التطرف ، ويؤثر العنف حتى ظن به نفر من الناس أنه شيوعى يتستر بالإسلام ، وقد كان مما سوغ لهذا النفر من الناس هذا القول أنه كان يتحدث فى مجالسه الخاصة عن أن للشيوعية دعاة مؤمنين بها إيمان المتصوفة بمذهب التصوف فى الإسلام .

وكان يقول عن اليمن إذا عرض الحديث عنه كلمات تثير غيظ الحليم ، فكان يذكر أنه لا يوجد قانون فى اليمن يحدد حقوق الفرد وواجباته ، وإنما القانون الذى لا قانون سواه هو أمر الامام الذى تصوغه حريمه وجواريه فى كثير من الأحيان . وقد كنت أسمع من غير الأخ الفضيل أكثر مما يقول الفضيل نفسه ، ذلك أن من أبناء الأزهر من كان لا يكاد يفارق الاخوان المسلمين فى ليل أو نهار ، وكان شاعرا أديبا ، واسمه محمد صالح المسمرى ، هذا وهنا يذكر المؤرخ حسين شرف الدين فى كتابه « اليمن عبر التاريخ » فيقول : كان يقف إلى جانب عبد الله الوزير عدد من الأحرار الذين لهم شأن كبير فى تدبير المؤامرة بقصد تحرير البلاد من الحكم المستبد الظالم ، وإقامة حكم ديمقراطى عادل ، ثم يذكر الرجل من هؤلاء الفضيل الورتلانى ويصفه بأنه عضو الاخوان المسلمين ، ثم يذكر أنه تاجر مغربى كان قد وصل إلى اليمن من القاهرة لإنشاء مؤسسة تجارية فى صنعاء ، وكذلك ذكر المؤلف ، الأستاذ محمد محمود الزبيرى ، والأستاذ أحمد نعمان ، وعددا من رجال اليمن الأحرار الذين كانوا ينتمون إلى الجمعية اليمنية فى عدن بزعامة سيف الحق ابراهيم . وقبل قيام الثورة اليمنية ببضعة أيام ، كانت جريدة صوت اليمن الناطقة بلسان الجمعية فى عدن قد نشرت مقالا أشارت فيه إلى نشوب ثورة فى صنعاء قتل فيها الإمام يحيى وبويع عبد الله الوزير إماما على اليمن . وقد ذكروا أن الإمام قد استدعى عبد الله الوزير بعد أن قرأ الجريدة ، وسأله أن يشرح له الموضوع ، فأظهر بن الوزير استنكاره الشديد لهذا النبأ ، ووصفه بأنه ملىء بالافك والبهتان ، وأكد ذلك بالايمان المغلظة زاعما أن ما نشرته صوت اليمن كذب محض وادعاء باطل ، ثم استطرد إلى وصف ولائه للإمام ولاء لا تزعزعه العواصف ، وقال إن الأمير أحمد بن يحيى هو ولى العهد الشرعى الذى بايعته بالخلافة القلوب قبل الأكف ، ثم اختتم كلامه بالآية الشريفة : « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا » .

وقد كان طبيعيا أن يطمئن الإمام يحيى إلى ذلك شأن الطيبين من عباد الله المؤمنين ، وبذلك الكلام هدأت النفوس فى صنعاء بعض الهدوء ، ولكن عبد الله ابن الوزير أخذ يوالى اجتماعاته بأعضاء الثورة ، ويحثهم على سرعة تنفيذ الخطة

المبرمة فى أقرب وقت ممكن ، وهى القضاء على حياة الإمام بصنعاء ، ثم على ولى العهد بتعز ، وكانت آخر جلسة هى الجلسة التى عقدت فى دار **عبد الله بن على بن الوزير** مساء يوم الحادث ، وفى هذه الجلسة تم تعيين الأشخاص الذين سيقومون بتنفيذ المهمة الأولى ، وهى اغتيال الإمام يحيى غداة اليوم التالى ، وقد عهدوا إلى واحد يحدد لهم حركة الإمام فى ذلك اليوم الذى تقرر اغتياله فيه ، إذ كانت عادته فى كل يوم القيام بجولة قصيرة فى بعض الجهات من ضواحى صنعاء . وفى صبيحة اليوم التالى كانت العصابة المعنية بالتنفيذ على أهبة الاستعداد ، ولما أبلغهم الجاسوس الجهة التى قصد إليها الإمام ، تحركوا فى سيارة لورى حيث كمنوا للإمام فى بعض المنعرجات التى سيعود منها بعد أن قاموا بردم الطريق بالحجارة أمعانا فى إحكام الخطة ، وما أن وصلت السيارة بالإمام حتى أطلقوا عليها نيران رشاشاتهم ، **فأردوه قتيلا** ومعه رئيس وزرائه **القاضى العمرى** ، ومعه كذلك **حفيده** ، وكان فى الخامسة من عمره ، كما قتل **سائق السيارة وخادم الإمام الخاص** ، ثم عادوا بسياراتهم بعد أن تأكدوا من موت الإمام ومن معه ، واتجهوا إلى عبد الله الوزير لابلاغه نجاحهم فى تنفيذ الخطة . وقد كان أول عمل قام به عبد الله بن الوزير ، الانتقال إلى قصر صنعاء حيث توجد خزائن الدولة من حبوب وذخيرة وعتاد ، وأخذ بن الوزير يستدعى إليه الشخصيات والأعيان ، وقادة الجيش ويحثهم على مبايعته ، كما أمر بفتح مخازن السلاح والذخيرة وخزائن النقد ، وأن يوزع منها لكل من أعطى البيعة من أعيان البلاد واتباعها . وما أن سمع الناس بهذا حتى تواردوا من كل صوب طمعا فى المال والسلاح ، وكان **الأمير أحمد** قد تحرك من **تعز** ـ مقر إمارته ـ متجها إلى « **حجة** » معقله الأمين المنيع على أثر علمه باغتيال والده ، وكانت بمدينة تعز **عصابة سرية** تتحين الفرص لاغتيال الأمير أحمد طبق خطة مرسومة من عبد الله الوزير ، ولكن هذه المحاولة باءت بالاخفاق ، وتمكن الأمير أحمد من الوصول إلى « حجة » سالما حيث أخذ يحشد القوات ويؤلب القبائل للزحف على صنعاء . وقد حالف النصر الأمير أحمد ، فتلقب **بالأمير الناصر لدين الله** ، واتخذ مدينة تعز عاصمة ثانية له . أما مدينة صنعاء فقد وكل أمرها إلى إخوته : **الحسن والعباس وعلى واسماعيل** ، وكان طبيعيا أن يسود النهب والسلب وازعاج الآمنين ، وترويع النساء والأطفال .

وأما الذين أمر الإمام الجديد بإعدامهم بعد آل الوزير ، فهم : **الرئيس محمد السعيدى ، والرئيس جمال جميل العراقى ، والأستاذ محيى الدين العنس ، والسيد حسين الكبسى ، والأستاذ صالح المسمرى** . وقد تمكن بعض رجال الثورة من الفرار ، ومنهم الأستاذ **الزبيرى ، والفضيل الورتلانى** .

وقد كانت أول خطوة تخطوها حكومة الإمام أحمد ، هى الإنضمام إلى هيئة الأغذية والزراعة التابعة للأمم المتحدة سنة ١٩٥٤ . وفى ٢٨ من ابريل ١٩٥٦ عقد

الحلف الثلاثي بين اليمن والجمهورية العربية المتحدة والمملكة العربية السعودية ، وهو الحلف المعروف بميثاق جدة . وأذكر أنني كنت عضوا في هذا الوفد برياسة المرحوم جمال عبد الناصر وعضوية أنور السادات وأنا وعلي صبري ، وقد وقع ميثاق جدة ـــ جمال عبد الناصر عن الجمهورية العربية المتحدة وجلالة الملك سعود بن عبد العزيز عن المملكة العربية السعودية ، والامام أحمد عن حكومة اليمن . وكان المقصود من هذا الحلف هو الدفاع المشترك ضد حلف بغداد الاستعماري المعقود بين بريطانيا وتركيا والعراق ، كما تشير إلى ذلك بعض مواد هذا الميثاق وفيها ، أن الدول المتعاقدة تعتبر كل اعتداء مسلح على دولة من هذه الدول الثلاث اعتداء عليها هي شخصيا بحيث تلتزم باتخاذ التدابير اللازمة على الفور ، وتستخدم جميع ما لديها من وسائل لاعادة الأمن وصيانة السلام ، على أن تتشاور الدول المتعاقدة فيما بينها بناء على طلب إحداها كلما اضطربت العلاقات الدولية لاتخاذ التدابير الوقائية اللازمة . وتنفيذا لأغراض هذه الاتفاقية قررت الدول المشتركة انشاء مجلس حربي موحد وقيادة مشتركة .

أسلفنا أن ثلاثة من شباب الاخوان جاءوا إلى بمنزلي في حلوان بعد مقتل الامام الشهيد . وأخبروني أن جماعة من إخوان الأقاليم يريدون أن يعقدوا معي إجتماعا خاصا يتعلق بشأن الجماعة . ثم ذكر هؤلاء الثلاثة أنهم يحملون إليّ رسالة من شباب الأقاليم يطلبون مني فيها أن أتصل بالأساتذة حسن الهضيبي ، ومحب الدين الخطيب ، وأمين الحسيني مفتي فلسطين ، وأن أسأل كل واحد من هؤلاء الثلاثة عن رأيه في الثأر للامام الشهيد من الذين قتلوه ظلما وعدوانا على أن التقي بهؤلاء الشباب لأخبرهم بما استقر عليه الرأي ، وقد حددوا مكان اللقاء في جاردن سيتي في منزل بشارع الحرس .

ولم يكن بد من أن أمضي رغبة الأخوة ، فبدأت بزيارة الأستاذ الهضيبي وسألته رأيه ، فلم يجبني بقول يؤثر عنه ، لأن الرجل كما قلت كان حريصا على عودة الجماعة ، وقد دعاه هذا الحرص إلى أن يزن كلماته بميزان الذهب ، أو بما هو أغلى من الذهب . ثم ثنيت بزيارة الحاج أمين الحسيني فقال : لقد جربنا العنف فلم نجد فيه خيرا من قريب أو بعيد ، ولهذا أرى لكم أن تسلكوا كل سبيل يرضى عنه القانون الذي تعيشون في سلطانه ، ولعل في ذلك ما يعينكم على تحصيل الشكل القانوني لجماعة الاخوان . ثم ذهبت إلى السيد محب الدين الخطيب ، فما كاد يسمع كلمة الثأر للامام الشهيد ، حتى تغير وجهه ، وتعثرت الكلمات في لسانه ، ثم قال : هذه أعمال بلقانية لا خير فيها لدنيا أو لدين ، ولقد كنت قابلت الأستاذ البنا أكثر من مرة ، وفي كل مرة كنت أذكر له طريق السلطان عبد الحميد في سفك الدماء ، وأقول له إن هذا السلطان كان شر المصائب التي ابتلي بها المسلمون ، وفي آخر مرة قابلته فيها قلت له : إن تعليم الشعب أمور دينه وتربيته على أدب الإسلام ، تجعل الحكم يسعى إليك

سعى المريض إلى الطبيب يطلب عنده الشفاء ، أو سعى المعدم إلى الغنى يستعينه على تحصيل الغذاء والكساء . ثم ذكرت له فى هذا اللقاء الأخير أن الاسلام أحوج ما يكون اليوم إلى مدافعة المتربصين به فى المؤتمرات التبشيرية التى أثرت القاهرة لأول مؤتمراتها سنة ١٩٠٦ ، ثم اتبعت ذلك المؤتمر مؤتمرا آخر فى أدنبرة فى بريطانيا سنة ١٩١٠ ، ثم المؤتمر الثالث فى ليكناو فى الهند سنة ١٩١٣ ، وقد قدمت له كتاب « الغارة على العالم الاسلامى » الذى ألفه مستر شاتليه ، واتفقت أنا مع الأستاذ مساعد اليافى على تلخيص الكتاب ونقله إلى اللغة العربية . ويستطرد السيد محب الدين الخطيب قائلا : فلما لم يقتنع المرشد برأى تركت جماعة الاخوان مكتفيا باصدار مجلة « الزهراء » وصحيفة « الفتح » التى كانت تعنى أبلغ العناية بأنباء الغارة على العالم الاسلامى . وليس يخفى أن الأستاذ محب الدين الخطيب كانت له سمعة طيبة ، وقد كان يتحدث إلى الاخوان كلما سنحت له فرصة بهذا الحديث الذى تحدث به إلى الامام الشهيد ، ولذلك تأثر كثير منهم بهذا الرأى الذى كان يستند إلى الأصل الذى قامت عليه الدعوة المحمدية ، وبذلك يكون أول خارج على نظام الجماعة فى عهد الامام الشهيد حسن البنا هو الأستاذ محب الدين الخطيب ، ثم تلا هذا الخروج ، خروج الأستاذ أحمد السكرى مع اخوانه : الدكتور ابراهيم حسن ، والأخ حسين عبد الرازق ، والأخ كمال محمود عبد النبى ، وغيرهم .

ومهما ذكر بعض الاخوان أن خروج السكرى كان بسبب محاولته الانتماء إلى حزب الوفد ، أو موقفه من سياسة على ماهر باشا ـ كما أشرنا فى الصفحات السابقة ـ فلعل ذلك كان تغطية للسبب الحقيقى الذى كان يدور فى نفس الأخ السكرى ، وهو أن ينأى بنفسه عن مواطن الحرج ، والتعرض لشدائد الأمور التى لا قبل له بها ، ولا قدرة له على مدافعة أسبابها والدواعى إليها ، ولئن كان هو نفسه قادرا على أن يحتمل فى سبيل الدعوة ما يشق عليه ، فإن أهله لا قدرة لهم على ذلك ، ولعله كان يجد لهذا المذهب سندا من الحديث الشريف : « لا تتمنوا لقاء العدو فإذا لقيتموه فاثبتوا » . ولقد رأى الرجل الذى كان وكيلا للاخوان المسلمين ـ أن الامام الشهيد كان يحتمل تبعات تصرفات لم يأمر بها ولا رضى عنها . ودليل ذلك ـ فى مبلغ علمى يتراءى لرائيه فى مقتل النقراشى باشا ـ ذلك أن الذين أرادوا الانتقام منه من أجل حل الجماعة وتصفية ممتلكاتها ، لم يكن الأستاذ البنا راضيا عن ذلك ، ومع ذلك وقع ما لم يكن يحب أن يقع .

ومهما تكن تصرفات حكومة النقراشى فى حل الجماعة ، وتصفية ممتلكاتها فى شركة المعاملات الإسلامية وتعطيل صحفها ، فإنها لم تكن لتبيح حرمة الدم الذى عصمه الإسلام بالكتاب العزيز والسنة الشريفة ، والسيرة المطهرة .

لا يكافىء البنا إلا أكبر رأس فى البلد

ولقد كان على بعد ذلك أن اجتمع بالاخوة لأبلغهم نتيجة اتصالاتى بمن اقترحوهم ، فلما اجتمعنا فى شهر ابريل ١٩٤٩ فى الميعاد والمكان ، ذكرت لهم كل ما عرفت بغير زيادة ولا نقصان ، غير أن واحدا منهم كان واسع الثقافة لعله هو الأخ « **عبد النافع السباعى** » من إخوان سوريا ، الذى اندفع يقول إن مثلنا فى هذا الموقف مثل الشاعر العربى الذى رثا أمير المؤمنين عليا فقال فى رثائه :

يا قبر سيدنا المجن له	صلى الاله عليك يا قبر
ما ضر قطرا أنت ساكنه	الا يحل بأرضه قطر
أقسمت لو بك لم أدع أحدا	إلا قتلت ، لفاتنى الوتر

ثم تحدث أخ ثان فقال : لا يكافىء حسن البنا إلا أكبر رأس فى هذا البلد . ولم أجد بدا من أن أتكلم إليهم بما رأيت أنه خير وحق فقلت لهم : إن أكبر رأس فى بلدنا هو الملك ، ولعل الملك خير من ولى عهده محمد على الذى كان لا يبرم أمرا أو يرى رأيا دون أن يرجع إلى سادته من المستعمرين ، وإذا كان الأخ عبد النافع السباعى بثقافته الواسعة ـ قد استشهد بشعر عربى فصيح ـ فإنى أذكر لكم خطبة لأمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان حيث قال رضى الله عنه : « أما بعد فإن أمراء المؤمنين قبلى كانوا خيرا لكم منى وأنا ـ والله ـ خير لكم ممن يأتى بعدى . والله الذى لا اله إلا هو لا أرفع السيف على من لا سيف له ، وإذا لم يكن منكم إلا ما يشتفى به القائل بلسانه ، فقد جعلت ذلك دبر أذنى وتحت قدمى » .

ومبلغ علمى أنهم قد اقتنعوا بما قلت ، لأن شعورنا بالمحن كان واحدا ، ومعارفنا عن الفتن كانت ماثلة بين أعيننا حتى لقد خيل إلى أننا عدنا بذاكرتنا إلى اللحظة التى روت أنباءها الصحف فى الداخل والخارج ، إذ كان قد شاع بين الناس ـ عامتهم وخاصتهم ـ أن الأخ الذى كلف أن يغتال النقراشى رفض أن يقدم على ما طلب منه **إلا إذا قابل الشيخ سيد سابق** فى جلسة خاصة .

وقد ذكرت الصحف يومئذ عن الشيخ سيد سابق أنه قال **لعبد المجيد أحمد حسن** الذى قتل النقراشى : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » . ومن هنا أطلقوا على الشيخ الفقيه لقب « **مفتى الدماء** » . ولعل الاخوة لم يستبعدوا إلى جانب ذلك أن الشيخ الفقيه كان له رأى أيضا فى جميع الأحداث التى اتسمت بالعنف ، وفى طليعتها حادث نسف محكمة الاستئناف الذى وصف الامام الشهيد مرتكبيه بأنهم **ليسوا إخوانا وليسوا مسلمين** .

وهنا لا أجد منتدحا عن وقفتين ذكرنى بهما أخ موثوق بصير :

وأولى الوقفتين أن البوليس بذل جهدا عنيفا فى العثور على الشيخ سيد سابق حتى عثر عليه مصادفة بمنزل فى ميدان الأوبرا بالقاهرة ، فلما علم بذلك ابراهيم عبد الهادى باشا رئيس الوزراء ، أراد أن يرى « مفتى الدماء » فلما رآه وجد رجلا ضئيل الجسم لا تدل سماته على حقيقة شخصيته وصرامة إرادته ، فقال لمن حوله : « ما كنت أظن أن هذا الرجل له علاقة بالدم ، فإنه ليخيل إلى من يراه أنه لا يحتمل أن يرى « فرخة » تذبح بين عينيه ، ولكن لله فى خلقه شئون .

واما ثانية الوقفتين ، فإن المسجونين فى قضية اغتيال النقراشى رأوا أنهم بمنطق المرشد « لا هم اخوان ولا هم مسلمون » . ولذلك اندفعوا يعترفون بما يكاد يكون انتقاما من المرشد نفسه ، فذكر عبد المجيد أحمد حسن قاتل النقراشى أن من أعضاء النظام الخاص ضابطا فى منصب مرموق فى وزارة الداخلية ، وذلك الضابط هو احمد فؤاد الذى كان فى النظام الخاص بالاخوان ، وقد حاول الهرب لما انكشف أمره فطاردته الشرطة حتى قتل فى هذه المطاردة .

وقد كان ـ كسائر أعضاء النظام ـ يؤثر أن يقتل فى مجاهدته الاستعمار أو مناصرته قضية فلسطين . ذلك أن هذا النظام الخاص ، إنما انشىء ـ من أجل غايتين شريفتين هما : مكافحة الاستعمار فى القناة ، ومؤازرة المجاهدين فى فلسطين . ولكن بعضهم قد انحرف عن الطريق السوّى انحرافا لا يخفى أمره على الذين عاصروا الجماعة إبان نشأتها وفى أثناء نشاطها . ولكنهم ـ كسائر الجماعات فى دنيا الناس ـ فيهم الذى انحرف عن الغاية أو أخطأ الهدف ، وفيهم الذى استقام على الطريق ما امتدت به أسباب الحياة .

فأما الذين انحرفوا ، فقد انكشف أمرهم للناس ونالوا جزاءهم ، وأما الذين استقاموا على الطريق ، فإن من أعيانهم وفضلائهم الأخ الأستاذ محمود عبده الذى كان يعمل فى وزارة التربية والتعليم ، والأخ يحيى عبد الحليم الذى كان يعمل فى حقول البترول ، والأخ لبيب الترجمان ، والأخ الشيخ محمد فرغلى وفا الذى حكم عليه بالاعدام ، والأخ كامل الشريف الذى يشغل الآن منصب وزير فى المملكة الأردنية الهاشمية ، وهو مصرى عاش فى العريش ، ثم الأخ الضابط معروف الحضرى الذى اشترك مع الاخوان فى معارك فلسطين ، ثم اشترك مع الضباط الأحرار فى ثورة يولية ١٩٥٢ . ومهما حاول أعداء الاخوان تشويه سلوكهم والاساءة إلى سمعتهم ، فإن مثلهم كمثل سائر الجماعات ذات الأهداف الاصلاحية فى دنيا الناس ، فيهم الخير والشر ، ومنهم المنحرف والمستقيم على الطريق . ولقد كنت أقول ، وما زلت : إن من شباب الاخوان الذين شهدناهم ، من يتقرب المسلم بحبهم إلى الله لشرف سلوكهم ، وقوة إيمانهم واخلاصهم دينهم لله رب العالمين ـ وكذلك تجد منهم عكس هذا الذى أقول ـ لا يجحد هذه الحقيقة أو يتنكر لها من يؤثر العدل والانصاف ، على الجور والميل والاعتساف .

ومن حق هذه « الذكريات » عليّ أن أقف مع الأستاذ الهضيبى فى اشفاقه من احتمال الأعباء الثقال لو أنه قبل منصب المرشد العام بمجرد عرضه عليه . ذلك أن الفرق بينه ، وبين الامام الشهيد أن الامام الشهيد أسس الدعوة وربّى شبابها فى ظلال من عنايته ، وتوجيهه وطريقته فى تعامله مع الله ومع الناس ، وهى الطريقة التى ترى الإسلام دينا والدولة جزءا منه أو تعبيرا عنه . ولقد كان لهذا التصور أسلوب عملى فى الأنظمة الخاصة التى انتظمت كثيرا من الشباب الطيب فى صفوف الشعب ، وفى صفوف الجيش ، وفى صفوف البوليس ، فكان الأستاذ البنا يعرف هؤلاء الشباب بأعيانهم وبأسمائهم وبأسرهم التى ينتسبون إليها ، وبلادهم التى يعيشون فيها ، على حين أن تلك الصورة لم يكن يعرفها الأستاذ الهضيبى حتى يفكر فيها ، ولو أنه فكر فيها ، لما انفتح قلبه لها ، كما انفتح لها من قبل الامام الشهيد .

جمـــــال عبد النـــــاصر
فى الإخوان وفى تنظيم شيوعى

ثم إن الأستاذ البنا كان يعرف يقينا أن من الضباط الأحرار فى الجيش وفى البوليس ، من كان ذا صلة وثيقة بجماعة الاخوان فى نظامهم الخاص وفى محيطهم العام ، وكان الأخ **جمال عبد الناصر** فى مقدمة أولئك الضباط الذين أهمتهم أحوال الشعب المصرى المتغيرة كل حين من سيىء إلى أسوأ ، وقد ثبت أنه كان على اتصال بمختلف الحركات التى تنشد الاصلاح كما كان متصلا بالأحزاب السياسية ، وخاصة حزب الوفد ، ومصر الفتاة . ويقول الأخ **حسن العشماوى** : « كان جمال عبد الناصر يتخذ لنفسه معى اسما مستعارا هو « **زغلول عبد القادر** » فإذا أراد أن يتصل بى تليفونيا ، أو أراد أن نلتقى فى أى مكان ذكر هذا الاسم ، وقد اعتاد هذا فى كل هيئة انتمى إليها أو اتصل بها . وقد علمت أنه استفاد كثيرا من تلك الفترة التى كان يحمل فيها اسما حركيا هو « **موريس** » فى خلية شيوعية ، ولابد أنه كان له اسم فى الحركة الوفدية . ولقد تبين لجميع الذين اتصل بهم أو عمل معهم أن من صفات الرجل ، أنه كان يزن كل ما يدور حوله بميزان شخصى ليعرف كيف ينتفع بكل من يتصل بهم فى الهدف الذى حدده لنفسه ، وكان كل ما يبغيه من هذه الاتصالات هو دراسة أبعاد هذه الحركات الفكرية ، وخاصة جانبها السياسى ، حتى يتعرف على بعض تشكيلاتها ، وقد اكتسب ثقتها ، وبهذه الثقة استطاع أن ينتفع من كل هيئة بالقدر الذى يريده ، وعلى الصورة التى ارتآها .

فهذه الصورة التى كان يعرفها الأستاذ البنا عن الضباط المنتسبين إلى

الاخوان ، لم يكن ليعرفها الأستاذ الهضيبى على الرغم من قربه من الأخ منير دله وجماعته ، وهم كانوا يعرفون عن هؤلاء الضباط وحركتهم كل شيء .

ومهما يكن الفرق بين الرجلين حسن البنا ، وحسن الهضيبى أمرا مقررا فى أنفس الاخوان ، فإن ذلك يرجع إلى أن الأستاذ الهضيبى كان شأنه شأن الوارث الذى لم يلق عنتا ، ولم يبذل مجهودا فيما ظفر به ، على حين أن الأستاذ البنا كان لا يكاد يجد للراحة سبيلا فى ليل أو نهار ، ثم هو كان هدفا للنقد والتجريح من رجال السياسة ، ورجال الدين على سواء .

فأما رجال السياسة ، فإنهم كانوا يقيمون عداوتهم له ، وملامتهم إياه على ما كان يقع من أحداث عنيفة تزعج الأمن ، وتثير القلق فى أنفس المواطنين .

وأما رجال الدين ، فقد كانوا يعتبرونه مسئولا عن إقحام الدين فى السياسة على صورة لا يرضاها الدين ، ولا تنتفع بها السياسة .

كان الرجل إذا جلس مجلسا ، أو تحدث حديثا تعرض له أهل السياسة ، وأهل الدين بما يحرجه فيما يتعلق بشئون السياسة وشئون الدين ، ولو قد علم أولئك وهؤلاء أن الامام الشهيد كان يكره ما يكرهون ، وينكر ما ينكرون لتغير نظرهم إليه ، فاستبدلوا بنقدهم له وتجريحهم اياه أسلوبا آخر يقوم على الرثاء له ، والاشفاق عليه . ذلك أن الناس كانوا يحملونه أوزارا لا يد له فيها بل لا علم له بها كما تشير إلى ذلك محاولة نسف محكمة الاستئناف فى باب الخلق بالقاهرة ، إذ كانت هذه المحاولة الحمقاء سبب حرج شديد أخذ على الامام الشهيد منافذ الفكر ، وجعل الدنيا على سعتها أضيق فى عينه من سَمّ الخياط .

ذلك أنه لما سئل عن الذين دبروا هذه المحاولة تبرأ منهم فى بيان وصفهم فيه بأنهم ليسوا اخوانا وليسوا مسلمين . وقد نشرت الصحف هذا البيان على صورة تثير غضب الحليم فسنحت الفرصة بذلك البيان لبعض رجال السياسة والحكم أن يستخدموه ضد الإمام الشهيد ، استخداما دفع بعض اعضاء الجهاز الخاص للكشف عن أسرار هذا النظام وتحركاته ، وعدد من أعضائه .

ولقد اذكر أن الإمام الشهيد رحمه الله كان قد بلغ به الضيق مبلغا سوغ له التفكير فى أن يستبدل باسم جماعة الاخوان اسم « رابطة المصحف » حتى يتخلص بذلك مما لصق بجماعة الاخوان من خلافات وانقسامات وأحداث ، وحتى يتفرغ للتربية التى هى أصل الأصول فى جماعات الاصلاح ذات الاسناد الموثوقة فى تاريخ الإسلام والمسلمين . وقد كان رحمه الله أقدر الذين نعرفهم على التربية ، بما منحه الله تعالى من قوة الشخصية وسمو الروح وشدة الرغبة فى الأخذ عمن كان يعاصرهم

أو يقرأ عنهم من المربين المجاهدين الذين أخلصوا لله دينهم وفروا إليه من شواغل دنياهم . ولم يكن هذا المعنى ليخفى على الأستاذ الهضيبى الذى لا يشك من يتمثل الأحداث فى أنه انما كان يتغيا غاية سلفه العظيم باصراره على حل النظام الخاص ، أو الجهاز السرى ، إيمانا منه بأنه لا سرية فى الدعوة إلى الإسلام ولا خير إلا فى التقيد بالقانون واحترام النظام .

وتلك هى خصيصة ذوى الثقافات القانونية من زعماء الأحزاب ورجال الاصلاح ، وآية ذلك أن الزعيم الخالد سعد زغلول رفض رفضا حاسما ما كان عرضه عليه الزعيم الايرلندى ديفاليرا إذ قاد ذلك الرجل ثورة مسلحة لتخليص بلاده من براثن الاستعمار الانجليزى ، فراى من مصلحة حركته الاستقلالية أن يظاهره الزعيم المصرى سعد زغلول فى إيثار حمل السلاح لتخليص بلاده ايضا من براثن الاستعمار . وقد عرض ديفاليرا على سعد زغلول أن يمده بالسلاح ، وبذلك تلتقى ثورتان مسلحتان على الخلاص من قبضة الانجليز ، ولكن سعدا لم يقبل ذلك الأسلوب لتطبيق حق الشعوب فى تقرير مصيرها .

وفيما كانت الشعوب المستعمرة تتطلع إلى الظفر بحريتها عن طريق حق تقرير المصير ، كان الشباب فى مصر يخضع للعاطفة الثائرة ، ويحتكم إلى الثورة طريقا لنيل الحرية من قاهريه ومستعمريه . وكان مظهر ذلك يتجلى فى معاداة الشعب بجميع طوائفه للقصر الملكى فى شتى أساليبه : سواء فى ذلك أسلوبه فى الاستبداد السياسى ، وأسلوبه فى الاستغلال الاقتصادى ، وأسلوبه فى استعلائه على الشعب واعتباره إياه جماعة من العبيد الذين لا يجوز لهم أن ينظروا إلى أبعد مما يمنحه السيد لعبده وإلا كان متمردا يستحق التأديب .

وآية ذلك ، أن الطلاب فى الجامعات كانوا ينتهزون كل فرصة ، فيذكرون فى خطبهم وأحاديثهم عن أفراد الأسرة المالكة جميعا ما يضع من أقدارهم ويشوه سمعتهم ويظهرهم للناس بمظهر أشر من مظهر المستعمر . وقد أعان على ذلك ، أن كل البيوت التى تنتمى إلى الأسرة المالكة لم تكن اللغة العربية أو المصرية الدارجة وسيلة تفاهم بينهم بل كانت وسيلتهم التفاهم بالتركية أو الفرنسية أو الانجليزية ، فكان الشعب بذلك يعتبرهم شرا من المستعمرين .

وفى هذا الجو المريب الذى تهيمن عليه الكراهية ، وتستبد به الشائعات دُعِىَ الأستاذ الهضيبى لمقابلة الملك فاروق ، ثم صدرت الصحف تعلن إلى الشعب نبأ هذه المقابلة فى عبارات ملتوية تدعو إلى السخرية حينا ، وإلى الاستنكار أحيانا .. وربما تضمنت بعض العبارات النيل من جماعة الاخوان واعتبرتهم جبهة ملكية تقف ضد الشعب ، وتنتصر للقصر ورجال القصر . ولهذا ثار شباب الاخوان فى الجامعة والمدارس الثانوية ، وراحوا يمزقون صور الملك ، ويهتفون هتافات عدائية ضده . ولقد

انعكست هذه البغضاء على الأستاذ الهضيبى بسبب مقابلته الملكية ، ثم بامساكه عن التعرض للحديث إلى الاخوان عما دار فى هذه المقابلة . وفى الوقت نفسه عجز الأستاذ عبد القادر عودة وكيل الاخوان عن معالجة هذا الموقف ، وخاصة ما يتعلق بالنظام الخاص .

وكانت الفوضى والاضطراب فى أحوال الأمة تنعكس على الجماعات ، وفى طليعتها جماعة الأخوان المسلمين ، إذ كان الأستاذ الهضيبى - رحمه الله - يبرم اليوم ما كان قد نقضه بالأمس ، وهو فى ذلك معذورا عذرا لا يخفى على طلاب الحق ورادة الانصاف . ولقد عوتب الرجل ذات يوم على بعض تصرفات سلك سبيلها ، فلما سئل عنها ، أجاب بأن ذلك من حقه الذى نص عليه قانون الاخوان . ولقد أذكر أن مكتب الارشاد كان ضائقا بهذه المقابلة الملكية ضيقا شديدا ، وربما لجأ إلى النكتة المصرية المألوفة لتخف بها مرارة الجد ، فقد اجتمعنا ذات يوم عقب هذه المقابلة فى دار الاخوان ، وكانت العادة أن يتناول المجتمعون شيئا قبل إنعقاد الاجتماع ، فلما جاء الأخ المسئول عن تقديم هذه التحايا ، أخذ يسأل كعادته كل واحد عما يريد ، فطلب بعضهم فنجانا من القهوة ، وطلب آخر كوبا من الشاى ، ولكن الأستاذ صالح عشماوى - الذى لم يعرف بمزاح - قال للأخ المسئول : أرح نفسك يا أخى من تعدد الطلبات والرغبات ، وقدم لكل واحد منا واحد « عيش سرايا » وقد كان الأخ صالح ، وهو يلقى هذه النكتة جادا ، ولم يضحك على حين أن المجلس كله أغرق فى ضحك شديد .

دور الإخوان فى ثورة يوليو

وانتهز هذه السانحة لاقرر هنا ما ذكره أخ موثوق من الاتفاق مع الاخ جمال عبد الناصر على الخطة الأخيرة لتحرك الثورة ، ودور جماعة الإخوان فيها ، والاعمال المطلوبة منهم لحمايتها ، وحماية المرافق العامة ، وحراسة مداخل القاهرة ، وكما اعتاد الإخوان من انهم لا يأتون شيئا إلا إذا علم به المرشد ، تقرر أن يسافر فريق منهم إلى الاسكندرية حيث كان يقيم الأستاذ الهضيبى ليعرفوا رأيه ، وهو بعد صاحب الأمر .

وغادر القاهرة وفد الإخوان إلى الأسكندرية ليعرضوا على الأستاذ الهضيبى امر اتفاقهم مع الاخ جمال عبد الناصر على الخطة الأخيرة لتحرك الجيش ليلة الثورة ، ودور الإخوان المسلمين فيها ، وقيامهم بحمايتها وحماية المرافق العامة ، قال لهم : إنه لا يطمئن إلى الانقلابات العسكرية التى بدأت تسيطر على شعوب المنطقة حيث يقوم ضباط بانقلاب بعد آخر ، ويدفعون البلاد إلى عدم الاستقرار السياسى .

ولا شك فى أن الاستعمار يؤيد هذا الأسلوب من الحكم فى بلاد المنطقة التى نحن جزء منها ، وغايته من ذلك صيانة مصالحه فى هذه البلاد ، ذلك أن الزعماء والمصلحين كانوا قد افلحوا فى حمل شعوبهم على الاعتقاد بأن الاستعمار له عدة صور :

صورة عسكرية تتمثل فى جنود الاحتلال ، وصورة اقتصادية تتمثل فى الأساليب الرأسمالية القائمة على الاستغلال والاستذلال ، وصورة ثقافية تتمثل فى الأخذ بأساليب المستعمر فى تقاليده وعاداته ، ولغته وطرائق تفكيره مع الاستخفاف بما ورثه الشعب المغلوب عن أسلافه من عادات وتقاليد .

وليس يخفى أن الاستعمار العسكرى إنما كان يقوم فى البلاد قيام الحارس الحامى لسائر صور الاستعمار الاقتصادى والثقافى ، كما لا يخفى أن التخلص من الاستعمار العسكرى سهل ميسور ، فى حين أن التخلص من الاستعمار الاقتصادى والثقافى عسير جد عسير لأنه قد استقر فى حياة الناس استقرار العادة الحاكمة ، والهوى الغالب ، فالتخلص من هذا اللون من الاستعمار يكاد يأخذ مكانه فى مجال المستحيلات . ومع أن كلمات الأستاذ الهضيبى كانت واضحة تستمد صدقها مما كان يقع فى سوريا الشقيقة من انقلابات ، إلا أن الإخوة لم يقتنعوا لأنهم كانوا يثقون الثقة كلها بالأخ جمال عبد الناصر ، وقد تم لهم التفاهم معه على كل شىء .

ولقد أذكر أننى كنت فى أثناء تلك الاختلافات بين الإخوان ، شيخا لمعهد المنيا الدينى ، وكنت فى الوقت نفسه مسئولا عن المحاضرات التى تلقى فى المركز العام للإخوان المسلمين بالحلمية بالقاهرة عن الكتاب والسنة ، فكنت أحضر إلى القاهرة يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، فأمكث مع أولادى أربعة أيام ، ثم أعود يوم الجمعة إلى المنيا للقيام بعملى .

وفى يوم الثلاثاء الثانى والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩٥٢ رجعت كعادتى إلى القاهرة ثم ذهبت إلى المركز العام لشهود محاضرة الثلاثاء والتعليق عليها ، وقد رغب إلى الأستاذ المرشد الجديد فى أن أنتهز فرصة التعليق على المحاضرة ، فأذكر ولى العهد الأمير أحمد فؤاد بالثناء عليه والدعاء له ، ولم أكن أدرى ماذا يريد الأستاذ الهضيبى من هذا التوجيه . وقد شغلنى التعليق على المحاضرة عن توجيه الأستاذ المرشد ، فلم أتجاوز الإجابة عن الأسئلة التى كانت تقدم من الحاضرين .

وقد تبين لى بعد ذلك أن الأستاذ الهضيبى كان يعرف الموعد الذى حدده الضباط الأحرار للقيام بثورتهم فى تلك الليلة ، وما كنت أعرف شيئا عن ذلك من قريب أو بعيد . ولذلك انصرفت إلى منزلى فى ضاحية حلوان ، ولم يكن هنالك شىء يستلفت النظر ، أو يثير الاهتمام ، ثم استيقظت على رنين التليفون فجر يوم الأربعاء الثالث

والعشرين من يوليو ١٩٥٢ . وأذكر أن المتحدث فى صبيحة ذلك اليوم كان من اصدقائنا فى ضاحية حلوان ، وقد أخبرنى أن شيئا غير عادى حدث فى القاهرة ، وأن هناك ثورة ضد الملك ، وسألنى هل تعرف شيئا عن ذلك ؟

فأجبته بأننى معنى بشئون المعهد بمدينة المنيا ولا علم لى بشىء .

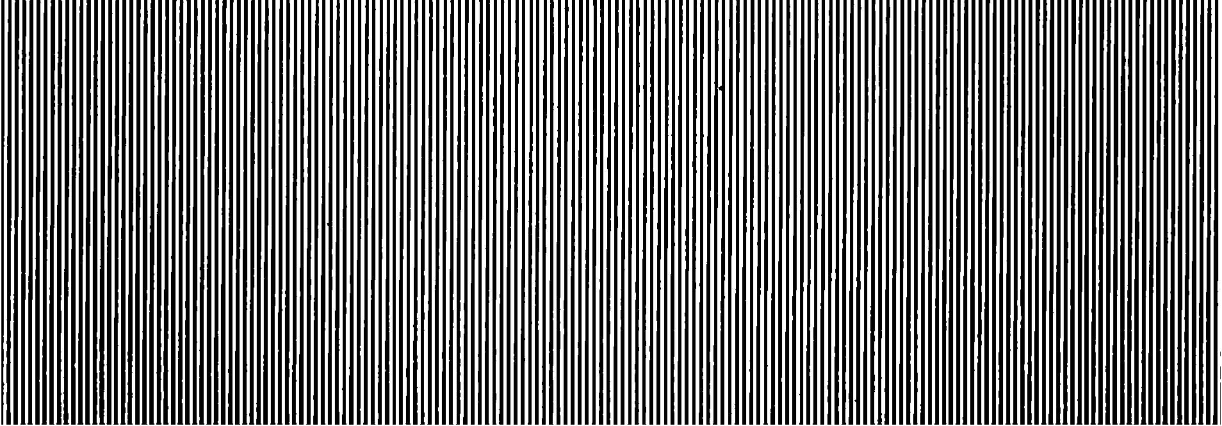
وعند ذلك فقط اكتشفت السر الذى كان يحتفظ به لنفسه الأستاذ المرشد الجديد ، ثم أدركت الحكمة فى توجيهه إياى إلى الدعاء لولى العهد ، فشكرت للرجل حكمته فى أنه كان يريد من تصرفه هذا خيرا لجماعة الاخوان .

وقد بدأت انباء الثورة تتلاحق بعد أن ألقى أنور السادات البيان التاريخى عن الأسباب التى حملت الجيش على القيام بالثورة .



القسم الثالث

مـــع بـشــواريـوليـو



الفصل الخامس

من معهد المنيا للوزارة

أخبرنى الصديق الكريم رشاد مهنا بأن على ماهر الذى أسندت إليه الثورة رياسة الوزارة فور قيامها مباشرة ، كان موضع ثقة الغرب على صعيد لم يكن كذلك عند الضباط الأحرار ، ولذلك آثروا أن يكون رئيس الوزراء رجلا عسكريا له ماض مرموق ، فقبل مجلس الثورة استقالة على ماهر ، وأحل محله اللواء محمد نجيب .

وفى صبيحة يوم الأربعاء السابع من سبتمبر ١٩٥٢ أمر مجلس الثورة باعتقال رجال السياسة وزعماء الأحزاب ، واستودعهم المدرسة الثانوية العسكرية .

وقد أذكر أننى كنت فى صبيحة ذلك اليوم فى طريقى إلى دار الاذاعة لأسجل حديثا دينيا صباحيا ، وكان مقرها آنئذ فى شارع علوى بجوار وزارة الأوقاف بالقاهرة ، فلما هممت بدخول الدار اعترضنى شرطى ومنعنى من الدخول ، وحاولت إقناعه ، فلم يقتنع وأصر على أن أرجع من حيث أتيت ، ثم لم أجد بدا من أن أذهب إلى مكان أستريح فيه فذهبت إلى مقهى الحرية فى ميدان باب اللوق ، وفيما أنا جالس أفكر فى العودة إلى حلوان رأيت أن أتصل عن طريق التليفون بأخى وصديقى السيد رشاد مهنا الذى عين رئيسا لمجلس الوصاية على العرش بعد الثورة ، وما كان أشد عجبى ، حين أخبرنى بأن والد زوجتى قد اتصل به راغبا إليه أن يساعد فى الافراج عن السيد مرتضى المراغى الذى كان وزيرا للداخلية فى الحكومات الحزبية ، والذى اعتقلته الثورة صباح ذلك اليوم واستودعته الثانوية العسكرية مع سائر المعتقلين السياسيين !

وقد ضايقنى أبلغ ضيق أن يتصل والدى زوجتى بصديقى فى منزله عن طريق تليفونه الخاص ، فاتصلت بزوجتى أعاتبها على أنها أعطت والدها رقم تليفون صديقى فى منزله ، وقد كان سرا لا يعرفه إلا القليل من أصدقائه ، وكنت أنا من هذا القليل . إن الأخ الصديق رشاد مهنا كان فى تقديرى وفى الواقع ، رجلا يخشى الله ، ويحرص أشد الحرص على القيام بشعائر الإسلام ، وأداء حقوق الوطن ، وكانت فيه نزعة صوفية جعلته حبيبا إلى كل الذين يعرفونه فى غير تكلف بغيض تضيق به الصدور .

ولم تجد زوجتى أقدر على القيام بعذرها من أن تقول لى أنها لم تستطع أن تكذب على أبيها ، فتزعم أنها لا تعرف رقم التليفون . ومع أن هذا المنطق كان مقبولا معقولا ، ولكنى لم أستطع السيطرة على شعورى بالغضب الشديد ، فقسوت عليها قسوة بالغة ، وأخبرتها أننى فى القاهرة ، وأننى غير عائد إلى حلوان . ولم يكن لى فى القاهرة مكان أذهب إليه وأنا غضبان ، إلا منزل الأخ الصديق الشيخ يوسف عمر المدرس بالأزهر والذى كان يقيم فى منطقة القلعة ، فذهبت إليه كما كنت أذهب إليه من قبل كلما دعا إلى ذلك داع .

وفيما كنت فى دار الصديق ضائق الصدر ، شديد الانفعال ، إذ بالسيد الوالد الشيخ محمد عبد اللطيف دراز ، ومعه الأستاذ موسى صبرى يطرقان باب البيت ليخبرنى موسى صبرى ونحن نهبط السلم أن الرئيس نجيب يريد أن يتحدث إلىّ ، وأن رقم تليفونه مع الأستاذ مصطفى امين فى دار أخبار اليوم ، ثم أخذنا طريقنا إلى دار « الأخبار » وهناك أخبرنى الأستاذ مصطفى أمين بنبأ اختيارى عضوا فى وزارة اللواء محمد نجيب .

وقد سألت الأخوين مصطفى وعلى أمين ، رأيهما فى قبولى الوزارة ، فأجابا فى صراحة بأنها خدمة وطنية ، وأنت رجل لك تاريخ وطنى يقوم على تجارب طويلة ، فلا يسوغ لمثلك أن يتخلى عن واجبه الوطنى ، وقد أذكر أننى قلت : فإذا لم استطع المضى مع الضباط ، فماذا يكون موقفى عند ذلك ؟

فأجابنى الأخ الصديق على أمين قائلا : إنك كنت تكتب سلسلة مقالات فى « الأخبار » كانت موضع إعجاب القراء ، وخاصة سلسلة مقالاتك عن الأزهر ومنطق الثورة ، فإذا لم تنسجم مع الضباط ـ كما تقول ـ فمكانك فى الأخبار محفوظ . وما زلت أذكر أن كثيرا من العاملين فى دار « الأخبار » يعتبروننى إلى اليوم ذا منصب مقدور فى هيئة التحرير .

ثم طلب الأستاذ مصطفى أمين اللواء محمد نجيب فى التليفون وأخبره أننى موجود الآن فى دار أخبار اليوم ، ثم أعطانى سماعة التليفون لأتحدث إلى اللواء نجيب فقال لى : ارجو أن نتعاون على مصلحة الوطن ، ثم طلب منى أن ألقاه فى قصر عابدين فى تمام الساعة السابعة مساء ، وكان ذلك فى السادسة والنصف مساء يوم ٧ سبتمبر سنة ١٩٥٢ .

وقد ذهبت إلى قصر عابدين ومعى موسى صبرى ، وهناك التقيت بأخى فتحى رضوان ، فانتحى بى جانبا فى القاعة التى كنا ننتظر فيها ، وأخبرنى بقصة اختيارى للوزارة ، وراح يعلن إلىّ المنهاج الذى ينبغى أن نتعاون على تنفيذه فى العهد الجديد .

والأستاذ فتحى رضوان من أولئك المواطنين الذين كانوا يعرفون تفاصيل

القضية الوطنية ، ويأتمون فى سلوكهم السياسى بالزعيم مصطفى كامل ، ولم يكن المنهاج الذى أعلنه إلى الأستاذ فتحى رضوان فى تلك الليلة مجهولا عندى ولا عنده إذ كنا ثلاثتنا انا ، والدكتور نور الدين طراف ، والأستاذ فتحى رضوان منذ العشرينات زملاء كفاح طويل من أجل القضية الوطنية .

شرح أسباب قبول الوزارة للمرشد

حلفنا اليمين أمام مجلس الوصاية ، وقد استبقانى فى المكتب السيد رشاد مهنا ، ثم سألنى أين تحب أن تذهب ، فقلت له إن من الحق على لجماعة الاخوان المسلمين أن أزور المرشد العام ، وأخبره بأننى قبلت الوزارة لأسباب كثيرة لم يكن فى وسعى أن اتجاهلها او أغضى عنها ، فقال لى : انتظر قليلا لنخرج سويا لزيارة رجل صالح لعله يدعو لك دعوة طيبة ، او يقدم لك نصيحة نافعة ، فبقيت ثم صحبنى إلى ذلكم الرجل الفاضل الذى يغيب عنى اسمه الآن ، ولعله الأستاذ رافع محمد رافع ، وإن كنت لا ازال أذكر كلماته الطيبة ونصيحته الغالية .

فلما أزمعنا الانصراف من مجلس الرجل رغبت أن يحضروا لى سيارة أجرة لتوصلنى إلى دار المرشد العام ، ولكن الأخ رشاد قال لى لا داعى للسيارة أنا سأوصلك إلى هناك ، ولكن لن أصعد معك ، بل انتظرك فى السيارة حتى تنزل . وفعلا صعدت إلى الدور الأول الذى كان يقيم فيه الأستاذ المرشد ، فلما طرقت الباب قام أحد الأخوان باستقبالى ودعانى إلى حجرة المكتب ليستقبلنى المرشد فى فتور شديد وبوجه عابس لم أعهده من قبل . وقصصت عليه ما حدث شارحا الأسباب التى دعتنى إلى قبول الوزارة ، وفى مقدمة هذه الأسباب تلك الانقسامات الكثيرة التى شاعت فى جو الجماعة ، ثم تصرف بعض الاخوة تصرفا استبداديا تحمل الجماعة تبعاته دون أن يكون لها رأى فيه ولا حجة عليه ، وضربت له امثلة لا تخفى عليه بعضها حدث فى عهد الإمام الشهيد ، وبعضها حدث فى عهده هو نفسه ، وبدلا من أن يُسلم الأستاذ المرشد بما ذكرت له ، وينظر من الجهة التى انظر منها تغير وجهه ، ثم قال : كان من واجبك ان ترجع إلينا ، فأجبته إن القاعدة التى ربينا عليها ودعونا الناس إليها كمبدأ من مبادىء الاخوان ، لا يملك احد أن يخالفها او يخرج عليها ، ذلك إننا كنا نقول لأنفسنا وللناس « إن الله ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن » . ولقد كان الإمام الشهيد يضرب لنا الأمثال الكثيرة التى تسوغ للاخوان أن يطلبوا الحكم ، أو يشتركوا فيه .

ومهما كان مكتب الارشاد يرى غير هذا الرأى، فإننى استصحب رأى حسن

البنا القائم على أن للدعوة اطوارا ثلاثة : هى تغيير العرف ، والطريق الدستورى ، والثورة .

وقد كان الاخوان بجميع تشكيلاتهم يعلمون عن يقين أن من الضباط الأحرار القائمين بالثورة من كان عضوا فى النظام الخاص ، وفى التنظيم العام فأنا إذا قبلت الاشتراك فى الوزارة ، فإننى لا ازال اقوم بحق المنهاج الذى وضعه حسن البنا دستورا لكل منتسب إلى جماعة الاخوان مهما يكن وضعه فى الهيئة التأسيسية ، أو فى مكتب الارشاد .

ومع ذلك أرى أن اقدم لكم استقالتى من الهيئة ، ومن المكتب حتى آخذ الطريق على فتنة يستطيع إشعال نارها الذين يريدون شرًا للاخوان ، ذلك أن أهل الشر هؤلاء قد يتخذون منى وسيلة يجمعون حولها بعض الاخوان ليقاتل بعضهم بعضا ، فإذا استقلت لم تعد لى صفة رسمية يجمعون بها الناس من حولى ، وانا اكره أن اكون كبش نطاح !

ثم قلت ليست معى ورقة ولا قلم ، فقدّم لى المرشد ورقة وقلما ، فكتبت استقالتى من الجمعية التأسيسية ، ومكتب الارشاد ، ومن جميع مؤسسات الاخوان فى القاهرة والاقاليم .

وغنى عن البيان أن الرجل الذى قضى معظم عمره مع الامام الشهيد حسن البنا فى سائر تصرفاته يستحيل أن يتصوره الناس ، أو يتصور نفسه قد انفصل عن الجماعة بعقله أو بعاطفته بمجرد ورقة كتبها . فقد ظللت إلى اليوم ، وإلى أن ألقى الله تعالى وثيق الصلة بحسن البنا الذى كان يحوطنى منذ أكثر من خمسين عاما بما يحوط به الوالد ولده .

وبعد أن انتهى هذا اللقاء الأليم ، ودعنى الرجل إلى باب مسكنه . فإذا السيد رشاد مهنا لا يزال ينتظرنى فى سيارته الخاصة التى كان يقودها بنفسه ، وقد قصصت عليه كل ما حدث فرحب به واثنى على حسن تصرفى مع المرشد ، ثم عرض علىّ أن يذهب بى إلى حلوان فرفضت مكتفيا بأن يوصلنى الى محطة باب اللوق لأستقل القطار الى حلوان ، ولكن سَخَّر الله لى أخا كريما هو المستشار نصر الدين الفار الذى دعانى إلى سيارته فصحبته إلى حلوان .

وقد دهشت حين وصلت إلى منزلى فى حلوان عند منتصف الليل لتخبرنى زوجتى أن القيادة منذ الساعة الواحدة ظهرا كانت تسأل عنى ، وأن التليفون لم يكف عن الرنين حتى تحدث اللواء نجيب ، فذكر أن فى الطريق إلى منزلى سيارة جيب فيها عدد من ضباط وجنود البوليس الحربى وأن هذه السيارة سوف تظل أمام البيت حتى يحضر الأستاذ الباقورى .

وكان طبيعيا أن يتبادر إلى ذهن زوجتى وأولادى أن الأمر أمر اعتقال كما تعوّدت ذلك منذ أمد بعيد . ولذلك سارعت إلى التليفون فاتصلت بالمعهد فى مدينة المنيا ، وبدار العمدة فى باقور ـ بلدتى فى الصعيد ـ ثم بجميع الذين كانت لى بهم صلة إما تحذيرا لى من الحضور حتى لا أعتقل ، وإما استعجالا لحضورى حتى يختفى البوليس الحربى وسيارة الجيب من حديقة الدار ، فينصرف الشعب الذى اجتمع على هذا المنظر غير المألوف . وبعد فترة طويلة ثقيلة اتصلت بمكتب والدها فى إدارة الأزهر وطلبت إليه أن يسأل عنى فى منزل الشيخ يوسف عمر ، وفى هذه الأثناء دخل على الوالد فى مكتبه الأستاذ موسى صبرى الذى كان يبحث عنى أيضا ، فذهبا معا إلى منزل صديقى فى القلعة فوجدانى هناك ، وأخبرا زوجتى بأننى فى القاهرة ، وأننى فى الطريق إلى أخبار اليوم ، وبهذا انصرفت سيارة الجيب من حيث أتت .

على أن مما لا شك فيه ، أن الأستاذ الهضيبى لم يكن يخفى عليه شىء مما حدث فى أثناء تأليف الوزارة ، فإن الأخ منير وجماعته من أصحاب الصلة الوثيقة بالأستاذ الهضيبى ، كانوا يعلمون ما لم أكن أعلم ، ولابد أنهم أخبروا به المرشد ، وإلا فمن غير المعقول أن يتصل الأخ جمال عبد الناصر بالأخ حسن العشماوى طالبا إليه أن يرشح له من يشترك فى الوزارة من الإخوان ثم لا يخبر بذلك المرشد .

ومن أجل ذلك كان من الغرابة بمكان أن يتجهمنى المرشد ، وأن يرحب بقبول استقالتى ، وكأنه يرى أننى كنت أعلم ما حدث ، أو أننى لم أكن متهافتا على الاشتراك فى الوزارة . والذى لا يحتاج إلى مزيد بيان ، أننى لم أكن أعرف من ذلك شيئا ، ولو أننى علمت ما تركت زوجتى حائرة تسأل عنى كل من تظن أنه يعلم عنى شيئا ، وفى المقدمة المرشد نفسه الذى سألته عنى ، فأجابها بأنه لم يرنى ، ولا يعرف عنى شيئا منذ أمد بعيد .

شــهادة المسمارى للتــاريخ

وأبادر إلى الاستشهاد فى هذا المقام بأخ كريم هو الأستاذ محمد المسمارى المحامى ، وكان يعمل مع الأخ حسن العشماوى فى مكتب واحد للمحاماة ، فذلك حيث قال ما أوثر أن أدونه هنا بنصه : لقد شهدت حديثا بين الأخ جمال عبد الناصر والأخ حسن العشماوى ، وقد كان يتردد فى حديثهما اسم الأخ أحمد حسن الباقورى ، فقد قال جمال عبد الناصر إن الإخوان « شوية » مشايخ ليس فيهم من يصلح للوزارة ، فأجابه الأخ حسن العشماوى قائلا : « إن فى تنظيم الإخوان شيخا أحسن من كل المرشحين للوزارة ، فسأله عبد الناصر عن هذا الشيخ ، فقال له إنه الشيخ أحمد حسن الباقورى ، فقال له عبد الناصر ، إننى أعتقد ذلك ـ وبذلك تم ترشيحه للوزارة .

والذى أثار الجدل ليس هو ترشيح الباقورى للوزارة ، بل قبوله الوزارة فعلا دون الرجوع إلى مكتب الإرشاد الذى هو عضو فيه . فهكذا ذكر الأخ عبد الحفيظ الصيفى المحامى فى مذكراته نقلا عن مذكرات الأخ حسن العشماوى .

وأوضح من هذه الكلمات ما ذكره الرئيس محمد نجيب فى كتابه « كنت رئيسا لمصر » حيث قال فى صفحة ١٦٧ : كان مجلس قيادة الثورة قد قرر اشتراك الإخوان فى الوزارة ، فاتصل عبد الناصر تليفونيا بحسن العشماوى يدعوه لمقابلته فى إدارة الجيش . وفى هذا اللقاء عرض عبد الناصر عليه ، أن يشترك الإخوان فى الوزارة ، وأن يكون هو - أعنى حسن العشماوى - وزيرا منهم ، ورغم أن حسن العشماوى ترك مسألة اشتراك الإخوان فى الوزارة إلى مكتب الإرشاد ، إلا أنه كان موافقا على هذا الخطوة كما علمت بعد ذلك حتى يكون الإخوان على بينة من سير الأمور ، وحتى لا يتركوا الثورة فريسة لمن يأخذها منهم . وفى هذا اللقاء الذى حضره معهما يوسف صديق ; اتصل جمال عبد الناصر تليفونيا بالمرشد العام ، وطلب منه ترشيح ثلاثة للوزارة ، ورشح الهضيبى بصفته الشخصية منير دله ، وحسن العشماوى ، ومحمود أبو السعود . وقبل أن ينهى عبد الناصر المكالمة اشتبك يوسف صديق مع حسن العشماوى فى معركة كلامية ، وشكك فى كفاءة الإخوان المسلمين إذا ما دخل بعضهم الوزارة ، فاستدل حسن العشماوى بالشيخ الباقورى على أن فى الإخوان كفايات تستحق دخول الوزارة ، وينتفع بهم فيها ، فالتقط عبد الناصر اسم الباقورى وتحمس له ، واعتبره مرشحا اساسيا إلا أن الهضيبى رفض البت فى هذه المسألة ، وأحالها إلى مكتب الإرشاد الذى رفض الاشتراك فى الوزارة ، وأكد أن اشتراك الإخوان فى الوزارة يضعف الإخوان ويقوى الثورة ، لأنه يعطيها لونا إسلاميا يبرز مكانتها وسط الجماهير المصرية المسلمة ، ويمنحها ولاء الإخوان فى كل مكان . ثم اتصل عبد الناصر مرة أخرى بالمرشد العام ليسأله عن قرار مكتب الإرشاد فقال له : إن مكتب الإرشاد قرر عدم الاشتراك فى الوزارة ، فأجابه عبد الناصر لكننا أخطرنا الباقورى بموافقتك ، وطلبنا منه أن يلتقى بالوزارة فى الساعة السابعة لحلف اليمين الدستورية . فرد الهضيبى : أنا أرشح لك بعض أصدقاء الإخوان للاشتراك فى الوزارة ، ثم ذكر له اسم احمد حسنى الذى عين وزيرا للعدل ، ومحمد كمال الديب الذى كان محافظا للاسكندرية ، وفى اليوم التالى صدر قرار من مكتب الإرشاد بفصل الشيخ الباقورى من هيئة الإخوان بعد أن أصبح وزيرا بساعات قليلة ، وبذلك بدأ الصدام بين الإخوان والثورة .

« تلك هى الحقيقة سافرة فيما ذكر الأخ محمد المسمارى المحامى ، والرئيس محمد نجيب » .

الهضيبى يزورنى فى الوزارة

لقد كان الأستاذ الهضيبى مغتبطا أشد الاغتباط باستقالتى من الإخوان ، ومع ذلك زارنى فى مكتبى بالوزارة ومعه بعض الإخوة ، ورغبوا إلى فى أن أصلح بينهم وبين الأخ جمال عبد الناصر ، إذ كان هذا الصلح مصلحة لهم أى للإخوان ، ومصلحة للثورة على سواء ، وقد بذلت فى سبيل ذلك كل ما أستطيع دون أن أبلغ فى ذلك ما كنت اريد ، لأن الذى كان يرضى الإخوان لم يكن ليرضى الثوار ، وما كان يرضى الثوار لم يكن ليرضى الإخوان ، فسار كل من الفريقين فى الطريق التى آثرها سبيلا إلى إرضاء عقيدته ، أو إلى تحقيق مصلحته .

وما زال طلب الحكم وسيلة فى المجتمع الإنسانى إلى إثارة الفتن التى ينفخ فى نارها الحرص على الجاه والإبقاء على السلطان ، ويبدو ذلك على غاية الوضوح لكل من يتدبر تاريخ أمتنا الإسلامية فيراها يأتمر بعضها ببعض ، ويقتل بعضها بعضا على الرغم مما يعرفه أبناء الأمة من التحذير من كل ما يثير فتنة أو يسفك دما ، أو يفضى بالأخوة الإسلامية إلى استحلال ما حرم الله ، والاحتكام إلى غير ما قضى رسول الله ﷺ بين المسلمين .

فى اليوم التاسع من سبتمبر ١٩٥٢ م دعى مجلس الوزراء الجديد إلى الاجتماع للنظر فى قانون الإصلاح الزراعى وقوانين الأوقاف .

وقد انتهزت أول فرصة سنحت استعين فيها برأى رجل ذى تجربة وصاحب دين ، فذهبت قبل اجتماع المجلس لزيارة الأستاذ محمد على علوبة فى داره بمصر الجديدة نزولا على حكم التقاليد الأزهرية التى ورّثها الأسلاف للأخلاف ، وهى تقضى على كل من يخلف كبيرا فى منصبه أن يحرص على اللقاء به لعله أن ينتفع برأى له ، أو يظفر بتوجيه منه .

وقد كنت شهدت معركة بين أنصار الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية ومحمد على علوبة باشا وزير الأوقاف ، وأنا يومئذ طالب فى الدراسات العليا بالأزهر .

ولست أنسى أننى فى إحدى هذه المناظرات فى جمعية الهداية الإسلامية حول الوقف الأهلى ، أبديت إعجابا بما سمعت من الأستاذ علوبة باشا فى هذا الشأن ومطالبته بحل هذا الوقف ، فأغضب إعجابى به طائفة المتعصبين عليه حتى اشتبكنا فى معركة كنت فيها فردا أمام جماعة لا يعصمها دين ولا يردعها قانون .

فخرجت من هذه المعركة شاكرا لله جميل لطفه بى فى حمايته إياى من عصبية حمقاء تؤثر قوة الأيدى على قوة الحجة ونصاعة البرهان .

الإصلاح الزراعى وحل الأوقاف الأهلية

لما زرت علوبة باشا عرفت منه ما لم أكن أعرف من ضروب الفساد التى كانت تتفشى فى الأوقاف ، وقد ضممت إلى ذلك فتوى لشيخ الإسلام الإمام محمد بن عبد الوهاب رضى الله عنه - وفيها يقول : « إن الوقف لا يكون إلا على الخيرات لأنه صدقة خالصة ، ثم إن الوقف الأهلى باطل لا أصل له فى الشريعة ولا سند له من دليل صحيح » .

وعن ذلك ذهبت إلى اجتماع مجلس الوزراء ، وهناك عرض قانون الإصلاح الزراعى على أساس تحديد الملكية بحيث لا تزيد ما تملكه الأسرة عن مائة فدان ، وقد كان الأستاذ المرشد يقترح خمسمائة فدان للأسرة ، وكان هناك رأى آخر يرفض التحديد ويلجأ إلى الضرائب التصاعدية . وأذكر أننى اقترحت مائة فدان للأولاد بحيث تملك الأسرة وأولادها مائتى فدان ، فرأى المعتدلون من الثوار أن هذا الرأى يرضى جميع الأطراف . ثم عرض قانون حل الأوقاف الأهلية ، وكان من العدل والمصلحة معا أن تسترد التى كانت النظارة عليها للخاصة الملكية ، وهى حوالى مائة ألف فدان .

ولا يسع المنصف أن يترك هذا الموضوع دون الإشارة إلى الأمثلة السيئة التى كانت تقترن فى أذهان المواطنين بالأوقاف ، والمتعاملين معها .

فمن تلك الأمثلة ، وقف على جمعية كونتها زوجة لورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر ، وقد وضع الواقف توفيق نسيم باشا تحت تصرف تلك الجمعية ممتلكات له فى شارع الهرم ، وفى بلدة طناح عند المنصورة ، وقد أسندت رئيسة الجمعية إدارة الوقف فى شارع الهرم إلى سيدتين إنجليزيتين .

وقد كان ذلك بلا ريب عملا شاذا باطلا لا ترضاه وطنية ، ولا يسمح به قانون ، فاسترجعت الوزارة هذا الوقف إلى نظرها ، واحتكمت فيه إلى الشريعة والقانون .

ومن تلك الأمثلة ، تأجير أطيان الأوقاف فى مزادات علنية - صورية طبعا - إلى بعض ذوى النفوذ من المصريين ، وقد استأجر بعض هؤلاء السادة من الوزارة آلاف الأفدنة ، ثم أجرها لصغار الفلاحين بأضعاف ما استأجرها به من وزارة الأوقاف .

وفى أحيان كثيرة كان المستأجر من الوزارة يرهق المستأجرين منه إرهاقا يستنفد كل قواهم فى فلح الأرض وزراعتها وتنقيتها من كل ما يضر بثمارها ، أو ينتقص من غلاتها ثم لا يعطيهم إلا القليل الذى لا يقوم ببعض حاجاتهم الضرورية ، فإذا الفلاح وأهله وجميع ما يملكه ملك للمستأجر من الوزارة .

وقد ألغيت بحمد الله هذه الصورة ، فأصبحت الصلة بين الوزارة وصغار الفلاحين دون وسيط . ومن تلك الأمثلة البغيضة ، ما كان يتحدث به طبيب بيطرى موثوق اسمه الدكتور محمد عبد الشافى ، فيقول : إنه إذا نفق حيوان بقرة أو بعيرا فى أحد التفاتيش الخاضعة لنظارة الخاصة ، فإن على ناظر التفتيش أن يوزع ثمن هذا الحيوان النافق على المستأجرين ، فيدفع كل واحد منهم نصيبا معلوما يفرضه الناظر كيف يشاء حتى لا تخسر الخاصة الحيوان النافق ، وقد زال كل هذا البلاء عندما استردت الوزارة ما كانت قد وضعته تحت يدها من أطيان الأوقاف .

ومن أسوأ الأمثلة ذات الدلالة على سقوط المروءة ، وانعدام الشعور بشرف المواطنة ، ما كانت تلجأ إليه وزارة الأوقاف من شراء دم الفقراء لقاء قروش معدودات لا تسمن ولا تغنى من جوع ، ذلك أن الوزارة كانت لها مستشفيات وكان المرضى فى هذه المستشفيات يعالجون مجانا إمضاء لرغبة الواقفين على جهات البر ، وكانت الوزارة تشترى الدم من بعض المواطنين المحتاجين للعلاج .

وقد كان من فضل الله علىّ أننى ألغيت هذا النظام الخسيس ، فأمرت ببحث حالات كل من يبيع دمه ، فإذا ثبت حاجته أعانته الوزارة براتب شهرى من أموال البر .

وقد كان بين المؤذنين ، وبين الوزارة خلاف ، وقضايا كانت الوزارة تستند إلى قوتها فى مواجهة أولئك الضعاف من خلق الله ، وقد تفضل الله على فى أوائل عهدى بالوزارة فوقفت إلى جانب المؤذنين ضد الوزارة .

درجات لأئمة المساجد

وكان يقف معى ويأخذ بوجهة نظرى الإخوة : حسين الشافعى ، وجمال سالم ، وكمال الدين حسين . وإلى جانب هذه القضية ، كانت هناك قضية أخرى لأئمة المساجد فقد كان احدهم يخرج بعد إحالته للتقاعد ، وليس له الحق فى معاش ، ولكنه يتقاضى مكافأة زهيدة لا تلبث أن تزول ، وقد كان من فضل الله علىّ أننى سعيت إلى وضع درجات لهم فى الميزانية ، فأصبحوا كسائر الموظفين لهم حقوق فى العلاوات والترقيات والمعاشات .

وقد استعنت فى هذه الخطوة العادلة بالأخ البهى الخولى الذى عينته مراقبا للشئون الدينية فى الوزارة ، وكذلك الشيخ محمد الغزالى ، والأخ الشيخ سيد سابق فى كل ما يتعلق بشئون الدعوة والثقافة ، فأصبح من حق أئمة المساجد أن يظفروا بالدرجة الأولى التى لم يكن يظفر بها إلا القليل من الموظفين فى دواوين الحكومة .

حماية الإخوان من قانون تنظيم الأحزاب

وليس فى حاجة إلى مزيد بيان أن هذه التصرفات التى أشرت إليها ، وتقويم العوج فيها ، إنما هى تصرفات يرضاها الإسلام ، ويعتز بها المسلم أمام الذين يرون المنصب الوزارى لا يزيد على أنه خضوع لبريق الجاه ، أو سعى إلى نفوذ السلطان ، وهو ما كنت أجاهر به الذين يأخذون علىّ قبولى التعاون مع الثوار . على أن الأمر لم يقف عند هذه الغاية بل تجاوزها إلى حماية الإخوان من الخضوع لقانون تنظيم الأحزاب السياسية الذى صدر فى التاسع من سبتمبر ١٩٥٢ ، ذلك أن الثورة طلبت من الأحزاب أن تنظم نفسها ، ولكننى شعرت أن من الحق علىّ لجماعة الإخوان ألا ينطبق عليها قانون الأحزاب لأنها ليست حزبا ، ولذلك رغبت إلى السيد جمال عبد الناصر ـ تحقيقا لرغبة المرشد الهضيبى ـ أن يستخدم نفوذه لإبعاد الجماعة عن نطاق قانون الأحزاب ، وقد استجاب الرجل هذا الرجاء فطلب من الرئيس نجيب عدم اعتبار الإخوان حزبا قائلا له : إن الإخوان كانوا من أكبر أعوان الثورة قبل قيامها ، فليس يصح أن يطبق عليهم قانون الأحزاب ، ولكن الرئيس نجيبا رفض طلب عبد الناصر بحجة أن القوى السياسية يجب أن تكون سواء أمام القانون . فلما يئس عبد الناصر من الرئيس نجيب ؛ اتصل بسليمان حافظ الذى وجد له مخرجا قانونيا مناسبا بعد أن قام عبد الناصر والمرشد الهضيبى بزيارة سليمان حافظ فى مكتبه بوزارة الداخلية ، كما قرر ذلك الرئيس نجيب فى مذكراته . وقد كانت نجاة الجماعة من قانون الأحزاب سببا فى راحة نفسية شاملة أعانتنى على المضى فيما كنت قد أخذت به نفسى من زيارة الأقاليم كل يوم جمعة ، خطيبا فى مسجد أو زائرا لكنيسة ، وقد كانت الأحزاب على اختلاف مناهجها ومبادئها تضيق بالثورة والثوار .

ولقد أذكر أننى زرت ذات يوم المعهد الدينى فى مدينة المنصورة ، فإذا بالأخ الدكتور خميس حميدة ، وهو يومئذ من أبرز أعضاء جماعة الإخوان يقول بأعلى صوته ، وهو إلى جانبى : « الباقورى هو المسئول عن الإسلام » . وراح طلاب المعهد يرددون وراءه هذه الكلمات على صورة تدعو إلى العجب !!

ولم يكن الدافع إلى هذه الهتافات ظاهرا للناس ، إذ كان مرتبطا بقصة خلاصتها أن صحافة العالم ، وخاصة صحافة الغرب كانت تطلق لقب « الديكتاتور العادل » على الرئيس نجيب ، وقد خيل إلى تلك الصحافة أن كمال اتاتورك قدوة لزعيم ثورة يوليو ، وقد أسرفت تلك الصحافة فى الحديث عن الديكتاتور العادل حتى إن كثيرا من شباب مصر كان يردد كلمة ينسبونها للأستاذ الإمام محمد عبده تقول : « لا يُصلح الشرق إلا مستبد عادل » . والذين يعرفون أساليب الاستعمار يرونه يقول الكلمة لا يصف بها أمرا واقعا ، ولكنه يُوجهه بها إلى ما ينبغى أن يكون . وغير



□ الباقورى يخطب فى الكنائس

خفى على أهل المعرفة أن الصحافة المستنيرة لا تعقل أن يلتقى العدل مع الاستبداد إلا إذا التقى الليل مع النهار فى آن واحد .

وكان دستور البلاد لسنة ١٩٢٣ قد الغته الثورة على لسان رئيسها نجيب فى العاشر من ديسمبر ١٩٥٢ ، وكان لزاما على الثورة أن تمكن للهدوء وللاستقرار ، فأعلنت فترة انتقال مدتها ثلاث سنوات يتمكن فيها القائمون على شئون الحكم من اختيار أسس دستور سليم ، فانطلق الشعب بجميع هيئاته : **الوفد ، والإخوان والاشتراكيون وغير أولئك وهؤلاء** ، ثم راحوا يقللون من أهمية الثورة ويشككون فى خطواتها ، ويدعون الناس فى كل مكان إلى اعتبار الثورة ، ثورة الشعب وليست ثورة الجيش ، ومن أجل ذلك شكل الثوار لجنة من خمسين عضوا تنظر فى دستور يصون للبلاد حياة كريمة تقوم على أساس من الحرية الشاملة والعدالة الكاملة والسلام الاجتماعى بين المواطنين .

وقد أذكر ـ لله ثم للتاريخ ـ أن الأخ عبد الناصر قال لى ذات يوم : « إن المظاهرات فى كل مكان فى الجامعة ، وفى مختلف تجمعات الشعب ، والخلاف على

الدستور ليس له غاية ينتهى إليها حتى لقد فكرت أن استبدل باللجان الدستورية « المجلس الوطنى الكبير » . وهو يعنى بالمجلس الوطنى الكبير ما كان قد تغياه كمال أتاتورك من جعل الدولة علمانية تضع الدين بمنأى عن السياسة ، إذ كان الدين أمرا وجدانيا بين العبد وربه لا يسوغ فيه الخروج عما يتوارثه الأخلاف عن الأسلاف ، على حين أن السياسة مصالح دنيوية يتقيد أهلها بما يرونه المصلحة لشعوبهم ، فيدورون معها حيث دارت أحرارا غير مقيدين .

وربما زعم أتاتورك وأمثاله ، أن العالم الغربى لم تتهيأ له وسائل التقدم والارتقاء إلا بعد أن أخذوا بهذه الفلسفة التى تكذبها وقائع التاريخ ، ذلك أن الدول الأوروبية لم تتجهم دينها ، ولا تخلت عنه فى حال . وآية ذلك أن فرنسا لا تفتأ تظهر فى كل فرصة بمظهر دينى مسيحى لا سبيل إلى المغالطة فيه ، لأنه فوق المغالطة يتراءى ذلك لكل ناظر حين يرى حكومة فرنسا تستدعى رئيس أساقفة باريس ليصلى على جنازة المارشال فوش فى وزارة الخارجية ، وكذلك الأمة الإنجليزية المتدينة تدينا تشير إليه المناقشات التى ثارت فى مجلس اللوردات حول استحالة الخبز والخمر إلى جسد السيد المسيح ودمه عن طريق تقديس القسيس ، وصلاته على الخبز والخمر .

وبيان ذلك أن الكنيسة الكاثوليكية والمحافظين من الكنيسة الانجيلية المنشقة عنها يقولون : كلما قدس الكاهن على الخبز والخمر ولفظ الجملة التى قالها السيد المسيح ، فإن الخبز ينقلب إلى الجسد الحقيقى للسيد المسيح ، كما تنقلب الخمر إلى الدم الحقيقى للسيد المسيح . وإلى جانب هذا المذهب مذهب آخر يقول : إن الاستحالة الحقيقية مستحيلة بذاتها ، ومخالفة للعلم والفن ، وأن الخبز لا يمكن أن يتحول إلى جسد المسيح ولا الخمر إلى دمه بالمعنى الحقيقى . ذلك أنه يقدس كل يوم ملايين من القسسين ، فكم مليونا يقع هذا التحول كل يوم لجسد واحد ؟ ولكن المراد أنه إذا حصل التقديس ، فإن الناس يتذكرون جسد المسيح تحت صورة الخبز والخمر ، فهذا الكلام من قبيل الرموز الكنائية ، وليس من قبيل الحقائق .

وإذن فالقول بأن أوروبا تخلت عن مسيحيتها ، لا يزيد على أنه أغلوطة روجها مصطفى كمال أتاتورك رئيس جمهورية تركيا لغرض فى نفسه يتغيا به سلخ الأمة التركية تدريجيا من العقيدة الإسلامية وما يتصل بها .

فهذه المعانى كلها كانت تدور فى رأسى حين سمعت كلمة السيد عبد الناصر : « إننى أريد أن استبدل باللجان الدستورية المجلس الوطنى الكبير » . فقلت له فى غير تمهل ، وعلى غير تعقل وتحفظ : إنك إن فعلت ذلك ، فقدت وجودك كله : ماضيك وحاضرك ومستقبلك ، ثم وضعت شعبك المصرى الذى إئتمنك على مقدساته موضع العبد المسخر للسيد المطاع الذى يتحكم فى عبده كما يشاء حيث يشاء متى يشاء . وواضح أننى قلت هذه الكلمات ، وأنا مستعد لاحتمال كل تبعاتها فى مواجهة إنسان

لا يعرف إلا لغة القوة ، ولا يعنيه إلا جاه الحكم ، فلعل هذا أو شيئا منه كان قد بلغ الإخوان ، وحمل الدكتور خميس على أن يلقانى فى المعهد الدينى بالمنصورة بهذا الهتاف العجيب : « الباقورى هو المسئول عن الإسلام » .

ومهما يكن الأمر فقد راح الإخوان يتجادلون من حولى بين مؤيد ، ومعارض حيال قبولى المنصب الوزارى فى ثورة يوليو .

وقد أذكر فى هذه المناسبة ما روته جريدة « الأهرام » فى عددها الصادر فى ٥٢/٩/١٣ حيث قال مندوبها للأستاذ محمد البنا شقيق الإمام الشهيد : ما الرأى فى اشتراك الأستاذ الباقورى فى الوزارة ؟ فقال الأستاذ البنا : إن الفترة التى تجتازها البلاد تجعل من الوزارة شيئا آخر غير الذى ألفناه من قبل ، فالوزارة الآن تكليف لا تشريف ، وغرم لا غنم ، وأنا أعتبر مَن يرفضها فى هذه الظروف الدقيقة فارا من الميدان وهاربا من التجنيد لخدمة الوطن . والشيخ الباقورى ـ كرجل من رجال دعوة الإخوان ـ له رسالة ، وأعتقد أن اشتراكه فى الحكم هو الوسيلة الوحيدة ، والطريق القصيرة لأداء هذه الرسالة ، وأعتقد كذلك أن إمامنا الشهيد رضوان الله عليه لو كان معنا فى هذا الوقت لبارك هذه الثورة ، وما منع أحدا من الإخوان الاشتراك فى الحكم ، فالحكم ـ فى نظرنا ـ وسيلة لا غاية . « ويزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » .

ولما سأله المندوب عن سبب استقالة الأستاذ الباقورى من الإخوان ابتسم وقال : لقد أجاب وكيل الإخوان حين سئل عن ذلك بهذه العبارة « إن الأستاذ الباقورى كان دقيقا » . ثم قال الأستاذ محمد البنا : إن الأستاذ الباقورى نفسه أجاب أحد الإخوان حين سأله هل قدمت استقالتك من الإخوان ؟ فقال : وهل يمكن أن يتحلل الإنسان من كيانه ووجوده ؟ .

وعلى الرغم من اختلاف الرأى بين الإخوان مضيت على ما كنت قد رسمته لخير الشعب وخير الإسلام ، فكنت أحرص على إلقاء خطبة الجمعة فى عواصم المديريات والمراكز والقرى فى مختلف أنحاء القطر ، وكان أغلب شباب الإخوان فى كثير من البلاد يحرصون على أن يصاحبونى إلى البلد الذى نشرت الصحف أننى سألقى خطبة الجمعة فيه .

ومن الطرائف التى لا يفوتنى ذكرها فى هذه المناسبة ، أننا اعتزمنا ذات يوم أن نصلى الجمعة فى مسجد فى كفر الشيخ فى شمال الدلتا ، وكان الطريق معطلا يمتنع السير فيه حتى يتم إصلاحه ، وكان يقوم على حراسته عامل من عمال الطرق ، وقد حاول سائق السيارة أن يتجنب الطريق الترابى إلى الطريق الجديد ، ولكن الحارس أبى أن يسمح لنا بالمرور ، فأخبره السائق بأن السيارة سيارة الوزارة وأن الذى يركبها هو الوزير ، وكبار الموظفين فى الوزارة ، ومع ذلك ظل العامل متشبثا برأيه .



□ خطيب الثورة وقف الباقورى فى أوائل ١٩٥٢ يلقى خطبته قبل أن يؤم رجال الثورة للصلاة ويرى فى الصورة محمد نجيب وجمال عبد الناصر وصلاح سالم وحسين الشافعى .

فأعطاه بعض النقود إيمانا منه بأن المال كفيل بفتح الطريق . ولما سمح العامل لنا بالمرور جاء إلىّ وأدى التحية المطلوبة من مثله فى مثل هذه الحال ، ثم أتبع تحيته بكلمة حملتنا على الإغراق فى الضحك ـ ذلك أنه قال جادا غير مازح ـ يا سيادة الوزير هل هناك مانع فى أن تأخذ الحكومة الصغيرة من الحكومة الكبيرة بعض المال ؟

فقد اعتبر الرجل نفسه حكومة صغيرة ، واعتبرنا نحن حكومة كبيرة ، ولم يجد مانعا فى أن تدفع له الحكومة الكبيرة بعض المال . وأذكر أننى طلبت إلى بعض الزملاء أن يستدعيه إلى الوزارة ، وأن يبذل له معونة شهرية ، أو يجد له عملا يليق به فى حرصه على التعليمات وشجاعته فى إبداء رأيه ، واعتباره نفسه حكومة صغيرة .

وقد مضيت على تلك السنة فى تأييد الثورة عن طريق الرحلات فى داخل القطر من الاسكندرية شمالا إلى أسوان جنوبا ، ومن بور سعيد شرقا إلى مطروح غربا . وعلى مثل ذلك كان تصرفى خارج القطر المصرى ، فرحلت إلى السودان شماله وجنوبه حتى إذا كانت سنة ١٩٥٣ ، أبلغنى الأخ الزميل **زكريا محيى الدين** بأن مجلس

قيادة الثورة رأى أن يسند إلى إمارة الحج ، ولما عرض هذا القرار ، اعترض الرئيس محمد نجيب على استخدام كلمة أمير الحج ، واقترح بدلا منها كلمة رئيس بعثة الحج . وأذكر أننى ناقشت الرئيس فى هذه الجلسة مناقشة طويلة تستند إلى أن هذا اللقب لقب قديم منذ صدر الإسلام ، وأن فى مصر أوقافا على الحرمين اشترط واقفوها أن يحمل ريعها إلى الأراضى الحجازية أمراء الحج ، فهذا اللقب إذن ليس من الألقاب التى تدخل فى سلطان القانون الذى ألغيت به الألقاب ، وقد وافق المجلس على استبقاء لقب أمير الحج ، فكنت بذلك آخر أمير حج ، وكان كل من خرج بعد ذلك على رأس بعثة الحجاج يخرج بلقب رئيس بعثة الحج .

لقاء مع جلالة الملك عبد العزيز والأمير فيصل

معروف أن كسوة الكعبة كانت تنسج بأيدى موظفين فى الأوقاف ، وكذلك كسوة الضريح الشريف فى المدينة ، وكان يطلق على الكسوتين كلمة « محمل » ، وكان الجمل الذى يحمل الكسوتين يعرض على الأمراء والوزراء فى صحراء العباسية ، وكان من المتعارف عليه أن يسلم زمام الجمل الذى يحمل الكسوة إلى الحاضرين فيأخذه كل واحد ويقبله ، وبذلك ينتهى الاحتفال بعرض المحمل على هذه الصورة . وأذكر أن بعض المواطنين شكا إلى أن أصحاب الجاه هم وحدهم الذين يستمتعون برؤية الكسوة والتبرك بها ، فرأيت أن تعرض الكسوة فى مسجد سيدنا الحسين حتى يستطيع كل مسلم أن يشاهدها ويتبرك بها كما يشاء . وكذلك سافرت مع الكسوة إلى الأرض المقدسة ، وكان العرف أن يحمل أمير الحج كتابا من رئيس الدولة إلى جلالة الملك عبد العزيز وحين هبطنا من الباخرة مع أعضاء البعثة ذهبنا لمقابلة جلالة الملك الذى كان ذلك اليوم فى جدة ، فذهبنا فى ملابس الإحرام ، ولم يكن من اللائق أن أرفع إلى جلالته كتاب رئيس الدولة ، فلما فرغنا من شعائر العمرة حددوا لنا لقاء لجلالته فى الرياض ، وكان يرافقنا مندوب برتبة لواء من الحكومة السعودية اسمه اللواء حمدى ، وقد صحبنا فى الطائرة إلى الرياض .

وفيما نحن فى الطريق إلى تلك المقابلة لفتنى المرافق إلى شاب قسيم وسيم قائلا لى : هذا هو سمو الأمير فيصل ، ولم أكن قد رأيته من قبل عن قرب ، فلما اقتربنا منه تقدم إلينا وصافحنا ، ثم أخذ بيدى مبالغة فى التكريم ، وقال لى : إن لى اليك كلمة هى أن والدى متعب وهو يجلس على كرسيه يستمع إلى درس بعد العصر كل يوم ، فاذا دخلتم اليه فلم يقم لكم ، فلا يكونن فى صدرك حرج . وكان الرجل وهو يقول هذه الكلمات شديد الانفعال ـ ثم دخلنا على الملك ، وبدلا من أن أصافحه مصافحة عادية ، انحنيت على يده احتراما ، وأنا أتمثل انفعال الأمير فيصل ، وهو يتحدث عن والده .



□ ربطت صداقة خاصة بين الامير فيصل (منذ ان كان وليا للعهد)
وبين الباقورى . قامت على الاعجاب والتقدير المتبادلين .

ومع أن هذا كان أول لقاء بين الأمير وبينى ، فإننى أحسست وكأننى أعرفه منذ عهد بعيد ، وظلت صلتى به وثيقة قائمة على المودة والمناصحة فى كل موضع لقيته فيه ، واع كل أمر عرضنا له .

ولأول ما أخبرنى الأخ زكريا محيى الدين بقرار تعيينى أميرا للحج ، وقع فى نفس أن وراء هذا القرار معنى مقصودا ، هو أن بعض الإخوان المسلمين كانوا ينتهزون مواسم الحج فى عرفة فيخطب خطباؤهم داعين للحجاج إلى اعتناق دعوة الاخوان المسلمين ، فأراد الثوار أن يضعونى هذا الموضع الحرج ، فإما أن أعارض خطباء الاخوان انتصارا للثورة باعتبارى وزيرا ، وإما أن أوافق دعاة الاخوان فى موقف لا يجوز للمسلم أن يشتغل فيه إلا بتمثل عبوديته لله رب العالمين وحده لا شريك له .

قادة الثورة يحجون لمراقبة نجيب

وفى هذا العام نفسه قرر الرئيس نجيب أن يحج ، ولما شعر اخوانه بذلك قرروا أن يشاركوه ، فجاءوا معه للحج أيضا فى ذلك العام وهم : جمال عبد الناصر ، وحسين الشافعى ، وصلاح سالم ، حتى يراقبوا الكلمات والخطب التى يقولها لأنه كان حريصا اشد الحرص على أن يكون هو المتكلم عن الثورة باعتباره مفجرها ، ورافع اعلامها فى كل مكان يذهب اليه ، أو يلتقى بالناس فيه .

وكان مما يؤخذ عليه حرصه الشديد على التماس موضع للنقد فى زميل من زملائه ، أو مرؤوس من مرءوسيه .

والدليل على ذلك ، اننى فى « منى » دعوته وبعض كبار المصريين لتناول طعام الافطار لنذهب بعد ذلك إلى تهنئة الملك بالعيد ، وما كان أشد عجبى من الرجل وهو يستنكر الاسراف فى أموال الأوقاف بتقديم هذا الأفطار ، مع أنه لم يكن طعاما غير عادى ، وكنت قد إتفقت مع فندق مصر على تقديمه .

وقد ضايق كلام الرئيس نجيب زملاءه من الثوار ، واعتبروا أن هذا التصرف لا يليق بمثله فى مثل هذا الموقف . ولم يكن ضيق زملائه به ناشئا عن سبب واحد ، ذلك أنه كان قد قسا قسوة بالغة فى نقد زملائه نقدا بلغ غاية التجريح ، كما ذكر ذلك هو نفسه فى كتابه « كنت رئيسا لمصر » . وقد أضيف إلى ذلك أنه نشر له كتاب بعنوان « مصير مصر » . وقد أهدى هذا الكتاب إلى السيد نورى السعيد رئيس وزراء العراق ، والذى كان بينه وبين الثوار خصومة نتيجة انضواء نورى السعيد فى حلف بغداد مع بريطانيا ، وقد كان نورى السعيد يلخص منهاجه السياسى فى كلمتين يقول فيهما : « انا هاشمى الولاء انجليزى السياسة » .

وبانضمام هذه الأمور بعضها إلى بعض بدأت مرحلة بين الثوار تتهدد صلة الود بينهم ، وتتربص بهم الدوائر التى يشمت بها العدو ، ويرثى لها الصديق .

مندوب القيادة وسلطاته

وقد عصفت رياح هذه المرحلة فى كل مكان يجتمع فيه ممثل الوزارة وممثل الجيش . ذلك أن كل وزير مدنى كان يشاركه فى وزارته أحد الضباط الذى كان يسمى مندوب القيادة ، وذات يوم جاء إلى مكتبى فى الوزارة مدير القضايا ، وأخبرنى أن السيد يوسف صديق مندوب القيادة طلب اليه مستندات بعض الأوقاف ليدرسها ، ويبدى رأيه فيها ، وقد تولتنى الدهشة لهذا الحدث ، فطلبت الأخ جمال عبد الناصر

واخبرته ، ثم قلت له : « إن هذا التصرف لا يغضبنى وحدى ، ولكنه يغضب كل انسان له كرامة ، وانا اكره لك ان تقول كلاما لا يمثله الواقع ، وقد قلت فيما تقول للناس : إرفع رأسك يا أخى ، فقد مضى عهد الاستعباد ، وانا شخصيا كما تعرفنى لا اطيق هذا اللون من التعامل الذى اراه ماسا بكرامة الذين يعملون على تحرير الوطن واعزاز المواطنين .

واذكر أن الرجل قال لى : إننا نعتبرك واحدا منا فاصنع ما تراه وانا موافق .

وبذلك دعوت السيد يوسف صديق الذى لم أكن اكرهه ، وكنت أحمل تصرفاته على خير المحامل ، ثم عاتبته على سلوكه مع مدير القضايا ، ولم أشأ أن أخبره بما قاله لى عبد الناصر ، وكان يوسف صديق كما أعتقد رجلا حسن النية ، فاعتذر عن سوء تصرفه ، ولم يحضر إلى الوزارة بعد ذلك .

وكانت هذه الصورة تشير إلى ازدواجية بغيضة لا يرضى عنها مسئول ولا يصلح عليها عمل ، وقد تكررت هذه الصورة فى وزارات أخرى كوزارة المعارف ألتى كان وزيرها يومئذ اسماعيل القبانى . فقد انعقد مجلس الوزراء ، وبدأ الوزير القبانى حديثه متهدج الصوت شديد الانفعال ، وشكا إلى المجلس مجتمعا تصرف السيد مندوب القيادة ، ثم أتبع شكواه بكلمة نابية إذ قال : « غير معقول ان (حته) ضابط يتحكم فى ، وانا وزير ، ولى تجربة طويلة فى وزارة المعارف إلى أن صرت وزيرا لها » .

وما أن فرغ الوزير القبانى من كلمته العاتبة الغاضبة حتى قال له جمال سالم : « إن حتة الضابط ده هو اللى خلاك وزير » .

وقد رأى الرجل من حق نفسه عليه أن يستقيل ، فقدم استقالته وقبلت فورا .

وقد حملت هذه الازدواجية الثقيلة على التماس حل لها باعتبارها مشكلة تستدعى المناقشة لا يحلها الا القانون ، ولذلك بدأ الدكتور السنهورى ، والأستاذ سليمان حافظ يعملان على حل هذه المشكلة ، فاتفقا على تشكيل لجنة اتصال دائمة بين الحكومة ومجلس الثورة .

لجنة اتصال سرية

وقد تشكلت هذه اللجنة برياسة الرئيس نجيب وعضوية كل من سليمان حافظ ، وعبد الجليل العمرى ، واحمد حسن الباقورى ، واحمد حسنى ، وفؤاد جلال عن الوزراء المدنيين ، ثم جمال عبد الناصر ، وجمال سالم ، وعبد الحكيم

عامر ، وعبد اللطيف البغدادى ، وكمال الدين حسين عن مجلس الثورة ، وكنا نجتمع فى ثكنات قصر النيل ، وكانت اجتماعاتنا سرية حتى سقط دستور ١٩٢٣ فحل محل هذه اللجنة مؤتمر مشترك يضم كل أعضاء الوزارة ، وكل أعضاء مجلس الثورة على أن يجتمع هذا المؤتمر مرة كل أسبوعين علانية ، وعلى الرغم من ذلك لم تنجح هذه المحاولات فى القضاء على الازدواجية بين المدنيين والعسكريين . ومن العجيب أن سليمان حافظ كان عسكريا أكثر من العسكريين ، فكان يرى أن الأولى بالسلطة هم الضباط ، وأن لهم أن يتصرفوا كما يشاءون ، وقد بلغت به الحماسة ذات يوم أنه طلب إلى الوزراء المدنيين أن يستقيلوا حتى يمكنوا الضباط من تأليف الوزارة التى يريدونها ، وينسجمون معها .

وأذكر أننا قد اجتمعنا للتشاور فى هذا الأمر فى منزل الدكتور نور الدين طراف وزير الصحة ، وقد بدأ المجتمعون حديثهم عن استحقاقهم المعاش فأخذوا يحسبون مدة خدمتهم ، فلما اطمأنوا إلى ما يكفل لهم حياة مريحة فى مستقبل أيامهم قرروا أن يستقيلوا ، كما قرروا أن أحمل أنا هذه الاستقالة الجماعية إلى الرئيس نجيب الذى كان ينزل فى فندق مينا هاوس مع الملك سعود ، ولما لم أتمكن من لقاء الرئيس نجيب رأيت أن أسلم كتاب الاستقالة إلى الزميل محمود فوزى وزير الخارجية ليحاول هو أن يرفعه للرئيس .

وقد رأيت من الحق علىّ لجمال عبد الناصر أن أخبره بهذا الأمر ، فقال لى : لعلك تذكر أننى قلت أكثر من مرة أننا نعتبرك واحدا منا ، ثم طلب إلى أن اتصل بالوزراء المستقيلين وان أبلغهم رغبته فى أن يستردوا استقالتهم ، فذهبت مع الأستاذ فؤاد جلال وزير الارشاد ، وحاولنا الاتصال بكل الوزراء عن طريق التليفون ، وأبلغتهم رغبة جمال عبد الناصر .

أهداف سليمان حافظ

وقد ظهر ظهورا واضحا أن سليمان حافظ كان يتغيا من حركاته هذه التمهيد لاسناد منصب رئيس الجمهورية لمحمد نجيب مع ابعاده عن الجيش ، ولكى يأخذ مكانه فى الجيش الصاغ عبد الحكيم عامر الذى رقى من صاغ إلى لواء ، وأصبح هو القائد العام للقوات المسلحة . وأذكر أن اللواء محمد نجيب قد تنازل عن قبعته العسكرية الخاصة برتبة اللواء لخلفه عبد الحكيم عامر ، وكان المظنون بعد ذلك أن يسود الوئام بين زملاء الثورة ، ولكن تأليف محكمة الثورة كانت سبب خلاف جديد ، وكانت قد تشكلت فى أوائل سبتمبر ١٩٥٣ من البغدادى رئيسا ، وحسن ابراهيم ، وأنور السادات أعضاء .

وقد أعطيت هذه المحكمة الصلاحيات التى تمكنها من محاكمة المتهمين فى قضايا الخيانة العظمى وأمن الدولة على أن تكون أحكامها نافذة إذا صدق عليها مجلس الثورة بأغلبية الأصوات .

وقد حكمت هذه المحكمة احكاما مثيرة لمشاعر المواطنين ، وكانت سببا فى كراهية المواطنين للثورة التى كانت موضع الترحيب والأمل . ذلك أن من أحكامها البغيضة حكم الاعدام على أربعة كان منهم : ابراهيم عبد الهادى باشا رئيس الوزراء الأسبق ، الذى كان موضع سخط وكراهية الاخوان المسلمين .

وليس يستبعد أهل البصر بشئون الاجتماع أن يكون هذا الحكم القاسى ترضية للاخوان المسلمين ! ومن هذه الأحكام التى ضاقت بها صدور المواطنين الحكم بالسجن مدى الحياة على الأستاذ محمود ابو الفتح صاحب جريدة المصرى ، والأستاذ ابو الخير نجيب صاحب جريدة الجمهور المصرى بتهمة افساد الحياة السياسة ، وبالسجن خمسة عشر عاما على الدكتور احمد النقيب ، وعلى كامل القاويش الذى كان محافظا للقاهرة ، وبمصادرة أملاك السيدة حرم النحاس باشا ، مع تجريدهم من القابهم حتى امتهدت بتلك الأحكام السبيل إلى أن تأخذ النكتة المصرية سبيلها إلى الاضحاك الذى هو شر من البكاء !

فقد زعم بعض ظرفاء المصريين أن السيد كامل القاويش جاء لمقابلتى فى وزارة الأوقاف وقدم بطاقته التى تحمل اسمه فاذا المكتوب فيها : « كامل القاويش سابقا » .

فلما استقبلت الرجل سألته : ماذا تعنى كلمة سابقا فى بطاقتكم ؟

فأجاب الرجل ، لقد أخذتم لقبى وحرمتونى من وظيفتى ، فلم يبق لى شىء ، فأصبحت كأننى غير موجود . . فأنا كما ترى كامل قاويش سابقا !

ولم تكن هذه النكتة لتخطر لى على بال قبل أن يشيع الظريف المصرى على لسانى هذا التفسير لكلمة « سابقا » فى بطاقة السيد القاويش .

ومن أحكام هذه المحكمة التى أوغرت الصدور حكمها بتجريد ستة من الاخوان المسلمين من جنسيتهم المصرية وكان منهم : عبد الحكيم عابدين .

المشاركة فى افتتاح أول برلمان بالسودان

وفى سنة ١٩٥٤ كلفنى مجلس الوزراء أن « أسافر » إلى السودان للمشاركة فى الاحتفال بافتتاح أول برلمان فى ذلك البلد الشقيق .



□ محمد احمد محجوب ، رئيس وزراء السودان يشعل سيجارة للشيخ الباقورى خلال زيارته للخرطوم .

وقد كان بين الثوار ، وبين الرئيس نجيب خلاف شديد حول الجهة التى ينزل ضيفا عليها ، ولم أكن أتصور أنه سينزل فى قصر الحاكم العام الانجليزى . ولقد آثرت صحبة الدكتور **عبد الرزاق السنهورى** الذى كان موضع التكريم والاحترام فى ذلكم البلد العزيز ، وقد أشتركنا معا فى السيارة التى خصصتها حكومة السودان لنا .

وأذكر أننى قد زرت السودان فى يناير ١٩٥٣ وقد توثقت بينى وبين إخوة كثيرين فى السودان علائق مودة واحترام ، وفى مقدمة أولئك السادة **السيد عبد الرحمن المهدى** الذى كنت حريصا على الصلة به ، والإنتفاع بتجربته الطويلة فى شئون السياسة وشئون الدين ، وكان الرجل أهلا لكل ثقة توضع فيه ، ولم تكن هذه الصلة به حديثة فى سنة ١٩٥٣ ، بل كانت ترجع إلى لقائى به مرارا فى سراى **آل لطف الله** بالقاهرة سنة ١٩٤٧ ـ فندق ماريوت الآن ـ وقد كنت وكيلا لمعهد القاهرة الدينى آنئذ .

وفيما كنت مع الدكتور السنهورى فى السيارة إذا بحشد هائل من المواطنين الثائرين يهتفون هتافات مختلفة ، وفى أيديهم خناجر تثير الرعب لأول وهلة فى صدور الذين يرونها ، ثم إذا أحدهم يتقدم إلى السيارة ، ففتحت زجاج السيارة بعد أن طلب

إلى أن أفتح النافذة ، وإذا هو يهتف « لا مصرى ولا بريطانى . . السودان للسودانى » . فأجبت الرجل نحن نقول معك هذا الذى تقوله انت ، فالتفت الرجل إلى الثائرين ، وقال لهم : هذا هو الشيخ الباقورى . . فانصرفوا ، وقال الدكتور السنهورى : هذه بركة « العمامة » هى التى انقذتنا من الموت طعنا بالخناجر .

ولعل أهم الأسباب لثورة أولئك الثائرين كان مرتبطا أشد الارتباط بنزول الرئيس نجيب فى قصر الحاكم العام الانجليزى فى السودان ، ولما هدأت العاصفة رأيت أن أزور اللواء نجيب فى قصر الحاكم العام وكان معى مرافق سودانى ، ولما أخذنا نصعد السلم وقف بى فى أحد منحنياته ، وأخبرنى أن هذا هو المكان الذى أصيب فيه الجنرال غوردن بسهم من قوس صوبه اليه أحد المجاهدين السودانيين ، فلما ذهب أحد الانصار إلى الامام المهدى يبشره بمقتل غوردن ، لم يجد الأنصارى ما كان يتوقعه من سرور الإمام المهدى وانشراح صدره ، بل وجد على العكس من ذلك طيفا من الأسى يغمر وجهه الكريم ثم قال له : لقد كان يسعدنى أبلغ السعادة أن يستبقوا حياة الجنرال حتى نفادى به احمد عرابى الذى نفاه الانجليز إلى سيلان ، ولكن قتل الجنرال ضيع علينا هذه الفرصة الذهبية .

وغير ذى حاجة إلى بيان أن الشعب السودانى ، وسائر تصرفاته السياسية كانت تستمد وجودها من أكرم الينابيع التى يعرفها التاريخ ، أعنى ينبوع القربى العربية ، ثم ينبوع العقيدة الإسلامية .

وبتمثل هذا المعنى يتراءى على غاية الوضوح صواب ما كان يدعو اليه المخلصون من العمل على التوحيد بين مصر وليبيا والسودان ، ولو أن ذلك قد تم على ما كان يراه الصالحون المصلحون ، لكانت الوحدة بعد ذلك بين الشعوب العربية والشعوب الاسلامية أمرا لا تقف فى طريقه عقبة ، ولا تعمى اليه سبيل ، ولكن الخوف من الدعوة بدعاية الإسلام ، فتح الطريق إلى دعوات لا تعتز بها دنيا ولا يرضى عنها دين ، ولهذا رأى الناس فى شتى جوانب أمتنا الإسلامية دعوات كثيرة هى إلى الهدم أدنى منها إلى البناء ، فاذا أمتنا – على ذلك – مطمع للطامعين الذين لا هَمَّ لهم الا الاستذلال والاستغلال .

المشاركة فى حفل تتويج الملك حسين

وغير ذى حاجة إلى بيان أن حكام مصر كانوا حريصين أشد الحرص على الانتفاع بكل ذى كفاية بالتقريب بين الشعب المصرى ، وسائر الشعوب العربية ، والشعوب الاسلامية ، والدليل على ذلك أنه فى سنة ١٩٥٣ شاركوا شعب الأردن الشقيق فى فرحته بتتويج الملك حسين ، فقرر مجلس قيادة الثورة أن أكون على رأس



□ الملك حسين وبجواره المؤلف اثناء زيارته للأردن . وقد وقف إلى يمين الباقورى ابراهيم الطحاوى وعبد العزيز الشوربجى ، فى حين وقف خلفه الدكتور عزيز صدقى .

بعثة تشارك فى أحفال هذا التتويج ، وكان من أعضاء هذه البعثة القائد البحرى **الفريق سليمان عزت** . ولست أنسى لجلالة الملك حسين أنه تفضل فمنحنى وسام الكوكب الأردنى ، والذين يعرفون جلالة الملك حسين لا يرتابون فى أن الرجل من سلالة البيت النبوى الكريم ، يدلهم على ذلك حرصه الشديد على التزام قواعد اللغة العربية ، ثم تواضعه الكريم لكل من يجلس اليه فى مجلسه المهيب ، أو يلقاه فى أحفاله الكثيرة التى تلتزم الوقار بقدر ما تتخفف من أثقال التقاليد الرسمية .

وليس من شك فى أن ـ جلالته ـ بما ميزه الله به من أخلاق شريفة ـ كان موضع حبى له وثقتى فيه ، وحرصى على أن ألقاه كلما امتهدت إلى ذلك سبيل .

وقد كانت صلتى بجلالته ترجع إلى معنى يتجاوز شخصه إلى جده **الملك عبد الله** منذ أن كان أمير شرق الأردن ، وحين زار المعهد الأزهرى بالقاهرة ، وحضر درسا من دروسى فى البلاغة ، وناقش بعض الطلاب مناقشة دلت على أن الرجل كان حريصا على الاعتزاز باللغة العربية .

وقد كان موضوع الدرس الذى حضره الأمير متصلا باللغة حول الآية الكريمة : « فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه الا إنما طائرهم عند الله ، ولكن اكثرهم لا يعلمون » .

فقد ناقش الأمير دقائق التعبير فى الآية الكريمة فكان ذلك مصداقا لما يقول الثقات من أهل الأردن الشقيق : إن الملك حسين فى حرصه على اللغة وفقهه بمعانيها صورة من جده الملك عبد الله .

ولم يكن لقائى بالملك حسين فى فترة تتويجه فقط لأننى حظيت بلقائه كثيرا بعد ذلك ، وفى كل مرة كنت أزداد ودا له ، وإيمانا بأنه خليق بالانتساب إلى البيت النبوى الكريم . ولقد اذكر أن الاخ جمال عبد الناصر كان قد تناول الملك حسين فى بعض أحفال الثورة ، بكلمات لا تليق بكبير ، يتحدث عن ملك مقدور فى كل مكان من أبناء العروبة وأبناء الإسلام . وكان الغوغاء يرحبون بمثل هذه الأحاديث ترحيبا يثير غيظ الحليم ، فوجدتنى غير قادر على مسايرة الحاضرين فيما هم فيه من لغو الحديث ، فقلت له : إنك نسيت أنك زعيم عربى تحتاج إلى حسن الأحدوثة عنك ، حتى تبلغ بك أمتك ما تريد من كرائم الآمال . وهذا الأسلوب الذى سمعته منك اليوم ، يسعد به العدو ، ويشقى به الصديق .

ولقد كانت ثقتى بالرجل تغرينى بالنصح له حرصا عليه أو حرصا على خير أمتنا فيه ، وكان يتلقى ذلك منى بترحيب شديد .

وقد رويت له ذات يوم قصة قصيرة أحاول بها أن ألفته إلى أن ينأى بنفسه عن الأساليب التى لا تليق بالكبار حين يخاصمون نظراؤهم فينقدونهم نقدا لا يثير الحفائظ ولا يجرح المروءات . فقلت له إن كبيرا من كبراء الدولة الأموية أحب أن يعلن رأيه فى رجل كبير مثله ، وقد سأله عنه سائل ماذا ترى فى فلان ؟ فأجاب على الفور ، ليس له صديق فى السر ، ولا عدو فى العلانية .

فقال أحد جلسائه : قاتلك الله . . إنك لتحسن أن تسب سب الأشراف . فهذه الكلمة تشير إلى أن السب له صورتان : صورة لا تجرح مروءة ، ولا تثير حفيظة ، وهى التى يلجأ اليها الكبار فى نقد نظرائهم ، وصورة أخرى تثير الحفائظ وتجرح المروءات ، وهى لا تليق بالكبار الذين تناط بهم الآمال فى اصلاح المجتمع ورفع خسيسة الشعوب . ومع أن الرجل سمع كعادته فى حرص شديد على الانتفاع بالنصيحة الا أننى أحسست أنه قد أساء الفهم فذهب مذهب الحكمة الشعبية التى تقول : « تنصح البالغ يعاديك » .

ولست أرتاب فى أن أحد الذين كانوا يحرصون على افساد ما بينى وبينه قد استغل هذه القصة استغلالا يحقق له ما كان يريد .

والدليل على ذلك أننى كثيرا ما كنت أوجهه إلى ما فيه مصلحته ، ومصلحتنا معه ، فقلت له ذات يوم : كن محاضرا ، ولا تكن خطيبا . . فلما سألنى عن الفرق بين المحاضر والخطيب قلت له : إن المحاضر يؤثر الهدوء فى حديثه ، أما الخطيب فانه يؤثر الصراخ وإثارة العواطف . وقد توجه الرجل إلى كثير مما وجهته له مطمئنا إلى الرأى الذى أبديه له لأن الثقة كانت متبادلة بيننا .

وقلت له مرة أخرى إنك زعيم عربى ، فكن حريصا بقدر ما تستطيع على استخدام اللغة العربية الفصحى ، واستعن على ذلك بالقراءة الكثيرة فى كتب سهلة الأسلوب لا تدعو إلى الملل ، بما تضمنته من قصص تحمل على قراءتها والانتفاع منها ، وقد أهديته بعض مؤلفات الأستاذ الأديب **جورجى زيدان** ، ثم أهديته بعد ذلك كتاب **خطط الشام** الذى ألفه الأستاذ **محمد كرد على** ، وليست لدى منه نسخه إلى الآن ، فلم يكن بينى وبينه ما يوجب التكلف أو يدعو إلى سوء الظن ، وهذا هو الذى جعلنى ابذل له كل نصيحة بغير حرج وفى غير تكلف .

الثورة والأزهر

وليس يفوتنى أن أشير إلى الأزهر ، وما كان يتطلع اليه من اصلاح فى ظل الثورة ، فكان أهم ما يشغله ـ طلاب وموظفين ـ اختيار شيخ له ، يعمل على رفعة شأنه وانصافه من ظلم طويل .

وقد عرض على مجلس الوزراء فعلا أمر الأزهر فى جو اختلفت فيه الآراء ، وتباينت وجهات النظر فيمن يصلح أن يكون شيخا للأزهر فى هذه الظروف الدقيقة التى تمر بها البلاد . فرشح بعض الاخوة الشيخ **محمد نور الحسن** ـ سودانى ـ وكان على رأس هؤلاء نصيرا له **صلاح سالم** ، ورشح آخرون الشيخ **حمروش** ، وكان على رأس مؤيديه **فتحى رضوان** ، ورشح فريق آخر الشيخ **محمد عبد الله دراز** ، وكان على رأس هذا الفريق **سليمان حافظ** .

وقد أذكر أن الأستاذ **اسماعيل القبانى** أراد أن يرشحنى قائلا : إن تولى وزير منصب شيخ الأزهر تنصره سابقة قريبة ، فقد عين الأستاذ الشيخ **مصطفى عبد الرازق باشا** وزير الأوقاف الاسبق شيخا للأزهر ، ثم مضى يقول : وحين صدر الأمر الملكى بتعيين الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا شيخا للأزهر رفع للملك كتابا تاريخيا يرجو فيه أن يستبدل بلقب « باشا » لقب « الأستاذ الأكبر » ، وقد أجيب الرجل إلى طلبه مقدرا من الله ومن الناس .

وقد سألنى الاخ جمال عبد الناصر : لماذا ترفض أن تكون شيخا للأزهر كما ذكر

القبانى ؟ فأجبته : إن الأزهريين يحتاجون إلى شيخ كبير يكون له عليهم حق المشيخة فى جلال السن وسعة العلم وشرف الأستاذية ، وإننى أشفق أن أحتمل عبئًا لا قدرة لى على النهوض به .

وقد نشرت الصحف نبأ ترشيحى شيخا للأزهر حيث قالت جريدة « الأهرام » بتاريخ ١٩٥٢/٩/٢٢ علمت « الأهرام » أن منصب مشيخة الأزهر قد عرض على الأستاذ أحمد حسن الباقورى وزير الأوقاف قبل أن يعرض على الشيخ الخضر حسين ، فاعتذر بشدة ، وأبدى لمجلس الوزراء أسباب اعتذاره .

وقد اقترح السيد عبد العزيز على وزير الشئون القروية تعيين الشيخ الخضر حسين شيخا للأزهر فعارض بعض الزملاء فى هذا الاقتراح محتجين بأنه ليس مصريا ، ولكنه رجل تونسى لاجىء إلى مصر ، وأن ما حمل الأستاذ عبد العزيز على عَلَى اقتراحه هذا هو أن الشيخ كان رئيسا لفترة طويلة لجمعية الهداية الاسلامية . وقد اذكر ـ لله ثم للتاريخ ـ اننى قلت إن الشيخ الخضر رجل عالم أديب شاعر ، وأنه محكوم عليه بالاعدام من المستعمرين . إذ كان قد أفتى بأن كل من يتجنس بالجنسية الفرنسية لا يدفن فى مدافن المسلمين . وبناء على هذه الفتوى أنشئت فى تونس مقبرة خاصة أطلق عليها مقبرة المجنسين ، ولذلك لجأ إلى مصر ، وأصبح عضوا فى هيئة كبار العلماء ، فكل الشروط المطلوبة فى شيخ الأزهر متوافرة فيه ، ثم إنه مسلم ، والإسلام رحم بين أهله ، ولعل فى تعيينه شيخا للأزهر ما يحمل الشعوب الاسلامية كافة على الالتفاف حول مصر وتأييد ثورتها .

وقد رضى الزملاء هذا الاقتراح ، وبقيت مسألة هل تحتمل صحة الشيخ أعباء المنصب ؟ ثم كلف المجلس وزيرين بالذهاب إلى بيته ومعرفة احواله الصحية . وأذكر أننى خرجت مع الزميل فتحى رضوان ، وتبعنا بعض الصحفيين إلى منزل الشيخ ، فلما رأيناه وجدناه صالحا لتحمل الأعباء ، فصدر القرار بتعيينه شيخا للأزهر . ومما لا يسوغ الاغضاء عنه فى هذا المقام أن من أبناء الأزهر من كان يرى أن منصب شيخ الأزهر لا ينبغى أن يكون بالتعيين بل ينبغى أن يكون بالانتخاب على ما تشير إلى ذلك الكلمة التى ذكرها مدير عام الأزهر لجريدة أخبار اليوم يوم ٢٩ سبتمبر ١٩٥٢ .

سفير الثورة . . من الفلبين للمغرب

وعلى الرغم مما كان يحيط بالثورة من تآمر عليها وتربص بها بسبب ما اقترفته من أخطاء فادحة ، لم أجد بدا من أن أمضى معها على الطريق التى آثرتها لنفسى منذ قبلت التعاون مع الثوار ، حتى لقد كان يخيل لى أننى جندى فى خندق لا وزيرا فى مكتب !

ذلك أن مجلس قيادة الثورة كان يطلب إلىّ دائما أن أمثله فى كل مؤتمر تكون فيه مصلحة للوطن والمواطنين ، فكنت كلما رجعت من سفر بدأت سفرا آخر فى مختلف جوانب الأرض.

وذات يوم طلب إلى الأخ جمال عبد الناصر أن اقابله فى مجلس قيادة الثورة ، فلما ذهبت إليه فى الموعد المحدد ، وجدته . ومعه اللواء عبد الحكيم عامر ، فقال لى : سيعقد مؤتمر فى الأردن للخريجين من الجامعات ، وقد رأينا أن تسافر على رأس الوفد المصرى الذى كان يتألف أعضاؤه من السادة : فؤاد جلال وزير الشئون الاجتماعية والصاغ ابراهيم الطحاوى سكرتير هيئة التحرير ، والدكتور حسين سعيد الذى عين فيما بعد وزيرا للتعليم العالى ، وآخرين من الخريجين الذين آثرتهم الثورة دعاة لها وألسنة للدفاع عنها . « وهؤلاء الخريجين هم الذين أصبحوا فيما بعد محافظون ووزراء ورؤساء جامعات ورؤساء قطاعات وكبار موظفين إلى يوم الناس هذا » .

وقد نزلنا فى فندق امبسادور فى عمان وكان الوفد يضم حوالى ٤٠ عضوا تخرجوا فى العلوم والآداب من مختلف الجامعات المصرية ، ويطيب لى فى هذه الكلمات ، أن أثنى أبلغ ثناء على جلالة الملك حسين الذى ألقى كلمة الافتتاح فى أسلوب رفيع وحكمة عالية ، وكنا كثيرا ما نلتقى لنتحدث فى مختلف الشئون العامة .

إلغاء المحاكم الشرعية

وقد فوجئت وانا فى عمان بعد أيام من انعقاد جلسات المؤتمر بقرار لحكومة



□ المؤلف يتوسط أعضاء مؤتمر الخريجين بالأردن ، الذى تولى رئاسته .

مصر **تلغى به المحاكم الشرعية** ، وقد أثار عجبى ودهشتى أننى رأيت فى بعض الصحف المصرية صورة الأستاذ الأكبر شيخ الأزهر **الشيخ عبد الرحمن تاج** ، ومعه الشيخ **حسن مأمون** مفتى الجمهورية يوقعان فى سجل الزيارات فى مجلس الوزراء بمناسبة إلغاء المحاكم الشرعية ، كما قالت الصحف المصرية ! . وقد حاولت أن أستنكر قرار إلغاء المحاكم الشرعية إذ رجعت بى الذاكرة إلى ما كان قد ذكره لى عبد الناصر من أنه يفكر فى أن يستبدل بمجلس البرلمان المجلس الوطنى الكبير ، فحاولت أن أبعث باستنكارى لهذا القرار ، ولكن السيد فؤاد جلال ناقشنىٌ فى ذلك طويلا ذاكرا أن هذا الاستنكار لا يفيد شيئا مع تأييد شيخ الأزهر والمفتى لهذا القرار . وقد كان مما يدعو إلى أشد الأسف أن الضيق بالمحاكم الشرعية كان استجابة لدعوة بعض المواطنين الذين كانوا يعتزون بالقومية المصرية حتى لقد أفلحوا فى أن يطلقوا على المحاكم الأهلية كلمة « **المحاكم الوطنية** » وكأنهم بذلك

يريدون أن يوحوا إلى الشعب بذلك التعبير أن القضاء الشرعى وافد على مصر ، وغريب عنها ، وهو الأمر الذى دعا الأستاذ الشيخ محمود شلتوت ، والدكتور عبد الرزاق السنهورى إلى إعمال الفكر مع كبار الأزهريين لانشاء معهد للفقه الاسلامى يتناول التشريعات التى تساير روح العصر ، ولا تناقض أحكام الشريعة . وقد أيد قرار إلغاء المحاكم الشرعية كثير من المصريين ، وغير المصريين من الزعماء ، وسواد الشعوب ، وكانت حجتهم تقوم على أن فيها فسادا يسوغ هذا الالغاء .

ولو أن الذين الغوا المحاكم الشرعية بسبب الفساد ، الغوا كل فاسد فى حياتنا الاجتماعية ، لكان إلغاء المحاكم أمرا سائغا مقبولا ، ولكنهم اختصوا بالالغاء المحاكم الشرعية ، وتركوا ما عداها مما يسىء إلى الشعب ، ويعرض مستقبله لأشد الأخطار . وبتدبر هذا الأمر ـ على ما ينبغى له ـ لا يجد المنصف للحقيقة مناصا من القول بأن قرار الالغاء كانت تقوده الحماسة أكثر مما يقوده النظرالبصير بعواقب الأمور فجاء قرارا أنشرح له العدو ، وضاق به الصديق .

السفر إلى ليبيريا

وأيا ما كان الأمر فقد أديتَ مع الوفْدَ المصرى الأمانة فى مؤتمر الخريجين فى المملكة الأردنية الشقيقة ، ثم لما عدنا إلى القاهرة طلب إلى الرئيس أن اسافر إلى جمهورية ليبيريا مع السيد انور السادات لتمثيل مصر فى الاحتفال بتعيين أول رئيس للجمهورية الجديدة فى ليبيريا ، ومع أن الرحلة إلى المملكة الهاشمية كانت قد ارهقتنى إرهاقا شديدا ، لم أجد بدا من الترحيب بالانضمام إلى الوفد الذى كان سيتولى رياسته أنور السادات .

وفيما كنت استعد للسفر اتصلت السيدة جيهان حرم الاخ أنور السادات بزوجتى وابلغتها أن الاخ أنور لا يستطيع السفر ، وقد أبدى وجهة نظره للرئيس عبد الناصر فوافقه عليها . ولما انعقد مجلس الوزراء بعد ذلك عرض عليه الرئيس عبد الناصر تعيينى سفيرا فوق العادة لتمثيل مصر فى حفلات تنصيب رئيس جمهورية ليبيريا ، وقد طلب إلى الدكتور محمود فوزى وزير الخارجية ان يأمر باتخاذ الاجراءات المتبعة فى مثل هذه الأحوال على وجه السرعة .

ثم أخذت طريقى إلى تلك البلاد التى لم تكن معروفة للناس أنئذ حتى لقد نشرت الصحف خريطة تبين موقع ليبيريا من افريقيا .

ولم يكن من حقى أن اشارك فى تنصيب رئيس الجمهورية بوصفى سفيرا فوق

العادة إلا بعد أن يقدمنى وزير خارجية ليبيريا إلى رئيس جمهوريته لأقدم له أوراق الاعتماد . وقد كان من العجيب أن تكون البيانات التى صحبتها معى مكتوبة باللغة الفرنسية ، وأذكر أننى حين لقيت وزير الخارجية ومعى الدكتور حب الله أخبرنى الوزير فى لهجة أسفة وهو يقول لى « My People are Moslems » يعنى انه ينحدر من أصول مسلمة ، وأن والده حرصا على مستقبله أدخله مدارس الارساليات التبشيرية فغير دينه من حيث لا يعلم ، ثم نشأ على ذلك لا يملك إلا أن يعيش كما أرادت له أوراقه المدرسية أن يعيش .

رياسة الجامعة أفضل من رياسة الجمهورية

قص علينا الوزير قصة ليبيريا ، ورئيس الجامعة الاسلامية فيها ، ولم تكن قصته مجهولة لدى فقد كنت أعرفها ـ قبل ذلك بعدة سنوات ـ من أفواه الذين رأوا رئيس تلك الجامعة وعايشوه أياما فى جمعيات الشبان المسلمين حين انزلوه ضيفا فى المركز العام بالقاهرة ، ثم زار الرجل بعد ذلك جمعية الاخوان المسلمين . وقد استقبل الشعب المصرى هذا الرجل استقبال الأخوة والود ، وكانت الصحافة المصرية سباقة إلى نشر أخباره على الناس ، فذلك حيث نشرت جريدة السياسة المصرية عن رئيس الجامعة الاسلامية فى ليبيريا ، فقالت ما نؤثر أن نرويه بنصه : تكرم بزيارة هذه الجريدة سيدى أفاريل رئيس الجامعة الاسلامية بجمهورية ليبيريا ، وسيادته كان وزيرا للحربية ، ثم رئيسا للوزارة ، وكان فى وسعه أن يكون رئيسا للجمهورية ، ولكنه أثر رياسة الجامعة الاسلامية التى هى أكبر منصب دينى فى البلاد ، وقد عين فيه سيدى أفاريل مدى الحياة على حين أن رئيس الجمهورية يتخلى عن منصبه كل أربع سنوات ، ولا يستطيع أن يتولى منصبه إلا بموافقة سيدى أفاريل .

ومع أن سيدى أفاريل يمثل اللون الأفريقى الأصلى ، إلا أن ملامح وجهه وتناسق أعضائه تدل على أنه أقرب إلى الجنس العربى منه إلى الجنس الأفريقى .

ولما كان سيدى أفاريل هو الرئيس الدينى الأكبر فى البلاد ، فقد اتفق مع حكومة ليبيريا أن ترسل ولديه إلى الأزهر الشريف لدراسة العلوم الاسلامية ليتمكن بها أحدهما من تولى منصب قاضى القضاة للمسلمين ، ويتمكن بها الآخر من تولى منصب دينى كبير .

وقد أخبرنى السيد وزير خارجية ليبيريا بأن رئيس الجمهورية المراد تنصيبه بعد أيام كان محاضرا فى الكنيسة ، فلما عرضوا عليه المنصب اشترط ألا يحول منصبه بينه ، وبين عمله فى الكنيسة .

وبعد ثلاثة أيام من هذه المقابلة دعينا إلى شهود حفل التنصيب فى الكنيسة نهارا صبيحة يوم أحد ، وقد وقف وزير الخارجية إلى جانبى ، وقام الدكتور محمود حب الله الأمين العام السابق لمجمع البحوث الاسلامية - كما كان يفعل - بالترجمة بينى وبينه . وفى المساء اقيم حفل ساهر راقص ابتهاجا بتولى رئيس الجمهورية منصبه ، ولا يفوتنى أن اذكر بالود والثناء السيد فؤاد عمون الذى كان مندوب لبنان الشقيق فى حفل التنصيب ، فقد جمع لى كل المهاجرين من أبناء سوريا ولبنان إلى ليبيريا ، فجلسوا من حولى كاننى واحد منهم ، فزال عنى بذلك التصرف الكريم ما كنت أجده من حرج شديد بوجودى فى هذا الجو الذى لم أتعوده من قبل . وقد اقمت بين أولئك السادة خمسة عشر يوما كنت فيها مقصد الزائرين من المسلمين فى تلك البلاد ، وما جاورها من السنغال ومالى .

ثم السنغال

فلما انتهت زيارتنا فى ليبيريا انتقلنا إلى السنغال فى طريق عودتنا إلى القاهرة ، فإذا فى السنغال جالية لبنانية وسورية تشبه من كل وجه جاليتهم فى ليبيريا .

وقد دعانى المسلمون إلى صلاة الجمعة بالمسجد الكبير فى داكار العاصمة غير أنهم نصحونى بلطف أن لا اتعرض لشئون السياسة ، فإن ذلك يغضب الفرنسيين ، وعندما دخلت المسجد إذا حشد كبير لم أعهد له نظيرا من قبل ، فتقدم إلى جماعة منهم يطلبون إلىّ أن اتولىّ خطبة الجمعة ، ولكن آخرين منهم رغبوا إلىّ فى أن أترك لخطيب المسجد الرسمى أن يقوم بمهمته التى هى مصدر رزقه ، والتى كان مسئولا عنها أمام الفرنسيين ، ولم أجد بدا من الأخذ بهذه النصيحة فتركت للامام خطبته . فلما انتهت صلاة الجمعة قمت لأقول كلمة أقضى بها حقا لبلدى ، وأستجيب بها رجاء للذين استضافونى ، وقد كان من عادتى أن أبلغ الذين أتحدث إليهم تحيات الشعب المصرى ، وفى طليعته جمال عبد الناصر ، فلما بدأت بهذه التحية اسرع إمام المسجد واقترب من المكرفون قائلا . . نحن مع فرنسا . وقد مضيت فى كلمتى اتلو عليهم من القرآن الكريم ، ومن الأحاديث النبوية الشريفة ما كان له أعظم الأثر فى أنفس ذلك الشعب الظامىء إلى الدين ، حتى إذا فرغت من كلمتى ، أقبل القوم على يصافحوننى ، ثم يضعون فى يدى شيئا ظننته لأول وهلة أسئلة مكتوبة تطلب الجواب عنها ، وقد امتلأ جيبى بهذه الأوراق ، ثم لما حاولت استخراجها لأقرأ الأسئلة المكتوبة فيها للاجابة عليها فوجئت بأنها فرنكات فرنسية . وقد لاحظ بعض الاخوان علائم الدهشة فى وجهى ، فأخبرونى بأن العادة فى تلك البلاد أن يُعطى الواعظ أو المحاضر فى المساجد بعض المال يستعين به على الحياة .



□ فى دكار (١٩٥٦) فى حفل بين المغتربين العرب المؤلف يتوسط محمد هلال وادمون ابو جوده (المضيف) .

وقد ظللت محتفظا بهذه الفرنكات حتى وقعت فى أيدى رجال المخابرات المصرية ، حين كانوا يقومون بتفتيش مكتبى فى الوزراة إبان الفترة التى أساءوا فيها إلى الصلة بينى وبين عبد الناصر .

وفى اليوم التالى جاءنى بعض الاخوة يعتذرون عن تصرف إمام المسجد ويدعوننى إلى زيارة الكتاتيب التى كانت تعلّم أبناء المسلمين القرآن الكريم ، وقد زرت هذه الكتاتيت ، ومعى أحد موظفى وزارة الأوقاف ، ومعه مال من الوزارة فوزعنا هذا المال على الكتاتيب من تلاميذ ومعلمين ، ثم رجعنا إلى القاهرة .

وكان أول ما قمت به أن أقابل الرئيس لأخبره عن الرحلة وما وجدت فيها مما يستلفت الأنظار ، كما كان شأنى دائما كلما قدمت من رحلة أرحلها ممثلا لحكومة الثورة . وقد كان من العجيب أننى ، وأنا أتحدث إلى عبد الناصر قدم إلى بعض

الصحف التى جاءت إليه من لبنان ومن بينها صحيفة نشرت صورتى مع السفير الامريكى فى السنغال ، وهو يشعل لى سيجارة ، وكان ذلك فى رايه شيئا غريبا غير معهود بدليل أنه قال لى : إن المعروف عند أولئك الناس أنهم يرون انفسهم فى منزلة أرقى من منزلة الشعوب التى يتعاملون معها . فمن الغريب اللافت للنظر أن يشعل لك السيجارة سفير امريكا فى تلك البلاد على مرأى ومسمع من الناس . ولكن عمامتك هى صاحبة الفضل فى هذا الموقف .

فقلت له : هذا حق ، ومن أجل ذلك عتبت عليك أشد العتب حين ألغيت المحاكم الشرعية ، وانا فى مؤتمر الخريجين فى المملكة الهاشمية الشقيقة ففتحت للناس بابا للاشاعات التى كانت تزعم أنك تعاند الإسلام وتتربص به الدوائر ، على نحو ما فعل اتاتورك فى تركيا .

فقال : لقد وافق على هذه الخطوة شيخان من شيوخ الاسلام : الشيخ عبد الرحمن تاج شيخ الأزهر ، والشيخ حسن مأمون مفتى الجمهورية ، وقد نشرت الصحف صورتيهما يوقعان على دفتر الزيارات فى مجلس الوزراء ، فليس فى وسع أحد أن يزعم أن فى هذه الخطوة خروجا على الإسلام أو تربصا به إلا إذا كان الشيخان المذكوران يتربصان بالاسلام والمسلمين ، وذلك أمر لا يقول به عاقل ولا يقبله إلا من أعماه الهوى واضله عن سواء السبيل .

ثم سألنى بعد ذلك عن رأى الشخصى فى هذا التصرف ، فقلت له : إن الناس فى بلادنا ـ كما لا يخفى عليك ـ تضيق صدورهم بالحاكم ضيقا يحملهم فى اكثر الأحيان على أن يشيعوا من حوله إشاعات تبغضه إلى الناس ، فإذا وجدوا لشائعاتهم تصرفا تستند إليه ، فذلك معناه أنك تعين الناس على نفسك ، والحكمة تقتضى أن ينأى الانسان بنفسه عن سيئات الظنون . وقد رأيت مع بعض زملائى فى مؤتمر الخريجين أن محاولة إصلاح الفاسد أيسر سبيلا ، وأخف عبئا من الاتيان عليه وهدمه من أساسه ، على أن لدينا من العلماء الفضلاء ، والقضاة الشرفاء من لا يخفى أمرهم عليك ، ولعلك لا تزال تذكر حكم المحكمة الشرعية بتأييد موقفى كوزير للأوقاف ، وقد أصدر هذا الحكم الشيخ محمود الأزرق رئيس المحكمة الشرعية .

حكاية وقف زينب هانم

ومن حق القارىء أن يعرف ظروف هذا الوقف ، وما كان يحيط به من تصرفات على غاية الشذوذ . ذلك أن السيدة زينب هانم بنت محمد على الكبير كانت قد وقفت فى بلدة شاوة جهة المنصورة وقفا على العلماء الأحناف ، فكان العالم الحنفى ينال من

هذا الوقف كل عام ما بين مائة ومائتى جنيه على حين أن غير الأحناف من علماء الأزهر لا يأخذون شيئا يذكر ، ووجه الشذوذ الذى لا يقبله عادل أن تصدر قبل موعد الصرف حركة تنقلات لا صلة لها بالمصلحة العامة ، ولكنها ذات صلة بالمصلحة الخاصة ، فقد كان ينقل على الورق المحظوظون من العلماء الأحناف لكى يكون لهم الحق فى الحصول على نصيبهم من ريع هذا الوقف ، وذلك بناء على فتوى أصدرتها هيئة كبار العلماء فى إدارة الأزهر ، وهذه الفتوى تقرر أن العبرة بوقت الصرف ، وليس بوقت الاستحقاق ، فكان العلماء الذين نقلوا على الورق يأخذون نصيبهم ، ثم يلغى نقلهم ليعود كل إلى جهته التى كان فيها قبل الصرف .

وقد رأيت بعد أن توليت الوزارة أن أستعين بعالم فقيه ، وهو المرحوم **الشيخ محمد أبو زهرة** ، فرغبت إليه أن يعد بيانا يُسوغ لمجلس الأوقاف الأعلى تحويل غرض الواقف من جهة بر إلى جهة بر أولى بالاعتبار وأدنى إلى تحقيق رغبة الواقف ، وبمقتضى هذا البيان قررنا أن يصرف ريع هذا الوقف لأسر المدرسين وأئمة المساجد الذين ليس لهم معاش يكفى أسرهم بعد إنتقالهم إلى الدار الآخرة تاركين ذرية ضعافا لا حول لهم ولا قوة ، وقد كان القانون يقضى بعرض ما يقرره مجلس الأوقاف الأعلى على المحاكم الشرعية لاقراره ، ولما عرض هذا القرار على المحكمة الشرعية برئاسة **الشيخ الأزرق** وافق على قرار مجلس الأوقاف ، **والشيخ الأزرق** الآن هو أحد كبار مستشارى وزارة العدل الكويتية .

وقد كان من العجيب أن بعض العلماء الأحناف عارضوا هذا القرار مدفوعين إلى ذلك بحرصهم على تقاضى هذا المبلغ كل عام لا يعنيهم من وراء ذلك شىء .

ومن أعجب العجب بهذه المناسبة أن أول من كان لهم نصيب من هذا الوقف بعد التعديل هم أسر الذين عارضونى محتكمين إلى القضاء الشرعى باعتباره خارجا على الشريعة التى تقرر أن شرط الواقف كنص الشارع ، ولكن قضاة المحاكم الشرعية وقفوا إلى جانبى ورفضوا الدعوى المقامة ضدى .

ولا ريب فى أن هذه الصورة على هذا النحو الذى ذكرته للرئيس عبد الناصر ، لا يستطيع أحد أن يعاندها ، أو يعترض عليها ، ولذلك رأيته بعد أن استمع إلى فى إصغاء شديد ، يحول مجرى الحديث فيسألنى عن القرارات التى اتخذها المؤتمر فأخبرته عن حسن استقبال الشعب الأردنى العربى الأصيل لوفد مصر ، وحرصه الشديد على توثيق علائق المودة بين مصر والأردن .

ثم ذكرت له أن القرار الذى اتخذه المؤتمر لم يكن موغلا فى شئون السياسية ، ولكنه تناول قضيتين مهمتين تتعلق إحداهما بقضية فلسطين ، وتتعلق الثانية

بضرورة التكافل بين الشعوب العربية تكافلا يجعلها أمة يخشاها العدو ويرجوها الصديق .

ولقد أذكر أنه قال لى : إنك رأيت شعوبا كثيرة ، وأهل هذه الشعوب يقدرونك احسن التقدير بغير فرق بين أهل الديانات ، فكلهم ينظر إليك ـ فيما بلغنى ـ نظر تقدير واحترام ، ولهذا فكرت فى أن أعينك وزيرا متجولا فى العالم كله داعيا لمصر ولسانا لها ، وأنا أقترح عليك أن تغير اسم وزارتك فتسميها وزارة الشئون الدينية ، فحاول أن تدرس هذا الاقتراح ، فإذا فرغت من دراسته فأخبرنى عن رأيك فيه ، ثم ذكر لى بعد ذلك أن بعض إخوانك من الضباط اقترح أن تكون معنا فى مجلس الثورة .

وقد علمت بعد ذلك أن صاحب هذا الاقتراح هو جمال سالم الذى قال إن الشيخ الباقورى يطوف البلاد داخل مصر وخارجها داعيا للثورة ، ونحن فى القاهرة لا نصنع إلا الاجتماعات والمناقشات .

رحلة إلى باندونج

فى أوائل شهر أبريل سنة ١٩٥٥ قرأت فى الصحف ، ونحن فى ركب التحرير فى الوجه القبلى ، أن عبد الناصر سوف يسافر إلى رحلة سياسية خارج الجمهورية ، فاقترحت على الزملاء فى ركب التحرير أن نعود إلى القاهرة لنكون فى وداع الرئيس ، وعدنا إلى القاهرة وقد لقيته بعد عودتى فى مجلس قيادة الثورة فى الجزيرة ، فقال لى ـ لأول ما قابلته ـ هل عندك مانع لتصحبنى فى الرحلة إلى مؤتمر باندونج . فأجبته هذه سعادة لى أن أضيف إلى البلاد التى زرتها بلادا كنت أتمنى أن أزورها وهى أندونيسيا ، لأن انتقالها من الوثنية إلى الإسلام أمر لا يكاد يخطر بالبال .

وقد كنت أذكر لما كنت أميرا للحج سنة ١٩٥٣ حرصت على أن أزور غار حراء الذى كان يعتكف فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد رأيت أحد الحجاج من أهل أندونيسيا يصلى فى الغار ، وكل دعائه الذى سمعته منه « اللهم انصر سوكارنو » يرددها ولا يذكر أحدا سوى سوكارنو ، فلما فرغ من صلاته ودعواته لسوكارنو زعيم أندونيسيا سألت الحاج لماذا تنس نفسك وتذكر سوكارنو بالدعاء ؟ .

فقال لى ـ صادقا ـ لقد كان سوكارنو على ما فيه من أخطاء لا يسلم منها البشر زعيما خلّص أندونيسيا من ألوان الاستعمار المختلفة ثقافة ولغة واقتصادا ، وأنت لا تنس ونحن طلاب علم فى مصر ، فقد كنت تلقانا فى الرواق الجاوى من أروقة الأزهر الشريف ، وقد كنت تذكر لنا تاريخا لا نعرفه عن أندونيسيا . وإذا كان عندكم وقت



□ صورة طريفة تجمع الرئيسين عبد الناصر وسوكارنو ، يشاهدان مع عبد الحكيم عامر وكمال الدين حسين والباقورى رقص الخيل ، اثناء زيارة الرئيس الاندونيسى لمصر .

ونحن فى هذا المكان الطاهر ، فإننى أنتهز فرصة أقرر لك كيف كان سوكارنو وماذا قدم للبلاد من خير كثير . ذلك أن أندونيسيا مرت فى حياتها بعدة عصور :

أولها عصر ما قبل الإسلام ، ويشمل العهد القديم الموغل فى القدم ، وعهد الديانة الهندوكية « البوذية والبرهمية » .

وثانيها عصر الإسلام ، ويبدأ من حوالى سنة ١٤٠٠ ميلادية ، وقد دخل الاسلام إلى أندونيسيا عن طريق الهنود والعرب الذين حضروا إلى بلادنا ليس للتجارة فقط بل للدعوة الاسلامية التى لا تلبث أن تخالط بشاشتها القلوب . وقد كان من العجيب حقا أن يصبح هذا الدين فى المركز الأول بين سكان أندونيسيا ، فإذا الأغلبية الساحقة من مواطنيها مسلمون على حين أن هذه الجزر التى تكوّن أندونيسيا تبعد عن منبع الاسلام بآلاف الأميال .

وثالثها عصر الاستعمار الهولندى ١٥٩٦ ـ ١٩٤١ ميلادية ، وقد كان هذا العصر عصر شؤم وبؤس فى تاريخ أندونيسيا ، لأنه كان يتغيا القضاء على هذه الأمة ـ روحا وعقيدة ولغة وثقافة ـ لكى تصبح أمة هولندية أخرى تعيش فى الشرق الأقصى بروح هولندية قلبا وقالبا ، كما أشار إلى تلك الفكرة المستشرق الهولندى « هورغرونجيه » .

ورابعها : عصر الاحتلال اليابانى ١٩٤٢ ـ ١٩٤٥ ميلادية .

وخامسها : عصر الحرية والاستقلال من سنة ١٩٤٥ إلى ما شاء الله . وهو فترة إنشاء وتكوين وإصلاح وترميم لما أفسدته تلك الأيام الخالية . وقد كان أحمد سوكارنو من أبرز القواد لهذا العصر العظيم ، إذ وضع اتحاد القيادات شعارا لهذا الاتحاد يرمى إلى توحيد جهة العمل حتى لا تتشتت الأغراض فى اختلاف الوسائل .

ونحن لا ننسى أن الديانتين البرهمية والبوذية قد أثرتا فى الأدب الأندونيسى أيما تأثير ، ولكن التأثير النافع الذى تقبله الفطرة ، وترتفع به الخسيسة هو تأثير الإسلام الذى أعطى الانسان حرية التصرف فى ميدان واسع ، وجعل لكل حد شروطا وقيودا ، حتى لا ينسى المرء نفسه فى تصرفاته ، وحتى لا ينسى العصر اليابانى الذى وضع سياسته على الانتفاع بكل ما فى الأمة الأندونيسية من قوة ، ثم على التنكر للأمة الأندونيسية فى لغتها أولا ، وفى سائر مقومات حياتها ، فأنا من أجل ذلك وكل أهل أندونيسيا ندعو الله بالنصر للزعيم سوكارنو ، وجميع معاونيه على ما فيه خير للبلاد .

وما أن سمع الرئيس جمال عبد الناصر هذه الكلمات حتى قال بطريقته : إنك بهذه المعرفة الواسعة تضعنى أمام أمر لابد منه ، وهو أن ننتفع بك فى ميدان أفسح من ميدان الأوقاف ، وسوف تسافر معى إلى باندونج .

وفى يوم السبت التاسع من أبريل ١٩٥٥ غادرت الطائرة الهندية مطار القاهرة مقلة وفد مصر إلى مؤتمر باندونج برياسة الرئيس جمال عبد الناصر وعضوية الصاغ صلاح سالم ، وزير الارشاد ، ومحمود فوزى وزير الخارجية ، وأحمد الباقورى وزير الأوقاف ، ومحمد أبو نصير نائب وزير التجارة ، وعبد الخالق حسونة الأمين العام للجامعة العربية ، والدكتور مصطفى كامل أستاذ القانون الدستورى بجامعة القاهرة ، والأستاذ عبد الله العريان المنتدب فى الادارة القانونية بوزارة الخارجية على أن ينضم إلى الوفد هناك الأستاذ على فهمى العمروسى وزير مصر المفوض فى أندونيسيا ، وقائد الجناح على صبرى مدير مكتب الرئيس عبد الناصر الذى سيلحق بالرئيس فى كراتشى ، وكان يرافق الوفد فى الطائرة من رجال الصحافة السادة : إحسان عبد القدوس ، ومحمد حسنين هيكل ، وممدوح طه .

موكب من النفاثات الباكستانية

ما كادت الطائرة « مارتا برنسيس » الهندية تقترب من المجال الجوى الباكستانى حتى استقبلتها تسع مقاتلات نفاثة باكستانية ، كانت حكومة الباكستان قد كلفتها أداء التحية للطائرة التى تقل وفد مصر ، ولما هبطت الطائرة فى مطار كراتشى كان فى استقبال الرئيس وصحبه السيد محمد على رئيس وزراء باكستان ورجال وزارته ، وأعضاء السلك السياسى الأجنبى ، وكان القائمقام أنور السادات أول من رحب بالرئيس عقب نزوله من الطائرة ذلك أنه كان فى جولة آسيوية باعتباره سكرتيرا عاما للمؤتمر الاسلامى ، وقد دعاه الرئيس عبد الناصر إلى الانضمام إلى الوفد فى المؤتمر الأفريقى الآسيوى ، ولكنه اعتذر . ثم استقل الرئيس عبد الناصر سيارة كاديلاك خضراء ـ ومعه رئيس وزراء الباكستان ـ تبعها رتل من السيارات التى تقل أعضاء الوفد ، وقصد الجميع إلى قصر السيد غلام محمد حاكم الباكستان العام . وقد نزل الرئيس عبد الناصر خلال زيارته التى تستغرق ثلاثة أيام فى قصر الحاكم العام ، وهو مؤلف من طابقين ، وقد بنى فى عهد الامبراطورية البريطانية فى الهند ، وكان مخصصا لسكنى حاكم إقليم السند الانجليزى ، ثم خصص فى عام ١٩٤٧ للحاكم ، الباكستانى .

وليس فى وسع من يتمثل باكستان أن يتجاوز بالحديث رجلين فى تاريخها : **أحدهما شاعر باكستان محمد إقبال ، وثانيهما مؤسس باكستان محمد على جناح .**

فأما الشاعر محمد إقبال ، فإننى لم أعرفه إلا من طريق شعره الذى نقله إلى العربية أستاذنا الدكتور عبد الوهاب عزام ، غير أن الشاعر مهما تبلغ ترجمته من الدقة ، لا يمكن أن ينقل إلينا تلك النفحة العلوية التى تمس حروف اللغة ، فإذا هى فتنة من فتن العقول وسحر خاو من سحر القلوب والنفوس .

وأما القائد الأعظم محمد على جناح ، فإنه هو الذى غرس الشجرة التى أثمرت دولة باكستان ثم راح ـ رضى الله عنه ـ يتعهدها فيجنبها العواصف الهوج حتى ضربت جذورها فى الأرض وشمخت فروعها فى السماء ، ولم يبق إلا أن تؤتى أكلها بإذن ربها أمنا سائغا للخائفين ، وأملا طيبا تقوم به الحجة على أن الإسلام خير لأهله بمقدار ما هو خير للانسانية كلها .

ولقد كانت باكستان أحسن المنى فى فلسفة وخيال إقبال ، ثم برزت أطيب الثمار على يد القائد الأعظم محمد على جناح ، وإنى لأعلم أن الناس حول قيام دولة باكستان أحد رجلين : جاهل لا يعلم ، أو جاحد لا ينزل على حكم ما يعلم ، وكلا الرجلين

لا يكف عن مهاجمة تقسيم الهند إلى هندستان وباكستان ، وهم يستندون فى هذا الهجوم إلى حجج يمليها منطق هو بالمعرفة القاصرة أشبه منه بالحق المبين ، وإلا فإن المسلمين لم يكن لهم بد من إقامة دولة باكستان لكى تجمع شتاتهم وتسبغ عليهم ظلال الأمن والسكينة .

وربما أيد هذا المعنى ما كان يذكره هندى جامعى مسلم من أنه هو الذى ابتدع اسم باكستان وكونه من حروف ومقطع يشير إلى أسماء المقاطعات الهندية التى يؤلف المسلمون فيها أغلبية السكان ، والتى كان يراد للدولة الجديدة أن تتألف منها . وبيان ذلك أن الباء مأخوذة من « **بنجاب** » و « **الألف** » اللينة مأخوذة من « **باتان** » مقاطعة الحدود الشمالية الغربية ، **والكاف** مأخوذة من « **كشمير** » ، **والسين** مأخوذة من « **السند** » والمقطع « **تان** » مأخوذ من « **بلوخستان** » .

وفى قصر الحاكم العام أقيم حفل عشاء للرئيس وصحبه ، وكبار رجال دولة باكستان ، وفى هذا الحفل أذكر أن السيد غلام محمد الحاكم العام قال فى خطبته : « إن وراء شعب مصر ماضيا مجيدا ، وهم يمثلون حضارة من أقدم حضارات التاريخ ، وإننى لأذكر منذ أيام شبابى أننى كنت دائم التطلع إلى قيادة الشعوب الاسلامية العظيمة ، المكافحة فى سبيل الحرية ، وإنى لعلى ثقة من أنه ما ظل نور الحرية مشرقا ، فإن بلدينا ستقفان جنبا إلى جنب ، وإن أملى كبير فى أن تنمو بيننا روابط الصداقة والتعامل ، وأن تظل مصر كما كانت دائما منبعا عظيما من منابع العلوم والثقافة الاسلامية : ذلك المنبع الذى تمثله خير تمثيل الجامعة الأزهرية الكبرى التى يرتوى منها العالم الاسلامى كله .

وقد رد الرئيس عبد الناصر قائلا : إننى أعيش الآن أسعد لحظات حياتى ، ولقد كنت أتمنى أن أزور الشقيقة العزيزة باكستان التى أكن لها مع زملائى هنا أعظم الحب وأعمق الاحترام ، وإنى لأتقبل كلمتكم لأنها صادرة من صديق إلى صديق ، ولقد أشرتم إلى نقطة مشرقة فى حياتى ، ثم ما أشرتم به إلى الأزهر الذى يسعدنى أن أذكر أنه ممثل خير تمثيل هنا فى هذا الوفد بصديقى الشيخ الباقورى ، وهو يشترك معنا فى بهجة وجودنا اليوم بينكم .

ويطيب لى أن أسجل هنا ما كتبه الأستاذ محمد حسنين هيكل فى يوميات « أخبار اليوم » يوم ١٦/ ٤/ ١٩٥٥ وذلك حيث يقول فى وصف هذا الحفل :

كانت الفخامة تطبع كل شيء . . كان الجمال فى كل ركن . . كان قصر الحاكم العام للباكستان يسبح فى الضوء الباهر ، فى تلك الليلة التى أقام فيها السيد غلام محمد حاكم عام الباكستان حفلته الكبرى لتكريم جمال عبد الناصر . وكانت القاعة الكبرى كأنها خيال . . ياوران الحاكم العام فى ملابس السهرة العسكرية الملونة ، وسيوف الذهب وكردونات القصب تتدلى من الجوانب والأكتاف ، كبار المدعوين فى

ملابس السهرة الأنيقة . . القاعة تزينها صور فى إطارات من الفضة والذهب لكل ملوك العالم ورؤسائه . . حرس الحاكم العام فى أركان القاعة بملابسهم التقليدية بألوانها الخضراء والحمراء والبيضاء ، يقفون فى الأركان يحملون الحراب الطويلة تتدلى الأعلام منها ، وكل واحد منهم يبدو فى وقفته الجامدة كأنه تمثال . . كأنه تمثال نسيته الامبراطورية البريطانية من أيام عزها فى هذا المكان فتسمر فيه حتى اليوم ولم يتحرك منه قيد أنمله . . السيدات فى ملابس السهرة الجميلة والمجوهرات المضيئة تلمع حول الأعناق المرتفعة فى كبرياء ، وأدرت بصرى فى الجو كله ومضيت أبحث عنه ، واحد بالذات وسط هذا كله ، كنت أريد أن أراه وعثرت عليه أخيرا فى ركن من القاعة واقفا بالعمامة والكاكولا واقتربت منه من الشيخ أحمد حسن الباقورى وزير الأوقاف المصرى وقلت له وأنا ابتسم هيه . . كيف الحال ؟ وقال وهو يهز رأسه لا بأس . . قلت ، هل وجدت مكانك على مائدة العشاء ؟ لقد أخذت نسخة من مدير البروتوكول فى القصر لرسم المائدة ، وهذا هو مكانك عليها . إنك ستجلس بين سيدتين : **البيجوم عابد حسين شاه على يسارك والبيجوم اسكندر ميرزا على يمينك .**

وقال الشيخ الباقورى ماذا ؟ إلى هنا ولا : أنا معتذر .

وقلت وأنا أغرق فى الضحك : لا تستطيع أن تعتذر . وقال الشيخ الباقورى وهو يَزُم شفتيه وينفخ فى الهواء من فمه ، ولكنى لا أستطيع أن أجلس . . ماذا سأقول لهن ، بيجوم على اليمين وبيجوم على اليسار وأنا بينهما لا أحسن « الرطان » ، وهبونى استطعت أن « أرطن » فماذا أقول لهن ؟ .

ولم تطل المناقشة بيننا على أى حال ، فما لبث أحد ياوران الحاكم العام أن دق الأرض بحربته وقال بصوت رهيب بأمر الحاكم العام تقدموا أيها السيدات والسادة إلى قاعة الطعام ، أو صالة العشاء .

واتجه الحاكم العام السيد غلام محمد بملابس السهرة ، وبجواره الرئيس جمال عبد الناصر بملابسه العسكرية العادية التى اعتبرها ملابسه الرسمية فى الليل والنهار ـ خلال زيارته لآسيا ـ على رأس الموكب فى قاعة العشاء . وبدأ كل واحد من المدعويين يجلس فى مكانه على المائدة الهائلة التى امتدت لكى يجلس عليها مائة مدعو . وكنت من مكانى أتطلع إلى رجل واحد . . الشيخ الباقورى ولم أستطع أن أخفى الابتسامة وبصرى يقع عليه فى مكانه على المائدة بالعمامة والكاكولا ، وعلى اليمين بيجوم وعلى اليسار بيجوم ، وهو بينهما ساكت يكتفى بابتسامة صغيرة وضعها على شفتيه ، وانتهيت من طبق الحساء ورفعت بصرى إلى الشيخ الباقورى ، ولكنه لم يكن كما تركته ببصرى منذ دقائق ، كان متلفتا إلى البيجوم اسكندر ميرزا قرينة وزير الداخلية ـ أقوى رجل فى الباكستان ـ يتكلم معها ويبتسم ، وهى تبتسم أيضا ، وحملقت فيه بدهشة ، ثم شغلت عنه بطبق من السمك وضعوه أمامى وكان الحبهان

يغطى سطحه كله ، وانهمكت أزيح الحبهان الذى كانت رائحته تعربد فى خياشيمى لكى أصل إلى قطعة السمك تحته ، وانتهيت من السمك ورفعت رأسى مرة أخرى . . اتجهت ببصرى إلى الشيخ الباقورى ، وفى هذه المرة كان الشيخ الباقورى ملتفتا إلى اليمين يتحدث إلى البيجوم عابد حسين شاه ، وكان يبتسم وهى تبتسم أيضا ، ولم يستطع الطبق الثالث أن يشغلنى عن الشيخ الباقورى ، فقد تأملت الطبق الثالث ويئست من قدرتى على التهامه ، كان غارقا من « الكارى » الأصفر ، وكان الفلفل الأسود يغطى حبات الأرز فلا تبين .

وكدت لا أصدق نفسى وأنا أنظر إلى الشيخ الباقورى جالسا هناك وسط الأضواء الأنيقة وبيجوم هنا ، وبيجوم من هناك ، وهو يتحدث إلى اليمين تارة وإلى اليسار تارة ، كان يتكلم بلا جدال فإن شفتيه كانتا تتحركان ، وكان يتكلم فى طلاقة بلا شك ، فإن البيجوم التى على اليسار كانت ترد عليه ، والبيجوم على اليمين تغرق فى الضحك على أثر ملاحظة قالها لها . ها هو ذا أمامى خريج الأزهر بالعمامة والكاكولا وقامته الفارعة ، وقد تحول إلى رجل صالون من الطراز الأول ، وانتهى العشاء ، وأسرعت متلهفا إلى حيث كان ، وقلت له فى حماسة تحياتى للأزهر . وقال الشيخ الباقورى وهو يهز رأسه ويقول بصوته العريض العميق المبتسم ـ يا سيدى تلك بعض كراماته .

وليس من شك فى أن الإسلام هو الذى جمع قلوب المسلمين فى باكستان كما جمع قلوب المسلمين فى غير باكستان حول جمال عبد الناصر ، وإلا فليس بيننا نحن المصريين وبين الباكستانيين المسلمين ، والهنود المسلمين ، والأفريقيين المسلمين صلة من جنس ، أو عرق ، أو لغة تجمعنا بهم ، وتشد إلينا عواطفهم ، والزعم بأن المصلحة المشتركة هى التى تجمع القلوب كلام لا ينصره الواقع ولا يؤيده التاريخ ، فإن المصالح المشتركة لابد لها من فلسفة تقوم عليها ، ومبادىء تدور حولها ، والدين أو المذهب هو هذه القاعدة التى تقوم عليها المصلحة المشتركة ، فتجمع من حولها أصحاب هذه المصلحة . وإذن فالجامع ـ عند التحقيق ـ ليس هو المصلحة بل هو الدين أو المبدأ ، والمصلحة تابعة لذلك .

والدين بلا ريب ـ هو أقوى رابطة تربط مشاعر الناس وتجمع بين قلوبهم . والإسلام بين الديانات جميعا هو الفارد بالقدرة على مالا يقدر عليه غيره فى هذا المقام . فالتفريط فيه : تفريط فى معنى غال عزيز لا ينتفع به المسلمون وحدهم ، ولكن تنتفع به الانسانية كلها فى كل مكان .

وليس يسعنى أن أجاوز هذا المقام دون أن اذكر ـ لله ثم للتاريخ ـ كلمة للرئيس عبد الناصر أجاب بها وفدا إسلاميا على سؤال وجهه إليه يعاتبه فيه على أن صلته بالهند أوثق من صلته بالباكستان . وقد كان الأمر يقتضى غير ذلك من حيث كان هو

زعيم شعب مسلم فى دولة مسلمة . وكان من حق ذلك عليه أن تكون صلته بالباكستان أوثق بصلته من الهند ، أو أن تكون الصلتان - على الأقل - فى منزلة واحدة . فكان جوابه رحمه الله أن باكستان دولة ذات سيادة ، وذات جيش قوى وذات كيان دولى ، فهى من ذلك كله فى أمن مكفول بقوتها الذاتية ومنزلتها الدولية . ولكن المسلمين فى الهند ليس لهم شىء مما لباكستان . ولذلك تكون صداقته للهند أبين نفعا وأحسن عاقبة . وهو - كما ترى - جواب صادق بصير يتناول الأمور من أفق بعيد . وحسن الظن بالرجل هو القاضى على هذا المنطق بالخطأ أو بالصواب .

زيارة للهنـــد

ثم انتقلنا بعد الباكستان إلى الهند وكان طبيعيا أن ننزل فى نيودلهى العاصمة ، وقد كان العرب يسمون هذه المدينة « دهلى » كما يبدو ذلك فى نسبة علماء فضلاء إليها من أمثال العلامة الجليل الإمام الدهلوى مؤلف كتاب « الفوز الكبير » .

فلما استعمر الانجليز الهند غيروا اسم العاصمة إلى نيودلهى .

وفى هذه المدينة العريقة التى نزلنا ضيوفا فيها لعدة أيام ، كان يزورنى كثيرا المرحوم اسماعيل كامل سفير مصر لدى حكومة الهند يومئذ . وقد كان الرجل قريبا إلى قلوب عارفيه ، وفى طليعتهم الزعيم نهرو ، إذ كان الرجل طيب القلب تدركه أحيانا غفلة الطيبين من عباد الله ، وقد وقعت به طيبته هذه على خطأ غير مقصود أحيل بسببه إلى التقاعد ، وذلك أنه كان قد قدمنا بوصفه سفيرا لمصر فى الهند إلى بعض الكبار من الهنود ، ولكنه حين قدم الصاغ صلاح سالم ، قدمه باسم صالح سليم لاعب الكرة المشهور ، فغضب صلاح سالم على السفير الطيب الذى لم يقصد إلى تحوير اسمه ، ولكنها كانت عثرة لسان يقع فى مثلها كثير من الناس .

وقد كان من المؤسف أن يحال الرجل إلى التقاعد بسبب هذه العثرة فى اليوم الذى واقعها فيها .

وقد أسف جميع المصريين فى الهند ، وكثير من الهنود لاحالة الرجل إلى التقاعد بسبب عثرة لسان تافهة لا يترتب عليها أى ضرر ، ولا يقترن بها أى سوء نية ، ولهذا أمر الرئيس عبد الناصر أن يبقى الرجل فى الهند تقديرا لمنزلته فى أنفس عارفيه من المصريين ، وغير المصريين .

وذات يوم جاء يزورنى ، ثم راح يتحدث عن أبى الكلام ازاد وزير المعارف فى الجمهورية الهندية ، وكان حديثا طويلا شاقنى إلى رؤية الرجل العلامة زائرا أو مزورا - وفى يوم تال صحبنى مع أزهرى هندى إلى العالم الفاضل والوطنى الغيور

أزاد ، فإذا بحر من العلم لا ساحل له ثم إذا هو ـ مع ذلك ـ ذو بصر نافذ فى أمور الدنيا وأمور الدين .

كان رحمه الله موضع حب وتكريم الزعيم « نهرو » حتى لقد علمت بعد ذلك بزمن أن الرجل حين مَرض مرض الموت ، كان نهرو يجالسه على فراش مرضه ويخلل أصابعه بيده مبالغة فى تَكريمه ، وتقديرا لمواقفه الوطنية التى وضعته فى الصدارة بين شرفاء الوطنيين الذين استطاعوا أن يجمعوا بين حب الناس جميعا فى الهند على اختلاف مذاهبهم ، ومشاربهم وعقائدهم ودياناتهم .

تكريم الحكام الأجانب

مهما طال الأمر فلم انس مجلسى معه ذات يوم فى قاعة وسيعة فى قصر أنيق تحيط به مروج خضر ، وتتراقص من حوله شجيرات صغيرة تزينها أزهار جميلة تملأ أجواء القصر بالشذى العطر والعبير الفواح .

ذلك أننى فى مجلسى معه فى تلك الغرفة الفسيحة ، رحت أتطلع إلى صور حكام الهند من البريطانيين تعلو جدران القاعة ، فالتفت الرجل إلى ، ثم قال ـ فيما يشبه الانفعال ـ لعلك تعجب من وجود هذه الصور فى هذه القاعة فتقول لنفسك كيف يكرم رجال الهند أولئك المستعمرين ، ولكن هذا الذى يجول فى خاطرك وقد تستنكره ، هو جزء من تاريخنا ، ولن يزول هذا التاريخ إن خططنا على الجدران هذه الصور ، أو القينا بها فى تيار الأنهار . وإن فى بقائها لتذكرة تظل بها العبرة ماثلة لأعيننا قائمة فى صدورنا ، تنتفع بها الأجيال القابلة فى الأخذ عن هؤلاء وقومهم ما ينفع بلادنا ، ويعلو بصورة حياتنا ، وآثار الغابرين حين تبقى لتكون عبرة خير من التنكر لها والاعتداء عليها ، لأن استبقاء العبر من الأمور الموصولة بأدب الله فى كتابه الكريم .

الوصـول لأندونيسـيا

ولما انتهت الزيارة للهند اتخذنا طريقنا إلى اندونيسيا ، وكان وفد الهند المؤلف من البانديت نهرو ، وابنته السيدة انديرا وآخرين معنا على الطائرة نفسها ، وقد رغب هؤلاء السادة أن ننزل فى بورما ليوم أو يومين رغبة منهم فى مشاركة أهل بورما عيدهم الذى يجىء مع فيضان الأنهار ، ولم نكن نعلم أن من تقاليدهم المقدسة رش الماء على الضيوف تحية لهم . وما كان أشد دهشتنا حين رأينا رئيس وزراء بورما اينونو يستقبل الوفود ، وفى يده إناء ملىء بالماء فيرشه على أعضاء الوفود ، وكان فى

مقدمة هؤلاء عبد الناصر ونهرو ، وبعد انتهاء هذا الاستقبال نقلتنا السيارات إلى المكان المعد لنزول الوفود . وقد كان الجو شديد الحرارة ، وكان أهل رانجون فى أيديهم خراطيم من الماء يصبونها إلى المارة مهما تكن منزلتهم . وهنا كنا بين أحد أمرين كلاهما شر ، فإما أن نغلق نوافذ السيارات فنختنق من شدة الحر ، وإما أن نفتحها فنغرق بالماء من الخراطيم .

وقد كان موقفى فى ذلك اليوم يسر العدو ويسوء الصديق ، ذلك أن سائر الوفود كانت مكشوفة الراس فلا يؤذيها الماء ، أما أنا فقد كنت أرتدى العمامة فإذا أصابها الماء كان المنظر مثيرا للضحك ، ولهذا آثرت أن أغلق نوافذ السيارة إتقاء للماء مهما كان الحر شديدا خانقا ، ومازلت فى هذا الجو الخانق حتى بلغنا الدار التى أعدت لضيافتنا ، وقد كانت مدرسة للتلاميذ غير مستعدة لنزول مريح ، فإذا تركنا النوافذ مغلقة فالحر خانق ، وإذا فتحنا الشبابيك ، فهناك متربصون بنا يوجهون خراطيمهم إلينا ونحن فى المدرسة .

ولم يكن فى وسع أحد من ذوى النفوذ أن يمنعهم من رش الماء لأن اليوم عيد ، والحرية فى الأعياد مكفولة لا يجوز الاعتداء عليها مهما تكن الأسباب ، ولا ريب أن منظر القوم فى ثيابهم المبتلة بالماء كان مثيرا للضحك ، وداعيا إلى المرح الذى هو أخص خصائص الأعياد .

وقد أذكر أننا حين جلسنا فى هذه المدرسة لجأنا إلى حديث السمو نستعين به على قضاء الوقت الذى كان يمر فى بطء شديد ، وكان من الأحاديث التى ذكرتها ـ لزميلى فى الإقامة بالمدرسة ـ السيد محمود فوزى وزير الخارجية والسيد عبد الخالق حسونه امين الجامعة العربية حديث يتصل بمصر القديمة فى بعض اعيادها إبّان فيضان نهر النيل ، وكأن الأعياد تشترك فى معنى لابد منه للبهجة والمرح بغير ضوابط وبغير حدود : وذلك أن العلامة القلقشندى قد ذكر أن من أعياد الأقباط المشهورة بالديار المصرية عيد النيروز ، وهو أول يوم فى سنتهم ، مع ان لفظة النيروز فارسية معربة ، وقد كانوا فى هذا العيد يظهرون من الفرح والسرور ما تضيق به الصدور ، وينافى معنى العيد ، ذلك أنهم كانوا يصبون الماء غزيرا على كل من يمشى فى طريق ، وربما لجأوا إلى التصافح بالأكف ، وبقطع من الجلود ، وهم فى ذلك العمل يتركون الاحتشام حتى يستوى فى تقديرهم سواد الشعب والرجل المطاع فى قومه ، ولولا أن ولاة الأمر يردعونهم لمنعوا الطريق فلا يمر بها أحد ، وهم فى ذلك لا يتركون من ظفروا به إلا إذا أرضاهم بما يشاءون .

وأعياد الطبيعة تدعو إلى المساواة بين الناس فى مشاعرهم مهما اختلفت بهم الديار . ومع ان هذا اليوم فى رانجون كان يوم فرح تنشرح له الصدور ، لكنه بالنسبة

إلينا كان يوما شاقا يستلزم المبادرة إلى الرحيل ، وعل ذلك أخذنا الطريق إلى أندونيسيا ، وفى عاصمتها جاكرتا استقر بنا المقام ريثما نأخذ الطريق إلى باندونج ، فلمّا بلغنا مدينة باندونج خيّل إلينا أنه لم يبق اندونيسى واحد فى بيته ، ثم هبطنا من الطائرة لنستقل السيارة إلى المكان الذى أعدوه لإقامة الوفود . ولست أنسى أننى رغبت إلى أخى وزميلى المرحوم الدكتور محمود فوزى وزير الخارجية أن يركب على اليمين تكريما له ، ولكنه اجابنى إلى رغبتى مشترطا أن أتنازل له عن عمامتى ، وقد كان هذا الشرط غريبا فى نظرى ، ولكنه قال لى فى أدب جم ، وإصرار حاسم إن هذه الألوف التى تكاد تقبل الأرض التى تسير عليها ـ احتراما للأزهر وهتافا له ـ سوف تتسارع إلى الفتك بى إذا رأتنى جالسا فى السيارة على اليمين ، ورأسى مكشوف ، وأنت بعمامتك الأزهرية تجلس على اليسار ، ولهذا رغبت إليك أن تعطينى عمامتك لكى تكون التحية للأزهر الشريف ماثلة فى العمامة .

والحق أن هذه الآلاف التى كانت تستقبل الوفود إنما كانوا يتجهون بتحياتهم وهتافاتهم إلى الأزهر الشريف فى العمامة التى تعلو رأسى ، وعلى طول الطريق من المطار إلى الفندق الذى أعدوه لنزولنا لم ينقطع الهتاف للأزهر ، وللإسلام ، وسبب ذلك ـ فى مبلغ ما أعلم ـ أن هذه البلاد مرت بأطوار ذاقت فيها من بلاء التعالى بالعنصرية على يد هولندا واليابان والمستشرقين ما انقذها منه الاسلام بما يدعو إليه من أن الناس سواسية كأسنان المشط لا يفضل أحد أحداً إلا بمقدار ما يقدم للمجتمع الانسانى من أمن وسكينة وسلام .

وليس يخفى عليك ـ حفظك الله ـ أن هذه البلاد التى تسمى أندونيسيا تتألف من عشرات الجزر الرابضة فى المحيط ، وأن أهم الجزر التى انتشر فيها الاسلام جزيرتا جاوة وسومطرة . فقد بدأ الاسلام ينتشر هناك فى أواسط القرن الرابع عشر الميلادى ، ويرجع الفضل فى انتشاره إلى الدعاة المسلمين ، وفى طليعتهم مولانا الملك ابراهيم الذى لا يزال قبره فى احدى بلاد سورابايا فى جزيرة جاوة ، وكذلك قبر الأمير محمد بن عبد القادر من ذرية الخليفة المستنصر العباسى ، وهو لا يزال إلى الآن فى بلدة بازة .

ومازال الإسلام يتغلب فى تلك الأقطار بواسطة التجار المسلمين الذين وفدوا عليها من الهند مقتفين آثار تجار الهندوس الذين كانوا يترددون على تلك البلاد ويطبعون أهلها بطابع مدنيتهم البرهمية ، فجاء الإسلام بدعوته السمحاء يوقظهم من غفوتهم حتى غلب على جميعهم بطرق سلمية لا تعرف القهر ، ولا تلجأ إلى الاكراه بوسيلة من وسائله المادية ، أو الأدبية .

ولقد أمتد الإسلام إلى سومطرة من جاوة ، ثم شمل قسما من بورنيو ، وقد امتدح الرحالة ابن بطوطة ملك سومطرة فى القرن الرابع عشر واصفا اياه بأنه مجاهد



□ وفد فى مؤتمر باندونج الرئيس جمال عبد الناصر ، الدكتور محمود فوزى فصلاح سالم والشيخ الباقورى .

يدعو إلى السلام الذى لا يحتاج الانسان إلى شىء ، كما يحتاج اليه فى دنيا التعصب البغيض والعنصرية المقيتة .

ولقد رأيت القوم فى تلك البلاد يدرسون الفقه على مذهب الامام الشافعى ، وينتحلون التصوف على طريقة حجة الاسلام الامام الغزالى ، حتى إنك لتطلب إلى أحدهم أن يقرأ القرآن فيأتى أن يقرأه جالسا ، فاذا ألححت عليه فى ذلك وقف ثم قرأ فى لغة مبينة وحروف واضحة وخشوع عظيم .

وإذا كان على طالب المعرفة أن يلم بمظاهر بارزة فى هذا الشعب المسلم ، فليس يفوته أن يعرف عن السيد **محمد ناصر** رئيس **حزب ماشومى** وأحد رؤساء الوزراء أنه كان طالبا فى الأزهر الشريف ، وأنه كان يتردد مع اخوانه على درس الثلاثاء الذى كان يلقيه الامام الشهيد حسن البنا فى دار الاخوان المسلمين بالقاهرة . وقد كتب الرجل كتابا لأحد اخوانه ، وفيه يقول : « أحمد الله الذى هدانا للاسلام فجمع به شملنا ،

ووحد صفوفنا عن أمم اختلفت لغة وجنسا ودينا . وجعل سبحانه العربية وسيلة الاتصال ، والقرآن خير الوصال ، حتى أصبحنا امة واحدة تعمل عملا واحدا ، وتتطلع إلى أمل واحد هى أن تكون كلمة الاسلام هى العليا ، واصلى واسلم على النبى المختار سيدنا محمد أكرم الأبرار الذى نسق الانسانية بالأخلاق الفاضلة والقدوة الحسنة ، وجعل الاسلام دنيا ودولة ، عقيدة فى أصوله ، وروحا فى حكومة .

وقد كان الرجل مع رياسته للحكومة رئيسا لحزب ماشومى الذى لا يزال إلى اليوم حزبا قائما فى أندونيسيا ، وكلمة ماشومى » مأخوذة من كلمات أربع هى : « مجلس شورى مسلمى اندونيسيا » والصورة التى لا تكاد تفارق ذهنى هى تلك الصورة التى صحبت فيها السيد السفير على فهمى العمروسى لزيارة السيد محمد ناصر فى داره ، فأعجبنى منطقه المرتب ولغته المهذبة وكلمته التى ذكرنى بها ماضيا بعيدا إذ قال لى : إن الناس هنا فى رؤوس الجبال يتعرضون لمحنة شديدة ، وإننى مشفق عليهم من حرصهم الشديد على ألا تقهر قوى الدولة الاسلامية التى تتربص بها قوى كثيرة فى دنيا الاستعمار والمستعمرين .

وأذكر أننى قلت له إننى أذكرك بما كنا نسمعه من الأستاذ المرشد حسن البنا وهو يروى الحديث النبوى الشريف « لا تتمنوا لقاء العدو ، فاذا لقيتموه فأثبتوا » .

فلما هممنا بالانصراف بعد زيارة طويلة ممتعة رغب الينا أن نلقى زوجته لكى تستمع إلى رجل من علماء الأزهر الشريف ، وقد جمع منصب الدين إلى منصب الوزارة ، ولم يكن بد من أن نستجيب لرغبته ، فلما حضرت السيدة أخذت تتحدث عن الجهاد والمجاهدين ، وعن فضل الاسلام على اندونيسيا ، ثم رغبت إلى السفير العمروسى أن يتفضل على اهل هذه البلاد بعرض فيلم « بلال » فاستجاب السفير ، واعلن عن عرض الفيلم فى دار السفارة المصرية ، ولم أشهد من قبل زحاما تنسد به الطرق ويستحيل بسببه السير فى الشوارع ، كما شهدت ذلك فى هذا اليوم حتى لقد خيّل إلىّ أن جميع سكان البلد وضواحيه قد اجتمعوا لمشاهدة فيلم « بلال » فى هذه الليلة . ولا ابالغ إذا قلت إن عرض هذا الفيلم فى السفارة المصرية جعل مصر قبلة الوفود الأفريقية إذ كان هذا الفيلم قد أوحى اليهم أن زعامة مصر قادرة على أن تعينهم فى محاولتهم القضاء على الاستعلاء العنصرى ، فكانوا كثيرا ما يزورون الرئيس عبد الناصر فى القصر الذى أعدته له حكومة أندونيسيا فى ضواحى باندونج .

الجميع يحرصون على زيارة عبد الناصر

لم تكن وفود افريقيا وحدها هى التى تحرص على زيارة عبد الناصر ، بل كان كثير من الوفود يحرص على هذه الزيارة وفى طليعتهم ـ على ما أذكر ـ وفد الجمهورية

التركية ـ ووفد جمهورية الصين ، وكثيرا ما كانوا يتناولون مع الوفد المصرى عشاء خفيف كان الطف ما يقدم فيه الجبنة الدمياطى البيضاء التى كانت أثيرة لدى الجميع ، وخاصة الرئيس عبد الناصر الذى لم يكن يتخلى عنها فى رحلة من رحلاته .

وذات يوم اتصل بى فى الفندق الذى كنت أقيم فيه وزير الشئون الدينية ، ورغب إلى فى القاء خطبة الجمعة فى المسجد الكبير بمدينة باندونج ، فلما هممت بالاعتذار قال لى فى لهجة راجية إن الناس هنا يكادون يقدسون الأزهر الشريف ، وكل من ينتسب اليه ولن يقبلوا الاعتذار لأى سبب من الأسباب ، وخاصة أنهم رأوا القائمقام انور السادات يخطب الجمعة ، ويؤم المصلين بلباسه العسكرى فى هذا المسجد ، فمن غير المعقول أن يعتذر الشيخ الباقورى الداعية الاسلامى المعروف فى حين أنه يؤم المصلين احد الضباط . . ولم أجد بدأ من أن استجيب للدعوة . وكانت سفارة المملكة العربية السعودية دعت الوفود الاسلامية إلى حفل تعارف ، وكان رئيس الوفد الملك فيصل وكان يومئذ وليا للعهد ، وأذكر أننى حين لقيته فى السفارة رغب إلى فى حديث خاص ، ثم قال : بلغنى انك ستخطب الجمعة غدا ، واحب ان أقول لك كلمة إن أهل هذه البلاد يقدسون فلسطين ، ويتمنون أن يكونوا جميعا جنودا يدافعون عنها ، والحاج امين الحسينى موجود معنا ، واننى أرى لك أن تكرم فلسطين فى شخص الحاج امين ، فسألته عن صورة التكريم التى يقترحها علىّ ، فقال لى : إننى أرى أنك إذا خطبت الجمعة ، ونزلت من فوق المنبر لتؤم المصلين ، فقدم الحاج أمين الحسينى ليكون إماما للصلاة ، وبذلك تكون قد أرضيت شعب اندونيسيا بتكريم فلسطين فى شخص زعيمها الحاج أمين الحسينى ، وأنا لا اقول لك هذا الكلام إلا لأننى أثق بك ، وانت تعلم أن لك مكانة خاصة فى نفسى ، ومع ذلك فلا بأس أن تخبر الأخ جمال عبد الناصر بهذا الذى قلته لك .

وفى صباح يوم الجمعة بعث إلىّ الرئيس عبد الناصر احد الزملاء ليخبرنى بأنه سوف يجيء إلى الفندق ، ويصحبنى إلى المسجد لاداء صلاة الجمعة ، وفعلا حضر عبد الناصر فى الموعد المناسب ، وذهبنا معا إلى المسجد الكبير ، وإذا الشوارع تضيق بالناس الذين وفدوا إلى المدينة من كل مكان ليشهدوا صلاة الجمعة ، فلما انتهينا إلى المسجد ، تعالى الهتاف بالتكبير من داخل المسجد وخارجه ، ولم اشك فى أن هذا التكبير كان ملحوظا فيه تكريم الأزهر الشريف وتكريم الرئيس من أجل خطبته التى اشاد فيها بمكانة الأزهر فى العالم الاسلامى اشادة دونتها الصحف فى صفحاتها الأولى إلى جانب تاريخ طويل عن الأزهر ومدى ارتباط العالم الاسلامى به فى شئون السياسة وشئون الاجتماع . وفيما كنا فى الطريق إلى الصف الأول بين المصلين وقعت عيناى على منبر المسجد ، وقد احاط بمجلس الخطيب فيه مدفعان عن يمينه وعن يساره ولا اكتم القارىء الكريم سرا أننى تمثلت نفسى بعد لحظات بين هذين المدفعين ، فأخذتنى هيبة لم أعهدها فى نفسى من قبل ، على كثرة المواقف التى

واجهتها ، وكلها يدعو إلى استشعار الهيبة البالغة والخوف الشديد ، ذلك أننى سألت نفسى ما الذى حمل حكومة اندونيسيا على نصب المدافع فى مثل هذا الموقف الذى كان خطيب الجمعة فيه لا يجاوز سيفا خشبيا يمسكه بيده رمزا إلى أن الاسلام يعتز بالقوة المادية كما يعتز بالقوة الروحية على سواء . ولم أجد سببا يسوغ هذا التصرف إلا فى تصرف حزب ماشومى الذى كان يتزعمه الأخ محمد ناصر ، وكان أعضاء الحزب يعتصمون بقمم الجبال ورؤوسها فى ثورة جامحة تدعو إلى تغيير الأوضاع الدستورية فى سائر مقاطعات أندونيسيا .

وقد اتجه الرئيس عبد الناصر إلى مكانه اللائق بزعيم مصر الاسلامية بلد الأزهر الشريف ، فجلس بين الرئيس أحمد سوكارنو ، ورئيس وفد باكستان ، والأمير فيصل رئيس وفد العربية السعودية الشقيقة ، وسيف الاسلام الحسن رئيس وفد اليمن ، وسائر رؤساء الوفود الاسلامية المشتركة فى المؤتمر الأفريقى الآسيوى . ولما أذن المؤذن دعانى مندوب الشئون الدينية إلى اعتلاء المنبر ، وقد كنت أعددت خطبة الجمعة كعادتى على أصول ثلاثة يقوم عليها بناء الاسلام فى كل زمان ومكان ، وهى الحرية الشاملة ، والعدالة الكاملة ، والسلام العزيز . ولما فرغت من الخطبة اجمعت أن امضى الوصية التى قد زودنيها الأمير فيصل بن عبد العزيز فاستقبلت القبلة فى المحراب ، ثم دعوت الحاج أمين الحسينى رئيس الهيئة العربية العليا لفلسطين أن يؤم المصلين .

ومرة أخرى رأيت التكبير والتهليل داخل المسجد وخارجه يكاد يبلغ عنان السماء وتقدم المفتى ، فأم المصلين وقرأ سورة الانشراح وكان صوته يغمره الخشوع ، وتكاد تخنقه العبرات وهو يقرأ : « فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا » .

وقد كانت وزارة الشئون الدينية اثرت أن تترجم خطبة الجمعة من اللغة العربية إلى اللغة الوطنية ، ولقد خيل إلىّ وأنا أغادر مجلسى بين المصلين إلى خارج المسجد أننى قد أصبحت شيخ طريقة يتبرك الناس بتقبيل طرف جبته ويديه وجميع ما تناله أيديهم منه . وعلى كل حال لقد دخلت باندونج فى غمار الناس وخرجت منها مصريا ومعروفا مقدورا ، والفضل فى ذلك لخطبة الجمعة فقد تلقاها الشعب والوفود العربية بالكثير من التقدير والاحترام وقد أذاعتها الاذاعة مترجمة إلى الأندونيسية يوما كاملا .

مديح عبد الناصر أزعجنى

فلما أخذت مكانى إلى جانب الرئيس عبد الناصر فى سيارته همس فى أذنى

قائلا : « مافيش أقوى من العاطفة الدينية فى الدنيا ، وخصوصا أهل هذه البلاد اللى كانوا عمالين يبوسوا إيديك وجبتك وكل حته توصل ايدهم اليها منك ، ولا شك إن المراقبين اللى من الغرب والشرق شافوا المسلمين ومقدار حبهم والتفافهم حولك ، حتى أصبحت فى رأى هؤلاء زعيما يؤيدك الغرب ويتملقك الشرق ، وإن شاء الله تنتفع بك الثورة عالميا ، كما انتفعت بك داخل مصر . ولا ريب أن هذه الكلمات اسعدتنى بمقدار ما أزعجتنى لأنها كلمات لم أعهدها فى لغته من قبل ، ثم لأنها تستهدف معنى بعيدا وغاية خطيرة .

ولم يكن الرجل ليقول كلاما إلا وهو يريد معنى ما يقول ، ولست اكتمك ـ أعزك الله ـ انني منذ ذلك اليوم بدات اتعامل معه فى حذر بالغ وحرص شديد .

وأخـــيرا الصين

وفى مساء ذلك اليوم الذى انتهى فيه مؤتمر باندونج قصدنا إلى زيارته مساء كما تعودنا من قبل ، وقد كان خارج القصر ، فلما حضر قال ، لقد أعلن الرئيس شواين لاى فى خطبته أن الصين دولة علمانية لا صلة لها بالدين ، ولكنها تحترم الأقليات ومختلف القوميات ، ثم قال ، إنه يوجه دعوة باسم الزعيم « مـاو » لزيارة الصين فمن أراد فإن حكومة الصين ترحب به ، ثم وجه الكلام إلىّ فقال : إننى أرى أن تسافر إلى الصين لزيارة المسلمين هناك .

وقد كان يجلس إلى جانبى الصاغ صلاح سالم الذى قال : أظن أحسن نذهب إلى الصين لأن مصلحة مصر فى ذلك . فقال الرئيس عبد الناصر ردا على صلاح سالم أنا أقول الشيخ الباقورى يذهب إلى الصين بصفته وزيرا فى الثورة للأوقاف ، ثم بصفته رجلا من رجال الأزهر الذى يحمل رسالة الاسلام ، فزيارته للمسلمين فى الصين لها معنى وأنت يا صلاح لا صلة لك بهذا . وفى نفس المجلس تقرر أن يسافر الدكتور محمود فوزى وزير الخارجية إلى اليابان .

وبعد أيام قليلة زارنى فى الفندق سفير الصين وسالنى عن رغباتى التى تتعلق بهذه الزيارة ، فذكرت له أن الوفد الصينى فى مؤتمر باندونج كان يتألف من السيد لى ـ يو ـ سن «نور محمد » رئيس الجمعية الصينية الاسلامية ، وهو زميل لى فى كلية أصول الدين من كليات الأزهر الشريف ، ثم من السيد لو ـ لن ـ شو « رضوان محمد » وقد كان من الذين تلقوا على الدروس لما كنت مدرسا فى معهد القاهرة الأزهرى .

ومعروف أن كل مسلم صينى له اسمان اسم وطنى ، وإلى جانبه اسم

اسلامى ، وقد حرصت على أن يكون السيد رضوان محمد ـ تلميذى فى القاهرة ـ مرافقا لى فى مختلف زياراتى فى الصين لأنه من تلامذتى فى الأزهر ، ويستطيع أن يقوم بالترجمة الأمينة بينى وبين الصينيين ، وفى اليوم الثانى دعانى السفير الصينى إلى العشاء ، وكان معى مرافقى فى الرحلة الدكتور مصطفى كامل المدرس بجامعة القاهرة ، والذى لم يكن لى به سابق معرفة .

وفى مطار بكين رأينا بين المستقبلين زميلى فى الأزهر الشيخ نور محمد رئيس الرابطة الإسلامية فى الصين ، والشيخ عبد الرحيم ماسونج كونج رئيس رابطة الثقافة الإسلامية ، وشين شونج وزير الثقافة وشانج ـ هان ـ فو نائب وزير الخارجية ثم ون ـ هان عمدة بكين .

وكان علينا بعد هذا اللقاء أن نقابل الرئيس شواين لاى رئيس الوزراء ، وفى المساء دعينا إلى لقائه فى مجلس الوزراء ، وقد استقبلنا الرجل على باب مكتبه فى أدب جم ، وترحيب يقوم على المودة والاحترام ، وقد عرف أهل الصين بذلك فى تاريخهم الطويل ، وهم حريصون أبلغ الحرص على الاعتزاز بشعائر قوميتهم وتقديس موروثاتهم عن أسلافهم فى كل ميادين الحياة السياسية ، والاجتماعية والاقتصادية .

ولا يفوتنى أن أذكر مثالا لهذا الحرص الشديد ، فإننا لأول ما صافحنا الرجل ـ حياه زميلى دكتور مصطفى كامل بالفرنسية ، ولكنه رد باللغة الصينية التى ترجمها لنا تلميذى السيد رضوان محمد مع أن شواين لاى كان حاصلا على درجة الدكتوراه من جامعات فرنسا ! !

ثم قال لى شواين لاى : « إننا التقينا فى باندونج ، وأرجو أن يكون لقاؤنا فى الصين امتدادا للحديث الودى الذى بدأته فى مجلس الرئيس عبد الناصر ، وإنى أنتهز هذه الفرصة لأشكر له أنه اختار لزيارة الصين وزيرا مسلما تعلم فى الأزهر الذى يقدسه المسلمون فى الصين ـ وقد كان يتولى الترجمة بين الرئيس الصينى وبينى ، تلميذى الصينى الأزهرى لو ـ لن ـ شو أو رضوان محمد اسمه المسلم .

زيارة الصين فى إذاعة لندن

وقد أشارت الصحف وأجهزة الاعلام العالمية إلى الحفاوة البالغة التى كان يحوطنى بها الشعب الصينى سواء فى ذلك المسلمون وغير المسلمين ، فقالت إذاعة لندن يوم ١٩٥٥/٥/٣٠ إن وكالة الصين الجديدة للأنباء أذاعت أن الشيخ أحمد حسن الباقورى وزير الأوقاف المصرى ، والسيد مصطفى كامل الأستاذ بجامعة القاهرة قد تبادلا وجهات النظر فى تنمية العلاقات التجارية بين مصر والصين مع وزير



□ كان الشيخ الباقورى محل حفاوة وتقدير بالغين من الزعيم الصينى شواين لاى (صورة تجمعهما معا فى بكين عام ١٩٥٧) .

التجارة الصينى شى ـ شوانج ، وقالت الوكالة إن الضيفين المصريين قد تباحثا أيضا مع كبار موظفى وزارة الزراعة ، وأكاديمية العلوم والجمعية الاسلامية ، وإن الفريقين قد وصلا إلى اتفاق بشأن عدد كبير من المسائل المتعلقة بتبادل العلاقات الثقافية والتجارية بين البلدين ، وقد اشترك فى هذه المحادثات شين ـ شو ـ خوى وزير الشئون الثقافية ونور محمد رئيس الجمعية الاسلامية ونائبه ، وقالت مجلة المصور يوم ١٩٥٥/٦/٢ :

« لم يقابل زائر ـ باستثناء نهرو ـ بمثل الحفاوة والتكريم اللذين قوبل بهما الشيخ أحمد حسن الباقورى وزير الأوقاف ، والدكتور مصطفى كامل الأستاذ بجامعة القاهرة فى رحلتهما إلى الصين ، فإن المسئولين هنا يرحبون بهما ترحيبا شديدا ، ويرون فيهما مصر احدى الدعامات الثلاث التى تقوم عليها يقظة الشرق وتحريره ودعوته إلى السلام ، أما الدعامتان الأخريان فهما الهند والصين .

ولقد بدأت رحلة الأستاذ الباقورى إلى الصين بداية طيبة ، فعندما تقرر أن يسافر هو وزميله إلى الصين ظهر أن جوازى سفريهما لم يدرج فيهما اسم الصين ،

ولذلك دارت الاتصالات بين السفارتين المصرية والصينية فى جاكارتا ، وانتهت المشكلة بعد أربعة أيام تأخر فيها الشيخ الباقورى وزميله عن الرحلة .

وقد أعد القصر الجمهورى فى بكين نظام غذاء خاص بالشيخ الباقورى لمناسبة رمضان ، وعين طاه مسلم لاعداد وجبات الافطار والسحور فى شهر رمضان ، وقد تأثر الشيخ الباقورى من الترحيب الذى غمره به قادة الصين ورجال حكومتها وزعماء مسلميها ، وأعلن سيادته بتبرعه بألفى جنيه لفقراء المسلمين ، وبألفى جنيه لغير المسلمين ، ونظمت حكومة الصين برنامجا لزيارة الوزير المصرى حتى يقف على جميع نواحى النشاط فى الصين ، وبدأ البرنامج بمعهد بكين للدراسات الاسلامية ، وهو معهد خاص أنشأه المسلمون بمعاونة الحكومة بعد الثورة ، وقد تحدث الوزير الباقورى إلى طلبة المعهد ، وألقى خطابا دعاهم فيه إلى تعلم اللغة العربية ، وقد أعجب سيادته بالطلبة عندما قام بعضهم بتلاوة أى الذكر الحكيم ، وقرأ الوزير الفاتحة مع طلبة المعهد وأساتذته .

ثم زار مسجد بكين ، وطاف به مع إمامه الذى شرح له تاريخ المسجد والطراز الصينى الذى بنى عليه ، وقد أرادوا أن يؤكدوا للشيخ الباقورى أن حرية الدين مكفولة ، فأقامت له رابطة المسلمين فى بكين بالاشتراك مع رابطة تنمية ثقافة الشعب الاسلامى الصينى مأدبة كبيرة ألقى خلالها السيد نور محمد نائب رئيس الرابطة خطابا رحب فيه بالوزير المصرى ، وقد رد عليه الشيخ الباقورى فقال : إننى راض كل الرضا عن أحوال المسلمين هنا ، وقد تأكدت أن حرية الأديان مكفولة فى الصين ، ثم تمنى أن تنمو علاقات طيبة بين مصر والصين .

وكان أهم الزيارات التى قام بها الشيخ الباقورى وزميله فى الصين الزيارة لوزارة التوجيه الاقتصادى ، فهناك رحب وزيرها « شانج - دى » وسكرتيرها العام « هو - مو - شياد » بهما وشرحا للضيف المصرى وزميله السياسة الاقتصادية للصين ومشروعات التعمير والانشاء التى تحققت بعد الثورة .

وقد أبدى الضيفان اهتماما كبيرا بهذه المشروعات واجتمعا ثلاث ساعات كاملة برجال وزارة التوجيه الاقتصادى ، وشرحوا لهما مراحل التطور الاقتصادى والسياسة التى قامت عليها الصناعات الثقيلة والخفيفة ، وبرنامج الاصلاح الزراعى الصينى ، ثم استغرق البحث مشروع السنوات الخمس الأولى الذى بدأته الصين سنة ١٩٥٣ لتنمية الاقتصاد الوطنى ، وعدد مشروعاته ١٥٦ مشروعا وقال « شانج - دى » « إن شعب الصين يخوض الآن معركة كبيرة يعمل فيها على تحويل الصين من دولة زراعية متأخرة إلى دولة صناعية متقدمة » .

وفى المساء أقامت الوزارة حفلة ساهرة تكريما للشيخ الباقورى وزير الأوقاف المصرى ، وفى جامعة بكين التى تضم حوالى ٨٠٠٠ مسلم قضى الشيخ الباقورى

ساعات طويلة بين طلبة القسم العربى وسألهم عن منهج دراستهم ، وأعرب عن إعجابه بمهارتهم ، وقال لهم إن لغة الضاد تفخر بكم .

وأبدى الضيف المصرى رغبته فى أن يجتمع بالأدباء ورجال الفكر فى الصين ، وقد أجيب إلى رغبته ، فعقد اجتماع ثقافى ضم كبار الكتاب ورؤساء الدوائر فى وزارة الشئون الثقافية ، وأساتذة الجامعات ورؤساء تحرير الصحف الكبرى فى بكين ، ودارت خلال الاجتماع مناقشات طريفة ، وأجاب الحاضرون على الأسئلة التى وجهها الضيف المصرى ، وكان سيادته يبدى إهتماما شديدا بأحوال المسلمين بالذات ، وقد عرف فى هذا الاجتماع أن فى الصين ٩ كليات اسلامية عليا ، يبلغ عدد طلبتها ١٥ الف طالب ، و ٣٦٥ مدرسة ابتدائية بها ٣٧ الف طالب مسلم ، وقد ألقى « شيين ـ شون ـ دى » وزير الثقافة خطابا قال فيه : « إننى أحب أن أذكر للضيف المصرى الكبير أن الحكومة قررت ـ لأول مرة ـ أن يمنح الموظفون والضباط المسلمون إجازات فى أعيادهم الاسلامية كلها » . وقد صفق الوزير المصرى لهذه العبارة طويلا .

وقام سيادته يرد على الوزير الصينى ، فقال « إننى معجب بكل ما رأيته فى الصين ، أعجبتنى روح المودة والاخاء التى تسود طبقات الشعب وملأنى سعادة ما شعرت به من رغبة الجميع مسلمين وغير مسلمين ، فى أن تزداد صلات الصين بمصر قوة ونماء » .

ويسوقنا الحديث فى زيارة الشيخ الباقورى للصين إلى الحديث عن الدور الكبير الذى لعبه المسلمون هناك لتحرير بلادهم من الاستعمار اليابانى : لقد حدث عام ١٩٣٧ أن دعا الزعيم الصينى « ماو » قواد جيش التحرير إلى اجتماع عاجل قال فيه : « إن شعبنا الكبير يضم حوالى ٣٠ مليون مسلم ، ومهمتنا الكبرى الآن هى أن نكسبهم إلى جانبنا ، ونحن بغيرهم لا نستطيع أن نقيم قواعد للدفاع والهجوم تمكننا من القضاء على الاستعمار اليابانى ومعه جيش تشانج كاى شيك ، وأؤكد لكم اننا لن نحقق من أهدافنا شيئا إلا إذا وقف المسلمون فى صفوفنا ـ وكان من بين قواد جيش التحرير الذى كونه « ماو » بعض الضباط الشبان من المسلمين ، فكون منهم كتيبة للدعاية تولت الاتصال بزعماء العالم الاسلامى ، وقد أسفرت بسرعة عن اتفاق اذيع على اثره بيان على المسلمين جاء فيه : « إن الاسلام فى خطر ما دام هناك استعمار واستبداد ، وأن على المسلمين أن يشتركوا فى الجهاد ليحموا دينهم ، ويحفظوا ثقافتهم ، واشترك المسلمون بعد ذلك فى معركة التحرير فى صفوف « ماو » ولما كتب لصفوفه النصر جعل من مبادىء القوات المسلحة الصينية هذه العبارة « المسلمون اخوة لنا فنحن جميعا أبناء الصين » . ونشرت جريدة الأخبار يوم ١٩٥٥/٥/٢٩ تحت عنوان الباقورى يزور سور الصين العظيم . اذاعت اليوم وكالة

أنباء الصين الجديدة أن فضيلة الشيخ أحمد حسن الباقورى وزير الأوقاف المصرى قد عاد اليوم إلى بكين ومرافقه الدكتور مصطفى كامل بعد أن قضيا ستة أيام فى زيارة مدينة أورمش عاصمة أقليم سيكيانج ،وقد زار الضيفان المصريان سور الصين العظيم عند بلدة كيريوكوان فى إقليم « كانو » فى شمال غربى الصين فى طريق عودتهما إلى بكين . وقالت صحيفة تاونج باو ـ اليوم أن زيارة وزير الأوقاف المصرى وزميله ، تدل على ازدياد التفاهم والتعاون الثقافى والاقتصادى بين مصر والصين .

وذكرت جريدة الأهرام يوم ١٩٥٥/٥/٣١ تحت عنوان الباقورى بالصين الشعبية ـ مباحثات لتنمية العلاقات التجارية ـ اذاع اليوم راديو بكين أن المستر يه ـ شين ـ شوانج وزير التجارة الخارجية فى الصين الشعبية ، اجتمع بالشيخ أحمد حسن الباقورى والأستاذ مصطفى كامل ، وتباحث معهما بشأن الوسائل المؤدية إلى دعم العلاقات التجارية بين مصر والصين ، وكذلك تباحث الضيفان المصريان مع المسئولين فى وزراة الثقافة وأكاديمية العلوم الصينية ، والجمعية الاسلامية الصينية وحضر مباحثاتهما وزير الثقافة والشيخ نور محمد رئيس الجمعية الاسلامية الصينية .

والحق الذى لا يجوز إغفاله أن حكومة الصين قد أحسنت ضيافتى فيسرت لى السبل إلى كل ما يعين على معرفة الصين بكل ما تشتمل عليه من آثار قديمة ، ونهضة حديثة ، وذلك عن طريق الطيران الداخلى الذى مكننا من زيارة شرق الصين وغربها ، وشمالها وجنوبها ، وكان من المناطق التى استوقفت نظرى منطقة سيكيانج التى كانت الكتابة فيها على جدران المحال العامة والخاصة بالحروف العربية التى جاء بها إلى هذا المكان الأتراك يوم كانوا يعتزون باللغة العربية ، والخط العربى على يد خلفاء آل عثمان .

وفى طريق العودة إلى بكين زرت سور الصين العظيم ، وهو من الآثار التى لا يسوغ لمن يزور الصين أن يتغاضى عن زيارتها ، مهما كلفه هذا من جهد ومشقة . غير أن من الناس من يظن أن هذا السور ـ على عظمته وقوته ـ هو السور المقصود فى القرآن الكريم بالآية الشريفة من سورة الكهف « حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا ، قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ، قال ما مكننى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما ، آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال آتونى أفرغ عليه قطرا ، فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا » .

سور الصين ليس هو السد المذكــور فى ســـورة الكهف

وليس يرتاب الذين رأوا سور الصين وتدبروا القرآن العظيم ، أنه ليس هو المقصود بكلمة السد التى وردت على لسان ذى القرنين فى سورة الكهف ، فالذين يذهبون هذا المذهب الخاطىء ، إما أنهم لم يروا سور الصين ، وإما أنهم لم يفهموا معنى الآية فى الكتاب الكريم .

ذلك أن القرآن حين ذكر أمرين عن السد الذى أقامه ذو القرنين وهما أنه بنى فى مكان ارتفعت الجبال فيه كجدارين على جانبيه : أعنى أن المكان كان مضيقا جبليا ، وأن السد الذى أقيم به استخدمت فيه قطع الحديد ، ثم أفرغ عليها النحاس المذاب ، على ذلك يجب أن نجد السد فى مضيق جبلى ، كما يجب أن يكون هو جدارا حديديا ، لا جدارا من الحجر والآجر ، ثم أن يكون قد سد طريق المضيق الجبلى لكى نعلم أنه هو السد المذكور فى القرآن .

وقد ذكرنا هذه الأوصاف على هذه الصورة لأن المفسرين للقرآن غضوا النظر عنها ، فإذا سمعوا بوجود جدار فى مكان ما ، سبق إلى أذهانهم أنه هو السد الذى يريده القرآن الكريم فى الآية الشريفة ، على حين أن جدار الصين أو سورها العظيم ، لا يمكن أن يكون على الصورة التى ذكرنا بحال من الأحوال . ذلك أن بانيه لم يضعه فى مضيق جبلى ، ولا استخدم فيه قطع الحديد بل هو جدار من الحجر يمتد إلى مئات من الأميال .

ومن حق الآية الكريمة علينا أن نشير إلى ما تضمنته من فائدة السد لمن كان دونه من قبائل تخشى الغارة من **ياجوج وماجوج** ، فمن كان هؤلاء القوم يا ترى ؟ ... لقد تظاهرت الشواهد التاريخية على أنهم لم يكونوا إلا قبائل همجية بدوية تعيش فى السهول الشمالية الشرقية ، وقد تدفقت سيولها قبل العصور التاريخية إلى القرن التاسع الميلادى ، وكان تدفقها نحو البلاد الغربية والجنوبية ، وقد سميت هذه القبائل بأسماء مختلفة فى عصور مختلفة ، وعرف الناس قسما منها فى الزمن المتأخر باسم « **ميفر** » فى أوربا ، وباسم « **التتار** » فى آسيا .

ولا شك أن فرعا لهؤلاء القوم كان قد انتشر على سواحل البحر الأسود فى سنة ٦٠٠ قبل الميلاد ، وقد أغار هذا الفرع على آسيا الغربية نازلا من جبال القوقاز ، وقد سماه اليونانيون باسم « **سيت هين** » .

ولنا أن نجزم بعد قراءات كثيرة بأن هؤلاء هم الذين شكت غاراتهم الشعوب الجبلية إلى ذى القرنين ، فبنى السد الحديدى يمنع به أولئك المغيرين المدمرين .

وبهذا يتضح الفرق غاية الاتضاح فى معنى الآية الكريمة ، ولا يكون محتملا فى حال أن سور الصين هو المقصود بالآيات الكريمة فى سورة الكهف .

ثم عدنا إلى بكين بعد تلك الرحلات الشائقة الشاقة ، وكانت هذه الرحلة ختام عشرين الف ميل قطعتها متجولا فى بلاد الصين على ما ذكرت تلك الرحلة الصحافة العالمية والمحلية . وقد نشرت جريدة الأخبار يوم ١٤/٥/١٩٥٥ رسما كاريكاتوريا تحت عنوان « اطلبوا العلم ولو فى الصين » . وقالت : كانوا يطلبون العلم فى الصين فأصبحت الصين تطلب العلم من مصر . والباقورى أول وزير أوقاف ركب الطائرات ليدرس أحوال المسلمين وراء المحيطات ، كان المشايخ فى الماضى يكتفون بقراءة الفاتحة للمسلمين فى الشرق والغرب وهم جلوس فى مكاتبهم ! ولكن الباقورى شاء أن يجعل عالم الدين يركب الطائرات ويجوب البحار ، ويطير من أندونيسيا إلى الفيلبين إلى هونج كونج - ثائر فى جبة وقفطان ، مجدد تحت العمامة ، مؤمن بغير تعصب ، فى وجهه حياء ، وفى قلبه ثورة ، فى يده مسبحة وفى عقله أفكار حديثة ، يجلس على السجادة ويركب الطائرة ، وفى الحالتين يسبح بحمد الله » .

وقالت جريدة القاهرة يوم ٨/٥/١٩٥٥ تحت عنوان « زيارة الباقورى للصين » .

« هناك أخبار لها نغم خاص جديد ، ومن هذه الأخبار أن الشيخ الباقورى وزير الأوقاف قد اتجه اليوم فى رحلته بالشرق الأقصى إلى الصين لزيارة المسلمين فيها ، نقول الصين فقط دون تعريفها بأنها وطنية أو شعبية ، أو شيوعية ، لأن الزيارة التى يقوم بها الوزير المصرى لا علاقة لها بهذه الصفات .. إنها زيارة ذات طابع روحى يعلو فوق هذه النعوت » .

« ونقول إن هذا الخبر من الأخبار التى لها نغم خاص جديد . لأننا لم نكن نسمع مثلها فى الماضى .. كنا معزولين عن هذا العالم الفسيح الذى لنا مع أهله صلات شتى منها الدين ومنها العقائد ومنها التقاليد ومنها وحدة الأصول أو وحدة الأهداف » .

وقد كان زعماء المسلمين ، ومعهم بعض الوزراء يجاملوننى على الأسلوب الشرقى فكانوا يتناولون معى طعام الافطار كل يوم فى رمضان طوال إقامتى فى بكين . وذات يوم دعانى وزير الثقافة لزيارة أثر يعتز به كل صينى ، وهو القصر الذى عاش فيه آخر أباطرة الصين ، وقد استجبت لدعوته شاكرا ورحت أتجول مع مرافقى المترجم وبقية الزملاء فى الزيارة ، ولم ندع غرفة إلا دخلناها ولا بهوا إلا أحطنا بما فيه ، حتى حجرة نوم الامبراطور ، وقد أخذ منى العجب كل مأخذ حين دخلت تلك الغرفة العجيبة وقد لفت الزملاء نظرى إلى شجرة ذات ساق وفروع وأوراق ترتفع

حوالى متر ، وكل ما فيها مصنوع من « الجاد » الذى تأخذ خضرته بالألباب ، ويزيد هذه الشجرة روعة وجمالا أن بعض الأغصان الدقيقة فيها مصنوع من الاحجار الكريمة .

ولما رأى مرافقى علائم الدهشة فى وجهى أخبرنى أن هذه الشجرة التى لم تمسها يد . وقد سألته لماذا لم تعرض حكومة الصين هذه الشجرة للبيع فى الأسواق العالمية لكى تنتفع بثمنها فى ميزانية الدولة وشئون الشعب . قال الرجل المفضال ـ فى زهو وكبرياء ـ مبلغ علمى أن الحكومة دعت مثمنين عالميين لمعرفة قيمتها ، فلما اجتمع هؤلاء أجمعوا على أنها لا يمكن أن تقدر بثمن وأن ورقة واحدة فيها قادرة على أن تغنى أسرة صينية مدى الحياة .

ثم عاد الرجل يلفت نظرى إلى حذاء أنيق تعلوه أحجار كريمة كانت الامبراطورة تستخدمه فى أثناء تنقلاتها المحدودة بين حجر النوم ، وقال فى كبرياء إن الزعيم ماو ـ على سمو منزلته ـ هو الذى أشار بالاحتفاظ بكل ما خلفه الأمبراطور وأسرته فى محل إقامته وقال الزعيم ، « إن هذا جزء من تاريخ الصين فالاعتداء عليه اعتداء على تاريخنا العظيم وحضارتنا العريقة .

ترحيب خاص من ماوتسى تونج

وفيما نحن نتابع هذه الجولة الرائعة جاء مندوب القصر الجمهورى وهو يحمل بطاقات دعوة إلى حفل يدعو إليه الزعيم « ماو » فى الفندق الكبير بمناسبة وطنية ـ فلما جاء الموعد ، سبقنا الميعاد بوقت كاف لكى نتمكن من معرفة الوفود المدعوة معنا من أعضاء مؤتمر باندونج ، وأذكر منهم وفد العراق والجزائر واليمن وبورما والهند والباكستان والجمهورية التركية وغيرها . وقد أعدوا الأمكنة التى يقف فيها رؤساء الوفود ، وكان مكانى فى مواجهة الباب الرئيسى الذى يدخل منه الزعيم ماو ، وسائر الوفود وقوفا عن يمين الباب ويساره وأنا فى الوسط تماما ، فلما اقبل الزعيم الصينى قصد إلى فصافحنى مرحبا ترحيبا كريما ، ثم بدأ يصافح الواقفين عن يمين ثم عن يسار سائرا على قدميه حتى فرغ من مصافحة الوفود أجمعين .

ولست أنسى السيد رئيس وفد اليمن سيف الأسلام الحسن ، فقد جاء إلى يقول : إن هذا التصرف من زعيم الصين هو تكريم للمسلمين جميعا فى عمامة الشيخ الباقورى .

ومضى شهر رمضان كما يمضى الطيف العزيز الأثير ، فقد كان هذا الشهر مع المسلمين الصينيين شهر معرفة وتعليم ، فكنت استمع منهم تاريخ بلادهم كما

يستمعون منى تاريخ بلدى العريق وأمتى الاسلامية العظيمة . والذين يعرفون أهل الصين يعرفون أنهم يقضون وقتا طويلا فى تناول الطعام ، وفى أحاديث كثيرة يروونها عن بلادهم على صورة تدعو إلى العجب والاعجاب .

ولقد اذكر من تلكم الاحاديث أن واحدا من جلسائى فى تلك السهرات الرمضانية تحدث إلى المجلس ذات ليلة عن فلاسفة الصين فقال : إن هؤلاء الفلاسفة كانوا يختارون لتلاميذهم أمكنة المحاضرات فى الهواء الطلق بين سمع الطبيعة وبصرها ، فذلك أعون على هدوء الأعصاب وصفاء الذهن وحفظ ما يلقى إليهم من فلسفة وعلم ومعرفة . ومما ذكره ذلك الزميل على موائد الافطار والسحور قوله : كان هناك مريد يدعى « تزه كونج » وكان من التلاميذ الاذكياء الذين يطمحون إلى أرفع المناصب فى الدولة .

وغير خفى على العلماء بالتاريخ أن لقب « معلم » كان أشرف الالقاب التى يتمنى الظفر بها رجل الفلسفة وعالم الاجتماع ، فقال ـ تزه كونج ـ فى احدى المحاضرات : يا معلم ماذا يجب على الدولة للشعب ؟ فقال أن من حق الشعب على الدولة أن توفر له امورا ثلاثة : أحدها عدة الحرب التى يدافع بها عن نفسه ، وثانيها لقمة العيش التى تمسك حياته ، وثالثها الثقة بالحكومة التى تستبقى له قوة دولته .

فقال ـ تزه كونج ـ يا معلم إذا لم يكن بد من الاستغناء عن واحد من هذه الأمور الثلاثة فما الذى يستغنى عنه الشعب ؟

فأجابه المعلم نستغنى عن عدة الحرب لأننا نستطيع أن نخرج الأعداء من بلادنا إذا قاطعناهم ، فلم نتعامل معهم فى شأن من شئون الاجتماع ، فإنهم عند ذلك لا يستطيعون البقاء ولا يجدون مناصا من الجلاء . ولم يشأ ـ تزه كونج ـ أن يسكت فقال يا معلم إذا لم يكن بد من الاستغناء عن أحد الأمرين لقمة العيش والثقة ، فما الذى نستغنى عنه منهما ؟ .

فأجابه الفيلسوف المعلم نستغنى عن لقمة العيش ، لأن الموت كان ولا يزال حتما مقضيا على البشر ، أما إذا انعدمت الثقة ، فلا بقاء لدولة الشعب ، وعند ذلك يتهافت عليه الأعداء ويتخلى عنه الأصدقاء وقد نالت هذه القصة من السامعين ما تستحقه من الاستحسان ، ولم اكن أنا أقل القوم إعجابا بها . وذلك لأننى رأيتها مطبقة تطبيقا صارما فى شعب الصين . فكل حاكم ولاية وكل وزير وفى مقدمتهم الرئيس شو والزعيم ماو كان يطبق على نفسه ما يدعو الشعب إلى تطبيقه . ومما لا أستطيع إغفاله فى هذا الحديث ، أن الرئيس شواين لاى كان قد أقام حفل عشاء فى مجلس الوزراء ودعا إليه زعماء الديانات من مسلمين ومسيحيين وبوذيين . ولما فرغنا من الطعام أخذ الرجل بيدى وراح يطوف معى على هؤلاء الزعماء فيقدمنى إليهم فى الوقت الذى يقدم نفسه إلى كل واحد منهم .

ثم قام الرجل بعد ذلك ، فألقى كلمة بصفته رئيسا لدولة كبيرة تحترم فيما ذكر عقائد المتدينين من مختلف الديانات ، وكان حقا علىّ أن أرد التحية بمثلها ، فقلت ما كنت قلته قبل ذلك فى كثير من البلاد التى زرتها ، وخلاصة ذلك أن الإسلام يحترم الحرية ، وخاصة حرية التدين وضربت لهم مثلا يقرره فقهاء الاسلام فيقولون ـ على سبيل الافتراض ـ : إذا التقط أحد المارة المسلمين طفلا حديث الولادة ، ثم ذهب به إلى بيته فنازعه فيه آخر غير مسلم ، ثم لم يجد بدا من الالتجاء للقاضى المسلم ليحكم بينهما بما يراه متفقا مع أصول الإسلام ، فإذا ادعى المسلم أن الطفل اللقيط عبده ، وادعى غير المسلم أن الطفل ولده ، فإن على القاضى المسلم أن يحكم بالطفل لغير المسلم ولدا ، ولا يحكم به للمسلم عبدا ، لأن الشريعة المحمدية متشوقة غاية التشوق إلى التمكين للحرية فى دنيا الناس .

وفى اليوم الثانى رأيت أن أزور المسيحيين فى كنائسهم والبوذيين فى معابدهم ، وكانت الغاية من وراء هذه الزيارة الكشف عن مدى الصدق فى كفالة الصين لحرية العقائد .

زيارة لكنيسة ومعبد بوذى

وبدأت بزيارة الكنيسة التى قالوا عنها انها أم الكنائس فى الصين ، ولقينى أهل الدين فيها كما كانوا يلقوننى دائما بالثناء على مصر والإشادة بالأزهر الشريف الذى كان يتمتع بالتكريم من كل حكام مصر أمراء وملوكا ورؤساء حتى جاءت ثورة يوليو راح الناس يظنون أن الثورة سوف تتنكر للأزهر ، ولكنها كانت على عكس ما يظنون فكرمت الأزهر أبلغ تكريم باختيار ضيفنا الذى نسعد به بيننا الآن وزيرا بارزا فيها .

ثم ثنيت لزيارة أحد المعابد البوذية ، فلما أفضيت إلى داخل المعبد استلفت انتباهى أحد زوار المعبد . ذلك انه وقف خاشعا أمام تمثال هائل لبوذا ، ثم ألقى بنفسه تحت قدمى التمثال فى خشوع واضح واستسلام عجيب ، وقد كان هذا التمثال يدعو الناظر إلى الدهشة والاستغراب ، ذلك أنه كان منحوتا من جذع شجرة عالية ضخمة ، وقد تفنن النحات الصينى فى صياغة وجه التمثال وسائر أجزائه الجسمانية على طريقة تخيل للناظر إليه انه يقف أمام بوذا بلحمه ودمه ، وليس هذا على الفنان الصينى ببعيد ؛ فإن حضارة هذا الشعب تتجلى رائعة معجبة فى كل ما للصينى فى حياته الاجتماعية من سائر نواحيها سواء فى ذلك ما يتصل بحياته المادية ، وحياته الروحية .

وقد قضينا فى الصين شهر رمضان ١٣٧٤ هـ نغادر بكين ثم نعود إليها ،

فلما قرب عيد الفطر رغبت الحكومة الصينية إلىّ أن أصلى العيد مع المسلمين فى مقاطعة طاغستان . وهذه المقاطعة تقع على الضفة الغربية من بحر الخرز ، ويذكر أهلها أن بلادهم فتحت فى خلافة هشام بن عبد الملك ، ومنها انتشر الإسلام فى تلك الأقطار ، وكان أهلوها لا يدينون بالإسلام .

وقد ذكر مؤرخ موثوق أن أحد الملوك فى بلاد طاغستان كان يقيم شعائر الملل الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام ، فكان يصلى يوم الجمعة مع المسلمين ، ويوم السبت مع اليهود ، ويوم الأحد مع المسيحيين .

ولما اجتاح المغول بلاد طاغستان كان أكثر أهلها قد صاروا مسلمين ثم لما كانت غارة تيمور لنك فى سنة ١٣٩٥ م كان أشهر شعوب الطاغستان قبيلتين : إحداهما القايتاق والأخرى القومق ، وكان هؤلاء من أشد أنصار الإسلام وأشد حماسة فى بث دعوته .

وفى عام ١٥٧٨ م استولى على تلك البقاع الأتراك العثمانيون ، ولكن لم تطل فيها مدتهم .

وقد أعجبنى من أولئك الذين لقيتهم فى تلك البلاد ، إصرارهم على أن أكثر الأشراف فى طاغستان ينتمون إلى أصل عربى ، وأن آباءهم قدموا مع مسلمة بن عبد الملك بن مروان .

وقد كان يطيب لى أن أجالسهم كثيرا فى الهواء الطلق حينا وفى بيوتهم مع أسرهم أحيانا فى أيام العيد ، وكنا إذا دخلنا دار أحدهم فى أيام العيد وجدنا تلالا من الكعك والحلوى ، وأبواب بيوتهم مفتوحة فى أيام الأعياد يغشاها كل من أراد تهنئتهم بالعيد .

وكان كبارهم وزعماؤهم يتحدثون إلىّ كلما سنحت فرصة ، فيذكرون لى أن روسيا القيصرية كانت قد طمعت فى الاستيلاء على الطاغستان منذ القرن السادس الميلادى ، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينالوا منها ما يريدون . وكنت أنتفع بتلك الأحاديث انتفاع متعة ومعرفة ، وكان يغريهم ذلك بالمضى فى حديث الطاغستان : ماضيها ، وحاضرها ومستقبلها ـ حتى إذا أفضى بهم الحديث إلى الشيخ شامل الذى كان يقتدى بالأمير عبد القادر الجزائرى ـ بدت فى أصواتهم نغمة حزن أسيف وراحوا يذكرون للشيخ المجاهد العظيم من المناقب مالا يعرفه كثير من المسلمين .

ذلك أن الرجل رضى الله عنه التقى بالروس فى وقائع كثيرة أرغمتهم على الجلاء عن جميع البلاد . وقد افتتح المجاهد العظيم جميع الحصون التى كانت للروس فى الجبال وغنم منهم شيئا كثيرا من المؤن والعتاد الحربى وأخذ عددا كبيرا من الأسرى .

ولا ريب أن انتصار الشيخ شامل أحرج كبرياء القياصرة ، واضعف هيبتهم فى نفوس أمتهم ، فلم يجدوا بدا من أن يحشدوا كل مظاهر قوتهم ، ثم يهاجموا المجاهدين الذين لا يملكون من القوة والعتاد ما يملك أعداؤهم الحانقون . وبذلك تمكن الطغاة من السيطرة على بلاد طاغستان ، غير أن الرجل لم تهن قوته ولا فترت عزيمته ، فظل يقاوم أعداءه عشر سنين فى الجهات الغربية من الجبال ، ولكن جذوة الإيمان لم تخمد فى صدر الرجل العظيم ، فظل يقاتل ويناضل حتى نشبت الحرب بين روسيا وتركيا فثار أهل الطاغستان ، واستعادوا القابهم التى حرمتهم روسيا منها ، وكان لقب ملوكهم وأمرائهم السيد المعصوم ، ثم لما دارت الدائرة على الدولة العثمانية فى تلك الحرب تمكنت روسيا من قمع الثورة وقهر الثائرين ، ومضى الشيخ شامل إلى الملأ الأعلى فى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمجاهدين المتقين .

وليس يخفى على الذين يتدبرون الأحداث التاريخية أن الإسلام رحم بين أهله ، وأن المسلم حيثما سار وأينما حل واجد فى أخوة العقيدة ما يغنيه عن أخوة الآباء والأمهات .

دخول الإسلام للصين

هذا وقد يسأل سائل حريص على المعرفة عن دخول الإسلام إلى الصين ، فى أية سنة ؟ وفى أى عهد من عهود الدعاة إلى الإسلام ؟

والذى يرتضيه ثقات المؤرخين أن أول وافد إلى الدولة الصينية من الدولة الإسلامية كان فى عهد سيدنا عثمان سنة ٧٥١ م وقد رحل إلى الصين فى عهد الخلفاء الراشدين كثيرون من أهل الدعوة والتجار ، وكانت الجالية الإسلامية فى عاصمة الصين وحدها أربعة آلاف شخص ، وهى أكثر من الجالية الفرنجية الموجودة أنئذ فى بكين . وقد كان عواهل الصين يجاملون المسلمين .

وفى عهد اسرة جانكيز خان سنة ١٣٦٧ م ، كان للمسلمين منزلة عالية سياسية واجتماعية ، وكان الأعيان المسلمون الذين سجلت أسماؤهم فى سجل طبقة الأعيان الملكى اكثر من مائة نفر .

وقد كان السيد جاسر الدين التقى المسلم واليا عادلا على مقاطعة ، او ولاية يونان ، وقد بنى لأهليها هيكلا للفيلسوف الأكبر كونفوشيوس .

ومن أحسن ما ألف من كتب باللغة الصينية كتاب الفه العلامة صالح فى آخر القرن الثامن عشر وسماه سيرة سيد المرسلين ، ثم الف كتابا آخر سماه اسرار الإسلام .

وهذا العلامة المسلم المؤرخ الجليل مدفون فى بلدة نانكين ، وقد حاولت أن أزور قبره حين أنبأنى زملائى بتلك المعلومات القيمة التى تدعو الانسان إلى السعى إلى مظاهر وجودها مهما بلغت بهم المشقة من جهد جهيد .

وقد كان الأمر على ما يرام لولا طغاة الأسرة المنشورية الذين اضطهدوا المسلمين وساموهم الخسف سنة ١٩١٠ م ، وزاد من اضطهادهم امراء منشوريا الذين كانوا فى سيكيانج « التركستان الصينية » فأخذوا أموالهم ـ واستحيوا نساءهم حتى قام المسلمون يدافعون عن أنفسهم ، فوقعت الثورة الهائلة التى استغرقت أكثر من مائة سنة من ١٧٥٨ إلى ١٨٧٣ ميلادية .

ولا ريب أنك ـ أعزك الله ـ متطاول إلى الالمام بأسباب انتشار الإسلام فى الصين ، فاعلم ـ علمك الله الخير ـ أن لهذا الانتشار أسبابا عدة أولها : تجارة المسلمين ، وثانيها : الفتوح الاسلامية ، وثالثها : تناسل المسلمين ، ورابعها : اختلاط الوثنيين بالمسلمين ، وتأثرهم بآدابهم التى حملت أبناء التتار فى التركستان الصينية والروسية على أن يروا فى الاسلام المثل الأعلى الذى تنشده الفطرة الصحيحة وتتغياه الحياة الشريفة المسالمة .

ومن الصور التى تستلفت النظر انتشار الجمعيات الاسلامية الصينية ، وكثرة المدارس الاسلامية أيضا ، وفى إطار ذلك المجلات الصينية الاسلامية . وقد روى لى أحد الزملاء بمناسبة المجلات أن مجلة الآداب الصينية كان قد كتب فيها أحد سفلة الكتاب مقالة خلاصتها : « أن المسلمين لا يأكلون لحم الخنزير لانهم أبناء خنزير ، والانسان لا يأكل أباه » .

وقد طبعت المطبعة الحديثة بشنغهاى هذه الحكاية فى كتاب مستقل ، فقام المسلمون فى ذلك البلد ـ شنغهاى ـ يتشاورون فى هذا الأمر الخطير ، ثم تقدموا باحتجاج إلى إدارة المجلة فوعدهم رئيس التحرير أن ينشر فى الجرائد اليومية المشهورة اعتذاره للمسلمين ، كما وعد أن يصحح الخطأ الذى نشر فى العدد الأخير واعدا إياهم أن لا ينشر فى المجلة مثل هذا الراى السفيه مَرّة أخرى ، وأن يطعم النار أعداد المجلة المذكورة .

مسجد الشوق إلى النبى

ولا يفوتنى أن اذكر أن أقدس مكان زرته فى تلك البلاد مسجد يسميه المسلمون الصينيون « مسجد الشوق إلى النبى » وقد أخبرنى أحد الزملاء أن هذا المسجد بنى على الطراز الصينى فى القرن الأول من الهجرة ، وكان الذين قاموا ببنائه من أهل



□ الباقورى بعد أن أدى الصلاة فى مسجد الشوق إلى النبى فى بكين (١٩٥٥) ومعه بعض المسلمين الصينيين . والعبارة المكتوبة بالصينية فى الجزء العلوى من الصورة معناها : الاسلام رحمة من الله تعم أرجاء العالم .

المدينة المنورة ، فلما أتموا المسجد وغرسوا الأشجار إلى جانبه هموا بالرجوع إلى المدينة ، ولكن حيل بينهم وبين ما يشتهون فأطلقوا على هذا المسجد اسم « **مسجد الشوق إلى النبى** » .

ولقد كانت زيارتى لهذا المسجد مسك الختام فى رحلتى إلى الصين ، فلما هممت بالعودة تفضل الزعيم ماو فأهدى إلى كتابا من جزءين مكتوب باللغة الانجليزية وعنوانه « **أكبر زحف فى التاريخ** » .

وقد طلب منى الرئيس جمال عبد الناصر أن يطلع على هذا الكتاب لينتفع به فأعطيته الكتاب .

وأقام الرئيس شواين لاى حفل عشاء بمنزله بمناسبة انتهاء زيارتى للصين التى تم فيها توطيد صلات طيبة بين الصين ، ومصر عن طريق أول معاهدتين

إحداهما اقتصادية ، والثانية ثقافية قمت بتوقيعهما ، ولما انتهى حفل العشاء أهدى إلى شواين لاى بعض أوانى الأزهار ، وحملنى إلى الرئيس سجادة « شينواة » كبيرة أخبرنى الرئيس أنه وضعها فى حجرة نومه ذكرى لمؤتمر باندونج .

زيارة للفلبين

وبعد زيارة الصين لم يكن لى مندوحة عن زيارة الفلبين لحضور المؤتمر الإسلامى الذى كان منعقدا فى « كوتاباتو » برياسة **خليق الزمان الباكستانى** .

وفى مدينة « كوتاباتو » انزلونا فى فندق شديد التواضع ، وقد أدهشنى أننى رأيت المسلمين فى تلك البلاد يقدسون كل من له صلة بالإسلام من قريب أو بعيد ، وقد بلغت دهشتى غايتها حين ذهبت لأداء صلاة العشاء فى مسجد البلد ، فرأيت المسلمون فى المسجد يتناولون جبتى بالتقبيل والدموع ملء مآقيهم .

والفلبين عبارة عن جزائر تقع فى بحر الصين غربا ، والباسفيك شرقا ، وبحر سيلان جنوبا ، وهذا القطر ينتظم ألفا ومئتى جزيرة ، وهى جزائر جبلية بركانية كثيرة الزلازل ، وقد سميت هذه الجزر بالفلبين نسبة إلى فيليب الثانى ملك أسبانيا الذى جرى اكتشاف هذه الجزائر فى أيامه ، فدان أكثر أهلها بالمسيحية ، وكان ذلك فى سنة ١٥٦٨ م .

وقد ظلت هذه الجزر مئات السنين خاضعة للحكم الأسبانى ، ولكن أهلها اضطروا إلى الثورة لقسوة معاملة الأسبان لهم فناصرت حكومة أمريكا الثائرين فى حركتهم فخلصوا بذلك من حكم أسبانيا .

وقد أراد الأمريكيون أن يستميلوا المسلمين من أهل الفلبين ليتقووا بهم على الكاثوليك ، إذ كان مذهب أمريكا الدينى موصول الأسباب بالمذهب البروتستانتى ، وبين البروتستانت والكاثوليك خصومة شديدة تبلغ أحيانا منزلة العدواة بين المتخاصمين .

وقد احتالت أمريكا لذلك حيلة ذكية فأرسلت إلى الاستانة وفدا يلتمس من الحكومة العثمانية إرسال مرشدين يعملون على تهذيب مسلمى الفلبين نظرا لما كانوا عليه من الجهل يومذاك .

ولما كانت الدولة العثمانية وقتئذ شديدة العناية بأمور الإسلام أمرت المشيخة الإسلامية بأن ترسل إلى الفلبين أحد مأموريها ، وهو المرحوم وجيه افندى زيد الكيلانى النابلسى ، وقد جعلت الحكومة ذلك الرجل أشبه بشيخ للاسلام فى الفلبين ،

فلما ذهب استقبله المسلمون بفرح يفوق الوصف ، وبدأ الرجل مهمته ، وعاونه الأمريكيون أكرم معونة ، ولكنه مرض مرضا شديدا فرجع إلى وطنه ، وهناك قضى نحبه ، فلقى ربه راضيا مرضيا .

وأشهد أننى لا أكاد أتخيل هذا الموقف لأمريكا إلا ويأخذنى العجب من موقف هذه الدولة الكبرى من قضايا التحرر فى العالم ، وكم تمنيت أن يمضى هذا البلد الحر على سنته القديمة فى الانتصار للمظلومين على ظالميهم ، فإذا هم على ذلك منتصرون لأبناء فلسطين الذين لا يشك أحد فى أنهم ضحايا ظلم اليم ، ولو أن أمريكا أخذت نفسها بالمضى على الطريق الذى سلكته مع مسلمى الفلبين ـ منذ مئات السنين لكانت بذلك قد ربطت ، حاضرها المأمول بماضيها الكريم ، ثم انطلقت بذلك ، ومن ذلك إلى قابل شريف يخشاه العدو ، ويرضاه الصديق .

ثم نعود بك ـ أكرمك الله ـ إلى المؤتمر الإسلامى فى كوتاباتو ، فأذكر لك بغير زهو أن المؤتمرين كانوا ينتظرون وصولى إلى مؤتمرهم انتظار الصائم المجهود مدفع الافطار .

ومما زاد إعجابى بأولئك السادة واعتزازى بالأزهر الشريف أن رئيس المؤتمر تخلى لى عن مكان الرياسة ، وجاء إلىّ يعانقنى كما يعانق الأخ أخاه بعد غياب طويل . ثم دعيت إلى الكلام ، فبدأت خطابى بما كنت أبدأ به خطبى كلما تهيأت لى إلى موقف خطابى سبيل . فحمدت الله جل ثناؤه وصليت على سيدنا محمد رسول الله وعلى جميع إخوته من الأنبياء والمرسلين وفى طليعتهم موسى وعيسى عليهما السلام ، ثم ذكرت للقوم أننى فى هذا الموقف أمثل مصر نائبا عن رئيسها الذى حملنى إليكم تحيات طيبات . ورأيت أن أتبرع من وزارة الأوقاف بثلاثة آلاف جنيه لجميع العمال الذين شاركوا فى الاعداد لهذا المؤتمر الكبير ، وقد تولى تفصيل هذا الاجمال مرافقى فى الرحلة الدكتور مصطفى كامل فى لغة انجليزية مبينة .

ولا يفوتنى أن أذكر عن السيد خليق الزمان سفير باكستان انه كان يتولى خطبة الجمعة حيثما حل فى بلد إسلامى تقام فيه الجمعات .

ولست أبالغ إذا ذكرت أن أكثر الذين كانوا فى المؤتمر لم يكونوا يعرفون عن جمال عبد الناصر ، وماذا تعنى كلمة ثورة فى مصر ! بل لقد زعم أحدهم أن مصر بلد يحكمه الشيوعيون ، ولكن الزعيم أحمد النتو السيناتور زعيم المسلمين فى الفلبين قام فذكر أن الحكومات الشيوعية لا يمكن أن يمثلها فى مؤتمر إسلامى عالم من علماء الأزهر الشريف يتولى منصب وزير الأوقاف ، وقد صفق الناس طويلا لهذه الكلمات الصادقة ، فأقبلوا على يعتذرون إلى عن هذه الكلمة التى ألقاها الشيطان على فم مواطن جاهل بشئون البلاد العربية والاسلامية .

وفى المساء دعيت إلى حفل عشاء أقامته جمعية تبشيرية مسيحية فى الفلبين ، ولم يكن من الميسور أن أعتذر عن عدم إجابة الدعوة ، فقبلتها شاكرا . وفى مساء ذلك اليوم من شهر يونيو سنة ١٩٥٥ م ذهبت مع المدعويين إلى حفل العشاء وقد كان رئيس البعثة التبشيرية رجلا طيب السلوك مهذب الحديث فلما دخلنا إلى حجرة الطعام ، جاء يسألنى : لقد اعتدنا أن نصلى على الطعام قبل أن نتناوله ، فهل يؤذيكم أن أمضى على هذه السنة ؟

فأجبته لقد كنت أحب أن أطلب إليك أن لا تبطل أيا من عاداتك لأن الاسلام يأمرنا أن نحترم مشاعر مخالفينا فى الدين .

ولست أنسى أننا ـ بعد أن فرغنا من العشاء ـ جاء إلى أحد الاخوة المسلمين يقول لى إنك أطعمتنا فى هذه الليلة طعاما يحرمه علينا الاسلام ، لأن رئيس الجمعية المسيحى ذكر فى صلاته المسيح ، فذنبنا فى هذا الطعام الحرام تحمله أنت عنا .

وأذكر أننى قلت للرجل يا أخى إذا كنت تطلب الحق ، فإننى أجيبك بما أرجو أن يقنعك إن شاء الله . وإن كنت تستوحى العصبية البغيضة إلى ، فإن أمرى وأمرك إلى الله الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء . فأجابنى الأخ المسلم ، وقد أغرورقت عيناه بالدموع إننى لا أطلب إلا الحق والاطمئنان إلى أننى اكلت طعاما غير حرام .

فقلت له وقد تأثرت غاية التأثر ، إنك لابد قرأت سورة المائدة وفيها هذه الآية : « اليوم أحل لكم من الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حلّ لكم ، وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » الخ الآيات .

وأنت إذا راجعت كتب التفسير ، وفى مقدمتها الجامع لأحكام القرآن للامام القرطبى ، فإنك واجد فى تفسير هذه الآية ما نصه : وجائز للمسلم أن يأكل من ذبيحة الكتابى ، وإن ذكر عليها اسم المسيح لأن الله تعالى أحل إلينا أن نأكل من ذبائحهم وقد علم ما يقولون .

ولم يسع هذا الأخ إلا أن يقوم آخذا بيدى يقبلها ويقبل راسى ، ويسألنى أن أعفو عنه .

تقرير لعبد الناصر من الفلبين

وقد بعثت إلى عبد الناصر من الفلبين بما كانت تشتمل عليه الرحلة من حديث

عن مصر ، والآمال الكبار التى يعقدها عليها المسلمون فى كل بلد فيه إسلام ومسلمون .

ومع أن هذه كانت الحقيقة التى لا ريب فيها ، فإننى لم أكن أبتغى من وراء ذكرها له إلا أن أصرفه عما كان يوسوس به إليه قرناء السوء من بعض الوزراء ، ويزينون له القدوة بأتاتورك . الذى صنع بتركيا ما أشمت العدو وأحزن الصديق ، وجعلها تفقد كل الموانى التى كانت تحت سلطانها فى البحر الأبيض المتوسط .

وأعتقد أننى قد نجحت فى ذلك بعون من الله وتوفيق ، فانصرف عبد الناصر عما كان يراد له ولمصر معه من شر مستطير ، والحمد لله رب العالمين .

وقد كانت هذه الرسائل نهاية لرحلة طويلة شاقة ، فلم أجد بدا من العودة إلى بلدى بعد أن أديت الأمانة خارج البلاد ، كما كنت قد أديتها من قبل داخل البلاد . وما كان ليغيب عنى فى لحظة أننى أول مسئول مصرى طاف أرجاء العالم داعيا لمصر والعروبة والاسلام . . ولست بقادر على تجلية شعورى بالسعادة التى غمرت نفسى لأول ما لاحت معالم الوطن الحبيب الذى كان يتمثل لعينى فى اليقظة والمنام مدة تسعين يوما جوالا فى آفاق مختلفة الأجواء ، وأقطار مختلفة المشاعر والعقائد . . ولم يكن لى فى كل ذلك من حديث إلا عن مصر وحضارة مصر ، ثم عن الأزهر الشريف الذى رأيته موضع التقدير والاجلال فى الهند والباكستان وأندونيسيا والصين واليابان والفلبين وسيلان . وكنت كلما رأيت نفسي موضعا للتكريم إلى درجة التقديس بين أهل تلك البلاد ، وددت لو أن كل أزهرى رأى ما رأيت لكى يعلم مقدار ما للأزهر من منزلة سامية ، وتكريم عظيم .

وقد وصلت الطائرة إلى مطار القاهرة فى السادسة صباحا ومع ذلك وجدت المطار غاصا بالمستقبلين ، كما ذكرت ذلك الصحف بتاريخ ٣٠/٦/١٩٥٥ وكان طبيعيا ـ وقد بلغت القاهرة ـ أن أستريح بعد طيران ألوف الأميال غير أن مكتب الرئيس اتصل بى فى حلوان ، وأبلغنى أنه قرر السفر إلى صعيد مصر ، وأنه حريص على أن أصحبه فى تلك الرحلة .

وكانت هذه ـ بلا ريب ـ فرصة سانحة لأتحدث إليه عن رحلتى ، ونحن فى القطار ، ولقد أذكر هنا ـ لله ثم للتاريخ ـ أن الرجل قد استقبلنى استقبال عزيز عليه ، فلما أخذنا أمكنتنا فى صالون القطار الذى كان خاصا بالملك ، بدأ يسألنى عن الرحلة ، فرحت أقص عليه كل ما شاهدته ، مما يتعلق بشئون شعبنا ، وما كان فيه ، وما صار إليه عن طريق الثورة ، التى لا أشك أنها أخذت مكانها من الاعجاب بها ، والتقدير للقائمين عليها .

وقد كان الرجل يحسن الاستماع ، وربما شاركه فى التعليق على الحديث زملاء الرحلة ، منهم جمال سالم ، وأنور السادات ، ولا ريب فى أن الحديث عن الرحلة قد استغرق وقتا طويلا ، كنا نقطعه حينا بتناول الشاى وحينا آخر بتناول الغداء ، وأحيانا بالوقوف لاستقبال الجماهير التى كانت تحتشد فى المحطات التى يقف عليها القطار .

الفرق بين ثورتى مصر والصين

وفيما كنا على هذه الحال - والحديث ذو شجون - بدا على وجهه أنه يتهيأ لتوجيه سؤال ، فسألنى عن الفرق بين الثورتين الصينية والمصرية ، وطلب إلى أن أجيبه فى صراحة ووضوح .

وأذكر أننى قلت له : إن الفرق يقتضينى حديثا ربما طال فأمل ، أو قصر فأخل .

فأجابنى : أنا عايز أعرف كل ما يمكن معرفته عن هذا الشعب ، بكل ما فيه من نظم وبكل ما له من تاريخ .

فبدأت أقول له : إن الاستعمار تختلف أساليبه باختلاف الشعوب التى يرى مصلحته فى استعمارها ، فلا يمكن أن تكون أساليبه فى الصين هى نفس أساليبه فى مصر ، ذلك أن أهل الصين لم يكن لهم دين فى حياتهم الجاهلية وإنما كانوا يتبعون فلاسفة ومفكرين ، فى طليعتهم معلمهم الأكبر كونفنشيس الذى لم يكن مؤمن بدين أو إله يدير الكون ، ويقيم أمره على الايمان بنظرية الجزاء على الأعمال إحسانا بإحسان ، وإساءة بإساءة . والأمر على غير ذلك فى مصر منذ أقدم العصور ، فإنها كانت تؤمن بإله أزلى غيبى واحد ، عبدته فى قوة الاخصاب النباتى فى النيل ، وقوة الاخصاب الحيوانى فى العجل أبيس ، وقوة التدبير فى فرعون .

ثم هى - مع ذلك - لا تزال تؤمن بنظرية الحساب ، خالدة نقوشها على جدران المعابد الأثرية فى كل مكان يكشف عنه الباحثون . فلما ابتعث الله بالاسلام الحنيف محمدا رسول الله رحمة للعالمين ، بدأ أصحابه الميامين يحملون الدعوة إلى الله ، فجاء عمرو بن العاص إلى مصر . ومن مصر انطلق الدعاة إلى الغرب . وذهب إلى الصين كثير من الوفود الإسلامية وفى طليعة أولئك السادة سعد بن أبي وقاص الذى بنى له ضريح بالقرب من مدينة كانتون ، وذلك فى منتصف القرن السابع ، وقد انتشرت الدعوة الإسلامية عن أولئك الدعاة بين أهل سينكيانج « التركستان الصينية » . وقد ظللت أتحدث إليه عن دخول الإسلام فى منطقة الشرق الأقصى ، فبدت علائم

الدهشة فى وجهه ، وقال متى حفظت كل هذا ؟ وكيف تستحضره الآن ؟ فأجبته فى ثقة بأننى كنت مدرسا فى معهد القاهرة ، وكانت مشيخة الأزهر قد رشحتنى لبعثة فى البلاد الأجنبية ، وكان من الطبيعى أن يبحث المرشحون للبعثات عن كتب يقرأونها ابتغاء الظفر بعضوية بعثة تسافر إلى أرض الله للتعلّم أو للتعليم ، وفى أثناء دراستى لتاريخ الأزهر ، وتاريخ التبشير فى مختلف البلاد التى تدين بغير الإسلام ، وقعت بى المصادفة على مذكرة كان قد رفعها الشيخ **محمد الأحمدى الظواهرى** شيخ الأزهر إلى السراى الملكية فى هذا الموضوع ، وفيها يذكر أن رسائل كثيرة من جهات أجنبية رسمية ترغب فى إرسال مبعوثين من الأزهر إلى الصين والهند وجنوب أفريقيا والكونغو وأمريكا ، وذلك لتعليم الناس فى تلك البلاد الإسلام ، وقد سافر من الأزهر إلى الصين زميلان فى معهد القاهرة هما : **الشيخ سيد الدالى** ، **والشيخ فليفل الصغير** ، ولما عاد الزميلان إلى القاهرة كانا يذكران عن الصين ما يدعو كل راغب فى العلم إلى قراءة ما كتب عن هذه البلاد كتاب الغرب والشرق ، وقد كنت من الذين أقبلوا إقبالا شديدا على دراسة تاريخ الإسلام فى جميع بلدان الشرق الأقصى ، وذلك هو السر فى معرفتى الواسعة بمعالم الصين الحضارية والدينية والالمام بتاريخها الطويل فى القديم والحديث ، فلما رغبت إلى بعد مؤتمر باندونج فى زيارة المسلمين فى الصين استجابة لدعوة شوين لاى أضفت إلى معارفى النظرية معارف أوثق قائمة على التجربة والمشاهدة .

وانتهز هذه السانحة لاقرر مالا ينبغى جهله أو تجاهله فى هذا المجال ، ذلك أن الأزهر كان قد أنشأ **رواقا لأهل الصين** ، كرواق الجبرت والشوام والمغاربة ، وسائر الأقطار التى يهتم أهلها بحسن العلاقة بينها وبين مصر العظيمة ، وما أكثر ما كنا نزور رواق الصين ونحن طلبة فى القسم العالى ، وقد كان شيخ الرواق الصينى ، هو الأستاذ **محمد ابراهيم شاه كوجين** .

وأما الفرق بين الثورتين المصرية والصينية ، فهو الفرق بين ثورة يستجيب فيها زعماء لرغائب شعوبهم ، فلا يزالون يجاهدون الأعداء بكل وسائل الجهاد حتى تتحقق لهم أمانيهم فى الاصلاح المنشود ، وتلك هى ثورة الصين التى كتب عنها زعيمها « ماو » كتابا سماه « **اكبر زحف فى التاريخ** » وقد ذكر « ماو » فى هذا الكتاب أنه سار هو وزملاؤه كرا وفرا مسافة اثنى عشر ألف ميل ، **وأما ثورتنا المصرية** ، فينطبق عليها المنطق الفلسفى الذى يقول : إن الثورات يخطط لها الفلاسفة ، وينفذها الشجعان ، ويستثمرها لخير الشعب الصادقون المخلصون .

وقد كان القطار يقف فى كل محطة لاستقبال الرئيس ، وقد أعد لكل محطة خطابا قصيرا ، وكان أنور السادات هو الذى أعد له هذه الخطب القصار ، وقد لاحظت أنه كان يطلب إلى أن الخص له الخطاب الذى يستقبل به كل محطة ، على أن يكون بعيدا عن العناية الكاملة بأساليب الكتاب والخطباء .

وأذكر أننا حين اقتربنا من محطة المنيا وبدت طلائع المستقبلين قال لى : إنك كنت شيخا لمعهد المنيا هنا ـ قلت نعم ، إنه بلد طيب ، وفيه خير كثير ، وأذكر أن جدى لوالدتى الشيخ فراج الباقورى ، كان هو المفتى لهذا الاقليم ، كما ذكر ذلك السيد على مبارك فى كتابه « الخطط التوفيقية » ثم هو بعد ذلك بلد مشهور بالكرم ، وهو البلد الذى له ذكرى طيبة فى نفسى ، فقد اختارتنى الثورة للوزارة ، وأنا شيخ لمعهد المنيا الدينى ـ وكذلك هو البلد الذى اعتقلت فى إحدى قراه ـ قبل الثورة ـ قرابة العامين . وما زالت رحلتنا ماضية فى الطريق حتى بلغنا أسوان ، ونحن فى أثناء الرحلة وقف القطار على محطة الحوامدية ، فجاء شاب من الاخوان يتوسط جماعة منهم وفى يده مصحف كبير مفتوح وهو والشباب من حوله يهتفون : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » .

وليس فى وسعى أن أصور ما كان يعتمل فى نفسى من ألم ، ولا ما كان يرتسم على وجه عبد الناصر من غيظ شديد . وألقى خطبة حانقة لا أشك فى أنها كانت مطلع الفتنة الكبرى بين الحكومة والاخوان .

وأخيرا عدنا إلى القاهرة ، وكان من الحق على لنفسى ، ولأولادى أن نذهب إلى الاسكندرية ، كما كانت عادتى منذ زمن بعيد فى أغلب الأحيان ، وفى الاسكندرية ذهبت مع أولادى إلى مسرح الريحانى طلبا للترفيه عنهم ، كما يفعل المصطافون عادة ، وقد رأيت أن ادخل إلى المسرح بعد ابتداء الرواية حتى لا أستلفت الأنظار ، غير أن المرحوم الأستاذ سراج منير لمحنى ، فبادر إلى وقف التمثيل ، ثم استأذن الحضور فى صوت مسموع قائلا : اسمحوا لى أيها السادة أن أحى باسمكم رجلا غاب عنا مائة يوم فى زيارة لبلاد الشرق الأقصى لمصر والمصريين ، وهو الجالس بينكم الآن الأستاذ أحمد حسن الباقورى وزير الأوقاف ، فارتجت جنبات المسرح بالتصفيق ، ثم اتبع كلامه بنكتة على الطريقة المصرية فقال : « ان الشيخ الباقورى سئل هناك عن اللغات التى يعرفها ويستطيع التحدث بها ، فقال أعرف العربية والانجليزية وصينى مكسر » .

وفى اليوم التالى دعيت إلى اجتماع مع الرئيس فى حفل من أجل قضية فلسطين ، وفى صوت خفيض قال لى عبد الناصر ، إن رحلتك الطويلة جعلتك زعيما يصفق له المواطنون فى مسرح الريحانى .

فأجبته فورا إن تصفيق المواطنين ليس من أجل شخصى ، ولكن من أجل أننى أمثل ثورة مصر . وما أسرع ما بدت فى وجهه أمارات الرضا والارتياح .

المشاركة فى احتفالات الدستور الإيرانى

وبعد يومين اتصل بى مكتب الرئيس فى الاسكندرية ، وأبلغنى أنه تلقى دعوة من شاه إيران لحضور الاحتفال بمرور خمسة وعشرين عاما على دستور إيران . وقد رأى الرئيس أننى أنوب عنه فى مشاركة الشعب الايرانى احتفاله بهذه المناسبة ، وذهبت إلى إيران ، ومعى الصاغ ابراهيم الطحاوى ، والشيخ محمد تقى الدين القمى ، وقد كان الشيخ القمى مشرفا على دار جماعة التقريب بين المذاهب الاسلامية فى القاهرة .

وفى إيران رأينا من مظاهر الترف والعظمة مالا يكاد يرقى إليه خيال . وقد رأى الشاه أن يجلس إلينا جلسة خاصة ، فكنت أنا والسفير المصرى عبد الشافى اللبان ، والدكتور محمد حسن الزيات الذى كان مستشارا فى السفارة . ولا أنسى أن الشاه قال لى بلغنى أنكم تحاولون أن تضعوا نظاما جديدا للحكم فى مصر ، فأبلغ جمال عبد الناصر أننى أقترح عليه أن يجعل نظام الحكم نظاما رياسيا ، وذاك هو ما أخذ به جمال عبد الناصر .

وقد دعانى وزير السياحة هناك إلى زيارة المعالم التى يزورها كل وافد إلى تلك البلاد . وقد رأينا فى هذه الجولة الرصيد الذهبى للعملة الايرانية ، وهى مجموعة كثيرة جدا من القوالب الذهبية التى تشبه قوالب الطوب الأحمر الذى كنا نصنعه فى مصر من طمى النيل .

ومن أغرب ما رأينا مجموعة التيجان التى تنتظم كل الجواهر الكريمة المعروفة فى العالم .

وأذكر أننى وقفت أمام أحد هذه التيجان وقفة رجعت بى إلى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فقد جىء إليه ـ رضى الله عنه ـ بتاج كسرى ، وكان مصنوعا على هيئة تأخذ بالألباب ـ إذ كان ينتظم كل ما يعرفه الناس من الأحجار الكريمة فى ذلك الزمان . فلما وضع التاج بين يدى أمير المؤمنين أقبل بوجهه على من حوله من أصحاب رسول الله ، ثم قال : إن الذى أدى هذا لأمين ، فقال له أحد أصحاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لو رتعت يا أمير المؤمنين لرتعنا ، ولكنك صنت أمانة الله فينا فصان الله لنا أمانتنا فيك .

ومما لا ينبغى تجاهله فى هذا الوطن أن صاحب معركة القادسية التى انهزمت فيها المجوسية ، كان هو سعد بن أبى وقاص صاحب رسول الله ، وأحد العشرة الذين بشرهم ـ صلوات الله عليه ـ بالجنة .

ثم لم يكن لنا من بد فى أن نتجول فى ايران كما تجولنا فى سائر البلاد التى فيها مسلمون ، لذلك رأيت أن أزور « قم » وهى المدينة التى يعتبرونها مقدسة وكان يقيم فى هذه المدينة الامام البروجيردى إمام أئمة المذهب الشيعى ، وقد أخبرنى الثقات من أهل العلم أن شاه ايران دعا البروجيردى لمقابلته ، ولكنه لم يستجب للدعوة ، فأعاد الشاه الدعوة ، فأعاد البروجيردى الاعتذار ، وعند ذلك لم ير الشاه مندوحة من أن يزور مدينة « قم » وأن يزور البروجيردى فى داره ، ولكنه حين علم بمقدم الامبراطور . غادر داره إلى مكان غير معلوم ، وهذا فى رأى تصرف لا يليق برجل الدين مهما تكن الأسباب الحاملة على ذلك .

وما دام حديث الملامح قد أفضى بنا إلى إيران ، فإن من الحق الذى تعنو لسلطانه الوجوه أن أذكر حقيقتين لا ندحة لى عن ذكرهما ، إعتزازا بالحق وإنصافا للتاريخ . وأولى الحقيقتين أن كثيرا من أهل إيران مع إسلامهم وتشيعهم لآل البيت الشريف ـ لا تزال تجد فيهم آثار البغضاء للعرب ـ مع علمهم أن آل البيت الذين يقدسونهم ذلك التقديس ، إنما هم عرب قرشيون .

وقد ذكر مؤرخ ثقة أنه كان يحادث رجلا من فضلائهم ، ومن ذوى المناصب الرفيعة فى الدولة الفارسية ، فلما بلغ الحديث بهما البحث فى قضية العرب والعجم ، قال الايرانى الكبير للمؤرخ الثقة : إن العرب عندما استولوا على فارس ، افسدوا أخلاقهم ، وبذلك أسقطوا تلك الأمة الفارسية العظيمة التى استولوا عليها وأدخلوها فى دينهم .

ولم يسع المؤرخ إلا أن يقول : أعتقد أن أخلاقكم أيها الفارسى كانت فاسدة من قبل ، ولولا ذلك ما تغلب عليكم العرب وأنتم أمة منظمة تعيش فى القصور ، وهم أمة بدوية تعيش فى الخيام .

وقد حدثنى وأنا فى إيران رجل من أهل السنة حديثا شهده معى زملائى فى الرحلة إلى إيران ، وقد كان الرجل السنى عضوا فى البرلمان ، وكان يؤكد لى أن الدولة لم تكن تعامل أهل السنة معاملة الايرانيين .. فكانت تتركهم بغير مدارس للتعليم ، ولا مستشفيات للعلاج ، وهم ـ مع ذلك ـ يحبون آل البيت حبا ليست له حدود . وقد قص علينا الرجل نفسه ذات ليلة قصة خيل لى معها أنه يضاحكنا فى مزاح خيالى سخيف ـ لولا أنه اقسم برب العالمين أنه يقول الحق ، وقد ذكر فيما قصة علينا أن رجلا من آل البيت نزل فى قرية من قرى ايران جارا لرجل من رجالها عظيم ، وما أن سمع أهل القرية بالضيف العظيم حتى وفدوا إلى دار الرجل فى القرية بهدايا مختلفة تناسب اقدار القادمين بها ، فعاش أهل القرية جميعا سعداء ، وقد ظفروا بكل ما يشتهون من خير الدنيا وخير الدين . وظل الضيف الكبير اياما على ذلك والهدايا

تنهال عليه ، وعلى البيت الذى يؤويه ، فلما طال به المقام أثر الرحيل وحدد لذلك يوما أنبأ به صاحب الدار ، فقال له : لا يمكن أن تذهب ، وإلا حرمتنا خيرا كثيرا لا بد أن يرحل عنا . فلما لم يجد قبولا طلب إليه فى رجاء ضارع أن يبقى بضعة أيام ، وله بعد ذلك أن يرحل كما يشاء . وذات ليلة دخل صاحب البيت على الضيف ، وقال له : الا تزال مصرا على الرحيل ؟ فأجابه بالايجاب ، يقول الرجل الراوى : فلما رأى صاحب الدار إصرار الضيف على الرحيل ، أخرج سكينا من جيبه ، ثم قال له : إن بقاءك بيننا يفيض علينا من الخير ما يغنى ويسعد ، فإذا رحلت عنا ، فقد أبدلتنا بالغنى فقرا ، وبالأمن خوفا ، وهذا أمر لا يرضاه مثلك لنا مع علمك بشدة حاجتنا إلى بقائك بيننا ، فلك أن تختار بين أمرين لا ثالث لهما : أن تبقى بيننا مكرما فى دار ، أو شهيدا فى ضريح ، يؤمه الناس بالهدايا التى تغنى من فقر وتشبع من جوع ، ولم يسع المسكين إلا أن يعدل عن الرحيل ، ويبقى خضوعا لمنطق السكين .

الشيعة لا يصلون الجمعة

ومع أن التطواف فى إيران كان بغية كل سائح لم أجد بدا من العودة بعد بضعة أيام قضيتها فيها موضعا للتكريم والاحترام ، ولقد أطلعنى القوم هناك على أمر لم أكن أتوقعه ، وما كنت لأعرف سره ولا الباعث إليه . ذلك أن الشيعة ـ فى جملتهم ـ لا يقيمون صلاة الجمعة انتظارا للإمام الغائب ، ولكننى دعيت فى إيران لصلاة الجمعة ، وكان الخطيب ينطق العربية الفصحى ، ويتحدث حديثا لا يختلف عليه المسلمون مهما يكن اختلافهم المذهبى .

وقد كان من الحق أن أسأل الشيخ محمد تقى الدين القمى عن تلك القضية ، فذكر أن تعطيل صلاة الجمعة ـ فى انتظار الإمام الغائب ـ ليس إجماعا من أئمة الشيعة ما دام إمام الصلاة واحد منهم ، وما دام الأمر ليس أمر نص بقدر ما هو أمر اجتهاد ، فإننا فى هذا العصر طلاب تقريب بين المذاهب ، فإذا كانت إقامة صلاة الجمعة وسيلة إلى التقريب المنشود ، فليس هنا مانع من إقامة الصلاة ، واننا نحمد الله ـ تعالى ـ على أنك شهدت هذا المعنى فى بلاد الشيعة الإمامية ، وهو أمر يعينك على المضى فى الطريق الذى أثرته لنفسك ، جمعا للكلمة ، وخدمة للإسلام والمسلمين .

وعلى هذه الصورة الطيبة التى ألمت فيها بأحوال المسلمين فى ايران ، انتهت زيارتى لهذا البلد الذى لا أكف عن الضراعة إلى الله ليل نهار أن يسلك بأهل السياسة والرياسة فيه سبيل الحرص على الأخوة الاسلامية ، فلا يجدون منتدحا عن المصالحة التى يدعوهم إليها أهل السياسة ، وقادة الأمم فى الشرق ، والغرب على سواء ، ولئن استجاب هؤلاء السادة لنداء المصلحة الشاملة : إنهم ليستجيبون قبل ذلك وخيرا من

ذلك لقول الله ـ تعالى وعز ـ « إنما المؤمنون أخوة فاصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

ولما اعتزمت السفر خلال يوم أو يومين ، ذكرنى السفير الدكتور اللبان بأن من الواجب أن أستأذن الشاه قبل مغادرة البلاد ، كما جرى بذلك العرف السياسى ، وكما يقتضى كذلك أدب الإسلام الحنيف ، ثم أخبرنى أن فى القصر الامبراطورى غدا حفلا أمر الشاه بإقامته للوفود المشتركة فى عيد الدستور ، وقد صحبت السفير إلى الحفل ، وهنالك صحبنى إلى الشاه فى مقصورته ، فلقينى لقاء كريما ، والبشر يشرق فى وجهه ، وكلمات الترحيب تجرى على لسانه ، ثم ذكرنى بأن لا أنسى ما كان قد قاله لى من قبل وصافحنى وهو يقول : إن خطواتك إلى التقريب بين المذاهب الاسلامية مع أفاضل علماء الأزهر الشريف هى موضع التقدير والشكر من جميع المسلمين ، ولهذا أكرر وصايتى لك بأن تبلغ شركاءك فى دعوة التقريب خالص تحيتى ، ولعل حسن الحظ يجمعنى بهم ذات يوم فى مصر أو إيران . وقد كانت تلك الكلمات آخر العهد به ، فقد قضى الرجل نحبه محروما من وطنه ، مبكيا من قادرى فضله ، رحمه الله وجزاه جزاء المؤمنين الصابرين .

ومؤتمر الحزب الدستورى فى تونس

ولما جئت إلى القاهرة لقيت الرئيس عبد الناصر وأبلغته رسالة الشاه ، وذكرت له تفاصيل ما شاهدته فى إيران ، فقال لى وهو يبتسم الحمد لله على السلامة من ايران ، ومع السلامة إلى تونس لتحضر مؤتمر الحزب الحر الدستورى فى مدينة صفاقس ممثلا لحكومة مصر .

فقلت له : أنا مستعد للسفر إلى أى مكان تكون فيه لمصر مصلحة ، فمثلى مثل ابن بطوطة الذى رحل إلى أقصى الشرق ، أو الشريف الأدريسى الذى اكتشف البحيرات الثلاث فى أفريقيا ، والتى كان من حقها أن تسمى بحيرات الشريف الأدريسى ولكنها سميت : فكتوريا نيانزا ، والبرت نيانزا ، والبرت إدوارد . فقال لى عبد الناصر : بعد حضور هذا المؤتمر فى تونس ، سافر إلى مراكش لتهنئة الملك محمد الخامس بعودته إلى العرش .

وبدأت أعد للرحلة إلى تونس ، التى دعت وفودا عربية كثيرة لشهود هذا المؤتمر ، وقد كان من توفيق الله أننى اخترت المرحوم الأستاذ الدكتور ابراهيم سلامة لطلاقة لسانه بالفرنسية ، واختارت الاذاعة الأستاذ احمد سعيد مدير صوت العرب لمصاحبتى فى الرحلة ، التى بدأتها بتونس .

وفى هذا البلد العربى الأصيل ، انعقد المؤتمر ، وتحدث فيه رؤساء الوفود . وقد كانت تونس ـ يومئذ ـ يحكمها حاكم يلقب بكلمة « باى » ويبدو أنه كان بينه وبين الرئيس الحبيب بورقيبة ما يكون عادة بين المتنافسين فى خدمة البلاد ، وقد كانت شعبية الحبيب بورقيبة ـ فى ذلك الوقت ـ أشد وضوحا من شعبية « الباى » . إذ كان هو رئيس الحزب الحر الدستورى الذى كان يرأسه من قبله العلامة المؤرخ الجليل الأستاذ عبد العزيز الثعالبى رحمه الله . وقد كان عبد الناصر أخبرنى بهذا « الخلاف » وبأن فرنسا تريد الحبيب لأن ثقتها به اشد من ثقتها بغيره من سائر المواطنين ، كما كان هناك خلاف بين الحبيب وبين صالح بن يوسف المجاهد التونسى ، الذى اغتالته فى أوروبا يد غادر جبان . وقد كان صالح بن يوسف من أحسن الذين صحبناهم فى مؤتمر باندونج ، وكان مجاهدا عربيا شديد الاعتزاز بجامعة الزيتونة طلابا وأساتذة ، وقد لجأ أولاده إلى مصر التى كانت ولا تزال ، وسوف تظل ملاذا للعروبة والعرب ، ومعاذا للإسلام والمسلمين .

رأيت من الحق على أن ازور راس الدولة فرغبت إلى مرافقى التونسى أن يتصل بالقصر ويحدد لى موعدا ، وتحدد لى ميعاد زيارة فى وقت جد قريب . ولما لقيت « الباى » أخبرنى فى ـ تواضع كريم ـ أنه كان مريضا وأن هذا اليوم الذى يلاقى فيه أحد أبناء الأزهر هو يوم سعيد يشرح صدره ، وتعود فيه إليه صحته كاملة . ثم دعا الرجل كبيرا من كبراء قصره ، فأهدانى أرفع الأوسمة التونسية ، ثم قلدنى إياها بنفسه مبالغة فى التكريم .

ولم تطل اقامتى فى تلك البلاد الحبيبة ، ومع ذلك زرت بعض المعالم ، ومن أهمها طبعا جامعة الزيتونة ، ثم دعانى أحد الوطنيين الصادقين الذين قبلوا التجنس بالجنسية الفرنسية . وقد كان الشيخ محمد الخضر حسين التونسى الجنسية قد أفتى بأن كل من يقبل الجنسية الاستعمارية ، هو مرتد عن الاسلام ، ولا يجوز أن يدفن فى مقابر المسلمين ، وقد حكم عليه بالاعدام ، فلاذ بمصر كما أشرنا إلى ذلك سابقا ، وفى مصر التحق بالأزهر الشريف مدرسا ومنحه الأزهر عضوية هيئة كبار العلماء .

فلما قامت ثورة يوليو أرادت تعيين شيخ للأزهر ، وفى مجلس الوزراء اختلفت الآراء . فأعلنت أن الأزهر ملك للمسلمين ، فلا ينبغى أن يحبس منصب شيخ الأزهر على المصريين وحدهم ، فإذا وجد غير مصرى عالم كفء وله موقف فى الدفاع عن الاسلام أو الاعتزاز بالعروبة والاسلام ، فإن هذا يكون أحق بمنصب شيخ الأزهر ممن عداه ، ولذلك يجب أن يعين الشيخ الخضر حسين شيخا للأزهر ، وفعلا تم تعيينه شيخا ، ثم رأت الثورة بعد ذلك أن تعين وكيلين للجامع الأزهر ، فعين الأستاذ الشيخ محمد عبد اللطيف دراز « مصرى » والأستاذ الشيخ محمد نور الحسن

« سودانى » وكيلين للأزهر ، وبهذه الصورة الاسلامية الجامعة رضى المسلمون فى مصر والمغرب والسودان . وتطاولت بالمسلمين آمالهم فى أن يظفروا بهذه المناصب وأمثالها إذا التحقوا بالأزهر الشريف ، وحرضوا على شعائر العروبة ، وأدب الاسلام مهما اختلفت بهم الديار .

لقاء الملك محمد الخامس

ثم أخذنا الطريق إلى المغرب ، وهناك سعدنا بلقاء الملك محمد الخامس ، الذى تنكرت له العنصرية البربرية حتى تنازل عن العرش ثم نفته فرنسا إلى بلاد بعيدة . ولم أكن أعرف عن جلالته كثيرا إلا أن زميلا عربيا كان قد كتب مقالا عنه فى مجلة « الهلال » وصفه فيه بأنه الملك الزعيم ، غير أن جلالته قد أكرمه الله فجمع له بين شرف الزعامة ، وجلالة الملك .

وليس يخفى على البصراء بشئون الاجتماع أن ثمة فرقا واضح المعالم بين الزعامة وبين الملك ، وذلك أن الملك متشبث بملكه شديد الحرص عليه وعلى استبقائه لنفسه أو لولده ، على حين أن الزعيم باذل أغلى ما يملك فى سبيل الاعتزاز بنفسه والانتصار لشعبه . وكذلك رأيت صاحب الجلالة محمد الخامس ملك المملكة المغربية ، وسليل البيت النبوى الشريف .

وقد هيأ لنا ـ رحمه الله ـ فى حضرته موضعا مرموقا ضم الوفد الذى كان يرافقنى ، وبعض الاخوة المواطنين فى القطر العربى الشقيق . وكان من الحق على أن ألقى بين يدى جلالته كلمة تعبر عما نكنه لجلالته وبيته الشريف من صادق المودة وعميق الاحترام ، فتفضل مشكورا بمنحنا الأوسمة والنياشين التى لا نزال نعتز بها ضارعين إلى الله ـ عز وجل ـ أن يفسح له فى جناته ما يكون كفاء لمثوبة المجاهدين ، وأن يسبغ على آل بيته الشريف ظلال الأمن والسكينة والسلام .

ولقد ظللت فى كريم ضيافته أمدا غير قصير ، وكنت أخرج فى معيته كل يوم جمعة لأداء الصلاة ، فكان يركب جواده يتبعه حامل المظلة ، وقد اجتمع الشعب كله فى صفين عن يمين وشمال يحيونه ، والفرحة به تغمر وجوههم ، والولاء له يعمر صدورهم ، وقد كانوا حرموا من صلاة الجمعة طوال فترة غيابه عن قاعدة ملكه ، إذ كانت الجمعة لا يؤديها المسلم إلا بإذن الامام ، وكان قد أمر بسيارة تتبع جواده العربى الأصيل . فكنت أجلس فى هذه السيارة بين ولديه الكريمين : الأمير الحسن ـ جلالة الملك الحسن الثانى ملك المغرب الآن ـ أطال الله بقاءه ، والأمير عبد الله ـ رحمه الله ـ رحمة واسعة .



□ استقبل عاهل المغرب الملك محمد الخامس ، المؤلف خير إستقبال يليق بمكانته الدينية والسياسية ، ويرى بين الملك والباقوزى الحسن الثانى ملك المغرب حاليا (وكان حينذاك ولياً للعهد) .

ولم يكن بد من أن أرغب إلى جلالته فى مقابلة خاصة . وذات يوم بعد صلاة الجمعة تفضل باستقبالى فى مكتبه ، ثم سألنى عن مصر وأحوالها فانتهزت هذه السانحة ، ورفعت إليه تحيات الشعب المصرى ، وتحيات خاصة من الرئيس عبد الناصر ، ثم قلت له : لقد كلفنى الرئيس أن أتشرف بدعوة جلالتكم لزيارة القاهرة .

فقال لى إننا نسمع عنكم أنكم لا تحبون الملوك ، فقلت له أن ملوك أمتنا العربية الاسلامية صنفان : أحدهما ، يعتبره الشعب دخيلا عليه متحكما فيه ومصداق ذلك عندهم أن التقاليد العربية الاسلامية لا ظل لها فى قصورهم ، ولغة الشعب لا يحسن النطق بها أحد منهم ، وثانيهما : يعتبره الشعب صميما فيه يقاسمه السراء والضراء ، وملوك الشعوب العربية الاسلامية هم فى الصميم من شعوبهم ، حيث

يسوسون الشعوب بروح الأخوة ، ويقاسمونها حياة السراء والضراء . وجلالتكم نبعة كريمة من الروضة النبوية الشريفة .

وقد أجابني بأنه قبل الدعوة ، وأنه سيزور مصر ، وهو فى الطريق إلى حج بيت الله الحرام حين تأذن الظروف بذلك .

غير أن إرادة الله – تعالى – لم تشأ لى أن أظفر بشرف استقباله حين زار مصر ، إذ كان الخلاف بين عبد الناصر وبينى قد الزمنى دارى لزوما لم يمكننى من مجاوزة عتبة الدار لأمد طويل ، ومع ذلك أبى عليه كرم محتده إلا أن يسأل عنى أخى وصديقى الدكتور نور الدين طراف الذى كان يرافق جلالته فى زيارته لسوريا إبان الوحدة ، وكذلك أبى عليه كرم محتده إلا أن يكرمنى مرة أخرى فى تكريمه لكبرى بناتى ليلى ، ذلك أنها كانت فى طريقها مع زوجها إلى أمريكا ، وكانت تستقل الباخرة التي كان يستقلها جلالته ، فلما بلغه أن ابنتى فى الباخرة نفسها ، بعث إليها من يدعوها إلى مقابلته ، وتناولت الطعام على مائدته ، وقد تفضل فسألها عنى داعيا لها بعناية كريمة ، لا تزال تعتز بها هى وزوجها السفير محمد سعيد الدسوقى كلما سنحت لهما فرصة الحديث عن كبار الهمم من ملوك المسلمين .

كان مما استلفت انتباهى خلال زيارتى للمملكة المغربية أن أجد من التنافس الحزبى ما لا يكاد يخلو منه قطر من أقطار العروبة والاسلام . ذلك أننى وجدت حزبين يتنافسان : أحدهما حزب الاستقلال ويرأسه أخى الفقيه المالكى علال الفاسى ، والثانى حزب الشورى والاستقلال ، ويرأسه صديقى الأستاذ محمد حسن الوزانى .

وقد كان حزب الاستقلال الذى يرأسه السيد علال ينتظم الرجال والنساء عضويته انصافا للمرأة التى ظلت محرومة من حقوقها دهرا طويلا ، ولم ينصفها مذهب اجتماعى كما أنصفها الإسلام .

ولقد أذكر بهذه المناسبة ما لا أجد له تعليلا إلى الآن ، وهو سوء الظن بمشايخ الطرق الصوفية وانتقادهم على الملأ فى كثير من الأحيان.. وشاهد ذلك قصة أرويها عن كتاب لى أخرجته للناس دار الهلال بعنوان « عروبة ودين » وفيه قلت :

أذكر وأنا فى مراكش أننى كنت أتجول فى أحد الأحياء الوطنية ، فدعيت لزيارة إحدى المؤسسات ، فاستقبلنى أهلها مرحبين ، وكانت فى يدى مسبحة صغيرة فلما بصرت بها سيدة مددت يدى للسلام عليها ، أبت أن تسلم على قائلة : معذرة يا سيدى لأنك شيخ طريقة أو مريد طريق .

فقلت لها : لا والله ما أنا بشيخ ولا مريد .

فأجابتنى : فلماذا تحمل هذه المسبحة فى يدك ؟

فأجبتها : إن المسبحة عندنا لا يختص بها رجال الطرق بل هى فى يد أى إنسان يحب أن يشغل يده بشىء يستعين به على ذكر الله ، ولذلك فإننى أقدم لك هذه المسبحة لكى تصنعى منها عقدا .

وعند ذلك فقط ذهب ما كان يملأ وجهها من غيظ وألم . وقد سألت بعض الأخوة الذين كانوا يرافقوننى من أعضاء حزب الاستقلال ، فقالوا : إن فرنسا كانت ترى أن لمشايخ الطرق مكانة فى نفوس السواد الأعظم من المسلمين ، فحشدت هذه الدولة مالها وسلطانها لإنشاء جيش فرنسى من مشايخ الطرق وأغرتهم بالذهب وكل ما يغريهم لكى يكونوا أعوانا لها على المجاهدين المخلصين من المواطنين الذين باعوا أنفسهم لله ذيادا عن الوطن وحماية للإسلام ، وكما صنعت فرنسا ذلك فى الجزائر وفى سوريا من قبل ، لا تزال تصنع ذلك الصنيع البغيض فى المغرب ، وفى كل بلد تريد أن تخدعه بصورة دينية براقة ، لكى تعوق خطوات المجاهدين الصادقين ، فلهذا لا تؤاخذ هذه السيدة التى تجهمتك وافقدتك مسبحتك المرجان الغالية .

وقد عجبت للسيد العلامة الذى كان يشارك السيدة كراهيتها الشديدة لرجال التصوف . مع أن أيا من أهل البصر الفاقه لشئون التاريخ يعلم - عن يقين - أن روافد القوة التى يستند إليها الدعاة إلى الإسلام فى أفريقيا ثلاثة :

الرافد الأول : الطرق الصوفية

وهى ثلاثة طرق :

أولها : الطريقة القادرية التى أسسها الشيخ عبد القادر الجيلانى البغدادى .

وثانيها : الطريقة الشاذلية التى تأسست فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى ، وهى من أوليات الطرق التى أدخلت التصوف فى المغرب ، ومركزها « بوبريت » فى مراكش ؛ وكان من أشياخها سيدى العربى الدرقاوى الذى نمى فى مريديه حماسة دينية امتدت إلى المغرب الأوسط ، وكان للدرقاوية دور فعال فى مقاومة الاستعمار الفرنسى . ومما امتازت به الطريقة الدرقاوية دعوتها إلى الطاعة لمشايخ الطريقة ؛ إذ كان يوصيهم المرجع المقدس للطريقة الدرقاوية بقوله : « على الإخوان أن يكونوا فى يد المرشد كالموتى بين يدى الغاسل . وربما ذكر أهل العلم أن هذه الطريقة تشبه المبادىء الرهبانية التى كان يدين بها « اغناطيوس » .

وثالثة الطرق : الطريقة التيجانية ، التى أسسها أحمد بن محمد التيجانى

فى مدينة فاس سنة ١٧٨٢ م ، ومن أهم تلك الطرق الطريقة السنوسية التى ترى أفضل العبادة لله فى حماية الوطن ونشر الإسلام .

والرافد الثانى : الأزهر الشريف

وقد كان من أهل العلم فيه من يذهب مذهب المتصوفة ويستن بسنتهم ، وهو العلامة الجليل الإمام الدردير احد أشياخ السادة المالكية .

وثالث الروافد : التجار المسلمون

الذين كانوا يتعاملون مع الناس بالسماحة والأمانة واشعارهم روح الأخوة الدينية التى أوصى بها القرآن الكريم ، ودعا إلى رعاية حقوقها رسول الله العظيم .

ولذلك كان من العجيب أن يتحامل الناس على مشايخ الطرق ورجال التصوف . وكان الأشبه بهم أن يحترموا من يستحق الاحترام ، وأن يزدروا من يستحق الإزدراء . وإلا فإن من أهل التصوف المقدورين الذين تبدو معالم تصوفهم فى النزول على حكم القرآن بغير تأويل يخرج بالمسلم عن سواء السبيل ، وفى طليعة هؤلاء السادة الإمام الورع الزاهد أحمد بن حنبل ، والإمام التقى النقى ابن تيمية ، ومريده العلامة الجليل ابن قيم الجوزية رضى الله عنهم ورضى عنا بهم أجمعين .

وبعد هذا المشوار الطويل ـ على بعد الشقة وشدة المشقة ـ عدت إلى القاهرة ، ثم لقيت الرئيس وأخبرته بما ينبغى أن أخبره به ، من حيث كنت ممثلا لحكومة مصر فى هذه الرحلة التى استغرقت شهرا كاملا .

عـودة للسعودية

وأذكر أننى حين رويت له ما قلته للملك محمد الخامس ، من أن الثورة لا تعادى الملوك من حيث هم ملوك ، ولكنها تعادى الذين يتعالون على الشعوب ويرون سلطانهم حقا مقدسا مستمدا من حق الله ـ تعالى ـ على خلقه ، ولما كان ملوك المغرب ديمقراطيين بحكم بيئتهم التى نشأوا فيها ، وبمنطق الإسلام الذين تأدبوا بأدبه ـ لم يكن من الحق أن تكون مبادىء ثورتنا شاملة للملوك أجمعين . فما كان جوابه إلا أن قال : بأى حق تقول هذا القول ، وتربط نفسك وتربطنا معك بمبدأ لم تستشرنا فيه ؟

ولم أشأ بعد أن سمعت هذه الكلمات إلا أن أمسك عن القول حتى لا أجد فرصة لجدال عقيم لا خير فيه لأحد . والعجيب أنه أخبرنى - غفر الله له - فى نفس الجلسة أنه مسافر للعمرة ، ورغب إلىّ أن أصحبه إلى البلاد المقدسة ، وقد نزلنا ضيوفا على جلالة الملك سعود بن عبد العزيز فى قصره بجدة ، وكان يصاحبنا فى هذه الرحلة السيد أنور السادات بصفته سكرتيرا للمؤتمر الإسلامى ، ولم أكن أدرى أن هذه الرحلة كانت تتغيا عقد معاهدة للضمان الجماعى ، وقد التقى لهذا الغرض الملك سعود ممثلا للمملكة العربية السعودية ، والإمام أحمد ممثلا للمملكة اليمنية والرئيس عبد الناصر ممثلا لجمهورية مصر .

ولست أنسى ما كان يمتاز به جلالة الملك سعود من الصراحة والسماحة التى حملته على أن يكرمنا برؤية كل حجرات القصر المنيف فى جدة ، ثم دعانا السفير المصرى فى جدة الدكتور عبد الوهاب عزام إلى زيارة السفارة وتناول العشاء ، وقد تفضل فصحبنا إلى السفارة المصرية سمو الأمير فيصل - الملك فيصل رحمه الله - والذين عرفوا الفيصل ، يعرفون عنه أنه سياسى ماهر فى شئون السياسة العالمية ، حتى كان يرى من وراء الحجب ما تعلن عن صدقه الأيام فى قابل من الزمان قريب أو بعيد .

وفيما كنا فى الطريق ذكر سمو الأمير للرئيس عبد الناصر انه يكره لأمته التزمت الشديد والدعاة إليه باسم الإسلام ، وأذكر أن عبد الناصر قال له : إن معنا الشيخ الباقورى وأنور السادات فأجابه فى لهجة الواثق بما يقول : ليت كل الناس مثل الشيخ الباقورى ، وأنور السادات إذن لاسترحنا ، واستراح الناس معنا من كل ما يلصقه أعداء الإسلام به مما هو برىء منه ودخيل عليه .

فى الطريق إلى ليبيا

ولم يطل مقامنا بالبلاد المقدسة فعدنا إلى القاهرة بعد خمسة أيام ، وإذا دعوة من المملكة الليبية للمشاركة فى الاحتفال بمرور مائة عام على وفاة محمد بن على السنوسى مؤسس الطريقة السنوسية .

وقال لى عبد الناصر : يبدو أنك ستكون نائبا عن الحكومة كلما تلقينا دعوة من قطر عربى ، أو قطر إسلامى . فإذا لم يكن لديك مانع فتجهز للسفر لتمثيل مصر فى هذا الاحتفال ، وكان من العجيب أن يتصل بى فى اليوم التالى العالم الشاعر الأديب احمد خيرى الذى كانت تربطه بوزارة الأوقاف رابطة وقف خيرى كبير كان والده خيرى باشا قد وقف ريعه على مكتبة حافلة بالكتب يزورها من يشاء لينتفع بما ضمته

من تراث أدبى رفيع ، على أن ينزلوا فى دار أقيمت بجانب المكتبة ضيوفا على الوقف الكريم .

وقد كان ابنه الحاج أحمد خيرى من أئمة اللغة الاعلام ، وكان على ذلك شديد الاعتزاز بانتسابه إلى البيت النبوى الشريف ، وكانت صلته وثيقة بالبيت السنوسى ، وقد ألف كتابا سماه « سطعات الماس من سجعات الأساس » .

ومع ذلك أخذت الحكومة تطارد الرجل الفاضل ، وتتربص به الدوائر على يد أحد المحافظين فى اقليم البحيرة ، فسلب أرضه التى كان يفلحها بنفسه ، ثم سلب المكتبة الضخمة ، واعطيت لجامعة الاسكندرية بحجة أن طلاب العلم اشد حاجة إليها وانتفاعا بها من الذين يزورونها من شتى الجهات .

وقد أخبرنى - رحمه الله - بأنه مدعو إلى الاحتفال بذكرى الإمام السنوسى . فرغب إلى أن يصحبنى فى هذه الرحلة . فرحبت به زميلا كريما ، وأخا يعتز به المسلمون فى كل مكان .

وقد اجتمع فى هذا الحفل المهيب ممثلو الدول الإسلامية أذكر منهم الأستاذ العلامة الفاضل بن عاشور التونسى ، وقد عجبت أن يكون بين هؤلاء السادة ممثل للحكومة التركية ، الذى كان يشغل منصب مدير الشئون الدينية فى الجمهورية التركية ، وكان مثار عجبى أن كمال أتاتورك قطع علائقه بالإسلام ، وارغم الشعب التركى على أن يتنكر لماضيه ولحاضره ومستقبله ، وأكثر من ذلك أنه قضى على اللغة العربية ، فحرم بلاده بذلك من الانتفاع بالتراث العربى الأصيل ، الذى كانت تركيا المسلمة تستمد منه بقاءها ونماءها وهيبتها فى صدور الأولياء والأعداء على سواء .

وليس يذكر عالم من علماء الأزهر الشريف المملكة الليبية ، إلا ذكر بها أولى كتاب فى التوحيد أطلق مؤلفه عليه اسم « الرسالة السنوسية فى التوحيد وعلم الكلام » .

ومما لا يجمل إغفاله فى الحديث عن المملكة الليبية ، أن إيطاليا حين أعلنت الحرب عليها فى سنة ١٩١١ م تطوع فى الدفاع عنها كثير من المصريين فى مقدمة الذين أعرفهم من أولئك المجاهدين الأستاذ عبد الرحمن عزام واللواء صالح حرب ، والمواطن الفلاح الصاوى سيد دراز وكثير غير هؤلاء ممن يعرف الله - تعالى - لهم فضلهم ، وإن جهلهم أكثر الناس .

وقد ذكر لى صالح باشا حرب قصة عن المجاهدين فى تلك البلاد ، فقال : إننا قد احتجنا ذات يوم ملابس تقينا شدة البرد ، وليس هناك متاجر ولا وسيلة لنا إلى شراء ما يقينا هذا البرد ، فلم نجد إلا ضريح سيدى رافع رضى الله عنه أخذنا من كسوته

ما يقى صدورنا هذا البرد الشديد . وكان الناس كلما رأونا على هذه الصورة يعجبون من أن يقاتل الجيش الطليانى ضريح يمشى على قدمين فى ميدان القتال . ومعروف أن الجيوش السنوسية لم تستطع الثبات أمام جيوش إيطاليا المسلحة بكل أنواع الأسلحة التى لا علم لبدو ليبيا بها ، ولذلك لم يكن بد من أن يستسلم الضعفاء للاقوياء .

ويبدو أن الإمام محمد بن على السنوسى كان بعيد النظر عميق التجربة ، فقد رأى بثاقب فكره أن الأجانب على وشك أن يستولوا على بلاده ، فأوغل إلى الجنوب ، وأقام بالصحراء وأنشأ زاوية للسنوسية فى واحة جغبوب ، توفى بها ، وله فيها ضريح يزوره السنوسيون من جميع الديار .

وقد ولد بالزاوية البيضاء السيد أحمد الشريف الذى عرض عليه اتاتورك أن يكون خليفة للمسلمين بعد أن الغى الخلافة من بيت آل عثمان ، فأبى أن يتحمل تبعات هذا المنصب الجليل لأنه يحتاج إلى قوة كبيرة ، وربما أغضب قبوله منصب الخلافة أكثر المسلمين ، والسيد ادريس الذى كان ملكا للمملكة الليبية .

وقد زرت هذه الزاوية ، ورأيت بعض أثاثه الذى كان يعيش معه على صورة من التقشف لا تخطر على بال إنسان يعيش فى القرن العشرين .

ومهما يكن من أمر ، فقد سعدت أبلغ السعادة بهذه الرحلة التى أفادتنى كثيرا من المعارف بأحوال الناس فى تلك البلاد التى لم تقصر يوما فى ركوب الأخطار فى حومة الجهاد حماية للوطن ودفاعا عن الإسلام . وقد كنا نتمنى أن نلقى الملك السنوسى لشكره على الدعوة الكريمة ، وكان فى مكان بعيد يقتضينا سيرا جاهدا فى جو لا قدرة لنا على احتماله ، ولا عهد لمثلنا به .

وقد كان مما أثار دهشتى ما علمته عن المجاهدين الذين كانوا يقاومون الغزو الايطالى ، مقاومة لا يقوم بحقها إلا أولئك السادة الذين رباهم محمد بن على السنوسى ، ذلك أنه فى شهر مارس سنة ١٩١٢ م حمت موقعة بين العرب وبين الطليان ، وقد كان من المتطوعين للجهاد أمير البيان العربى شكيب أرسلان ، ومعه رجال خمسة من أعز خلصائه فى جبل لبنان ، فلما وصل هؤلاء المجاهدون تلاقوا فى أحد المعسكرات بأنور باشا ناظر الحربية التركية ، والغازى مصطفى كمال باشا الذى تولى بعد ذلك رياسة الجمهورية التركية ، وقد مضى هؤلاء المجاهدون إلى غايتهم التى تطوعوا من أجلها فى جيش السنوسى .

وفى هذه الأثناء نشبت حرب البلقان بين الدولة التركية والطامعين فيها الذين كانوا يطلقون عليها اسم « الشيخ المريض » ، وكانوا يتربصون بها الفناء لكى

يقتسموا مواريثها فيما بينهم ، ومن أجل ذلك الح الأتراك على انور باشا للرجوع إلى الاستانة ، فتراخى عن إجابة الدعوة ، وما زالت تركيا تلح عليه ، وهو يؤجل حتى إذا لم يجد بُدا من الرحيل رحل مكرها وسلم القيادة إلى عزيز المصرى الذى واصل قتال الطليان .

ثم عقدت الدولة التركية صلحا مع إيطاليا ، فسحب عزيز المصرى عسكره النظامى الذى كان يومئذ فى برقة ، وقد أخذ هذا العسكر معه ما أمكن أن يأخذه من الأسلحة ، ثم ساروا قاصدين الحدود المصرية ، ولم يستسلم المجاهدون فى طرابلس للأمر الواقع بل أصروا على أن يسلمهم عزيز المصرى البنادق فى مناقشة تولاها شيوخ الزوايا السنوسية من أهل الجهاد وأهل الفقه بالإسلام ؛ ولكن الحجة مهما كانت قوية فإنها لا تغنى شيئا فى مواجهة الأقوياء ، ولذلك انتهى الأمر بين عزيز المصرى ، وبين المجاهدين إلى القتال ، فوقعت حادثة مؤسفة خلاصتها ، أن الأعراب عندما قطعوا الأمل فى تسليم البنادق عن طريق الاقناع بالأخوة الإسلامية ، أطلقوا الرصاص على العسكر العثمانى الذى كانت تركيا قد أرسلته إلى ليبيا لمشاركة إخوانهم الليبيين فى مدافعة الطليان .

وكان للعرب مخيم غربى السلوم ، وقد أخذت عزيز المصرى الحمية العسكرية ، فأمر الجنود الذين كانوا تحت قيادته بمقابلة العدوان بمثله . فنشبت معركة سقط فيها كثير من العرب ومن الجنود الأتراك ، وعند ذلك امتد الصريخ إلى سكان المغرب العربى ، فأقبل المجاهدون من كل صوب يريدون الانتقام من عزيز المصرى وعسكره . ولم يستطع احتمال هذا البلاء السيد أحمد الشريف السنوسى ، فاكفهر الجو بينه وبين عزيز المصرى ، ومع ذلك لم يكن ليرضى أن تكون النهاية أن يقتل المسلمون بعضهم بعضا ، فأرسل الشهيد عمر المختار لتلافى الشر ، ومنع الأعراب من الهجوم على عزيز المصرى وعسكره .

وأمام هذا التيار الجارف من البسالة فى مواجهة إيطاليا ، لجأ الطليان إلى الخديوى يرجونه فى أن يتوسط لحسم الخلاف وصيانة الدماء ، فأرسل عدة مرات يقترح على السنوسى الاتفاق مع إيطاليا ، ولكن السنوسى اعتذر عن قبول ذلك قائلا فى كتاب كتبه إليه : إننى لا أملك ذلك القطر لأنزل عنه لإيطاليا ، ثم إن الإسلام يمنعنى من تسليم البلاد للمستعمرين .

وفيما نحن فى طريقنا إلى مصر رغب إلى أخى الأستاذ أحمد خيرى فى أن أصحبه إلى دسوق بحيرة لأستريح معه من عناء الرحلة الشاقة ليوم أو اثنين ، ثم أعود إلى القاهرة ، وكان أخشى ما أخشاه أن أكون كما وصف الشاعر القديم رجلا صاحب أسفار كثيرة ، فقال :

ما آب من سفر إلا ليزعجه رأى إلى سفر بالبين يقطعه
كأنما هو فى حل ومرتحل موكل بفضاء الأرض يذرعه

ولست اتجهم عادتى فى التعليق على كل رحلة رحلتها ببضع كلمات تشير إلى معان قد ينتفع بها الذين يقرأون هذه الملامح بعد وقت يقصر أو يطول .

ذلك انه كان يرافقنى فى الرحلة داخل الأراضى الليبية سفير مصر هناك السيد / احمد الفقى ، وقد كان من عادتى إذا رحلت أن أبدأ الرحلة بما كان يستفتح به يومه رسول الله ﷺ ، إذ كان يقول كلما خرج من بيته : « اللهم إنى أعوذ بك من أن أذل أو أُذل ، أو اظلم او أُظلم ، أو اجهل أو يُجهل علىّ .. اللهم انت الصاحب فى السفر ، والخليفة على الأهل والولد ، فاحفظنى بحفظك يا رب العالمين » .

وذات يوم أنطلقت بنا السيارة فى سرعة مجنونة ونحن فى طريق من مقر الضيافة إلى جهة بعيدة لشهود مؤتمر فرعى ، وكادت السيارة تسقط بنا فى هوة سحيقة تحت الجبل الذى كنا نسير عليه ، ولكن الله سلّم ، فنجونا من الموت المحقق بأعجوبة ، كما نشرت الصحف المصرية ذلك فى حينه ، ولست أنسى ما كان يرتسم فى وجه السفير المصرى من علائم الرعب التى تشوبها امارات الابتهاج بالنجاة من الموت ، ثم قال لى فى لهجة صادقة : ارجو أن تكتب لى هذا الدعاء فإنى أعتقد أنه هو الذى أنجانا من الهلاك فى هذه الرحلة .

الفصل السابع

عبد الناصر .. أسلوبه وبطانته

عندما عدت للقاهرة ، لزمت دارى فى مصر الجديدة ، فزارنى الرئيس عبد الناصر للاطمئنان علىّ ، وكان قد قرأ ما نشرته الصحف من تعرضى لخطر شديد ، ونجاتى من حادث السيارة .

وقد انتهزت هذه السانحة فحدثته بكل ما رأيت وسمعت ، خاصة ما يتصل بعزيز المصرى وخلافه مع العرب حتى كاد يقتل بعضهم بعضا لولا حكمة السيد أحمد الشريف السنوسى ، ثم أخبرته اننى وجدت الاخوان المسلمين فى كل مكان رحلت إليه ، فهم فى تونس ومراكش والجزاير وليبيا ، حتى سمعت عن واحد منهم هو الأستاذ عبد الهادى سليمان طراد ، الذى كان قد سافر إلى إيطاليا ليتعلم اللغة الايطالية ، معتقدا انه قد ينتفع بها فى مشاركته للمجاهدين الذين جاءوا إلى طرابلس من جميع آفاق البلاد الإسلامية .

وبعد الفراغ من الحديث أعاد علىّ ما كان يقوله دائما كلما عدت من رحلة : إنك فى أسفارك الكثيرة فى أنحاء العالم المختلفة أنفع لنا ولك من بقائك وزيرا للأوقاف فى مصر لتشغلك أمور يستطيع أى مواطن أن يقوم بها ، فى حين أن أسفارك داعيا لمصر أمر لا يستطيعه كل المواطنين . وأنا أرى أن تقدم اقتراحا بتغيير اسم وزارة الأوقاف إلى وزارة الشئون الدينية .

التجديد فى وزارة الأوقاف

وقد خشيت أن يكون حرص عبد الناصر على إنشاء وزارة للشئون الدينية بدلا من وزارة الأوقاف استجابة لرغائب الذين كانوا يطمعون فى إدارة أراضى الأوقاف الزراعية ، وهم كثير من كبار القائمين بالشئون الزراعية فى مختلف الوزارات والهيئات ، لذلك لم استجب لهذه الرغبات ، وآثرت أن أبقى فى وزارة الأوقاف ، وأن أنفذ مشروعاتى التى كانت الصحافة المصرية كثيرا ما تنشر أخبارها للناس فى صور أو مقالات نشر بعضها الأستاذ طاهر الطناحى فى مجلة « المصور » وفيها يقول : لقد

ابتكر وزير الأوقاف طريقة غير الطريقة التى كانت تسير عليها الوزارة من قبل ، وما كادت تمضى عليه مدة وجيزة فى وزارة الأوقاف حتى أحدث فيها ثورة إصلاحية ، وثورة تجديدية فقام بتحريرها من الجمود الذى عاشت فيه منذ قامت فى هذه البلاد ، لأنه عدو التزمت والتعصب والجمود ، وألغى الوقف الأهلى الذى طالما كان مثار الشكوى الدائمة مما يرتكب فيه من المظالم والآثام .

وقد ابتكر طريقة مشروعة فى الأوقاف الخيرية ، فأنشأ لها ما لم يكن من قبل من مؤسسات صناعية ، وشركات إنتاجية أصبحت مصدرا للرزق الشريف لكثير من الفقراء ووسيلة كريمة لتوزيع الخيرات وإعاشة العائلات المحتاجة ، وقد فتح بها أبواب العمل للعاطلين المحتاجين الذين يقتلهم الحياء دون الطلب والاستجداء .

هذا .. والذين تعقبوا مآثر وزارة الأوقاف فى تلك الأيام ، سوف يرون خبرا نشرته « أخبار اليوم » عند إنشاء مصنع لتجفيف البصل فى مديرية سوهاج ، يجفف من خمسين إلى مائة طن يوميا ، وذلك بتاريخ ١٩٥٥/٤/٢ وحول هذا المصنع نشرت الأخبار بتاريخ ١٩٥٥/٥/٣ ما يلى :

صرح وزير الأوقاف لمندوب الأخبار بأنه حريص على حماية محصول البصل من التلف الذى يتسرب إليه ، فإن ما يزرع منه يزيد على حاجة الاستهلاك المحلى للبلاد ، ولابد من تصدير الجزء الفائض للخارج ، وهذا لا يتحقق إلا بإنشاء مصنع خاص لتجفيفه فى سوهاج . ثم قال : وقد رأيت أن أجتمع مع كبار المنتجين للتشاور حول هذا الموضوع فيما يتصل بزراعته وبيع المحصول للأوقاف توطئة لتجفيفه ، وتصديره للخارج ، وبذلك يتحقق لنا غرضان : أحدهما حماية المحصول من التلف ، والآخر بيع ما يفيض عن حاجة البلاد والانتفاع بقيمته .

وكذلك أنشأت الوزارة مصنعا للثلج فى سفاجة ، وقصة إنشائه ترجع إلى زيارة كنت قد قمت بها مع الرئيس عبد الناصر والمشير عامر ، وقد رأينا فى تلك المنطقة ثروة سمكية لا نظير لها فى ثغر من الثغور المصرية ، ولما التقينا بالصيادين شكوا أن الفساد يسرع إلى السمك ، وخاصة الجمبرى الذى يتكاثر هناك على صورة خيالية ، وقد طلبوا إلينا إنشاء مصنع للثلج ، فقامت الوزارة بإنشاء هذا المصنع كما أشارت إلى ذلك جريدة الأخبار بتاريخ ٤/ ٤/ ١٩٥٥ م .

فكرة إسقاط الجنسية عن الإخوان

ولست أنس لجمال عبد الناصر ـ يرحمه الله ـ كلمته التى علق بها على حديثى

إليه عن الاخوان المسلمين ، وعن رحلتى إلى شمال افريقيا ، فقد قال لى : إنهم مع كل ما تصفهم به مكروهون من رؤساء الدول التى لجأوا إليها .

ثم أضاف : إن بعضهم يشتم مصر ، وحكومة مصر بألفاظ نابية وأحاديث مختلفة ، ولما كان ذلك أمرا غير لائق ، فقد رأيت أن أحرمهم من الجنسية المصرية ، وخاصة عبد الحكيم عابدين ، وقد كتبت قرارا بذلك ورغبت إلى الرئيس نجيب أن يوقعه ولكنه أبى ، فبعثت إليه بكثير من إخوانه ، فأصرّ على عدم التوقيع ، واظن لو أنك أنت ذهبت إليه ، وطلبت منه أن يوقع القرار ، لبادر إلى توقيعه وكفانا شر الخلاف الذى لا خير فيه .

اذكر أننى انتهزت هذه الفرصة ، فذكرت له أن الاخوان فيهم الصالح والطالح ، والصادق وغير الصادق ، شأنهم فى ذلك شأن كل الطوائف فى كل الشعوب وكل طائفة فيها ما يكفيها ، وهذا أمر لا يخفى عليك . وقد خشيت أن ينقلب الأمر بينى وبينه إلى جدال لا يدرى عاقبته إلا الذين خبروه ، فرأوا انه إذا غضب لم يفرق بين ما يليق ومالا يليق . على أننى لو آثرت الجدال ومضيت إلى غاية القول ، لذكرت له صورتين كنت قد رفعتهما إليه ، شاكيا تصرفات الذين ينتسبون إلى السلطان انتساب مملوك لمالك ، أو مرءوس لرئيس .

وإحدى الصورتين ، أن أحد كبار الضباط الذين ينتسبون إلى الثورة زارنى ذات ليلة بعد منتصف الليل فى شتاء قارس وكان معه قريب له ، فجاءنى البواب خائفا مذعورا ، وأخبرنى بأمر هذا الضيف الذى جاء فى سيارة السجن الحربى ، وفيها جنود يرتدون زى البوليس الحربى ، ثم أمره مقدم القوم بأن يخبرنى بمقدمهم ، وبأنهم يطلبون مقابلتى على وجه السرعة لأنهم مشغولون ، ولا يستطيعون الانتظار .

فما تمالكت أن قمت من فراشى ، وهبطت السلم ووساوس السوء تملأ صدرى ، وخوف المجهول يسيطر على أهلى وولدى ، ثم دعوت بالقوم إلى غرفة الجلوس وكانوا قد سبقونى إليها ، فقام إلى كبيرهم وإلى جانبه قريبه وقال لى ـ فى لهجة آمرة ـ إن فى وزارة الأوقاف وظيفة وكيل وزارة غير مشغولة ، وقد جئتك اليوم أطلب منك تعيين هذا وكيلا لوزارة الأوقاف ، وأرجوك لا تؤاخذنى على هذه « الرذالة » لكنكم علمتونا إن الضرورة لها أحكام .

وثانية الصورتين : أن فى بولاق بالقاهرة مسجدا يقع بالقرب من مسجد السلطان « ابو العلا » وقد كان هذا المسجد يسمى « مسجد الخطيرى » ولكنه تحول بالاهمال وطول الزمن إلى خرابة ، يأوى إليها المتسولون والهاربون من القانون . وقد جاءنى ذات يوم أحد الضباط الذين ينتسبون إلى الثورة ، وفى حديث طويل رغب إلى انه فى حاجة شديدة إلى معونة كريمة من وزارة الأوقاف ، وأن مثله لا يمد يده إلى

مال مهما كان كثيرا ، ولكنه يحب ان يستأجر أرضا من خرابات وزارة الأوقاف ، لكى يقيم عليها محطة بنزين تمون السيارات ، وهذه الخرابة فى موقع عظيم ، وهو مستعد أن يستأجرها من الوزارة بالقيمة التى يراها السيد الوزير .

ثم ذكر لى أن الخرابة التى يريد استئجارها هى مسجد الخطيرى الذى طال عليه الأمد وأحاط به الاهمال ، فأصبح آثارا يسكنها البوم والغربان ، وربما لجأ إليها بعض قطاع الطرق او بعض المتسولين . ولم يسعنى إلا أن أرفض طلبه خوفا من الله ، أو خوفا من الناس ، أو الاثنين معا .

وقد اخبرت بالصورتين جميعا عبد الناصر ولست اشك فى أنه تحرى عن الرجلين وعرف جلية الخبر ، ولكنه آثر المجاملة والمصانعة . ومعنى ذلك أن كل طائفة فى دنيا الناس فيها الصالحون والطالحون ، والصادقون وغير الصادقين .

الإخوان المسلمون . . ثلاث طوائف

والاخوان المسلمون لا يختلفون عن الناس ، وإن كانوا ـ فى مبلغ علمى ـ طوائف ثلاث ، فمنهم الأغنياء اصحاب المال الكثير ، ومنهم المحتاجون الذين تجوز عليهم الصدقات . ومنهم من يتوسطون بين الفريقين ، فلا هم إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

والذين التجأوا منهم إلى دول أسبغت عليهم من سلطانها وما لها ما تطمئن إليه حياتهم ، لا ينبغى أن يغض من قدرهم أن يجاملوا الذين افسحوا لهم صدورهم ، وبالغوا فى إكرامهم ، حاشا أن يسبوا وطنهم أو القائمين عليه وولاة الأمر فيه .

وما اكثر بطانات السوء فى دنيا الناس سواء فى ذلك المسلمون وغير المسلمين ، بل إن بعض الذين يحيطون بولى الأمر يتعرضون بسبب ذلك لأبلغ الأذى يلقاهم به اصدقاء ولى الأمر فى الأمة وأعداؤه أجمعون ، على ما تؤيد هذا المعنى الكلمة الجليلة التى رواها صاحب العقد الفريد عن العربى الفيلسوف خالد بن صفوان حيث قال : « من صحب السلطان بالنصيحة والأمانة كان أكثر عدوا ممن صاحبه بالغش والخيانة ، لأنه يجتمع على الناصح عدو السلطان وصديقه . فأما عدو السلطان ، فيكره الناصح الأمين لأن نصيحته إياه تطيل بقاءه فى المنصب ، وهو يريد المنصب لنفسه . وأما صديق السلطان ، فيكره الناصح الأمين لأنه يريد لنفسه أن يكون هو بجانب السلطان ينتفع بجاهه وماله .

بطانة عبد الناصر هى الأسوأ

وقد كانت بطانة عبد الناصر من أسوأ البطانات فى الأرض إلا قليلا ممن عصم الله ، فكانوا يحرصون على استغلال قربهم منه : إما رجاء لخيره وإما اتقاء لشره ، وهم مع ذلك قليل جد قليل .

ولقد كان من اشد ما ابتلاه الله به ، اخذه بالنظام الهتلرى فى حكم الشعب ، واستعانته برجال المخابرات النازية الذين حاولوا أن يصنعوا بمصر ما كانوا يصنعونه بألمانيا فى عهد هتلر .

واشهد أن جمال عبد الناصر بدأ حياته السياسية زعيما متزن الرأى عميق الفكر محبوبا من الجماهير ، ولو أنه سار على هذه الطريق ، لبلغت مصر به أكرم الغايات ، ولكنه انحرف عن سواء السبيل ، وكان المظهر الصارخ لانحرافه يتجلى فى أمرين :

□ احدهما : حرصه على الاستبداد بالرأى الذى افقده افضل زملائه من رجال الثورة ، وهم لا يقلون عنه حبا لمصر .

□ وثانيهما : إيثار سوء الظن بالناس ، دعاه إلى الاسراف فى التجسس عليهم بكل الوسائل التى كشف عنها العلم ، ولجأ إليها الحراص على سلطان الحكم بأى ثمن ومن أية طريق ، ولم ينفعه ذلك شيئا بل زاده بعدا عن الشعب وزاد الشعب إصرارا على سوء الظن به ، وخيبة الأمل فيه .

وما أصدق ما أخرجه أبو داود من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا ابتغى الأمير الريبة فى الناس افسدهم » . يعنى - صلوات الله عليه - أن ولى الأمر إذا أساء الظن برعاياه وجاهرهم بذلك فإنهم صائرون إلى ما ظنه بهم من السوء ففسدوا وأفسدوا .

وقد أدرك عبد الناصر أن الأمر أصبح من الخطورة بحيث يحتاج إلى التدارك قبل فوات الأوان ، ولذلك قرر أن يلقى الشعب فى مختلف المدائن والقرى ، فمضى ومضينا معه نطوف فى البلاد ، ونتحدث إلى الناس كلما امتهدت إلى حديث سبيل . ولعله لم يظفر بما كان يريد ، فرأى أن يختصر الرحلات مؤثرا عليها جماعة أقل عددا وأقدر على مواجهة الشعب ، تتولى عنه لقاء الجماهير فى مجالس خاصة ، أو احفال عامة محدودة .

وقد تألفت هذه الجماعة فعلا باسم ركب التحرير وكان أعضاؤه : احمد حسن الباقورى ، واحمد عبده الشرباصى ، وابراهيم الطحاوى ، واحمد عبد الله



□ حديث ضاحك بين الرئيس عبد الناصر والباقورى .

طعيمة ـ ولعل عبد الناصر كان يريد بذلك أن يتجنب لقاء الجماهير التى كان يهيمن عليها جو قلق من سيئات الظنون . ولعل مرجع ذلك إلى القسوة فى تطبيق قوانين الاصلاح الزراعى ، وحل الأحزاب ، وتعطيل الدستور ، واختلاف الكلمة بين الثائرين أنفسهم حتى كان بعض الضباط يقول فى نقده زملاءه : لقد خلعت الثورة ملكا واحدا لكى تضع فى مكانه ثلاثة عشر ملكا ـ يحرص معظمهم على أن يظهروا بمظهر الملك . ذلك أنهم كانوا قد استبدلوا بسياراتهم المتواضعة ، سيارات صالون فاخرة يرفرف على مقدمتها علم الدولة .

وبهذه الكلمات وأمثالها ـ مما كان يتهم به الرئيس محمد نجيب ـ زملاءه شاع بين العامة والخاصة أن الثورة تتحول إلى الدكتاتورية بعد أن أعلنت الأصول الثلاثة التى قامت عليها ، وهى : الاشتراكية ، والحرية ، والديمقراطية .

وقد ظهر لى أخيرا أن الرئيس عبد الناصر لم يكن يقصد من الاتصال بالشعب عن طريق ركب التحرير هذا إلا أن يعرف مشاعر الذين نلقاهم من أهل الرأى فى الشعب ، فيعينهم أعضاء فى المجلس الاستشارى الذى كان يؤثره على المجالس النيابية المنتخبة .

وقد كنت كثير الأسفار ، والصحف لا تكاد تكف عن نشر أخبار تحركاتنا فى المدائن والقرى بين راض وساخط .

وانتهز هذه الفرصة لأذكر الأخوة مصطفى ، وعلى أمين ، والدكتور أحمد باشا حسين الوزير الأسبق وسفير مصر فى أمريكا فى أوائل أيام الثورة . وخلاصة ذلك أنهم رغبوا إلى أن أذكر للرئيس عبد الناصر ما انتهى إليهم من أنه ربما اختارهم أعضاء فى المجلس الاستشارى ، ثم طلبوا منى – فى إصرار – أن أبلغه رغبتهم فى عدم تعيينهم أعضاء فى المجلس المذكور . وقد فهمت من إصرارهم هذا أنهم لو عينوا ، لامتنعوا عن حضور المجلس ، أو استقالوا عقب تعيينهم ، وقد تمثلتهم فى هذه اللحظة موضع سخط عبد الناصر ، وربما أوقع بهم مالا قدرة لهم على احتماله ، فشجعنى ذلك على تنفيذ رغبتهم أداء للأمانة التى وضعوها فى عنقى . وهى أمانة ثقيلة الأعباء ، وليكن بعد ذلك ما يكون .

وأذكر أننى حرصت على لقائه بمجلس قيادة الثورة فى الجزيرة حيث كان اللقاء فيها للخاصة الذين يقابلونه بدون ميعاد سابق ، وأحببت – كعادتى – أن أقدم بين يدى حديثى إليه ما يكشف لى عن دخيلة نفسه ، فأخذت أذكر له أخبار لقاءاتنا مع أعيان المدن والقرى ، ثم قلت له فى أثناء الحديث : إنك مستطيع أن تتحرى عن هؤلاء المواطنين لتعرف مدى الانتفاع بهم فى المجلس المقترح . كما تعرف استعدادهم لقبول العضوية ، حتى لا يعتذر أحد منهم بعد التعيين .

ولم أكد أنطق بهذه الكلمة حتى رأيت فى وجهه غضبا ثائرا ، ثم قال : إن الذى أعرفه أن المناصب الشعبية والحكومية ، تكليف لا تشريف ، فالذى يعتذر يكون عرضة لغضب القانون .

ولذلك حمدت الله أن قدمت هذه المقدمة قبل أن أخبره بزيارة الاخوة لى فى مكتبى ، ورغبتهم إلى أن لا يعينوا أعضاء فى هذا المجلس .

وما أكثر ما كنت أقابل فى هذا التجوال أصدقاء من زملائى فى الاخوان المسلمين ، ولم يكن هؤلاء جميعا يقابلوننى إلا تذاكرنا حياة الزمالة ، والماضى بكل ما اشتمل عليه من أحداث موصولة الأسباب بشئون الدنيا وشئون الدين .

وذات يوم ونحن فى سوهاج ذكر بعض الاخوة فى جلسة خاصة المحنة التى مر

بها الاخوان بعد حل الجماعة ، ومقتل النقراشي باشا ، واستشهاد الامام حسن البنا ، وقد جاء فى أثناء الحديث ذكر الأستاذ مصطفي مرعى الذى كان يكتب ـ قبل الثورة ـ مقالات تحرج الملك وكل من له صلة بميزانية الدولة . وكان الرجل آنئذ عضوا فى مجلس الشيوخ ، فكانت هذه المقالات موضع إعجاب الذين يخاصمون القصر الملكى ، ويرون فى إنفاق مليون جنيه لاصلاح « اليخت المحروسة » لونا من ألوان السفه ، وقصر النظر ، وإنفاق أموال الشعب فى وجوه الترف ، بدلا من إنفاقها فيما يحتاج إليه الشعب من غذاء وكساء ودواء .

ومع أن موقف مصطفى مرعى كان موقفا وطنيا شريفا ، فإنه لم يسلم من التحامل عليه ، تحاملا كان يقوم به الموتورون من الثورة ، على اختلاف منازعهم الحزبية ومنافعهم الشخصية ، فكانوا يشيعون عنه فى كل مكان أنه صديق للحزب السعدى الذى كان يدين للقصر بالولاء . وقد كان ذلك فى رأيهم آية واضحة على أنه لم يكن صادقا لا فى الوطنية ولا فى الدين .

وأذكر اننى رأيت من الحق أن أنصف الرجل ، فأذكر لبعض هؤلاء المتحمسين مالا يعلمون . ذلك أن مصطفى مرعى كان أحق الوطنيين المخلصين بمقام الزعيم مصطفى كامل فى وفائه للوطن ، واعتزازه بالدين .

فأما أنه كان صديقا للحزب السعدى ، فإن صداقته ـ فى مبلغ علمى ـ كانت تتغيا مصلحة الأمة فيما كان يعتقد . وذلك أننى كنت أستعين به على تلطيف حدة الخصومة بين الحزب السعدى والاخوان المسلمين . وقد بذل الرجل كل ما فى وسعه ، ولكنه لم يصل إلى النتيجة المرجوة .

وكان من الأمور التى رغبت إليه أن يبذل جهده فى سبيلها ، أن يطلب من النقراشى باشا عدم بيع مخلفات جماعة الاخوان المسلمين للجمهور ، لأن ذلك تصرف من شأنه أن يثير النفوس ، ولا خير لوطنى صادق الوطنية فى ثورة نفسية ينفخ فى أحد طرفيها عدو متربص ، وينفخ فى الطرف الآخر ولى حميم . وأشهد أن الرجل بذل كل ما فى وسعه ، ولكن الله ـ تعالى ـ له فينا علم غيب هو بالغه . وليس يحاسب المرء على أنه لم يظفر بنتيجة سعيه ، ولكنه يحاسب على قدر اجتهاده وإخلاصه ، وقد اجتهد مصطفى مرعى صادقا وسعى مخلصا ، ولكنه لم يظفر بما كان يحب أن يظفر به لخير الوطن والمواطنين .

هذا ما يتصل بوطنية الرجل وحسن سلوكه ، وأما ما يتصل بدينه ، فإننى أذكر هنا ـ لله ثم للتاريخ ـ اننا كنا قد دعينا فى سنة ١٩٥١ إلى محاضرة فى قاعة « يورت » التذكارية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ، فلما انتظم الحفل المهيب الذى كان الاخوان المسلمون كثرته الكاثرة ، بدأ الأستاذ مصطفى مرعى كلمته بالحديث عن النقراشى

باشا والترحم عليه ، وما كادت كلماته عنه تقع فى مسامع الحاضرين ، حتى علا الهتاف ثائرا بسقوط الظلم وأعوانه ولعنة الظالمين ، والمتحدثين عنهم ، ثم تحولت القاعة إلى مظاهرة لا يسمع السامع فيها إلا ما يسوء ويحزن .

وقد رأيت بعض الثائرين يكاد يقود زملاءه إلى المنصة التى كان يجلس عليها خطباء الحفل . وما كاد هذا الخاطر يلم بذهنى ، حتى تمثلت الخطر الهائل الذى يتهدد حياة الجالسين على المنصة لو أن الثائرين ظلوا يهتفون ويصرخون . فلم أجد أيسر من أن أطلب إلى القارىء أن يتلو آيات من القرآن الكريم . وقد كان اهتمامى متجها إلى الأستاذ مصطفى مرعى خشية عليه من ثورة الثائرين . وما كاد القارىء يفتتح القراءة باسم الله ، حتى خفتت الأصوات ، وساد القاعة صمت عميق ، ثم التفت إلى الأستاذ مصطفى ، فإذا السكينة تشيع فى وجهه والدموع تترقرق فى عينيه ، ثم يقول فى خشوع المؤمن ووقار العالم ـ : إن الاسلام لا يزال بخير فالحمد لله رب العالمين .

ولم تكد هذه الكلمات تقع فى مسمعى حتى رجعت بى الذاكرة إلى الفترة التى كنت ألقاه فيها واسطة خير بين حكومة السعديين وجماعة الاخوان المسلمين . ولما دعيت إلى إلقاء كلمتى ، بدأتها بعتاب الدعاة إلى إقامة هذا الحفل ، وكان محور العتاب أن تكون قاعة يورت هى مكانهم المختار ، متناسين أن إسرائيل إنما تستند فى اعتدائها على فلسطين إلى تأييد أمريكا وثقتها بها وحمايتها لها ، مع أن أمريكا أولى شعوب الأرض ، وأمم العالم باحترام الحقوق التى رسم طريقها للانسانية المغلوبة على أمرها الرئيس الأمريكى ويلسون ، الذى تعتز به الانسانية وبمبادئه التى كان يدعو إليها ، ويحرض قومه على الانتصار لها فى كل مكان تتعرض فيه الشعوب لظلم المستعمرين القاهرين .

قضـية التعصب

وقد أحسست أن كلماتى هذه ربما أحرجت صدور الذين نحرص على مودتهم ، ونتعلق بالأمل فى معونتهم . فذكرت كلمة رواها للناس فى تعليق منصف بصير أحد زملائى فى معتقل المنيا الأستاذ موسى صبرى ، وهى الكلمة التى روتها عنى جريدة « الأخبار » فى تلك السنة ـ أى أواخر سنة ١٩٥١ ـ : « إن التعصب على وجهين : أحدهما التعصب للعقيدة ، وثانيهما التعصب فى ظل العقيدة .

وأذكر أننى قلت إن التعصب للعقيدة أمر فطرى ، إذ كان قيام العقيدة فى نفس صاحبها يقتضى الانتصار لها والدفاع عنها وعن الذين يشاركونه فيها ، وذلك أمر لا تأباه الشريعة المحمدية السمحاء بدليل قول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« خيركم المدافع عن عشيرته ، ما لم يأثم . » . وقد بين صلوات الله عليه ـ منطقة الاثم حين سأله سائل ما العصبية يا رسول الله ؟ فقال له ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « هى أن تعين قومك على ظلم » .

فالعصبية فى ذاتها ، أمر لا مفر منه ، فإن دعت إلى ظلم أو أعلنت عليه ، فذلك هو الاثم البغيض إلى أهل الحق ، على ما ورد فى الحديث الشريف . وقد أذكر أن بعض أصدقائى الغيارى على عاتبنى على هذه الكلمة دهرا طويلا ، فكنت كلما تحدثت فى هذا الباب ، ذكرت له أننى بهذه الكلمة فى طرفيها إنما استند إلى كتاب الله الكريم .

فاما الطرف الأول الذى هو تعصب للعقيدة ، فإن الاشارة إليه ماثلة فى قوله ـ تعالى ـ : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » .

ووجه ذلك ما يذكره العلامة جمال الدين القاسمى ، حيث قال ما يجعل برنا بمواطنينا الذين نخالفهم فى الدين ، أمرا سائغا ، من حيث كانوا لم يقاتلونا فى الدين ، ولا أخرجونا من ديارنا ، ولا ظاهروا أحدا على إخراجنا من أرضنا ، فالبر بهؤلاء على هذه الصورة ، مدعاة إلى مرضاة الله إذ كان ذلك من الأقساط إليهم وكان الله ـ تعالى يحب المقسطين . فهؤلاء المواطنين يستحقون برنا بهم واقساطنا إليهم مهما اختلفت عقيدتنا معهم ، وليس ذلك بمانع لنا من أن نكرمهم مع اختلافنا فى العقيدة . فأما الذين لا يستحقون البر بهم ولا الاقساط إليهم ، فإنما هم الذين يظاهرون أعداءنا على إخراجنا من أرضنا .

واقباط مصر لم يعينوا ظالما لنا ولا مستعمرا أرضنا ، بل كانوا شركاءنا فى مجاهدة الاستعمار والمستعمرين . وثورة ١٩١٩ ضد الاستعمار أعدل شاهد على هذا الذى نقول .

وخلاصة هذا القول : أن على المسلم أن يتعصب لعقيدته بالدعوة إليها والانتصار لها ، بشرط الا يواقع ظلما فى محاربته أصحاب عقيدة دينية يدينون الله عليها ، ثم لا يعينون ظالما لنا على اغتصاب ارضنا وانتهاب أموالنا .

وحاصل القول فى هذه المسالة ، أن المسلم مأمور بترك الحرية الدينية لذى العقيدة من المسيحيين وغير المسيحيين ، بشرط الا يقاتلنا هؤلاء فى الدين . ولا يعملوا على اخراجنا من أرضنا ، ولا يظاهروا أحدا علينا أراد أن يغصب أرضنا ، أو يتسلط على أموالنا ، ويستذل انسانيتنا .. ومن يراجع معنى هاتين الآيتين ير أن ترك صاحب العقيدة على عقيدته من أدب الإسلام . هذا هو معنى الدعوة إلى التعصب للعقيدة . فأما التعصب فى ظل العقيدة ، فهو أن يحرم المسلم أو الدولة الإسلامية ذا عقيدة دينية حقا من حقوقه الإنسانية المكفولة له بحكم الشريعة المحمدية المسماح .

وليس يشك أهل الانصاف فى أن حياة الأقباط فى عهد الدولة الإسلامية ، كانت أدنى إلى السلامة ، والسلام منها فى عهد الدولة الرومية . ذلك أن الامبراطور هرقل بعد انتصاره على الفرس سنة ٦٣٨ م جمع مذاهب الدولة المتصارعة وأراد التوفيق بينها على صورة تمنع الناس الخوض فى الكلام عن كنه طبيعة السيد المسيح عليه السلام . وقد كان الامبراطور شديد التعصب لمذهب الدولة الرومية ، وهو المذهب الملكانى فى حين أن مذهب الأقباط كان هو المذهب اليعقوبى ، وكان بين المذهبين خلاف جوهرى تعرض بسببه الأقباط إلى ألوان من العذاب تتأبى على الخيال .. إذ كان خصومهم الملكانيون يوقدون المشاعل ويسلطونها على مخالفيهم فى العقيدة حتى يسيل الدهن من أجسادهم إلى الأرض . ثم يضعونهم بعد ذلك فى أكياس مملوءة بالرمل ، ويرمونهم فى البحر ، فمن لم يمت حريقا مات غريقا .

ثم لما أذن الله للإسلام أن تشرق شمسه بفتح مصر على يد عمرو بن العاص ــ رضى الله عنه ــ كان يسير فى حكمه على نهج التسامح والاعتدال متقيدا بأدب الإسلام فى معاملة البلاد المفتوحة صلحا أو عنوة ، ولم يكن له ــ رحمه الله ــ هوى مع أحد المذهبين ، حتى لقد ذكر الدكتور « بتلر » فى كتابه « فتح العرب لمصر » ، أن أسقفا ملكانيا بقى على مذهبه حتى مات ، لم يمسسه أحد بسوء ، فى حين أن بطريرك القبط كان يتمتع بحريته المذهبية ، فيدعو الناس إلى مذهبه بالإقناع ، دون أن يمسه أحد بسوء كذلك . فلم يكن عمرو بن العاص فاتحا سياسيا يحرض بعض المذاهب على بعض ويغرى الشعب بعضه ببعض على طريقة « فرق تسد » . بل كان رجلا يتقيد بالمنهاج الإسلامى فيرى أن حماية المسلمين لأهل الذمة ، ترتبط بشروط الصلح معهم ، وكانت هذه الشروط تقضى بأن يدفع القبط الجزية على أن يأمنوا فى بلادهم ، أمنا يشمل أموالهم وأولادهم ، وعلى أن يدافع المسلمون عنهم من يتربص بهم الدوائر من أعدائهم ، وقد كانت شروط الصلح هذه تنتظم أمورا خمسة : أولاها : أن لا يعتدى على القرآن ولا تحرق مصاحفه ، كما فعل ذلك بعض المتعصبين فى المشرق والمغرب . وثانيها : أن لا يوصف سيدنا محمد رسول الله بما يسوء اتباعه من المسلمين والمنصفين من غير المسلمين . وثالثها : أن لا يتزوج مسيحى من مسلمة . ورابعها : أن لا يخدع مسلم أو يغرى بوسيلة من وسائل الإغراء ، حتى يرتد عن الإسلام . وخامسها : أن لا يتخذ الأقباط وليا لهم من أعداء الإسلام .

والذين يتأملون فى هذا الذى ذكره « بتلر » وتابعه عليه ابو الحسن الندوى لا يرتابون فى أن عمرو بن العاص بفتحه مصر قد أضفى عليها ظلال الأمن والسكينة والسلام ، بعد أن كانت تعيش مع الروم معيشة الهلع والخوف ليل نهار .

وبهذه الكلمات التى آثرناها هنا لهذه الملامح نرى من الحق علينا أن نعود بك ــ أعزك الله ــ إلى الحديث عن نظام الحكم فى الثورة .

قضية المستبد العادل

كان عبد الناصر كثيرا ما يردد فى بعض مجالسه كلمة منسوبة ظلما أو جهلا إلى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده . وهى أن الشرق لا يصلحه إلا مستبد عادل .

ولعل تلك الكلمة هى التى أوحت إليه فكرة المجلس الاستشارى ـ الذى كان يعد العدة لتشكيله ـ وهى كلمة تعاند الحق وتتجاهل الواقع فى دنيا المستبدين . وإلا فإن الاستبداد والعدل لا يجتمعان إلا إذا اجتمع الليل والنهار فى آن .

ووجه الظلم فى نسبة هذه الكلمة إلى الأستاذ الإمام ، أنها ترميه بالتنكر للشريعة المحمدية فى اعتزازها بالدعوة إلى نظام الشورى من جانبى : النص ، والتطبيق .

فأما النص ، فقول الله جل ثناؤه خطابا لرسوله صلى الله عليه وسلم : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » .

ففى هذه الآية وصف القرآن الرسول وصفا شريفا ، قائما على أن الله ـ تعالى ـ زوده من كرائم الصفات بصفة الرحمة ، وأنه بهذه الصفة كان هينا لينا بالمؤمنين رؤوفا رحيما ، ثم أمره بعد ذلك بأن يعفو عن الذين أخطأوا الصواب من أصحابه فى معركة أحد ، خطأ أنزل بالمسلمين أوجع المصائب . وقد كان من شأن ذلك أن يغير نفس رسول الله عليهم وأن يضيق صدره بهم ، ثم يصرفه عن اعتبارهم أهلا للشورى ، فأمره ـ تعالى ـ أوامر ثلاثة : أولاها : أن يعفو عنهم وثانيها : أن يستغفر لهم وثالثها : أن يشاورهم فى الأمر .

هذا .. وأما التطبيق فخلاصة القول فيه ، أن هزيمة قريش فى معركة بدر ألهبت حماستهم فى عداوة الإسلام ، فزحفوا نحو المدينة وعسكروا عند سفح أحد . ولم يكن بد للمسلمين من مدافعة الذين يتربصون بهم الدوائر من مشركة قريش ، فجمع رسول الله أصحابه فى يوم جمعة ليتدارسوا أفضل السبل لمواجهة الموقف ، وكان من عادته أن يشاور أصحابه فى كل أمر ذى بال .

فلما اجتمعوا قصّ عليهم رؤياه ، ذاكرا لهم أنه رأى نفسه فى درع حصينة ، أوّلها أنها المدينة لا يخرج منها فيتقى بها ، كما يتقى الدارع بدرعه ، وذكر لهم أنه رأى بقرا تنحر ، فأوّل ذلك جماعة من أصحابه يقتلون ، وذكر أنه رأى ثلمة فى سيفه ، وأوّل ذلك : رجلا من أهل بيته يقتل فى المعركة .

وبذكره صلى الله عليه وسلم هذه الرؤيا لأصحابه ، قرر لهم أن عليهم أن لا يغامروا بالخروج لملاقاة أعدائهم حيث نزلوا ، وأن يؤثروا البقاء ضمن أسوار المدينة يردون هجمات القرشيين عليها .

وقد أقره على رأيه هذا أصحاب السن العالية ، والعقل الراجح من صحابته ، غير أن الكثرة المؤلفة من شبان متقدمين حماسة ، كانوا اشد ميلا إلى الخروج لمقارعة أعدائهم فى معركة ناضحة بالرجولة والشجاعة ، فكانت حجتهم أن التحصن بالمدينة ، قد يحمل على العجز والضعف ، وربما اغرى العدو بهم وجراه عليهم .

وقد رأى ـ صلوات الله عليه ـ أن يأخذ برأى أهل الحماسة من أصحابه ، مخالفا بذلك رأيه الشخصي ، مع أن رأيه الناشيء عن الرؤيا صورة من صور الوحى ، ومع ذلك رأى ـ باجتهاده ـ أن ينزل على رأى مخالفيه ، فلبس عدة الحرب وخرج إلى الميدان .

ولا ريب فى أن تصرف رسول الله فى نزوله على رأى أصحابه خلافا لرأيه ، دليل على أن نظام الشورى فى الإسلام ، هو النظام الديمقراطى فى النظم العالمية الحديثة ، لكن عبد الناصر لم يكن من رحابة الأفق وسعة الإطلاع والقدرة على فقه الشريعة بالمنزلة التي تجعله يؤثر حكم الشورى إيثارا له أو إعتزازا به ، ولهذا أثر صورة للحياة البرلمانية ذات وجهين : وجه يترضى أنصار الديمقراطية ، ووجه آخر يرضاه أنصار الاستبداد .

وجملة القول فى هذه الصورة ذات الوجهين ، أن يترك باب الترشيح لمجلس الأمة مفتوحا لمن يشاء من المواطنين ، فإذا أغلق باب الترشيح ، عمدت الحكومة إلى تأييد من تثق به ، فيسرت له السبيل إلى الظفر بمقعد البرلمان عن طريق حذف أسماء منافسيه ، ولم تكن هذه الصورة المعقدة قد صدرت بقرار من مجلس الوزراء ولعلها صدرت بقرار من بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة ، أو من الرئيس عبد الناصر وحده .

دائرة الخليفة لثالث مرة

وقد تقدمت للترشيح فى دائرة الخليفة ، التى حيل بينى وبين الظفر بها مرتين أيام الملكية ، ومع أننى كنت وزيرا فى حكومة الثورة ، وكان من حقى أن أظفر بتأييدها ، إلا أن الأمر جرى على غير ما كنت أتوقع ويتوقع الناس ، إذ أبلغنى زميل موثوق عندى أن أحد كبار الثوار حرض مواطنا على أن يرشح نفسه منافسا لى فى دائرة الخليفة ، وقد صدع المواطن بالأمر ، فبدأ ـ بعد أن أعلن ترشيحه ـ يهاجمنى مهاجمة من لا يخشى إلا مُحرضيه ابتغاء الثواب أو النجاة من العقاب .

ولست فى حاجة إلى القول بأن هذا التصرف قد أثار نفسى ، وحملنى على سوء الظن بكل ما كنت أسمعه من كلمات الوفاء والإخلاص . وربما أسلمنى ذلك إلى مجاراة الذين كانوا ينتقدون الثورة ورجالها ويتحاملون عليها ، وهم كثير فى داخل مصر وخارجها . حتى لقد قال لى ذات يوم جمال عبد الناصر إن الجيش هو سند النظام الذى أنت فيه وزير مسئول . واذكر أننى أجبته بأن ذلك المرشح الذى حرضه علىّ ضابط كبير مسئول ، إنما يهاجم النظام كله فى شخصى ، ثم ذكرت له بيتا من الشعر العربى يقول فيه الشاعر :

كنت فى كربتى افر إليهم فهمو كربتى فأين الفرار ؟

وفى حوار طويل بينه وبينى حول هذا الشعر ، وحول بعض رجال الثورة ـ الذى وصفهم بأنه أصبح لا يأمن جانبهم ـ ذكرت له رأيا يكون خاتمة هذا الحوار الطويل فقلت له ـ فيما أذكر ـ إن هذه الثورة تحتاج إلى السنة وأقلام ، واقترحت عليه أن يلتقى ببعض الذين زودهم الله بالقدرة على إقناع الشعوب بالقضايا التى تتغياها ثورات الإصلاح فى كل زمان ومكان .

العقاد وعبد الناصر

ولعل هذا الرأى كان قد لقى فى نفسه هوى ، فسألنى عن المواطنين الذين أرشحهم له ، يلتقى بهم ، ويتحدث إليهم بما يجعلهم يطمئنون إلى الثورة أو إلى انفسهم فى ظل التعاون معها والدفاع عنها ، وكان فى طليعة أولئك المواطنين الأستاذ عباس العقاد .

وقد آثرت أن أذكر العقاد لأمرين أعرفهما له :

احدهما : أن الرجل كانت له ندوة فى مصر الجديدة تضم صفوة المواطنين ، يتعلمون منه ، ويأخذون عنه ، فلو أنه اطمأن إلى أهداف الثورة ، لكان فى لسانه وقلمه لها خير كثير .

وثانيهما : أننى رأيت الرجل فى أول مؤتمر للثورة انعقد بدار « لطف الله » وهو يحمل قصيدة يحرص على إلقائها فى هذا المؤتمر تحية للثائرين ، وهو الرجل الذى عهد الملكية ، اضطهادا لا يصبر على لأوائه إلا الصابرون .

ولم يكن عبد الناصر ليجهل العقاد ، ولا الذين يأخذون عنه ، ويعتزون بالانتساب إلى ندوته أيام الجمعة من كل أسبوع . ولكنه سألنى سؤال من رضى

الاقتراح ، وأحب أن يمضيه إلى غايته المرجوة منه ، فقال : وأين المكان الذى نلتقى فيه بهؤلاء الذين تقترحهم ؟ فأجبته : إن الأمر فى هذا يسير جد يسير ، والذى أوثره ، وأملك أمره الآن أن تأذن بأن يكون أول اجتماع فى دارى . ولم يزد على أن صمت ، صمت من يرضى هذا الاقتراح ، وقد رأيت أن أحيط الأستاذ العقاد علما بما انتهى إليه حديثى مع عبد الناصر ، ثم دعوته إلى أن يتناول فى دارى طعاما بعد صلاة العشاء ، ويلتقى فيه مع الرئيس عبد الناصر ولعل الله ـ تعالى ـ أن يجعل هذا اللقاء مطلع يمن وبركة على شعبنا المصرى وأمتنا العربية . والذين يعرفون الأستاذ العقاد ، يعرفون أنه رجل شديد الإعتزاز بنفسه ، إعتزاز عالم ذى رأى احتمل فى سبيل الدفاع عنه شدائد الحياة ، وذاق مرارة السجن مع الغوغاء وأصحاب السوابق والمتشردين .

وقد أجابنى بقبول الدعوة قائلا : إننى حريص على أن أعرف لك حقك غير أننى اشترط لذلك ، أن يكون حضورى إلى منزلك بعد أن يتكامل المدعوون . وإن ما حملنى على هذا الشرط ، علمى بأن صاحبك شديد الكبرياء ، وقد يصافحنى بغير اكتراث ، مضيا على السنة التى آثرها لنفسه فإذا دخلت ، فتراخى فى القيام لمصاحبتى ، فلا تؤاخذنى إذا ملكنى الغضب ، فلعنت فى وجهه اليوم الذى جمعنى به ، ثم انصرفت غير آسف على شىء .

ولم يسعنى أن أوافقه على رأيه ، ولا رأيت أن أقنعه بأن ذلك لن يكون منه شيئا ، ثم اختصرت الحديث وازمعت منذ تلك اللحظة أن أصرف تفكيرى عن الاهتمام بهذه الدعوة فى جملتها وتفصيلها ، وإن كنت أعلم عن يقين أن قلم العقاد لو قدر له أن يدافع عن الثورة الحانقين عليها ، والمتربصين بها ، لكان لها فيه غنى عن كل الوسائل التى يلجأ إليها الدعاة إلى إقناع الشعب بها والثقة فيها ، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه ولله ـ تعالى ـ علم غيب هو بالغة .

على أن تعاطف الشعب والثورة ، كان أمرا يتأبى تصوره على جامع الخيال . فمهما كانت منزلة العقاد من صدق الوطنية ، ومهما كانت منزلة قلمه من شرف البيان ، فليس فى وسع ذلك كله أن يمهد للثورة طريقا إلى قلوب كثيرين من المواطنين يعتزون بها بصدق ، ويطمئنون إليها تماما ، ذلك أن قانون الإصلاح الزراعى وما صاحبه من تشريعات مختلفة ، كان يدعو فريقا من الشعب دائما إلى التنكر للثورة والحقد عليها والتربص بها ، وربما ظاهر ذلك فى أنفس المواطنين ، حرمان طبقة ذات إمتياز فى المجتمع من ألقابهم التى كانوا يعتزون بها فى أنفسهم ، وفى أهليهم وذوى قرباهم ، فإن أنت ضممت إلى ذلك كله قانون تطهير الأداة الحكومية بحرمان الموظفين من وظائفهم ، رأيت معاداة الثورة مشبوبة النار مسعورة الأوار فى كل مكان .

وقد أذكر أن بعض الموظفين الأكفاء حرموا وظائفهم بسبب منافسات بينهم

وبين زملاء لهم فى الدواوين ، لأن منافسيهم كانوا يطمعون فى وظائفهم ، وشواهد ذلك من الكثرة بحيث لا تنقاد لحصر ، ولا يطمع فى الإحاطة بها بيان .

ولعل بعض الاخوة الزملاء فى الوزارة لا يزال يذكر أن وزيرا معروفا قدم عدة أشخاص ليوافق مجلس الوزراء على إخراجهم من وظائفهم ، فلما عارضت فى إخراجهم ، سألنى : هل تستطيع أن تأخذهم عندك فى وزارة الأوقاف ؟ .

فأجبته بأننى أستطيع ذلك عن طريق ندبهم للعمل منذ اليوم ، وفى هذه الأثناء ندبر لهم فى الميزانية درجات تكافىء درجاتهم ينقلون إليها .

وبذلك حفظ الله ـ تعالى ـ لأولئك المساكين حياة كريمة بعيدة عن جو التطهير ، الذى كان عارا على كل من خرج من وظيفته فى هذا الإطار البغيض . ولعله لا يخفى على أكثر الذين عاصروا هذه الحركات ما كان يقاسيه أولئك الذين أخرجهم قانون التطهير من بلاء لا يستطيع تصور المصيبة به إلا أولئك الذين مسهم الضر بهذا التشريع الأثيم .. ذلك أن من هؤلاء المساكين من كان وجيها فى قومه ، سعيدا فى أسرته ، فإذا هو يرى ابنته المخطوبة قد فسخت خطبتها لأن أباها لا ذمة له ، ولا مروءة بدليل أنه خرج من وظيفته عن طريق التطهير ، فلا يلبث الرجل أن يرى الحياة الدنيا أضيق فى عينه من سم الخياط ، لأنه أصبح سخرية الساخرين ، وضحكة الضاحكين .

ولقد كانت وزارة الأوقاف تتلقى يوميا مئات الرسائل من مختلف الجهات ، وهذه الرسائل كلها تشتمل على هذه الكلمات : « الله فوق الظالمين المجرمين الذين أفسدوا علينا حياة الدنيا وحياة الدين » . ولقد لقيت ذات يوم الرئيس عبد الناصر ، ودار حديث عن هذه التشريعات ، فانتهزت الفرصة ، وذكرت له بعض هذه الرسائل ، وما كان أشد عجبى حين رأيته يقدم إلى صورا مرفوعة إليه ، أعنف وأقسى من الصور التى كانت ترد إلى وزارة الأوقاف .

مديرية التحـرير

وأثناء هذا الحديث بين الرئيس وبينى ، دق جرس التليفون ، فإذا المتحدث هو مجدى حسنين ، الذى كان يتولى أمر مديرية التحرير ، شديد التحمس لها ، وترقب الخير منها لمصر والمصريين ، فلما فرغ عبد الناصر من الحديث سألنى : ما رأيك فى مديرية التحرير فأجبته : إن مثلها مثل كل أمر جديد ، بين مادح وقادح ، ومن رجال الثورة والمشاركين فى تحمل تبعاتها ، من يتعصب لها ابتغاء خيرها ، ومنهم من يتعصب عليها اتقاء شرها أو ضرها .

وقد زرت أنا هذه المديرية وبنيت فيها بعض المساجد ، وساعدت فى بناء بعض الكنائس ، لكى تكون هذه المديرية أرضا نموذجية يتلاقى عليها المصريون مسلمين ومسيحيين .

ولعل الرئيس عبد الناصر قد أراد الله له خيرا من طريق هذا الحديث ، فذكر لى أنه يفكر فى أن يحل مشكلة بعض الخارجين فى التطهير بإسناد بعض الأعمال إليهم فى مديرية التحرير ، فوافقته على ذلك وشجعته عليه . ولم يلبث الأمر فى هذه المعضلة أن أخذ طريقه إلى ما تقر به العيون ، وتنشرح له الصدور .

وهيئة التحـرير

ولقد اذكر أننى كنت ـ ذات ليلة ـ مع الزملاء فى مقر مجلس قيادة الثورة فى منشية البكرى ، وعرض حديث عن تكوين هيئة تكون لسانا للثورة ، فذكر عبد الناصر فى أثناء حديثه معنا ، أنه يفكر فى إنشاء هيئة باسم هيئة التحرير ، ثم ذكر أن آماله فى هذه الهيئة تستحق الاعتبار والعمل على تحقيقها بكل وسيلة ، وكان من بين المجتمعين فى هذه الليلة الضابط وجيه اباظه الذى اقترح ـ فى حماس شديد ـ أن يكون للثورة قسم يؤديه من يحرص على الانتظام فى سلك الهيئة المقترحة ، وقد رغب إلىّ عبد الناصر أن اضع صيغة هذا القسم فوضعته فى حدود ما أعتقد لكى يتلوه رئيس الجمهورية ومعه الشعب كله ، وفى الميدان الذى يعرف اليوم بميدان التحرير قام رئيس الجمهورية محمد نجيب بتلاوة القسم الذى انتظم هذه الكلمات : « اللهم إنك تحب الأقوياء وتكره المستضعفين ، وتنشر رحمتك على الذين يؤثرون الموت العزيز فى سبيل الحرية ، على الحياة الذليلة فى مجال الاستعباد .

اللهم وإنك لقريب ترى وتسمع وإنا لنقسم بذاتك العلية على أن نعمل ـ ما وسعنا العمل ـ على إرساء قواعد الحياة المقبلة لوطننا المفدى على أصول محررة من العبودية ، منزهة عن الهوى موصولة بالحق والعدل . وأن نبذل فى سبيل ذلك كله ما تقتضيه مصلحة أمتنا ، وتبتغيه شرف بلادنا ، وأن يكون شعارنا دائما : الإتحاد والنظام والعمل . اللهم فاشهد ، وأنت خير الشاهدين » .

وقد كانت كلمات الاتحاد والنظام والعمل شعارا وضعه محمد نجيب للثورة ، يردده المواطنون فى كل أحاديثهم لأنه هو نفسه لم يكن يفوته تذكير المواطنين باحترام هذه الأمور الثلاثة فى سائر تصرفاتهم من أجل مصلحة الوطن العزيز ، الذى لم يكن يتهدد مستقبله شىء كما يتهدد هذا المستقبل المرموق الانقسام والفوضى والإهمال فى الأعمال ، فكانت هذه الكلمات الثلاث هى الدواء لتلك الأدواء .

والذين يطالعون الصحف التى صدرت بمناسبة مهرجان التحرير فى يناير سنة ١٩٥٣ يرون مقالات كتبها مواطنون فضلاء تتضمن تأييد هذا الشعار الذى وضعه للثورة الرئيس نجيب ، وقد كان من هذه المقالات ، مقالة للأستاذ الشيخ حسنين مخلوف يؤيد بها هذه الكلمات الثلاث ، ويلتمس لكل واحدة منها سندا من القرآن الكريم - والقرآن - بلا ريب - يكره الفرقة وينهى عنها ، ويكره الفوضى ، ويحترم النظام ويدعو إلى العمل ، وقد يراه لونا من أشرف ألوان التقرب إلى الله جل ثناؤه .

السادات أم سيد قطب ؟

وما دام الحديث عن التحرير ، فإننى أذكر أن الرئيس عبد الناصر دعانى ذات يوم إلى مقابلته فى مقر مجلس قيادة الثورة بالجزيرة ، فلما التقينا أمر بغداء طيب ، ثم طلب إلى أن ارشح له من أهل الثقة من يصلح للإشراف على هيئة التحرير ، ولم اتردد فى أن اذكر له اسم انور السادات . بحكم انه كان زميلى فى سجن الأجانب بالقاهرة ، وفى معتقل ماقوسه فى صعيد مصر ، ثم بحكم أنه رجل له ماض طويل فى العمل الوطنى ، وله صلات كثيرة بالهيئات الشعبية ، وخاصة هيئة الإخوان المسلمين التى كانت له بها صلات كثيرة وثيقة منذ سنة ١٩٣٦ وكان يعرف كل البارزين فيها ، ثم هو بعد أمين المؤتمر الإسلامى العام .

وفى اليوم التالى نشرت الصحف هذا النبأ فى أبرز صفحاتها ، فدعانى عبد الناصر إلى اللقاء به مرة أخرى فى مجلس القيادة أيضا ، ثم أخبرنى أن الأستاذ سيد قطب يريد أن يكون سكرتيرا لهيئة التحرير ، وأن الأستاذ الهضيبى يزكيه لهذا المنصب .

وقد سألنى رأى فأجبته بأن الأستاذ سيد قطب كفء لذلك بما معه من ثقافة عريضة ، ثم بما له من أسلوب أدبى معروف ، ولم يلبث عبد الناصر أن نظر لى ، وقال : أن أخشى ما اخشاه أن يستغل الأستاذ قطب - بالاتفاق مع الهضيبى - منصبه فى هيئة التحرير ليجعلها شعبة من شعب الإخوان المسلمين ، ولهذا قررت أن يكون سكرتير الهيئة وحيد جوده رمضان الذى هو معروف عندى بوطنيته ، وبعده عن الحزبية والأحزاب .

ولما كانت معرفتى بالسيد وحيد رمضان معرفة سطحية ، لم أشأ أن اتعرض له بنفى ولا إثبات ، فقلت له أنت أعلم بما فيه خير البلد وأبصر بالرجل الذى ترشحه ، فليكن ما يشاء الله أن يكون .

وذات يوم تحدث إلىّ مدير مكتب عبد الناصر ، وطلب منى الا أشغل التليفون لأن الرئيس يريد أن يتحدث إلىّ فى أمر خاص عاجل .

وبعد فترة قصيرة رن جرس التليفون ، فإذا المتحدث هو عبد الناصر ، ولكنه بدلا من أن يستمر فى الحديث ، طلب إلى أن ألقاه فى مجلس القيادة فى الجزيرة ، ودار بينى وبينه حديث طويل لم أوافقه عليه لأننى أيقنت أنه من تلفيقات الذين لا يريدون لمصر خيرا .

وقلت له : إن رجائى إليك أن تسىء الظن بكل خبر يتغيا فساد ذات البين بينك وبين أى رئيس دولة عربية أو إسلامية ، لأن مهمة المستعمرين لا تطمع فى شىء كما تطمع فى التفريق بين أبناء الأمة الواحدة ، وأصحاب العقيدة الواحدة ، والمصلحة المشتركة .

وذكّرته بما كان يذيعه صلاح سالم من أنه حصل على وثيقة فى سفارة إحدى الدول الإسلامية ، تتضمن اتهامات للثورة بأنها ثورة شيوعية ، وتحرض المسلمين على سوء الظن بها ، والعمل على تشويه سمعتها .

ولكنه قال : إن الأمر هنا أمر وثائق ، وليس أمر خبر ، وأنا فى انتظار صورة الوثيقة التى تؤكد ما يقوله صلاح سالم .

فقلت له : إن أدوات الاستعمار لا يعجزها أن تصطنع وثيقة ، إذ كانت الوثائق أكثر قبولا من الأخبار التى لا تساندها أدلة ، فلا أستبعد ما ذكره لك صلاح سالم ، لأنه رأى ما أخبرك به فى وثيقة مصنوعة . والتاريخ الحديث حافل بهذه الصور التى يراد بها إفساد العلائق بين أبناء الشعب الواحد ، وشعوب الأمة الواحدة لمصلحة الغاصبين والمستعمرين .

يطلب منى الاستقالة

ويبدو أنه لم يشأ أن يطيل الحديث فى هذا الموضوع . فأخبرنى أنه مزمع مع بعض زملائه العودة إلى العمل فى الجيش ، ولقد أدهشتنى هذه الكلمة ، فقلت له : إن ثورة يوليو لم تبلغ غايتها ، وقد بذل الشعب والجيش فيها أغلى وأقسى ما يبذله طالب إصلاح ، فلا ريب أن فى تصرفكم هذا خطرا شديدا ، وخيبة أمل اليمة .

فقال : إننا سنرقب عن بعد تصرفات محمد نجيب ، فإذا رأينا انحرافا عن أهداف الثورة ، استأنفنا ثورة أخرى من جديد .

وهنا رغب إلىّ أن أنصرف إلى الوزارة لأجمع أوراقى ، وأرفع استقالتى إلى الرئيس نجيب . وفعلا ذهبت وجمعت أوراقى ، ولكننى لم أشأ أن أكتب استقالتى خشية أن يشيع الخبر الذى كان يحرص عبد الناصر على بقائه سرا بين أقل القليل .

وقد كان تصرفى هذا فى عدم كتابة استقالتى مثارا للريب فى نفس عبد الناصر ، إذ ظن أننى انحاز إلى معسكر نجيب ، ولعل الذى أوحى إليه هذا المعنى ، أنه هو نفسه كان قد أخبرنى من قبل بأن عبد الحكيم عابدين يسرف فى مهاجمة الثورة فى كل مكان يرحل اليه ، وأنه رأى أن يسحب منه الجنسية المصرية ، فكتب القرار وعرضه على الرئيس نجيب لتوقيعه ، ولكنه أبى أن يوقعه ، فمن أجل ذلك رأى أن معرفتى بعبد الحكيم عابدين وكثرة إتصاله بى فى وزارة الأوقاف ، دليل على أننى إلى معسكر نجيب أقرب منى إلى سائر المعسكرات الأخرى فى الثورة .

ثلاث قوى فى الحكم

ولعل من الميسور إدراكه أن مصر فى تلك الفترة كانت محكومة بقوى ثلاث هى : الوزارة الرسمية ، ومجلس قيادة الثورة ، والمؤتمر المشترك المكون من الوزارة والمجلس . وليس يخفى أن كل جماعة من هذه الجماعات الثلاث ، كانت تتصور أن لها الحق فى اتخاذ القرار دون سواها . وبتمثل هذا المعنى ، كانت عيوب القيادة الجماعية أكثر من مميزاتها . وقد تسألنى ـ حفظك الله ـ لِمَ لمْ تكتب استقالتك كما طلب عبد الناصر ؟ ولا أكتمك أننى كرهت أن أكون منحازا لطرف دون طرف . ولم أجد ما يسوغ لى الوقوف مع عبد الناصر ضد محمد نجيب ، ولا مع نجيب ضد عبد الناصر ، فآثرت اللياذ بالصمت فى هذه المعركة التى لا ناقة للوطن فيها ولا جمل .

وقد كشفت الأيام عن وجه الصواب فى عدم الانحياز لمعسكر دون معسكر ، لأن الجميع كانوا اخوة مبدأ وزملاء كفاح ، وقد زادنى اقتناعا بموقفى هذا ما وقع بعد ذلك الخلاف الأليم من أحداث ، فى طليعتها الاعتداء بالضرب على الدكتور السنهورى باشا ، ثم أعقب هذا الاعتداء اعتداء آخر ، أكلح وجها وأسوأ نتيجة ذلك أن الرئيس نجيب أزمع أن يودع جلالة الملك سعود ـ الذى حضر إلى مصر من أجل المصالحة بين نجيب وزملائه من الضباط ، وفيما كان نجيب يصعد سلم الطائرة مع الملك ، لحق به ضابط معروف بسوء السلوك ، ودعاه إلى مصاحبته إلى أسفل السلم ، فلما أجابه فاجاه بلطمة شديدة على وجهه أفقدته الوعى ، ثم نقل بعد ذلك إلى منزله المتواضع بضاحية الزيتون ، وعلى فراشه ألف وزارة جديدة وقد ظن الزملاء ـ آنئذ ـ أن محمد نجيب إنما كان يريد السفر مع الملك لاجئا سياسيا ، وغير

ذى حاجة إلى بيان أن هذه الصورة من اللجوء تحرج مصر ثورة وحكومة وشعبا أعظم إحراج .

إتصالات الإخوان والانجليز

لا ريب فى أن هذه الصورة الشوهاء للحكم فى مصر كانت مسرة للعدو على قدر ما كانت مساءة للصديق ، فظن الشعب فى مصر والناس فى الخارج أن الثورة قد اهتزت ، وأنها تشرف على السقوط ، وعن هذا الوحى بدأت السياسة الاستعمارية تعمل بوسائلها الخفية على أن يلتقى مندوب عن الإخوان المسلمين بالمستر كروزيل المفوض بالسفارة البريطانية فذهب الأستاذ حسن العشماوى إلى منزل الوزير المفوض الانجليزى ببولاق الدكرور فى الساعة السابعة صباحا يوم الأحد العاشر من يناير ١٩٥٤ وقد تكررت الزيارة ، فعاد الأستاذ العشماوى فى اليوم نفسه إلى المنزل المذكور ، ودامت المقابلة من الساعة الرابعة بعد الظهر إلى الساعة الحادية عشرة . وليس هذا الغرض على دهاة السياسة وأساطين الاستعمار ببعيد ، وبهذا اللقاء بدأت مرحلة بين الاخوان المسلمين ، والثورة يهيمن عليها سوء الظن ، وتوجهها الكراهية بين الفريقين توجيها لا يصلى ناره إلا الوطن والمواطنون .

وقد كان من أسوأ مظاهر الاستغلال لهذا اللون الخبيث من التخطيط أن المتربصين بالثورة والحاقدين عليها ، راحوا يزعمون للناس ـ من غير ملل ـ أن هناك اتصالا بين الإخوان والانجليز ، وأن واسطة الاتصال بين الفريقين هو الحاج محمد سالم سالم صاحب النقل والهندسة ، وقلت لنفسى أن الإخوان المسلمين كانت دعوتهم تقوم منذ قامت على تطهير الأرض العربية والإسلامية من الاستعمار الذى لم يكن يزعجه شىء كما يزعجه ذلكم الهتاف « الله أكبر ولله الحمد » يزلزل كيان الجبابرة فى كل زمان ومكان ، واستبعدت أنا شخصيا كل هذه الأقاويل .

ومهما يكن من أمر ، فإن هذه المزاعم مهدت السبيل لمحاكمة الإخوان المسلمين ، محاكمة لا يذكرها الذاكرون إلا ليسخروا من بعض أعضاء المحكمة وهو يطلب من الشهيد الشيخ أحمد شريت العالم الأزهرى أن يقرأ سورة الفاتحة بالمقلوب ، وهو على ما ترى طلب لا ينطق به لسان عاقل ذى مروءة ودين .

وأنتهز هذه السانحة لأذكر أمرين لا تستغنى عنهما هذه الملامح ، التى لا أشك فى أنها ستظل على مدى الدهر مرجعا للتاريخ ، وذكرى لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

● أولهما : أن عبد الناصر طلب إلىّ ذات يوم أن اتصل بالأستاذ البهى

الخولى ، واذكر له أن المحكمة سوف تستدعيه للشهادة ، وان أخبره عن الرئيس عبد الناصر أن يكون مطمئنا غاية الاطمئنان .

● وثاني الأمرين : أن عضوى المحكمة جمال سالم ، وانور السادات قالا لى : إن المحكمة قررت أن تستدعى كل من جاء اسمه فى المحكمة . وبناء على ذلك ستدعوك المحكمة للشهادة ، فقلت لهما : فى شىء من العتاب - إننى سأستجيب لدعوة المحكمة ، غير اننى اقرر لكما منذ الآن اننى سوف أسأل عن اسمى وعن وظيفتى جريا على العادة ، وسوف اذكر اسمى مقرونا بأننى وزير الأوقاف السابق ، وهذا قرار لن أنزل عنه مهما تكن الظروف ، ثم أنكما تعلمان أننى كنت نائب المرشد العام للإخوان المسلمين فهل يليق بى أن اشهد على أبنائى ، على مسمع ومرأى من العالم العربى والإسلامى ، وهل يتصور أحدكما أن عبد الناصر يرضى لنفسه أن يشهد فى المحكمة على إخوانه من أبناء القوات المسلحة ؟ إن هذا - بلا ريب - ضعف فى الخلق ، وسوء فى الأدب ، ومدعاة لشماته العدو ، ورثاء الصديق . وإننى لأذكر فى هذا المقام قول الشاعر الحكيم :

واكـرم نفسى إننـى إن أهنتـهـا وحـقك لـم تكرم على أحـد بعدى .

واذكر أننى انصرفت من هذا المجلس غير مسلم ، ولا مصافح ، وفى اليوم التالى طلبنى الرئيس عبد الناصر ، وقال لى : إنك تعلم أننا نعتبرك واحدا منا ، فإذا كنت ترى أن المصلحة فى عدم استجابتك للمحكمة ، فكل اخوانك معك لأنهم جميعا يطلبون المصلحة العامة ، ولهذا أرجو أن لا تغضب وأن تعتبر هذا الحادث كأن لم يكن .

وبعد أن انتهت المحاكمة وصدرت الأحكام التى كانت تتسم بالقسوة ، ويتلقاها الناس بالاستنكار فى داخل مصر وخارجها جاء إلى مكتبى الضابط محمد عبد الرحمن نصير ، وانتحى بى جانبا ، ثم أخبرنى بأن المشير عامر قد اتفق مع عبد الناصر على أن تتبعك سيارة جيب للحراسة ، ذاهبا إلى حلوان أو عائدا منها إلى القاهرة فما رأيك ؟

فأجبته بأن مثلى لا يقبل هذا العرض ، ولذلك لا أجد مندوحة عن رفضه .

وقد كان يجلس معنا فى المكتب زميل ، فسألنى أن أخبره عن هذا الحديث السرى بينى وبين الضابط نصير ، فأجبته كصديق بما عرضه على الضابط نصير من امر الحراسة ، وبأننى رفضت هذا العرض ، فجعل يلومنى ، ويسألنى عن السبب الذى من أجله رفضت الحراسة ، مع أن هذا العرض يعتبر لونا من التكريم . فقلت له : إن القوم يضيقون ذرعا بالإخوان ، وربما وسوس لبعضهم أحد الشياطين ، وزين لهم أن يقتلونى ، ويتهموا الإخوان بقتلى ، فيكونوا قد ضربوا عصفورين بحجر واحد .

وقد كان يجلس فى مكتبى أحد الأصدقاء وهو المهندس أحمد عبده الشرباصى ـ وكان وزيرا للرى ـ فلما انصرف الضابط أبو نصير ، سألنى : ما هذا الحديث الطويل ؟ الذى فوت على موعدا مهما ؟

فقصصت عليه الخبر ، ثقة به ، وحرصا على معرفة رأيه ، فسألنى عن الذى بعث إلى بتلك الرسالة مع الضابط المذكور ؟

فقلت له : إن الذى أرسله إلىّ هو المشير عبد الحكيم عامر ، الذى أمره أن يخبرنى بأن الرئيس زعلان من كلماتى التى قلتها لجمال سالم ، وأنور السادات ، وهو يقول لى : إننا نعتبرك واحدا منا . . فكان عليك أن تخبرنا بأن استدعاءك للشهادة فى المحكمة ليس فى مصلحة الثورة . وعند ذلك لا يطلب أحد منك هذا ، الذى أثارك وحملك على أن تقول ما قلت ، لأن الثقة بك كاملة ، وغيرتك على الثورة معلومة .

ولم يسع أخي وصديقي ـ بعد أن فرغت من الحديث ـ الا أن يصوب رأى ويقرنى على تصرفى ، ولا شك فى أن هذا الصديق ، روى عنى ما أخبرته به فى الخاصة ، أو مجالسه الرسمية ، إعجابا بصواب الرأى فيه .

الجواسيس ينشطون

واعتقد أن الجواسيس انتهزوا هذه الفرصة ، فأخذوا ينشرون عنى أننى اتهم رجال الثورة بالغدر ، والحرص على المباعدة بينى ، وبين الإخوان المسلمين . وذات يوم جاءنى الأستاذ البهى الخولى الذى كان مراقبا عاما للشئون الدينية فى وزارة الأوقاف ، وفى حديث طويل بينى وبينه ، ذكر لى أن لفظ الجلالة الذى يعلو رأسى فى المكتب ينبغى أن يتصدر الآية الكريمة : « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور . . الآية » .

وقد استدعى الشيخ البهى خطاطا من وزارة الأوقاف ، فأمرته أن يكتب الآية بخط جميل ، وأن يضعها فى إطار أنيق ، ولا تزال هذه الآية إلى اليوم تعلو رأس كل من يجلس على كرسى وزارة الأوقاف . ومن أعجب العجب أن شياطين الجاسوسية قادرون على أن يتأولوا كل تصرف ، تأولا يرضى الراعى بقدر ما يسىء الى الرعية . وقد ذهب هؤلاء الجواسيس فيما بلغنى ـ يذكرون لرجال الثورة أننى بعد محاكمة الإخوان ، أعتبر الوزارة ظلمات أسأل الله أن يخرجنى منها إلى النور .

اتصال من صلاح نصر

وفى هذا الجو المفعم بسوء الظن ، جاءنى ذات يوم مدير مكتب الأمن فى الوزارة ، وذكر لى أن السيد صلاح نصر يريد أن يتحدث إلىّ ، ثم إذا بجرس التليفون يرن ، وكان هو المتحدث ، فذكر لى أن أحد الإخوان المسلمين فى منطقة القناة ، يخطب الجمعة بلغة الإخوان وكلماتهم وافكارهم ، وان اسمه الشيخ الراوى ، وهو قريب الشيخ فرغلى وفـا الذى حكم عليه فى محكمة الثورة بالإعدام ، فذكرت له أن الإخوان لم يعودوا يتحدثون بلغة الدعوة ، ولا يدعون الناس إلى الانتظام فى سلك دعاتها .

ولكن الرجل قال لى فى لغة الواثق : إن مجرد القرابة بينه وبين الشيخ فرغلى وفا ، توحى بكل ما يتصل بدعوة الإخوان المسلمين .

فقلت له : إننى مرسل إلى تلك المنطقة بالشيخ البهى الخولى المراقب العام للشئون الدينية فى وزارة الأوقاف ، وسوف يصلك رأيه واضحا ، وهو رجل موثوق ذو خلق ودين .

وقد رجوت الشيخ البهى أن يسافر إلى منطقة الاسماعيلية ، وأن يكتب رأيه فيما يرى على أننى سأبعث برأيه كما يكتبه إلى الرئيس عبد الناصر .

وقد سافر الرجل ثم حضر بعد اسبوع ، فأخبرنى بأن أكثر الذين يصلون مع الشيخ الراوى صلاة الجمعة هم رجال القوات المسلحة ، وانهم جميعا مستريحون إلى سعة معارفه وحسن إلقائه ، وإن أخشى ما أخشاه أن تعلق الناس به قد يحملهم على الغضب له ، إذا نقلته الوزارة أو أساءت اليه .

فوافقته على وجهة نظره ، واخبرته بأننى لم أعين الشيخ الراوى إلا باذن من الرئيس عبد الناصر .

وقد أذكر أن وزارة الأوقاف كانت قد عقدت امتحان مسابقة للحاصلين على شهادة أزهرية عالية ، ودخل هذه المسابقة الشيخ الراوى وإخوة له كثيرون ، وقد نجحوا جميعا فى الامتحان . ولم يكن يؤذن للوزير ـ لأى وزير ـ أن يعين أحدا إلا بعد الرجوع إلى مكتب الأمن فى الوزارة ، وقد عارض المكتب فى تعيين هؤلاء الناجحين فى المسابقة . وكانت هذه المعارضة مثار مشكلة تستعصى على الحل إلا فى صورة واحدة : أن يعين هؤلاء الناجحون فى وظائف ادارية فى الوزارة ، ثم يندبون للعمل أئمة فى المساجد ، ولم يكن هذا الحل مقبولا فى رأى الناجحين الاكفاء ولا رأى مكتب الأمن والمشرفين عليه . عند ذلك لم أجد بدأ من استعمال حقى ، فألغيت قرار تعيينهم فى الوظائف الادارية ، وعينتهم أئمة فى وزارة الأوقاف ، لأننى رأيت فى ذلك مصلحة

للثورة ، التى أخبرنى المشير عامر على لسان الرئيس عبد الناصر ان من حقى أن أبذل نصحى باعتبارى واحدا من رجالها ، أو باعتبارى إماما للثورة ، كما كانوا يسبغون على هذا اللقب الكريم فى سائر الأحفال العامة فى مختلف أنحاء البلاد . ومع اننى لم أجد لتصرفى هذا موضعا للسخط فى أنفس رجال الثورة ، إلا أننى لم اشك فى انه كان له اثر تضيق به الصدور ـ وبدات المعركة بينى وبين صلاح نصر ، وكان ذلك فى أوائل سنة ١٩٥٨ .

ومهما يكن من أمر ، فقد نشبت الحرب بين مصر ، ودول العدوان الثلاثى .

وقد كانت هذه الحرب محنة يستعاذ بالله تعالى من شرها ، ولكن مشاركة الدول العربية لمصر فى تحمل تبعات الحرب جعلتها منحة يحمد الله ـ تعالى ـ على خيرها ، وقد اذكر أن وفدا من سورية الشقيقة قد جاء إلى مصر ، وحضر بعض جلسات مجلس الأمة ، تمهيدا للوحدة العربية التى تمت بين مصر وسوريا فى فبراير سنة ١٩٥٨ .

وفى إحدى هذه الجلسات خطب السيد الأستاذ الدكتور معروف الدواليبى الذى كان من قبل رئيسا لوزراء سوريا ، وأذكر أنه قبل ان يخطب رغب إلىّ ان اتحدث عن سليمان الحلبى الطالب الازهرى السورى الذى صرع الجنرال كليبر أحد قادة الحملة الفرنسية على مصر ، والذى يعتبر أحد الشهداء فى سبيل الوحدة العربية ، فذكرت فى حديثى أن سليمان الحلبى أول شهداء الدعوة إلى الوحدة العربية .

فى وفد إلى السعودية

ومما لا ينبغى التغاضى عنه فى معرض هذا الحديث ، أن الرئيس عبد الناصر كان قد رغب فى ذلك الحين إلى الرئيس السورى شكرى القوتلى فى أن يراس وفدا مصريا سوريا لزيارة جلالة الملك سعود بالمملكة العربية السعودية الشقيقة . ولعله كان يقصد من ذلك إلى أن يعرف صدى الدعوة إلى الوحدة فى نفس الملك سعود ، وسائر أمراء البيت السعودى الكريم ، وكنت عضوا فى هذا الوفد ، وكان من أعضائه السيد صلاح البيطار وآخرون ، فاجتمعنا بالملك بقصره بجده ، وكان جلالته شديد الترحيب بالوفد ، ثم اختصنى بكلمة يحرص عليها دائما السعوديون فى لقائهم أهل العلم ، فقد قال لى جلالته أول مالقينى : اهلا يا شيخنا ، فرد السيد شكرى القوتلى : فجلالتكم إذن تعرفون الشيخ الباقورى وزير الأوقاف فى مصر؟ .

فأجابه الملك سعود : نعم أعرفه جيدا ، وخاصة بعد أن سافرنا إلى القاهرة لإصلاح ذات البين بين الرئيس نجيب وإخوانه الضباط .

فقلت لجلالته وقد تفضلتم بدعوتى مع بعض المصريين إلى تناول العشاء على مائدة جلالتكم ، ويشرفنى أن اذكركم بأنكم كنتم تلاحظون أننى غير مقبل على الطعام ، فشجعتمونى على الأكل وذكرتم أن الجائع يأكل ما يقدم إليه من طعام .

فقلت لكم إن مؤاكلة الملوك شرف لا شبع .

وقد علق على هذه الكلمة الأستاذ فكرى أباظه ، تعليق أديب حلو الفكاهة ، جم الأدب ، بصيرا بما للكبار من حقوق لا ينبغى الإغضاء عنها ، ولا التهاون فى قضائها .

وفى مساء وصول الوفد المصرى السورى برئاسة السيد شكرى القوتلى إلى جده ، بعد اجتماعنا بجلالة الملك سعود فى قصره بجده دعينا إلى تناول العشاء مع الملك ، وسمو الأمير فيصل .

واستأنف الملك الحديث وقد تجلت فى قسمات وجهه أمارات عتاب شديد : فذكر السيد على خشبة الملحق العسكرى المصرى فى سفارة مصر قائلا ، إنه يجمع أسلحة كثيرة بطريق غير مشروع ، دون أن يكون لذلك سبب معقول . وقد إنضم إلى ذلك التصرف المريب من الملحق العسكرى ، تصرف أشد إرابة من المبعوثين المصريين إلى التعليم فى المعاهد والمدارس السعودية ، ذلك أن هؤلاء المبعوثين كانوا كثيرا ما يذكرون للطلاب أن النظام الجمهورى أقرب نظم الحكم إلى الإسلام ، ولولا أن الذى أخبرنى بهذا موضع ثقة ما كنت أصدق هذا الكلام ، لأن صلة المملكة بمصر صلة قوية ، واهتمامنا بشئونها اهتمام عظيم ، وخاصة بعد عقد معاهدة الضمان الجماعى فى جده سنة ١٩٥٦ فكونوا أنتم فى مكانى وأنا أرضى ما تحكمون به بصفتكم عربا مسلمين .

وقد انطلق شكرى القوتلى بصوته الجهورى بعد سماعه هذه الكلمات ، خطيبا فى مجلس محدود لا يحتمل أسلوبا خطابيا ، ولكنه كان موفقا فى كل كلمة قالها ، ولاء للمملكة ورعاية لحرمتها ، وحرصا على تجنيبها كل ما يسىء إلى الإسلام والمسلمين ، إذ كانت هى حامية الحرمين الشريفين ، وكانت الإساءة اليها إساءة إلى العروبة والإسلام فى كل مكان .

ثم لما أزمعنا العودة إلى القاهرة ، لم يكن لنا بد من توديع الملك واستئذانه فى السفر ، وقد شعرت وأنا أصافح جلالته أنه اقتنع بما سمع اقتناعا زادنى ثقة بالحكمة المأثورة ما خرج من القلب ، دخل إلى القلب ، وما جرى على اللسان لم يجاوز الآذان » .

وفى القاهرة قابلت الرئيس عبد الناصر ، فأثنى خيرا على الملك سعود ، وذكرت

له عتبه الشديد ، وتأثره من تصرف بعض المعارين للتدريس فى المملكة السعودية وكان أشد ما يكون عتبا على الملحق العسكرى المصرى هناك ، ومع ذلك لم يفته أن يحملنا تحياته إليك وإلى إخوانك ، متمنيا للأمة العربية مزيدا من التعاون المخلص لخير العروبة والعرب وعز الإسلام والمسلمين .

ومن أمانة التاريخ أن أدون هنا ما ذكره عبد الناصر لى فى هذه المقابلة حيث قال : إن بعض إخوانك من العسكريين والمدنيين يتصرفون أحيانا برأيهم الخاص بتصرفات محرجة للثورة ، ثم يحملوننى تبعات تصرفاتهم : وهل تتصور انت أن كمال حسين يطلب إلى مبعوثيه بتوصية منى أن يفضلوا النظام الجمهورى على النظام الملكى ؟ ثم هل تتصور انت أننى أطلب إلى عبد الحكيم عامر أن يوصى ملاحقه العسكريين بالعمل على قلب نظام الحكم فى بلاد يهتم بالأمن فيها أهل الإسلام فى كل زمان ومكان ؟

الفصل الثامن

تدهور العلاقات مع عبد الناصر ...
البداية كانت فى سوريا

ولا ريب فى أن زيارة الوفد المصرى السورى برياسة شكرى القوتلى كانت أولى الخطوات إلى تحقيق الوحدة العربية بين القطرين الشقيقين سوريا ومصر ، تمهيدا لوحدة عربية أشمل تنتظم العراق وليبيا والسودان . وبهذا تقوم أول إمبراطورية عربية عرفها التاريخ ، وتلك كانت آمال عبد الناصر الذى عاش لها ومات فى سبيلها .

ولما قامت الوحدة كان شعارها « أمة واحدة ذات رسالة خالدة » وفى أحد أيام فبراير سنة ١٩٥٨ م اتصل بى سامى شرف مدير مكتب عبد الناصر ، وأخبرنى أن الرئيس ينتظرنى أنا وكمال الدين حسين فى قصر الضيافة فى دمشق ، وسوف أصاحبكم فى الطائرة إذا أذنتم بذلك .

وفى اليوم التالى لهذا الحديث كنا فى دمشق ، وقد أعدوا لنا مكانا للمبيت فى فندق أمية ، غير أن الرئيس قال : « أحسن تكونوا معنا فى هذه الداخلية ، نتحدث معا ، ونتناقش فى الأمور التى تحتاج إلى بيان ، فبقينا فى قصر الضيافة ، وكان نصيبى سريرا فى حجرة مع أنور السادات ؛ الذى كان مغرما بكتابات جبران خليل جبران فيقرأ له تحت ضوء شديد لا يأذن لى بنوم مريح ، فإذا برق الفجر استيقظنا على هتافات تدوى كالرعد هاتفة بحياة الوحدة ، فلا نملك إلا أن ننزل إلى ساحة القصر لنستقبل مع عبد الناصر الوفود من سوريا ولبنان وشمال العراق ومن فلسطين ، فإذا انصرفت الوفود رجعنا إلى قاعة الطعام للإفطار فكنا حقيقة فى دار الضيافة أشبه ما نكون بالطلاب فى مدرسة داخلية .

ولست أنسى أن شكرى القوتلى جاء ذات يوم فى الصباح الباكر ، وبعد حديث طويل بينه وبين عبد الناصر ، قال له على مسمع منى : « الله يعطيك العافية ويعينك يا أبو خالد وتقدر تتغلب على الخلافات المذهبية ، والتناقضات الكثيرة التى لا قدرة للإنسان عليها إلا بمعونة من الله وتوفيق ، وسوف ترى من التناقضات والخلافات أسوأ الصور الاجتماعية ، ففى هذا البلد ناس يدعون الألوهية مثل سليمان المرشد



□ مع الرئيس شكرى القوتلى ، إبان زيارة المؤلف لسوريا .

وأتباعه . وفيه ناس يؤمنون بحلول الذات الالهية فى البشر مثل **النصيريين** فى جبل **العلويين** . ومثل **عباد الشيطان** إتقاء لشره واستجلابا لرضاه على عابديه ، ومن هؤلاء **الإمامية المعتدلون** ، **والاسماعيلية المنحرفون** ، وهم من بقايا **الفاطميين** فى مصر ، فإذا تصورت هذه الصورة على هذا النحو ، فإنك تحمل عبئا فادحا لا يحتمله إلا من يلتزم الحكمة وينتقى البطانة ، مؤثرا العدل والانصاف على الميل والجور والاعتساف .

وقد كان الرجل مخلصا فى كل كلمة قالها ، إخلاصا يتجلى على غاية الوضوح فى نبرات صوته ، وليس يخفى على الذين يعلمون أن عبد الناصر كان يحسن الاستماع ، بمقدار ما يحسن الناصحون الكلام .

تعييني وزيرا مركزيا للأوقاف

وفى مساء ذلك اليوم دعانى عبد الناصر إلى حجرته الخاصة ، ثم تناول ورقة صغيرة وطلب إلى ان أسمع ما كتبه ، ثم قرأ علىّ نبأ **تعييني وزيرا مركزيا للأوقاف ، وتعيين كمال الدين حسين وزيرا مركزيا للتربية والتعليم .**

وأذكر أنه رغب إلى فى ان استأجر دارا فسيحة فى دمشق ، وأن أجعل منها ندوة للمفكرين ، وأصحاب المذاهب المختلفة ، قائلا : إنك قد سمعت ما قاله شكرى القوتلى ، فاخبرنى - بعد أن تفكر - عن أيسر الطرق للتقريب بين المتباعدين ، والتوفيق بين المختلفين .

وقد انتهزت هذه الفرصة السانحة ، فأخبرته أن أيسر الطرق لتوثيق عرى الوحدة ، يقتضينا التفكير فى أمرين :

أولهما : يتصل بتنمية موارد الثروة ، وفى هذا البلد الشقيق مساحات شاسعة من الأرض التى تمتاز بالخصوبة ، التى يقل أمثالها فى دنيا العرب ، وليس يعرف الناس مثيلا للفلاح المصرى الذى يمتاز بحب الأرض واستخراج كنوزها ، وخاصة فلاح محافظة المنوفية ، الذى تضرب به الأمثال فى هذا المجال ، وليس يخفى عليك أنه من الممكن الميسور تجنيد الذين قضوا مدة الجندية فى الجيش المصرى ، وإلزامهم أن يقضوا مدة معينة فى تنمية موارد الثروة التى هى ملك للجمهورية العربية المتحدة ، بغير فرق بين المصريين والسوريين . وربما نشأ عن هذه الهجرة الاجبارية جيل جديد أباؤه مصريون ، وأمهاته سوريات ، وهذا الجيل هو الذى يتولى حماية الوحدة ويستبقيها شامخة المعالم خافقة الأعلام : « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » .

وقد أجاب الرئيس على هذا الاقتراح قائلا : إن هذا التزاوج بين المصريين والسوريات قد يأخذ الطريق على بناتنا فى مصر ، إذ كان الجندى المنوفى يؤثر السورية البيضاء على المصرية السمراء وبذلك ينقلب الخير شرا ، وتكون الوحدة موضع سخط الآباء والأمهات المصريات .

ولم أشأ أن أذكره - غفر الله له - بأن المستقبل بيد الله وحده ، ولعل فى الغيب المحجب ما يرمى بالعقم أصح المقدمات ، فتجيء نتائجها على خلاف ما يتوقع المفكرون . مهما كانت منزلتهم من القدرة على استخراج أوثق النتائج من أسلم المقدمات .

ثم من يدرى أن الامور ستجرى على هذا النسق من اختيار الأزواج زوجاتهم على صفاء اللون ونقاء البشرة ؛ ولم لا يكون العكس صحيحا أيضا فيختار

السوريون ـ بعد الاندماج الوحدوى ـ زوجاتهم من بناتنا المصريات السمراوات ، على أن اختيار الزوج زوجته يستند إلى أمور شتى ، تسقط معها شدة العناية بالألوان ، فالعادات والتقاليد وذكرى ملاعب الصبا ومناشط الشباب ، كل أولئك له أبلغ الآثار فى إقبال كل من الزوجين على صاحبه . وبملاحظة هذا المعنى البديهى ، يختفى الإشفاق على بناتنا المصريات ، من أن يصبحن عوانس لا أمل لهن فى حياة سعيدة تقوم عليها أعمدة مجتمع صالح يخشاه العدو ، ويرجوه الصديق .

هذا . وثانى الطريقين ، يقوم على تجانس الفكر وتوحيد منابع الثقافة ، وأيسر السبل إلى هذه الطريق ، إنشاء مجلس أعلى للشئون الإسلامية يتكون من علماء سوريا ومصر وأهل الرأى فى العالم الاسلامى . على أن تنشأ لهم درجات مالية مرضية ، وعلى أن يأذن هؤلاء الاخوة السوريون لأولادهم بالسفر إلى القاهرة ، ومشاركة أبناء الأزهر فيما يتلقونه من علوم تعين على التقريب بين الأفكار المتباعدة والمذاهب المختلفة .

فإذا توافر هذان الأمران للجمهورية العربية المتحدة ، فقد امتهدت بين يديها السبل إلى الظفر بالمدينة الفاضلة التى كانت حلم الفارابى وأعز أمانيه .

ولئن كان قد تعثر إجبار الفلاح المصرى على الهجرة إلى سوريا والاقامة فيها ، والعمل على استخراج الكنوز من ارض الجزيرة الخصيبة ، فقد كان أمرا يسيرا أن يتخير وزراء الوحدة فى سوريا أبناء كبار القوم وذوى العصبيات ليسافروا إلى القاهرة ، وقد حضروا فعلا وأمرت بإنزالهم فى أحد الفنادق فى شارع الأزهر حتى تسنح الفرصة لتدبير أماكن لاقامتهم واعداد مدرسين لتعليمهم وترويضهم على الاقامة فى بلد لم يعرفوه ، ولم يألفوا صور الحياة فيه .

غير أن سوء حظهم أو حظى معهم ، أننى تركت وزارة الأوقاف قبل أن أكمل ما كنت أحب أن أبلغه بهم مما يجعلهم أكفاء قادرين على تحقيق الغاية المرجوة منهم فى العمل على رفع شعار القومية العربية ، التى لا وجود لها بغير الإسلام .

السوريون والعروبة

ويسعدنى أن انتهز بك هذه السانحة لأتحدث إليك عن سورية حديث مشاهدة وعيان ، وأول ما ينبغى التنبيه إليه فى هذا الحديث ، أن القوم تشدهم إلى العروبة أصول عريقة ، ترى الاسلام تراثا عربيا لهذا العرق الشريف . وآية اعتزازهم بالعروبة ، أنهم تخيروا لعلمهم صورة تتألف من البياض والسواد والخضرة

والحمرة ، فذلك حيث يقول الشاعر العربى الأصيل :

بيض صنـائعنا سـود وقائعنـا　　　خُضر مرابعنا حُمـر مواضينـا

وهذه الصورة ـ بلا ريب ـ تنتظم الأخلاق العربية الشريفة إبان الجاهلية ، وليس يخفى على البصراء بقيمة الأخلاق العربية الجاهلية ، ما ذكره ثقات العلماء مرويا عن أمير المؤمنين عمر من قوله :

« إنى لأعلم متى تهلك العرب : إذا سافه من أدرك الجاهلية ، فلم يأخذ بأخلاقها . وسافه من أدركه الإسلام فلم يقذه الورع » .

فأمير المؤمنين عمر ـ رضى الله عنه ـ يوازن بين الأخلاق العربية الجاهلية ، وبين الأخلاق التى أمر الإسلام بها ، ولم يكن أمير المؤمنين ليقول هذه الكلمات الشريفة ، دون أن يكون لها فى تقديره سند كريم . ذلك أن رسول الله أشار إلى هذا المعنى بعد أن استمع إلى حوار بين وجوه العرب فى منى ، ثم قال ـ آخذا بيد أبى بكر ـ « اية أخلاق فى الجاهلية هذه الأخلاق ما أشرفها أنهم ليتحاجزون بها فيما بينهم وبها يدفع الله بأس بعضهم عن بعض » .

ولهذا دهش السوريون أشد الدهشة لما فوجئوا بعلم الجمهورية العربية المتحدة مؤلفا من الألوان الثلاثة : الأسود والأبيض والأحمر ، وهى ألوان لا تدل على معنى يتعلق بالأمة من ماض تعتز به ، ولا من مستقبل تسعى له وتحرص عليه ، كما هو شأن أعلام الامم دائما فى الشرق وخذ لذلك مثلا علم المملكة السعودية ، يعلن إلى الانسانية عقيدة الدولة ، والمعنى الذى تتغياه ، فذلك هو « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . وإن أنت نظرت إلى أعلام الدول الغربية ، فإنك سترى أعلامها تشير إلى عقيدتها ، كما يظهر ذلك واضحا فى علم المملكة المتحدة البريطانية .

شهر رمضان فى سوريا

كان خصوم الوحدة ينتهزون كل سانحة لتوهين الروابط بين الشعب وبين عبد الناصر ، وآية ذلك أن وجوه القوم من علماء الاسلام وأهل الفتوى ، كثيرا ما رغبوا فى أن يلقوا الرئيس دون أن يجابوا إلى ما يطلبون ، حتى قال قائلهم : إن الشيشكلى رفض أن يقابلهم ضيقا بهم ، وحرصا على ألا يكونوا مظهرا للدولة فى أعين الناس ؛ وليس ببعيد أن يكون عبد الناصر سائرا على طريق الشيشكلى ، بدليل أنه لم يأذن لنا بمقابلته رغم رغبتنا الشديدة فى ذلك .

ولا ريب فى أن هذه الكلمات وأمثالها انتهت إلى سمع عبد الناصر ، فضاق بها

صدره ، ضيقا دعاه إلىّ أن يطلب إلىّ أن أقضى شهر رمضان (سنة ١٩٥٨) فى تلك البلاد الشقيقة ، لأدرس مشاعر الناس ، وأعرف ما يصلح الفاسد ويقوم المعوج ، ويوثق العرى بينه وبين مختلف طوائف الشعب .

وقد أمضيت شهر رمضان جوالا فى سائر أنحاء البلد الشقيق ، فزرت جبل العلويين ، وزرت اللاذقية ، ورأيت الحاجز الذى يفصل بين الحدود التركية ، والحدود السورية ، ثم سعدت أبلغ السعادة بزيارة جبل العرب الذى يقيم فيه الدروز ، ويحتل أعظم مكان فيه سلطان باشا الأطرش ، والشاعر العبقرى رشيد سليم الخورى .

وقد كان الغرض من تلك الزيارات أن أعرف مواقع السخط فى أنفس الشعب ، وأن أشاور الذين أثق بهم ، ويثقون بى فى أيسر السبل إلى دعم قواعد الوحدة ، ودعوة الصفوة من العلماء والفضلاء وأهل الرأى إلى الوقوف مع الوحدة ، دفاعا عنها أو نصحا لها ، تأدبا بأدب رسول الله ـ ﷺ : « الدين النصيحة لله ، ولكتاب الله ، ولرسول الله ولأئمة المسلمين وعامتهم » .

وغير ذى حاجة إلى بيان ، إن الصلة بين الإخوان المسلمين من القوة بحيث تحمل الواحد منهم على أن يسعى لمقابلة أخيه والسعادة بالاجتماع به ، والحديث إليه ، وقد كان إخوان سورية من أشد الناس تعلقا بإخوانهم فى القاهرة ، وبذلهم معونات كثيرة لهم فى أثناء المحنتين التى امتحن بهما الاخوان المسلمين فى عهد إبراهيم عبد الهادى ، وعهد جمال عبد الناصر ، ولذلك كانوا ينتهزون كل سانحة للاجتماع بى والإلتفاف حولى ، ومناقشة أمر الدعوة ومدى استعداد رجال الثورة للمضى فى طريقها .

وقد كان فى مقدمة هؤلاء الدكتور مصطفى السباعى ، الذى تخرج من كلية الشريعة بالأزهر الشريف ، والذى لا يجهل قدره فى الدفاع عن السنة أحد من أهل العلم ، وكذلك الاخ عمر بهاء الأميرى ، الذى كان يعد أحد شعراء الاخوان ، وكما كان هؤلاء الأخوة يحرصون على الاجتماع بى ، كنت أحرص على دعوتهم إلى مآدب الافطار فى رمضان ، التى كان عبد الناصر قد أوصانى بها قبل عودته إلى القاهرة .

على أننى لم أشأ أن ينحصر اهتمامى فى إطعام الطعام فى رمضان ، فرأيت أن أدعو الشيخ مصطفى اسماعيل للحضور إلى سورية وتلاوة القرآن الكريم فى مساجد دمشق وحلب وحمص وحماة ، وقد كان لسهرات الشيخ مصطفى اسماعيل أعمق الآثار فى أنفس السوريين الذين كانوا يفدون من كل مكان إلى كل مسجد يقرأ فيه الشيخ مصطفى اسماعيل . وكما كنت أدعو العلماء ووجوه القوم وأهل الرأى إلى مآدب رمضان ، كنت أستجيب لدعواتهم كلما امتهدت إلى إجابة الدعوة سبيل .



□ فى بيروت : فى حوار مع رشيد كرامى .

ولست أنسى أخى العالم الأزهرى **الشيخ عبد الستار السيد** مفتى طرطوس فى ذلك الوقت ، والذى صار فيما بعد وزيرا للأوقاف فى سوريا ، فقد كان شديد التحمس للوحدة ولدعوة الإخوان .

وذات يوم دعانا إلى مأدبة إفطار فى منزله **الشيخ أبو اليسر عابدين** مفتى المفاتى فى القطر السورى وكان طبيبا يحمل شهادة فى الطب من فرنسا . كما كان عالما بالفقه ، الذى تلقاه عن أجداده فى فقه السادة الأحناف ، وكان بين المدعويين كثير من أهل ـ الفتوى ـ منهم ـ على ما أذكر **مفتى حماه** الذى كان يمتاز ـ مع علمه وورعه ـ بالملحة الذكية والنادرة المرحة ، وآية ذلك أننا حين فرغنا من تناول الطعام فى منزل مفتى المفاتى ، بدأ مفتى حماه يدعو لصاحب الدار بالدعاء المأثور عن أسلافنا الصالحين ، فراح يقول « أكل طعامكم الأبرار ، وأفطر عندكم الصائمون ، وصلت عليكم الملائكة ما عدا جبريل » .

وكان هذا الاستثناء موضعا للسؤال لماذا يا فضيلة المفتى تستثنى جبريل ؟

فأجاب الشيخ بروحه المرحة قائلا : « لأن المأدبة خلت من القطائف العصافيرى » .

وبهذه النادرة إنصرف القوم شاكرين ، مستمتعين بحسن الصحبة وشهى الطعام .

وحق على أن اذكر بالثناء الطيب أخى الأستاذ يوسف مزاحم الذى كان شديد الاعتزاز بالوحدة ، بقدر ما كان شديد الدفاع عنها ، والدعوة إلى مناصرتها ، فى منطق قوى ، وحجة بالغة وغيرة لا يجليها بيان . وقد كان الرجل أنئذ محافظا لدير الزور ، وكانت داره أول دار استقبلتنا فى رمضان خارج مدينة دمشق .

وشايات جديدة

قضيت شهر رمضان فى تلك البلاد الشقيقة سوريا ملتزما ، ما كان قد أوصانى به الرئيس عبد الناصر من عقد الندوات ، وإقامة المآدب . وقد أحاط بى إخوان سوريا ، فلا نكاد نفترق فى ليل أو نهار .

ويبدو أن المرجفين من ناشرى الشائعات قد رفعوا هذه الصورة إلى الرئيس عبد الناصر ، يشيرون بها إلى أن علاقتى بالإخوان لا تزال قوية فى كل مكان أرحل إليه . والجاسوس لا يعنيه شىء بقدر ما يعنيه أن يفسد العلائق بين الناس .

ولست استبعد انهم كتبوا تقريراتهم يستوحون فيها الهوى ، لأنهم لا يقصدون شيئا أنفع لهم ، ولا أعز عليهم من أن يثيروا القلاقل ، ويوقظوا الفتن .

ولعلهم رأوا أن العلائق الطيبة بين عبد الناصر وبينى ، قد تحرمهم خيرا يرجونه ، أو توقعهم فى شر يتجنبونه ، ولذلك عملوا جاهدين على أن يتأولوا كل كلمة أقولها ، وكل تصرف امضيه فى وزارة الأوقاف ، فلا يرون بابا يفضى بهم إلى شب نار الفتنة إلا فتحوه ، ولا طريقا إلى إيغار الصدور إلا سلكوه .

وليس يفوتنى ان اقرر هنا ان أهل سورية كانوا يرون التعبيرات الموغلة فى الغلو ، اقدر على تجلية مشاعرهم فى الرضا والغضب ، والمدح والهجاء وآية ذلك كلمة قالها عين من أعيانهم فى بعض مجالسهم ، وقد كنا نزلنا فى ضيافته ونحن نزرع الأرض السورية ونزور المدائن والقرى فى تلك البلاد .

فقد قال ذلك السيد فى صباح يوم من تلكم الأيام : « إن جمال عبد الناصر قد

جمع كلمة العرب ، التى لم يستطع أن يجمعها النبى العربى محمدا » . وتلك كلمة لا يقولها إلا حاقد موتور ، أو جاسوس غبى مأجور .

ولم يكن لى بد من كلمة تدافع الكلمة الحمقاء التى آلمت الجالسين أشد إيلام ، فقلت : إن جمال عبد الناصر لا يقاس بمحمد ولا بأحد من أصحاب محمد ، وإنه ليشرفه أعظم تشريف أن يكون خادما فى بيت محمد رسول الله ـ ﷺ ـ وأما أنت يا صاحب الكلمة ، فاستغفر الله وتب إليه ، ثم حاول أن تلتمس ـ بمعونة العلماء ـ هل بقى لك مكان بين المسلمين .

ومهما يكن عبد الناصر معتزا بمصر حريصا على إسعاد مواطنيه ، فإنه كان أشد إعتزازا بجاه الحكم ، وأبين حرصا على استبقاء السلطان . وقد كان هذا الحرص داعية له إلى تقريب كل من يبذل له نصيحة تستبقى له الزعامة فى الجمهورية العربية المتحدة ، أو تروى ظمأه إلى ضم أقطار أخرى ، مهما تكن هذه النصائح أو المشورات منطوية على شر مستطير لا تكشف إلا لأقل القليل من الناس . ولقد أذكر أن من شر ما منيت به الجمهورية العربية المتحدة ، ذلكم النشيد المشئوم الذى لا أشك فى انه وضع لغرض أثيم ، يتحرى إغضاب الملوك والرؤساء والشيوخ والأمراء ، فإذا أعداء عبد الناصر هم الشعوب وأمراؤها . وليس يعجزك أن تسلم بهذا المعنى ، إذا قرأت هذا النشيد الذى راح يردده الغوغاء بتحريض من الأعداء ، وهو قولهم :

من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر
لبيك عبد الناصر

دعامتين للثورة

وليس يرتاب الذين يؤرخون لهذه الثورة فى أنها كانت كسائر الثورات ، تستند إلى امرين : احدهما التوسع فى نشر الجاسوسية وثانيهما اصطناع أنصار يستغلون صلاتهم بالثوار .

فأما التوسع فى نشر الجاسوسية ، فقد اقترن فى أذهان الناس بأنه كلما استطاع الجاسوس أن ينصب شركا لأحد خصوم الثورة ، كان أولى بالرعاية والثقة به . وكان بعض هؤلاء يصطنعون فى كل بيت ، وكل مكتب أصدقاء لهم يأتونهم بأخبار ـ صادقة أو كاذبة ـ لقاء أجر معلوم ، وقد نشأ عن ذلك أن أصبح الولد يتجسس على ابنه ، والجميع ينتظرون من الدولة حسن المثوبة وجزل العطاء ـ فى منصب يسند إليهم أو مغنم يدر عليهم أخلاف الرزق الوسيع .

ولا ريب فى أن طلب المنفعة جزء من طبيعة الإنسان ، فكلما لاحت لأحد هؤلاء فرصة افترصها زاعما لذوى قرباه وذوى بعداه أنه موضع ثقة الدولة ، وأحد المتصرفين فى شئونها ، والقادرين على أن ينتفعوا أو يضروا . ومن ذلك انقلب المجتمع كله ، مجتمع مستغلين تجار ، على حين أن الدولة تحتاج - أبين حاجة - إلى مواطنين أحرار ، وذلك هو المعنى الذى أشار إليه حديث رسول الله - ﷺ - « إذا ابتغى الإمام الريبة فى الناس ، أفسدهم » .

اصطناع المتمردين .

ومما أساء إلى الشعب المصرى إساءة بالغة ، اصطناع المتمردين الذين يقومون فى بلادهم بانقلابات عسكرية ، يزعمون أنهم يأتمون فيها بثورة مصر ، فإذا نجوا ظفروا بحكم شعوبهم ، وإذا أخفقوا جاءوا إلى مصر وعاشوا فى رعايتها مع أسرهم ، فحمّلوا الشعب مالا قدرة له على احتماله .

وهذه الاساءة تتجلى على أوضح صورها فى إيواء أسر كثيرة ، وعلى رأس هذه الأسر أسرة كل من : **نكروما ثائر غانا ، ولومومبا ثائر الكونغو** مع حاشيتهما الضخمة .

والذين عاصروا هذه الأحداث يعلمون - يقينا - أن مصر خسرت بهذا التصرف السياسى ثقة الشعب المصرى فى الداخل ، لأن المال الذى كان ينفق على أولئك المتمردين وعلى شعوبهم ، هو مال الشعب وهو أحق به من كل وافد عليه لا يترتب على وجوده وحمايته فى نظر الشعب مصلحة من قريب أو بعيد .

وقد انضم إلى هذه الخسائر المالية خسارة سياسية ، جعلت الأمراء فى الخارج يتهمون مصر وحكومتها بأنها مسعر فتنة وداعية بلبلة واضطراب ، تستميل كل مغامر فى أفريقيا وآسيا يريد التسلط على شعبه ، والعبث بمقادير أمته ، سعيا وراء جاه حكم ، وهو مطمئن إلى غاية تمرده أعظم الاطمئنان ، لأنه إن نجح ظفر بثمرات الحكم فى بلاده ، وإن أخفق عاش مكرما فى حماية الحكومة المصرية التى كانت ترحب بالانقلابات ، وتمهد للقائمين بها طريق السعادة فى الحاضر ، والاطمئنان إلى المستقبل .

ومما ضاعف شعور الشعب المصرى بالألم ، أن **رئيس الجمهورية كان قد اهدى إلى زوجة نكروما بعض الحلى والجواهر الثمينة للأسرة المالكة المخلوعة** .

ولو أن هذا التصرف من الرئيس كان قد استند إلى الطريق الدستورى ، لكان

تصرفا مقبولا لا غبار عليه ، لأن كل ما يتصل بالأسرة المالكة ، إصبح بعد الثورة ملكا للشعب ، فى هذا الاهداء .

وقد اذكر أن الأمم العريقة فى نظم الحكم كانت شديدة الإعتزاز بالابقاء على كل ما يتصل بالأسرة الحاكمة ، ولقد ذكرت فى صفحات سابقة أننى حينما زرت الصين عام١٩٥٥ ، رغب إلى رئيس الحكومة أن أزور قصور المخلوعين من الأباطرة ، فإذا كل شىء باق على حاله دون أن يمسه تغيير أو تبديل ، إذ كان القوم هناك يرون فى هذا المظهر ما يجعله متحفا للشعب ، تنتفع به مصلحة الآثار عن طريق زيارة الصينيين والوافدين عليها من الخارج ، مع أن شجرة الزمرد و « الجاد » التى كانت موجودة فى هذا القصر كانت تقارب المتر او أكثر علوا وكانت فروعها تحمل ثمارا مصوغة من الاحجار الكريمة حتى.لقد أخبرنى مرافقى فى هذه الزيارات بأن الوزارة استقدمت خبراء لتثمين هذه الشجرة ، فاتفقت كلمتهم على أنها لا تقوم بمال .

ثم لما أشرفت زيارتى لسورية على نهايتها ، زرت جزيرة فى البحر تواجه طرطوس ، وكان أهل هذه الجزيرة يعتزون بتاريخها من حيث كانت منفى للأحرار ، الذين كانوا يقاومون طغيان الظلمة من ساسة الاتراك . وكان فى مقدمة أولئك الأحرار السيد عبد الحميد كرامى والد السيد رشيد كرامى رئيس الحكومة اللبنانية السابق رحمه الله .

وأذكر أننى بلغت القاهرة أول أيام عيد الفطر المبارك . ولم يكن بد من أن القى الرئيس عبد الناصر لأذكر له نتائج ما كان قد أوصانى به من زيارة البلدان ، وإقامة المآدب فى دمشق ، وعقد الندوات طوال شهر رمضان .

وقد كان الرجل حريصا على أن يعرف كل شىء عن الوحدة ، خيرا كان أو شرا . ولم يكن رجال مخابراته ليغادروا صغيرة ولا كبيرة إلا ليرفعوها إليه ، ومن أجل ذلك تصورت أن كل معنى أقوله له ، لابد أن اكون قد سبقت إليه ، ولكننى رأيت من الحق على أن اذكر له ما فيه صلاح الوحدة والاتحاد ، فأجمعت أن أوثر الحق على كل ما أثير سواه .

وقد ظل حرصى على الندوات العلمية يدعونى إلى عقد ندوة فى دارى ، أو إلى السعى إلى شهود ندوة من تلكم الندوات التى كانت تذكرنا بندوة الأستاذ عباس العقاد .

وقد كان من بين تلك الندوات ندوة يجتمع فيها الحراص على المعارف والعلوم ، وخاصة ما يتعلق فيها بتفسير القرآن العظيم وما يتعلق به من مباحث اللغة العربية الشريفة ، وكان يصحبنا فى هذه الندوة أفاضل من ارباب الأقلام ، وأهل البصر بشئون السياسة وشئون الدين ، ومنهم الدكتور ناصر الدين الأسد ، والسيد

الفاضل عبد الله التل قائد معركة القدس الشريف ، والأستاذ يحيى حقى وكنا كثيرا ما نجمع بين متعتين : المتعة بطيب الطعام ، والمتعة بشريف الكلام . وكان ربما صحبنا فى هذا المجلس أحد أصهار محمود شاكر واسمه محمود عفت ، وهو مهندس زراعى كان يدين بالولاء لأستاذ انجليزى كثيرا ما يقيم أمدا طويلا فى الصحراء الغربية . وكان المهندس محمود عفت هذا حريصا على أن يزور أستاذه حينا بعد حين ، حتى ظن رجال المخابرات المصرية أن ثمة صلة تخابر بين المهندس محمود عفت ، والأستاذ الانجليزى الرابض فى الصحراء ، ولذلك اعتقلوا السيد عفت ، واستودعوه معسكر مصطفى باشا فى الاسكندرية ، وهنالك عومل بما يستحق .

وقد طلب إلىّ محمود شاكر أن اكلم الرئيس عبد الناصر فى العفو عن المهندس عفت وإطلاق سراحه .

وقد رأيت من الحق علىّ أن استجيب لهذه الرغبة ، وأن اشفع للرجل إلى الرئيس ، غير أن كبار المناصب يرون حسن الظن ورطة ، على مقدار ما يرون سوء الظن عصمة . واغلب الظن أن عبد الناصر رأى فى تصرفى هذا ما يجعلنى موافقا على تصرفات بعض الإخوان المسلمين فى صلتهم بالانجليز .

ولم يكن لمثلى ـ فى شدة حرصه على مجاملة الناس ـ أن يمتنع عن السعى لإغاثة ملهوف ، أو العمل على طمأنة حيران ، بدليل أن الندوة مجتمعة رغبوا إلى ـ ذات يوم ـ فى أن أعمل على إنقاذ الأستاذ يحيى حقى من إخراجه فى حركة التطهير ، التى كانت تتغيا تطهير السلك الدبلوماسى من كل ذى زوجة غير مصرية ، وكان يحيى حقى سفيرا لمصر فى ليبيا يومئذ .

واذكر أننى ذهبت إلى وزارة الخارجية لمقابلة أخى المفضال الأستاذ الدكتور محمود فوزى ، ورجوته أن يستثنى يحيى حقى من هذا القانون . فأجابنى الرجل ـ رحمه الله ـ بأنه لا يعدنى بالاستثناء ، ولكنه يعدنى بأن ينقل يحيى حقى من السلك الدبلوماسى إلى عمل يليق به فى الوزارات التى تحتاج إلى علمه .

وقد نفذ الدكتور محمود فوزى وعده ، ونقل يحيى حقى إلى وزارة الثقافة ، ثم نقل إلى عمل فى وزارة الثقافة لا يناسب كفايته فى سعة علمه وقدرته على صياغة القصص ، التى يعتبرها التربيون وسيلة إلى تربية الأمم ورفع خسيسة الشعوب .

سبّ عبد الناصر فى ندوة

وذات يوم اجتمعنا فى الندوة فى دار محمود شاكر ، ورن جرس التليفون وإذا المتكلم هو يحيى حقى ، وكان يشكو إليه أنه نقل إلى عمل لا يناسبه . فقال محمود

شاكر فى حماسة عمياء ، وما حيلتى يا أخ يحيى فى هؤلاء العساكر الذين يحكمون البلد ، وعلى رأسهم جمال عبد الناصر ابن (الـ . .) وكانت كلمة مع الأسف تستوجب إقامة حد القذف لو كان القانون يأخذ بالتشريع الإسلامى .

ومما تكمل به صورة هذا الموقف الأليم ، أن العمارة التى كان يسكنها محمود شاكر فى الدور الثالث ، كان الدور الأرضى فيها قد خلا من قاطنيه وسكنه أحد رجال المخابرات . ولست أدرى إلى الآن أكان هذا بعلم ، أو بالاتفاق مع الأستاذ محمود شاكر ـ أم كانت مصادفة ـ وكان ضابط المخابرات عنده طبعا كل أجهزة التسجيل فكان يسجل كل كلمة ينطق بها ناطق فى هذه الندوة العلمية ، التى كانت مهوى الأفئدة لكثير من طلاب المعرفة من شتى شعوب أمتنا العربية الإسلامية .

وذات يوم بعد أن انتهى المجلس فى ندوة محمود شاكر هبطت السلم لآخذ سيارتى ، فإذا هى خالية تماما من الاشارات الضوئية ، وكان ذلك أمرا مقصودا ـ بلا ريب ـ وقد غرم السواق المسكين ثمن الفانوس الخلفى الذى لم يكن بالقدر اليسير ـ فما هذا التدبير الصغير ؟ إنه بلا شك تدبير حقود !!

شواين لاى . . حامى الإسلام !!

دعى مجلس الوزراء إلى الانعقاد فى قصر القبة ، وفيما نحن مجتمعون نناقش الأمور بروح الإخاء والمودة ، إذا بالرئيس عبد الناصر يتجه إلى على صبرى مدير مكتبه ، ثم يقول له ساخرا هو شواين لاى كان بيقول فى مؤتمر باندونج إنه حامى الإسلام ؟ فأجابه على صبرى بأن الصين دولة لا صلة لها بالدين .

وقد كانت عبارة عبد الناصر إلى على صبرى تشير إلى أننى كنت كثيرا ما أستقبل وفود الصين فى وزارة الأوقاف ، وكنت كثيرا ما أدعى إلى سفارتهم ، لأننى كنت رئيسا لجمعية الصداقة المصرية الصينية ، كما كان كثير من الوزراء رؤساء لجمعيات صداقة بين مصر وكثير من الأقطار التى فيها مسلمون ، أو التى بين مصر وبينها مصالح متبادلة ، فقد كان فتحى رضوان رئيسا لجمعية الصداقة المصرية الألبانية ، وكان خالد محيى الدين رئيسا لجمعية الصداقة المصرية الروسية ، وكانت هذه الألوان من الصداقات مصلحة لمصر والعرب ، وكانت بتوجيه من الدولة . ومنذ تلك الليلة احسست أن تم تدبيرا حقودا يوشك أن يأخذ طريقه إلى وضع جديد بالنسبة لى شخصيا .

حقيقة حادث المنشية

وقد فاتنى أن ادون فى هذه الصحائف ما لا بد من تدوينه ، إحقاقا للحق



□ المؤلف مع السادات فى طريقهما إلى فندق سيسل بالأسكندرية
عقب حادث المنشية حيث ألقى الباقورى خطبته الشهيرة .

وابطالا للباطل ، وإنصافا للتاريخ الذى تومىء إليه هذه الملامح من الذكريات . وهذا الذى فاتنى ، يتصل بأمر اطلاق الرصاص على عبد الناصر فى ميدان المنشية بمدينة الاسكندرية .

وجملة ما أقرره فى هذا الأمر ، أن الثورة كانت قد دعت إلى حفل يقام فى مدينة الأسكندرية ابتهاجا بجلاء الاستعمار عن مواقعه فى الأرض المصرية الأبية ، فقد كانت هناك آراء ترى أن الجلاء ناقص لا يستحق الاحتفال به وقد كان هذا رأى بعض الوزراء فكان يقول : **شىء من لا شىء** .

وقد كانت هذه الكلمة تغضب الرئيس عبد الناصر ، غضبا ربما حمله على أن يعتبر هذه الكلمة إهانة موجهة إليه فى زعامته ، أو أمانته على الأمانى القومية .

وقد كنت فى تلك الحقبة ألازم فراشى بأمر الأطباء فى حلوان ، فلما وصلتنى الدعوة إلى الاحتفال المطلوب بلغنى - فيما بلغنى - أن الناس يزعمون أننى متمارض حتى لا أشهد ذلك الاحتفال . ولكننى - إتقاء لحدوث أى شىء أو لسوء الأحدوثة -

رايت ان اسافر إلى الاسكندرية مهما يكن السفر شاقا والصحة معتلة ، وعلى حين فجأة جاء لزيارتى فى حلوان الرئيس عبد الناصر ، والمشير عامر ، وصلاح سالم ، وطلبوا إلى أن أصحبهم فى ذلك الاحتفال ، لأن عدم وجودى فيه قد يسر العدو ، ويسوء الصديق .

وقد دعانى الرئيس عبد الناصر لمصاحبته فى سيارته مع المشير عامر ، وقد قضينا ليلة أو ليلتين فى استراحة الوزراء التى كانت منزلا للأمير يوسف كمال على شاطىء استانلى باى برمل الاسكندرية . ثم لما دنا موعد الاحتفال ، ذهبنا إلى ميدان المنشية ، وجلسنا فى شرفة الدار المستأجرة مقرا لهيئة التحرير فى الاسكندرية ، وقد كان يجلس فى الشرفة الاخ ميرغنى حمزة وزير الزراعة السودانى ، وعلى مسافة قصيرة كان يجلس الحاج عبد الناصر والد الرئيس ، وإلى جانبه المشير عامر . وقد جاء إلى صلاح سالم ، واسر إلى كلمة لم افهم لها معنى ذلك أنه قال : انا سوف أخطب فى هذه الليلة وسأقدم الرئيس عبد الناصر ليخطب ، ولكننى لابد أن أشتم الاخوان المسلمين ، وأذكر للناس عيوبهم الكثيرة التى لا يعرفها غيرى » .

فقلت له : اتق الله يا صلاح ، وأنت رجل ثائر ، فعليك تبعة عملك فى القول أو السلوك .

ولم اكن اتصور أن ميدان المنشية يتسع لهذه الألوف ، الذين جىء بهم من كل مكان .

ثم قام عبد الناصر يخطب وبدأ - كعادته - يذكر بالثورة ، وما ناله الشعب على يدها من العزة والكرامة ، والحرية والاستقلال ، وقد كان يرتدى قميصا استقر فى جيبه العلوى قلم أحمر ، وما أن بدأ يتكلم حتى انطلقت رصاصات أصابت احداها سكرتير هيئة التحرير فى الاسكندرية ، فنقل بعدها إلى مستشفى المواساة لانقاذه واستخراج الرصاصة من بطنه .

وقد ولَّد احتكاك القلم الأحمر بجيب القميص بقعة حمراء تخيل لمن يراها أنها بقعة دم نشأت عن إصابة الرئيس .

وقد رايت والد عبد الناصر يقوم على قدميه ثم يسقط إلى الأرض ، وهو يستمع إلى ابنه صارخا ، وهو يقول : إن قتلت ، فقد قتل عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، ولكننى إذا قتلت ، يجب أن يتذكر المواطنون أننى منحتهم الحرية والعزة والكرامة ...

واثناء هذا الصراخ ، رايت من واجبى أن أقوم ، وأن اعتنق الرجل لتهدئته ، وهو يقول : سيبنى يا شيخ أحمد سيبنى يا عبد الحكيم ، فقد كنا أنا وعبد الحكيم

نقوم إلى جانبه حتى لا يستبد به اليأس ، ويسقط على الأرض مغشيا عليه ، ولكن الله سلم .. إنه عليم بذات الصدور .

ولست فى حاجة إلى بيان أن حادث إطلاق الرصاص ، مهد سبيلا إلى تشديد الخناق على الاخوان المسلمين ومضاعفة العقوبة لهم ، ومهما كانت زعامة عبد الناصر قد ضعفت فى أنفس الشعب ، وفى كل من لمصر به صلة ، فإن الزعم بأن هذه الحادثة مدبرة ، لا يقول به إلا أحد رجلين : أن يكون هو نفسه شريكا فى تدبير الاعتداء أو أن يكون من الذين يحرصون على أن يقذفوا بالغيب من مكان بعيد .

وإلا فإن مما جرت به الشائعات فى كل مكان ، أن الدليل على تدبير الحادث ، خطبة ارتجلها وزير الأوقاف - الذى هو أنا - فى حفلة المحامين فى فندق سيسيل فى نفس الليلة التى وقع فيها الحادث ، وقد قال كلاما لا يصدر عن ارتجال ، ولكنه يصدر عن اعداد وتنقيح ، وراع هؤلاء السادة أن تلك الخطبة انتظمت بيتين من الشعر أشاروا كثيرا إليهما مع أن هذين البيتين لا يجهلهما أحد من طلاب التخصص فيه ، وهما :

تمنانى ليلقانى أبى ووددت وأينما منى ودادى
أريد حياته ويريد قتلى غديرك من خليلك من مرادى

والذى يعرفه الناس عن الاخوان المسلمين ، أنهم لا يدعون فاتكا بهم ، أو ناصبا نفسه لمعاداتهم ، حتى يأخذوا بثأرهم منه ، وعلى هذه الطريقة ساروا ، فأطلقوا عليه الرصاص فى ميدان المنشية وهو يخطب الحشد الحاشد فى الميدان .

وقد يكون هذا الجانى من الذين تخرجوا من مدرسة الاخوان المسلمين ، وقد يكون مغررا به رجاء ثواب أو خوف عقاب . ومهما يكن الأمر ، فإن هذه الطلقات ، مهدت السبيل إلى مزيد من تعذيب الاخوان تعذيبا لا يصبر عليه إلا الصابرون .

وأيا ما كان الأمر ، فإننى أعتقد - عن يقين - أن كثيرا مما أصيب به الاخوان من تعذيب وتنكيل ، إنما كان من أجل تجاهلهم ادب رسول الله فى الحديث الشريف : « لا تتمنوا لقاء العدو ، فإذا لقيتموه ، فاثبتوا » .

تخلف عبد الناصر عن حفل قران ابنتى

أحب أن ألفت الحراص على دقائق التاريخ إلى أن تخلف الرئيس عبد الناصر عن شهود حفل عقد قران ابنتى ليلى ، كان موضع حديث الناس فى كل مكان ، وقد

حمل كثيرا من أصدقائى فى داخل مصر وخارجها على أن يجيئوا إلى ليسألونى عن السر فى هذا التصرف غير المفهوم !

وقد صحب هذا التصرف فى نفسى موجة من الأسف أو الغضب أو الندم على موقفى من عبد الناصر ، ودفاعى عنه فى كل مكان من المحيط الهادى شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا ، ومن البحر الأبيض شمالا إلى المحيط الهندى جنوبا .

كان من شأن هذه الألوان من الأسى والأسف أن تلزمنى الفراش ، فجعل زملائى من الوزراء يزوروننى كثيرا فى منزلى فى مصر الجديدة غير أن **السيد أحمد حسنى** وزير العدل ـ آنئذ ـ جاءنى صباح يوم الثلاثاء العاشر من فبراير سنة ١٩٥٩ وفيما كنا نتحدث حول شئون الوطن العامة ، رن جرس التليفون ، فإذا المتحدث هو **السيد محمد أحمد** مدير مكتب رئيس الجمهورية ، وقد أخبرنى بأن الرئيس يحب أن يقابلنى فى منزله الساعة الثامنة من مساء اليوم نفسه ، وبعد فترة قصيرة لا تجاوز خمس دقائق ، اتصل بى مرة ثانية ، وقال أرجو أن لا تتأخر عن الموعد ، وأن يكون حضورك فى الساعة الثامنة بالضبط . ومع تكرار رنين التليفون سألنى زميلى وزير العدل عن السبب فى هذا الالحاح ، فأجبته بأن الرئيس يريد مقابلتى فى تمام الساعة الثامنة مساء فصمت قليلا ، ثم قال : رأيى أن لا تذهب ، وعذرك واضح لأنك مريض ملازم للفراش .

ولم أستطع أن التمس لهذه النصيحة وجها صحيحا ، فأمسكت عن القول ، وانصرف الرجل عن المجلس فى انتظار أخبار ربما كان يعلمها من قبل ، لأنه كان صديقا حميما لعبد الحكيم عامر .

وفى الموعد المحدد ذهبت لمقابلة الرئيس ، فوجدت فى مدخل منزله ابنيه عبد الحميد ، وعبد الحكيم ، وقد كنت تعودت من قبل أن اداعبهما اكراما لهما أو لوالديهما فيهما ، ودخلت المكتب وبعد فترة قصيرة جاء عبد الناصر وصافحته كما هى العادة ، وبعد فترة صمت طويل بدأ الحديث فقال مبروك زواج ليلى ، فأجبته ، ولكن هذه البركة كانت ناقصة لعدم حضورك بعد أن كان الحرس الجمهورى قد انتشر فى حديقة منزلى ، وفى الحدائق المجاورة منذ الصباح الباكر ، فلما جاء الميعاد انتظر المدعوون جميعا حضورك كما تعودت ذلك مع كل الزملاء ، فلما لم تحضر دهش المدعوون دهشة حملتهم على الانصراف أسفين .

فقال لى ـ فى لهجة صادقة ـ أنا فعلا كنت مصرا على الحضور لولا ما بلغنى عنك من حضورك مجالس تنتقد الثورة التى أنت علم من أعلامها . وأنت لا يخفى عليك أن الشعب إذا رأى مسئولا ينال من الثورة ، فإن ذلك يجعل الناس كلهم يرتابون فيها ، أو يرتابون فى حسن صلته بها ، وقد رفعوا إلى فى تقريرات أن بعض الاخوان

المسلمين فى سوريا ، وفى سائر الأقطار العربية كانوا يبعثون إليك أموالا لتعين أسر الاخوان المسلمين .

فأجبته بأن ذلك كان أيام محنة الاخوان قبل الثورة بثلاث سنوات على الأقل ، وهذا صحيح ، ولكن ذلك شىء والتآمر على الثورة مع الاخوان ، وسائر الحاقدين شىء أخر .

ولم يجب على هذه الكلمات فرجوته أن يأذن لى بورقة اكتب فيها استقالتى من الوزارة ، ولكنه أجابنى بقوله ، أنت تعرف حد استقال عندى قبل كده !

ثم وقف ايذانا بانتهاء المقابلة ، فقلت له وقد وقفت فى مواجهته ـ إننى أعتقد أن لى عليك حقا لا يختلف عليه الناس ، وقد أبلغوك عنى ما أنت أعلم به منى ، فرجائى أن تبحث عن كل ما تريد البحث عنه ، فإن وجدته صادقا ، فأرجوك باسم الوطنية أن تحاكمنى محاكمة علنية لأدافع عن نفسى هذه الأكاذيب الملفقة ، وإن لم تجد فرجائى إليك باسم الوطنية أيضا أن تكون الحقيقة إكبر همك ، فأنا وأنت زائلون ، وحرام أن ندمر مصر ونزعزع الثقة فى أقدار رجالها . فقال لى فى شبه مزاح وانا كمان لى عندك طلب ، أن لا تحرج الحكومة ، وتخرج إلى الجمعيات وتجيب الدعوات ، فإن كثيرا من الناس سوف ينتهزون الفرصة ويجعلون منك بطلا للنيل من الثورة ، والخروج على النظام .

فأجبته لك على عهد الله أن الزم بيتى مختارا تحقيقا لرغبتك ، وهذه كلمة رجل ، فلن أخرج من دارى إلا إذا دعوتنى للخروج . وكان المفروض أن تكون سيارتى أمام باب المكتب داخل الحديقة كما كان يحدث دائما ، ولكنهم احتجزوها خارج المنزل لأمر لا أعرفه ، فأمر الرئيس أن تدخل السيارة حتى باب المكتب ـ كما كانت العادة ـ ثم خرج يودعنى حتى ركبت السيارة ، وانصرفت إلى دارى ، وانا لا أكاد أصدق ما حدث ، ولا أتصور ما سيحدث .

وقد وقع فى نفسى أننى خارج من الوزارة ، وأن هناك مؤامرة مدبرة لذلك الخروج ، فرايت من الحق على أن اخلو فى حجرة نومى بالأستاذ محمد سعيد الدسوقى السكرتير الثانى فى وزارة الخارجية الذى كان قد عقد قرانه على كريمتى ليلى منذ خمسة أيام ، وقصصت عليه ما حدث بينى وبين الرئيس ، ثم قلت له : اسمع يا بنى إنك رغبت فى مصاهرتى وأنا وزير ، ومبلغ علمى أننى تارك الوزارة ، وقد أحللتك من الارتباط الذى تم بيننا ، فتصرف فى هذا الأمر بتمام حريتك وتقديرك لمصلحتك .

ولكنه بدل أن يتكلم بكى بكاء شديدا ، جعلنى أستشعر اشد الندم على حديثى

إليه بهذه الصورة فى هذا الموضوع ، ثم قال لى فى صوت مغيظ يا عمى أنت تعرف اننى متمسك بليلى بنت الشيخ الباقورى مش بنت وزير الأوقاف ، وقد عقدنا القران وانا مقتنع بها .

الاســتقالــة

وفى صباح يوم الاربعاء الحادى عشر من فبراير سنة ١٩٥٩ م نشرت الصحف نبأ قبول استقالتى من الوزارة ، فتوافد المواطنون على دارى ، وفى مقدمتهم الدكتور طه حسين عميد الأدب العربى ، ومنصور باشا فهمى امين مجمع اللغة العربية ، والدكتور محمد كامل حسين مدير جامعة عين شمس . وقد كان من غرائب المصادفات أن يجتمع فى حجرة الاستقبال هؤلاء السادة المصريون ، وهيئة السفارة الصينية فى القاهرة الذين انتهزوا وجود الدكتور طه وراحوا يتناقشون معه - عن طريق التراجمة - حول منزلة الدكتور وأدبه فى الصين .

فلما فرغ الحديث ، وانصرف القوم صعدت إلى حجرة نومى لأستريح من كثرة اللقاءات وأجراس التليفونات ، فإذا اخى خالد محمد خالد جاء ثم جلس معى على الأرض بعد أن فرغت من الصلاة ، وبدأ حديثا لا انساه ما حييت .. وقد تجلت السكينة فى وجهه وهو يقول : لا تنزعج من هذه التصرفات الحاقدة التى تهاجمك فى كل مكان ، فإن اللقيمات التى بذلتها للمحتاجين ، لتأخذ مواقعها فى الدفاع عنك حقد الحاقدين وتربص المتربصين ، ولا - والله - لن يضيرك الله أبدا .

وقد اخذت هذه الكلمات من خالد موقعها فى نفسى ، تدافع عنى غيظا اليما من أولئك الذين تصرفوا معى ، ومع ابنتى فى أيام عرسها هذه التصرفات التى لا تليق بالكبار فى حال من الأحوال . وكنت كثيرا ما أتمثل ما دافعت به عن عبد الناصر ، وفى طليعته ليلة الاعتداء عليه فى ميدان المنشية فى الاسكندرية سنة ١٩٥٤ وبدأت كلامى بهذا الشعر :

اريـــد حيـــاتـــه ويـــريـــد قتـــلى غديـــرك مـــن خليلك من مـــــراد

حقيبة عمــلات

ولست أنسى ابنى العزيز عبد الوارث الدسوقى ، الذى جاء فى صباح اليوم التالى لاستقالتى مغيظا محنقا ، ثم أخبرنى أن من الإشاعات التى أطلقوها ضدى إشاعة غبية بقدر ما هى مضحكة ، ووجه الإضحاك والغباء فى هذه الشائعة أننى كنت

فى رحلاتى العالمية أحمل معى فى حقيبة يدى عملات مختلف البلاد التى كنت أزورها ، من فرنكات سنغالية ، واخرى فرنسية ، وجنيهات استرلينية ، وكانت هذه الحقيبة تأخذ مكانها فى مكتبى بالوزارة مع مذكراتى ومقالاتى التى كنت اريد ان احتفظ بها ، وقد استولى القوم على هذا كله ، ظانين انه يحمل اسرار تثبت أننى ادبر مؤامرة ضد عبد الناصر .

وكان كل ما فى تلك الحقيبة لا يجاوز ثلاثمائة جنيه فى عملات مختلفة . فقالت الإشاعة : إن عبد الناصر صادر منذ أيام بنك موصيرى ، ولم يعلم أن بنك موصيرى موجود فى حقيبة الشيخ الباقورى !

وبعد انصراف عبد الوارث جاءنى موسى صبرى مندهشا ، واخبرنى أن الإشاعات كثيرة ، وانها مرتبة بحيث تعم أرجاء القطر من الشمال إلى الجنوب فى وقت واحد ، وسألنى عن مال بذلته لبعض اللاجئين إلى مصر من الأشقاء العرب .

وقد أخطأت حملة الإشاعات الطريق إلى الفهم الصحيح . ذلك أننى كنت حريصا على زيارة السيد رشيد عالى الكيلانى زعيم ثورة العراق الشقيق ، وقد زرته ذات يوم فى منزله ، فإذا عنده السيد ساطع الحصرى ، وكان كاتبا عربيا يعتز بالقومية العربية أشد الاعتزاز ، وكان يأخذ على بعض أهل الرأى من المصريين انهم يعتزون بالفرعونية أكثر مما يعتزون بالعربية ، ولذلك لم تجد كتب ساطع الحصرى الرواج الذى يقوم بحاجات رجل كبير . وقد أوصانى السيد رشيد عالى الكيلانى ببذل بعض ما أستطيع بذله من معونات أدبية أو مادية للسيد ساطع ، ففعلت تقديرا لزعماء مقدورين فى بلاد العروبة والإسلام .

وقلت لموسى : إن طلاب الإشاعات يستطيعون أن يجعلوا الحق باطلا والباطل حقا ، ويصنعوا ما يشاءون ما دام غرضهم يتجه إلى الانتقام من أحد دعائم النظام الذى أخذ على عاتقه أن يدافع عنه حقد الحاقدين وتآمر المتآمرين . على أن مصر كانت ـ كما يعرف العقلاء المنصفون ـ ملاذا للعروبة ومعاذا للإسلام ، فهى التى فتحت صدرها مرحبة بالأمير الجليل عبد الكريم الخطابى ، وبالرئيس الزعيم الحبيب بورقيبة ، وبالحاج امين الحسينى مفتى فلسطين ، والقائد عبد الله التل صاحب معركة القدس . بل وكانت تفتح ذراعيها لغير العرب ، وغير المسلمين ، ومنهم « لومومبا » .

فقد كان تصرفى فى أموال الأوقاف ـ من وجهة نظرى ، ومن وجهة نظر الثورة ـ تصرفا يتحرى كرامة مصر ، ويحترم تاريخ مصر فى إيواء اللاجئين واغاثتهم ، وكل هؤلاء الذين ذكرت كانوا يعانون برواتب من الدولة اغلبها من وزارة الأوقاف ، فلا تنزعج يا موسى واطمئن ، وخاصة أننى طلبت من عبد الناصر أن يستخدم كل

امكانياته فى البحث عن أموال لى فى بلد من بلاد العالمين الشرقى والغربى ، وقلت له فإذا وجدت شيئا يقتضى المحاكمة ، فحاكمنى محاكمة علنية لكى أتمكن من الدفاع عن نفسى ، وأبدى وجهة نظرى - وأنا متأكد أنك لن تجد شيئا - وإن لم تجد من ذلك شيئا ، فمبلغ علمى انك لا ترضى السكوت على الظلم ، وترتيب هذه الحملة لاطلاق الشائعات التى ستنال من النظام كله قبل أن تنال من شخصى ، ولهذا فإننى ملازم دارى لا أبرحها ، حتى تخرجنى منها بقرار كما طلبت منى أن ألزمها بقرار .

رجال لم يتخلوا عن زيارتى

ومادام الأمر أمر ذكريات للتاريخ ، فان مما لا استطيع التغاضى عنه أن اقرر هنا ، أن الذين كانوا يزورونني فى هذه الفترة الحرجة ، لا يكاد يدركهم الحصر ، ولا يتسع لهم صدر هذه الملامح ، من رجال الأزهر ورجال السياسة ، وعامة الشعب ، وكأنهم إنما كانوا يريدون بزياراتهم المتكررة ليل نهار ، أن يكذبوا كلمة جرت على ألسن الناس مجرى الأمثال السائرة ، وهى أن من يخاصمه الحاكم يخاصمه سائر الناس ، تملقا له أو خوفا منه وتقربا إليه . وكذلك كان شأن احرار المواطنين الذين لا سلطان على ضمائرهم الا لله رب العالمين .

وفى طليعة هؤلاء السادة : أخى المهندس احمد عبده الشرباصي ، والزملاء عزيز صدقى ، وجمال سالم ، وسيد مرعى ، وأساتذة جامعة عين شمس : الدكتور كامل ليلة ، والشيخ عيسوى وغيرهم وأساتذة جامعة القاهرة ، وكل من كانت له صلة بوزارة الأوقاف .

وقد كان مجلس هؤلاء يهيمن عليه غيظ كظيم ، ومع ذلك لم أكن آذن لأحد فى هذا المجلس أن يتناول أمرا يتصل بالسياسة من قريب أو بعيد ، فقد كان مجلسنا هذا أقرب إلى الندوة العلمية منه إلى المجالس السياسية .

ولست أرتاب فى أن مجلسنا هذا على هذه الصورة الكريمة ، كان يثير فى أنفس الحاقدين أسفا يأكل القلوب حرقة وندما ، على انهم ألزمونى البقاء فى البيت لا سلطان على لأحد إلا للوعد الذى أعطيته عبد الناصر بأننى لن أغادر المنزل إلا بقرار يوقعه رئيس الجمهورية نفسه .

وقد وفيت بالعهد الذى قطعته على نفسى ، فلم أجاوز عتبة الدار إلا مرتين : إحداهما ، أجبت بها دعوة أخى الدكتور نور الدين طراف إلى مأدبة عشاء فى داره ، والثانية ، كانت اجابة لدعوة وجهها إلى المهندس سيد مرعى إلى عزبته فى الهرم .

وفيما عدا هذين الأمرين ، بقيت ملازما البيت على الرغم من حاجتى الشديدة إلى بعض الاخوة الفضلاء من أطباء الأسنان ، ولكنهم كانوا يتفضلون بزيارتى لعلاج أسنانى فى البيت ، وفى مقدمتهم الأخ الزميل الدكتور ايوب عامر ، والسيدة الفاضلة قرينته ، والأخ الفاضل الدكتور عبد المنعم الرفاعى .

عرض للإقامة فى السعودية

غير أننى أحب أن أقف هنا وقفتين لا أجد عنهما مندوحة ، عرفانا بفضل ذوى الفضل الذين كرم الله بهم بنى الانسان .

وأولى الوقفتين ، تتصل بصديق عزيز كريم هو الأمير منعب بن عبد العزيز ، فقد تفضل بزيارتى فى حجرة نومى ، ومعه صديقى الأستاذ عبد اللطيف الناحل المحامى . وقد دار بيننا حديث طويل افهمنى أن الملك فيصل ـ رحمه الله ـ يرحب بزيارتى للملكة العربية السعودية الشقيقة ، لاجئا سياسيا ، او عالما ازهريا أقوم ببذل مجهود علمى موصول بالمجاهيد العلمية التى كنت أمارسها مدرسا فى الجامع الأزهر الشريف .

ولم يكن يمنعنى من مغادرة مصر إلى المملكة العربية السعودية الشقيقة ، إلا أمر ابتدعته حكومة الثورة ، ابتداعا لم يسبقها اليه سابق فى مبلغ ما أعلم ، ذلك أن هيئة الاستخبارات ـ فى عهد عبد الناصر ـ كانت تعتبر لجوء المصرى إلى أى بلد ، ولأى سبب جريمة تستحق أقصى ألوان العقوبة ، وهى أن يعاد اللاجىء إلى مصر نائما مخدرا فى صندوق ، فربما مات اختناقا ، وربما أدركته عناية الله فسلم ، ولكن إلى حين .

وثانية الوقفتين ، تتصل برجل أوروبى لا تربطنى به رابطة من عقيدة أو مصلحة ـ وقد كان الرجل صاحب فندق « سويس كوتيج » بالاسكندرية وهو ايطالى الجنسية اسمه « روميللوبانتى » ـ وكانت بين أسرتى وأسرته رابطة صداقة قديمة من أواخر الأربعينات ـ وقد جاء الرجل من جنيف حين أنتهى اليه نبأ استقالتى من الوزارة ، وكان حضوره فى ليلة من ليالى فبراير شديدة البرد كثيفة الظلام ، ولما فتح له الباب صعد إلى غرفة نومى ، وفى يده حقيبة ، وعلى رأسه قبعة توحى إلى من يراه أنه قادم من سفر مخوف .

وقد أبلغنى أن الشائعات التى كان يروج لها المرجفون فى مصر ، قد بلغت اوروبا اكلح وجها وابين سوءا ، وأدل على خسة ذوى الأنفس الصغيرة من ذوى السلطان ، ثم قال إن ترويج هذه الشائعات بحيث تغطى مصر ، وكل مكان فية

مصريون فى وقت واحد شيء مدهش يدل على أن هناك جهازا من الحكومة هو الذى يرتب لنشر هذه الشائعات ، وهذا مفهوم للناس عموما ، وقال لن أمد يدى إليك بمال ، ولكننى افتح بين يديك هذه الحقيبة لتأخذ أنت بيدك ما تشاء .

فشكرت له هذا الصنيع ، واغلقت الحقيبة وأجبته بأن معى من المال ما يكفينى .

وانصرف الرجل وقد برق الفجر ، ولا أدرى هل اعتقلوه ، أم تركوه طليقا يذهب حيث يشاء .

مدة تحديد الإقامة

ثم لم أزل الازم دارى مدة خمس سنوات وخمسة اشهر وخمسة أيام ، حتى إذا كان اول أيام شهر يوليو سنة ١٩٦٤ وإذا زوجتى تحضر إلى التليفون ، وكان المتحدث محمد أحمد مدير مكتب الرئيس عبد الناصر ، وقد بدأ حديثه قائلا : عقد قران هدى كريمة الرئيس بعد يومين ثلاثة ، واحنا عايزين نعرف هل إذا دعاك الرئيس تحضر أو تعتذر .

فقلت له إن هدى ابنتى ، وغير معقول ، أن يعتذر انسان عن حضور عقد قران ابنته ، وبعد أن فرغ من المحادثة بدقائق قليلة إذا سيارة الرئاسة تقف بالباب تاركة بطاقة الدعوة .

ولأول مرة بعد الفترة الزمنية الطويلة ، خرجت من بيتى إلى بيت عبد الناصر فى منشية البكرى ، وقد كان الرجل واقفا إلى جانب زوجته يتلقيان التهانى بعقد القران ، فلما ابصرنى مقبلا مع زوجتى نادى : أهلا عم الشيخ أحمدفمددت يدى أصافحه ، ولكنه عانقنى عناقا شعرت معه أن الانسان مهما غفا ضميره ، فلابد يوما أن يفيق .

وقد كان حضورى عقد القران ولقاء عبد الناصر إياى على هذه الصورة الودية ، مثار اشاعات كثيرة ، فمن ذلك أننى مرشح لمنصب يتصل بوزارة الإرشاد فى الاشراف على الصحف والمجلات وسائر دور الاعلام ، ومن ذلك ايضا أننى مرشح لمنصب سفير مصر فى السعودية .

وقد كان لأخى الدكتور محمود فوزى جهد مشكور فى هذا المجال ، إذ كان قد جاءنى ذات ليلة ، وفى عرض حديث عابر سألنى اتحب أن تكون أستاذا فى كلية من كليات جامعة الأزهر الشريف ؟

وقد أذكر أننى لم أجبه بنفى أو إثبات ، ثقة منى بأن هذا السؤال يحتاج إلى جواب متأمل بصير .

فقال : إنك رجل ذو قلم ، والثورة تحتاج إلى أقلام تدافع عنها ، وتسلك الطريق نفسه الذى كنت تسلكه فى كل خطبة جمعة قائما على الاعتزاز بمصر ، والحرص على دعم الوحدة الوطنية ، وما إلى ذلك من كل ما يدل على الاتزان واستقامة التفكير .

وأذكر أننى قلت له : بالأمس جاءنى كثير من المشتغلين بالصحافة ، وخاصة جريدة الجمهورية ، وقد تحدثوا طويلا ، أحاديث ينقد بها بعضهم بعضا ويسفه بعضهم آراء بعض ، يرجون بذلك أن يكونوا موضع ثقتى ، وهذا المنصب الذى رشحتنى الاشاعات له لا يصلحه ولا يصلح له إلا أحد رجال الثورة ، واعتقد أنك توافقنى على ذلك . فصمت الرجل صمتا طويلا فى تفكير عميق ، ثم قال : إن أحب البلاد إلينا وأرفعها منزلة إلى نفسى ونفسك ونفس كل مسلم ، هى المملكة العربية السعودية ، وأنت ـ فى اعتقادى ـ خير من يصلح للسفارة بين مصر والمملكة العربية السعودية الشقيقة .

وفى موازنة قصيرة بين هذه الموضوعات ، تمثل ما لها وما عليها ، قلت له ، لو أننى خيرت ما اخترت إلا الأزهر الشريف الذى بدأت فيه حياتى وعرفت كل شىء يتصل به ، ويمكن من معرفة الفضل لأصحاب الفضل ، ورد الحقوق إلى الذين ظلموا ظلما لعله لا يخفى كله أو بعضه على أخى الدكتور فوزى ، وبعض هذا الظلم ـ مثلا ـ وقع فى مجلس الوزراء على الشيخ شلتوت شيخ الأزهر من وزير الأوقاف الدكتور محمد البهى قرقر ، الذى وصف الشيخ بأوصاف نابية لا يرضاها ذو مروءة ، فضلا عن أن يكون إبنا للشيخ وصنيعة من صنائعه .

قــرار التعيين مديــرا لجــامعة الأزهــر يعلن فى مطــار القاهــرة

وفى اليوم السادس عشر من شهر يوليو سنة ١٩٦٤ كان الرئيس فى مطار القاهرة مستعدا للسفر فى رحلة خارج مصر ، وهناك تحلق حوله الصحفيون ، وراحوا يسألونه عن الأخبار الداخلية ، وفى جملتها الاشاعات التى تدور حول تعيين الشيخ الباقورى سفيرا لمصر فى السعودية ، أو مشرفا على الصحافة ، وقد شرعوا أقلامهم وفتحوا دفاترهم ليكتبوا من فم الرئيس مايقول ، ولكنه لم يشأ أن يجيب . فدعا بمدير مكتبه ، وأمره بأن يحضر القرار الذى كان قد اتخذه منذ ثلاثة أيام ، وهو تعيين أحمد حسن الباقورى مديرا لجامعة الأزهر ، وقد كان يشغل هذا المنصب الدكتور محمد

البهى قرقر ، ولكنه لم يستطع أن يباشر مهام منصبه بسبب كثرة الحاقدين عليه ، والمعادين له من أساتذة الجامعة ومدرسيها وجميع طلابها .

وقد طلب الأخ كمال الدين حسين إلى الرئيس عبد الناصر أن يعين الدكتور عبد المحسن سليمان مديرا لجامعة الأزهر ، ولكنه رفض هذا الطلب قائلا : لن يكون مديرا لجامعة الأزهر إلا أحد أبناء الأزهر .

وفى اليوم التالى لصدور القرار جاءنى أخى المهندس الشرباصى فانتهزت فرصة وجوده معى وطلبت منه أن يصحبنى إلى الجامع الأزهر ، فقال لى إنك الآن مدير جامعة الأزهر ، فليس لزيارة الجامع الأزهر معنى ، وقد فاته - رحمه الله - أن الأزهريين كانت لهم تقاليد يلتزمونها ويحرصون عليها ويعتزون بها ، وكان من هذه التقاليد ، أن كل من يلى منصبا جديدا بأمر ملكى أو قرار جمهورى عليه أن يذهب إلى مبنى الجامع الأزهر ويصلى فى قبلته القديمة صلاة شاكرا لله - تعالى - جليل نعمائه وجزيل عطائه ، فإذا قضى حق هذه التقاليد ، انصرف إلى قضاء عمله الذى وكل اليه ونيط به . ثم أخذنا السيارة إلى الجامع الأزهر الشريف ، وكانت الدراسة فيه قد عطلت بقرار من الدكتور البهى قرقر ، فاختفت حلقات الدرس ثم اختفى - تبعا لذلك - كل ما كان يمتاز به ذلك المبنى المبارك ، فالأروقة لم يعد فيها أهلوها كما كانوا من قبل ، والصبيان الذين كانوا يحفظون القرآن الكريم كانوا يجيئون اليه وهم يقرأون بأصوات مرتفعة تعينهم على الحفظ ، ولكنهم بهذا القرار منعوا من دخول الجامع ، فانصرفوا إلى مكاتب تحفيظ القرآن .

فلم يكن الداخل إلى الأزهر يرى ما كان معروفا له من قبل ، من شيخ جليل قائم فى صلاة ، أو جالس فى قراءة قرآن .

ولست أنسى طالبا من يوغوسلافيا جمع الله له الخير كله فى حفظه القرآن ، لا يسقط منه حرفا ، وفى حسن تلاوته على أحسن ما قرره علم التجويد ، وكان له - مع ذلك - صوت جميل ، لا يكاد يستمع اليه الناس إلا دعا بعضهم بعضا إلى حضور مجلسه ، والاستمتاع بقراءته .

وليس فى وسعى ما كان يعتلج فى صدرى من ألوان الأسى رثاء للأزهر الذى ظل قرونا من الزمان مأمنا للخائفين ومعاذا للعائذين ، يؤمه - فى ليل أو نهار - طلاب العلم أجمعون ، سواء منهم أبناء المدارس المدنية وغيرهم ، من كل مواطن أشكل عليه أمر فى زواج أو طلاق أو إرث أو وصية ، فكان لا يجد لمشكلته حلا إلا على أيدى رجال الأزهر الشريف .

وكانت رؤيتى للأزهر - على هذه الصورة - توحى إلى أن هذا المكان المبارك ،

توشك البركة أن تخرج منه ثم لا تعود اليه ، فلم يقع فى ذهنى سوى بيتين من الشعر تمثلت بهما شديد الأسف عميق الحزن :

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد
وقفت فيها أصيلا لا أسائلها عيت جوابا وما بالربع من أحد .

ثم انطلقت إلى الجامعة التى كانت قد أنشئت فى عهد الدكتور البهى قرقر حيث كان وزيرا للأوقاف ، وقد ابتدأ وجودها بكلية المعاملات الاسلامية ، وكلية البنات .

ومن الانصاف للحق أن أقرر هنا أن عبد الناصر كان قد زار الهند ، وليس فى الهند جامعة تقبل المسلمين إلا جامعة « عليكرة » لأن الهند دولة علمانية ، والعداوة بين المسلمين والهندوس مشبوبة النار مسعورة الأوار .

أصل الفكرة

وكان الرجل واسع المطامع فى زعامة عالمية ، فذكر له بعض الناصحين له ، أن إيفاد المصريين إلى أفريقيا وآسيا ـ للدعوة للاسلام ـ أمر بعيد المنال ، لأن المبعوث المصرى يجب أن يكون ملما باللغة الانجليزية ، إلماما يتمكن به الداعية من الكشف عن حقيقة الاسلام وأسرار التشريع ، وأيسر من ذلك سبيلا أن تستقدم مصر من أفريقيا وآسيا شبابا تعلموا اللغة الانجليزية فى بلادهم ، على أن تنشأ لهم مدينة يقيمون فيها ، ويعنى بأمرهم مدرسون مصريون أزهريون يعلمونهم اللغة العربية ثم يدرسون ـ بعد ذلك ـ فى الجامع الأزهر الشريف ، والذين يمتازون منهم بذكاء يلتحقون بالجامعة بعد أن تطورت تطويرا يعينهم على أن يقدموا لمواطنيهم ـ بعد أن يرجعوا اليهم ـ ما ينتفعون به فى شئون الطب ، أو شئون التجارة ، أو شئون القانون ، وفى الوقت نفسه يكونون قد درسوا وتمكنوا من علوم الاسلام والتشريع .

وقد أذكر ـ وأنا وكيل المعهد الأزهرى الثانوى ـ أننى توليت ـ بتوجيه من الشيخ الشناوى رحمه الله ـ تعليم بنين وبنات من شباب أوغندا ، ولعل بعضهم أن يكون الآن فى مناصب قيادية رفيعة .

وأيا ما كان الأمر ، فإننى جعلت أفكر فى جعل التطوير أوسع أفقا وأعم فائدة ، ورأيت فى الوقت نفسه أن الغاء الدراسة فى مبنى الجامع الأزهر ، عمل غير كريم ، ولذلك تقدمت بمشروع تنشأ به بالإضافة إلى الكليات الموجودة كلية للطب ، وكلية

للزراعة ، وكلية للهندسة ، وكلية للمعاملات الاسلامية ، وكلية للدراسات العربية والاسلامية على أن يكون مقر الكلية الأخيرة فى الجامع الأزهر نفسه ، وأن يكون نظام الدراسة فيها وفقا للنظام التقليدى للأزهر القديم ، وأن تكون المحاضرات فيها موزعة على مختلف ساعات الليل والنهار ، وأن تفتح أبوابها لكل الراغبين فى هذه الدراسات .

وقد كان واستراح قلبى ، وأعدت الدراسة فى الأزهر القديم ، وليستمر الأزهر الشريف فى أداء رسالته المقدسة . . إلى ما شاء الله . . !

....

....

....

رقم الايداع بدار الكتب ٢٣١٤ / ١٩٨٨
الترقيم الدولى ٨-٢١-٠-١٥٧-٩٧٧ ISBN

مطابع الاهرام التجارية القاهرة - مصر